

تاريخ البقاعي

القسم الثاني

محرم ٨٥٨هـ - ذي الحجة ٨٦٢هـ

تأليف

إبراهيم بن عمر البقاعي

٨٠٩ - ٨٨٥ هـ = ١٤٠٦ - ١٤٨٠ م

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد سالم بن شديد العوفي

الأستاذ المشارك

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - بالرياض

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

إظهار العصر لأسرار أهل العصر

تاريخ البقاعي



بسم الله الرحمن الرحيم



سنة ٨٥٨

وفي يوم الثلاثاء مستهل سنة ثمانٍ وخمسين وثمانمائة ، ركب السلطان وسيّر فى الحوش ، وطلع غالبُ الأعيان والأكابر ، فسلَّموا عليه ، وهنّوه بالعام ، وكان صالحا ، غير أن القضاة وافوه في القاعة ، كما جلس فلم يقم لهم ؛ لتعبه من طلوعه في دَرَج الدَّهِيَشه ، ودهليز القاعة ، بعد التّسْيير ، فكثرت الأقاويل في ذلك ، وجزم كثيرٌ من المفسدين بأمراض ألقاها الشيطان على ألسنتهم .

سجن النّحّاس

وفي هذا الحد ، بلغ الخَبَرُ أَنَّ أبا الخير النحّاس خَوّف كثيراً مِن أعيان البلاد الشّامِيّة ، بأنّ السلطان وعده بأنْ يُقْدِمه عليه في هذا القرب ، وعيَّن له بعض المناصِب ، وطلب من كل [ما يعنيه] [١] حاله ، فجمع مالاً ليقدِّم منه للسلطان تَقْدِمة ، فأرسل السلطان بالقبض عليه وسجْنه في قلعـة المـرقب [٢] ، وأخْذِ جميع ما جمع ، والله المسؤول أَنْ يُدِيم ذلك ، فإنه صلاح العباد والبلاد ، فَفُعِل ذلك ، ثم شفع فيه بعده ، بقريبٍ أظنّه دون الشهر فأُطلق .

وفى يوم الأربعاء ثاني محرّم السّنة المذكورة ، لبِس القـاضي قطب الدين

---

(١) غير واضحة في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) قلعة المَرْقَب يُفهم مما جاء في : « التعريف » ، (٢٣٦) ، و « صبح الأعشى » . (١٢/ ٤٦٢ ، ٤٦٣ و ١٤ / ٥٠) أنها من قلاع طرابُلُس في بلاد الشام، وهي إحدى قلاَع الدعوة التي كانت بيد الأسماعيلية .

ولاية الخيضري الخيضري الدِّمشقي الشّافِعي ، محدّث دمشق خِلعة بكتابة سر دمشق ، عن القاضي صلاح الدين خليل ابن السّابق الحموي الشافعي (١) .

موت ابن أصيل وفي ليلة الجمعة رابع الشهر مات شهاب الدين أحمد بن أَصِيل ، أخو ناصر الدين (٢) ناظر الجوالي ، وكان من أجِلاّء الموقّعين عند القضاة في الوثائق ، دِربةً وتَحَدِّياً ، ووجاهة عقل ، وسكوناً ، وشهامة ، وديانة .

موت ابن الفقيه حسن وفي هذا الحد (٣) ، بلغنا أَنَّ الشيخ شمس الدين محمد (٤) بن الفقيه حسن المنزلي الشافعي ، نزيل دمياط مات بها ، وكان شيْخاً فاضِلاً خَيِّراً مُفَنَّناً ، لم يخلف بعده في دِمياط مثله ، رحمه الله .

وفي بكرة هذا اليوم ركِبَ السلطانُ ، ونزل إلى الميدان ، ثم خرج من بابه في ظَهرْ سبيل المؤمني ، وطلع مِن باب السِّلْسِلة ، فسُر الناس بذلك .

ولاية حميد الدين قضاء الحنفية بدمشق وكذا خُشْكَلدي الكويزي وفي يوم الاثنين سابع الشهر ، خُلع على الحميد بن قاضي بغداد ، المشهور بابن أبي حنيفة ، بقضاء الحنفية بدمشق ، عن الشَّيْخ قوام الدين . وعلى خُشْكَلده الكُوَيزي بِدَوَيدارية السلطان بدمشق عن يَشْبُك ، وأعطى يَشْبُك تقدمة ألف في حلب ، ورأس ميسرة عسكرها ؛ وذلك أنه

---

(١) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٧) .

(٢) راجع « هامش ٣ » من (ص ٣٤٢) من القسم الأول .

(٣) في « الضوء اللامع » (٨/ ٢٢٩) في ثالث المحرَّم .

(٤) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٨/ ٢٢٨ رقم ٥٧٠) ، وذكر أنه وُلد في ذي القعدة سنة ٧٨٢هـ بمنية بدران ، ونشأ بها ، وارتحل إلى القاهرة سنة ٧٩٥هـ ، ثم عاد بعد فترة إلى منية بدران واستمر فيها إلى أن مات والده ، فتحول إلى دمياط واستقر بها ، وكان يتردد على القاهرة أكثر من مرة ، وكان فاضلاً خيِّراً ، ثقة كثير التلاوة ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .

بلغ الخبر ، بأن الأمير الكبير رأس الميمنة بحلب على باي [١] المؤيّدي مات ، فأعطى نائب القَلْعة بها آقْ بَرْدِي [٢] الخطفى مكانه ، وأعطى ابن الأقساسي [٣] ، الذى كان حاجِباً ، نيابة القلعة [٤] .

قصة الطواشي فى جباية الدكاكين

وفي يوم الاثنين رابع عشر محرَّم المذكور نزل طواشي من باب الحريم ، من القلعة ، معه امرأة وزوجها [٥] ، فأخبر الطواشي [٨٥] أنّ السلطان رسم لها أن يأخذ من كل دكانٍ دِرْهماً فلوساً ، ودار معها على الدّكاكين يجبي ، فانتشر الخبرُ في البلد ، واستغربه الناس ، ولم يشكُّوا في صِدْقِهِ ، ولم يكن ذلك اليوم حديثٌ إلا فيه ، وإذا هو كذِبٌ على السلطان ، فبلغه الخبر بكرة يوم الثلاثاء خامس عشره ، فطلبهم ، وضرب الطُّوَاشي إلى أن كاد يُتْلِفه ، وضرب المرأة وزوجها ، وأمر أنْ يُطاف بهم في الأسواق على حمار ، وينادى عليهم ، هذا جزاء من يكذب على السلطان ، فكانت من أغرب الأشياء ، وأعجبها [٦] .

وفي يوم الخميس سابع عشر محرّم المذكور ، سافر القطب الخيضري ، كاتب سرّ دمشق .

---

(١) هو : علي بَاي بن طَرَابَاي العجمي المؤيّدي ، الأمير سيف الدين ، من أصاغر مماليك المؤيدي شيخ ، وصار خاصِكِيّاً ، وتامَّر في دولة الظاهر جقمق سنة ٨٤٢ هـ ، ثم نُفيَ إلى حلب ، وترقّى فيها حتى صار أتابكاً سنة ٨٥٤ هـ ، مات في أواخر ذي الحجة سنة ٨٥٧ هـ .

له ترجمة في : الدليل الشافي » (١/ ٤٩١ رقم ١٧٠٥) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٦٩) .

(٢) هو : آقْبَرْدِي الساقي الظاهري جقمق ، صار ساقِياً ، ثم نائب قلعة حلب ، ثم أتابكيّاً ، ثم نائباً لَمَلَطْية ، فمات بها يوم الخميس ٢٥ ذي الحجة سنة ٨٥٩ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٨٠) ، و « الضوء اللامع » (٢/ ٣١٥) رقم (١٠٠٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٥) .

(٣) هو : قاسم بن جمعة القساسي ، الزين الحلبي ، نائب قلعة حلب وأتابكها ، مات في شهر رمضان سنة ٨٦٣ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٦) ، و « الضوء اللامع » (٦ / ١٨٠ رقم ٦١٣) .

(٤) راجع الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٧٧ ـ ٧٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٧ ـ ١٨) .

(٥) في « حوادث الدهور » (٢٠٠) ومعه امرأتان على مكاريَيْن .

(٦) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٠ ـ ٢٠١) .

وصول الحاج

وفي يوم الأحد العشرين من محرَّم هذا ، وَصَل الرَّكْبُ الأول مِن الحجاج إلى البركةِ ، ودخل بعض أَخْفافهم في هذا اليوم إلى القاهرة ، ثم وصل المِحْملُ إلى البركة في يوم الاثنين حادي عشريه ، وفي يوم الثلاثاء ثاني عشريه تكامل دخول الحاج إلى القاهرة ، وأخبروا عن رخاءٍ كثير كان في الحجاز ، في السَّفر والإقامة ، في القمح ، والدّقيق ، واللّحم ، والفواكه ، وغيره من جميع ما يؤكل ، ولم يحصل لهم في الطريق كبيرُ بَرْدٍ ، ولا مطر ، مع أن سَفَرهم صادَف شهر طوبة ، وهو كانون الأَصم ، وذلك قلب الشتاء [1] ، وأخبر [2] الحجاجُ ، أن الشريف بركات أمير مكة .

الكلام في حكم ابن السائح

وفي هذه الحدود قدِم قاضي الحنفيَّة بالقُدُس الشريف تاج الدين بن قاضي القضاة سعد الدين بن الدَّيْرِي ، وجرى الكلام في حكم ابن السّائح ، لأطفال أهل الذِّمة باستمرارهم على دين آبائهم وأوصله بالسلطان ، فعقد فيه مجالِس عِدَّة ، وعظم استبشاع الناس له ، فاشتد الأمر عليه ، وتخلى عنه غالب مَنْ تعصَّب له إلى أن كان آخر ذلك أنْ رسم السلطانُ بإحضار أبيه والشهود عليه بالحكم ، وكُتب المرسوم بذلك ، آخر محرَّمٍ هذا .

الكلام في قصة ابن الرسام

وفي هذا الحدّ أيضاً زاد الكلام في قصة ابن الرَّسّام ، مع قاضي القضاة العَلَم بن البُلْقِيني ، وذلك أنه كانت بنت العلم زوجته ، فطلَّقها في أوائل سنة سبع وخمسين ، وكان له منها ولدٌ سِنُّه نحو عشر سنين ، فأراد أَخْذ ولده ، فلم تمكّنه أمّه ، وبلغه عنها أخبار سيئة ، وأنها تخرج في العدّة ، وتنام في غير بيتها ، فترصد لها فأمْسكها وضربها ، ثم رفع أمره إلى

---

(١) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠١) .

(٢) وردت هذه الجملة في حاشية الصفحة ، مضافة إلى المتن ، إلاّ أن المؤلف لم يتمّها لذا ورد الحديث فيها مبتوراً .

السلطان ، فرسم له بأخذ ولده ، وأرسل طواشِياً انتزعه منها وسلّمه إليه ، فرفع القاضي الشافِعي الأمرَ إلى قاضي المالكية ، الولي السنباطي ، فحكم لها بالحضانة إلى البلوغ ، فأراد ابن الرَّسَام انتزاع الولد ؛ ليسافر به ، فرفع العلم ذلك إلى قاضي الحنفية السّعد بن الدَّيْرِي ، فحكم بمنع والده من السفر به ، فاستفتى ابن الرَّسَّام العلماء فأفتاه كثيرٌ منهم ببطلان هذا الحكم ، وأَنّ جواز السَّفرِ به في هذه الحالة ، أمرٌ مجمع عليه ؛ أمّا عند المالكي فلأنّ مذهبه ذلك في المحضون ، وأما عند الحنفي فلأنه وإن كان يرى منع السَّفر بالمحضون فمذهبه أنّ المميّز غير محضون ، وغير المحضون يجوز السَّفر به ، وقال الحنفي : بل عدم جواز السفر الآن مجمع عليه ؛ لأنّ المالكي لما حكم بالحضانة رفع حكمه الخلاف ، فصار الولد محضوناً بلا خلاف ، وإذا صار محضوناً فحكم الحنفي بمنع السّفر به لكونه محضوناً يرفع الخلاف ، فصار المنع من السَّفرِ به غير مُخْتَلف فيه ، ولذلك نظائر منها : إذا علّق شخصٌ طلاقَ زَوْجته التي لا يملك عليها إلا طلقة واحدة على صِفة ، واضطر إلى حل اليمين مع بقاء الزّوْجة فخالعها ، وحكم حنبلي بكون الخلع فسخاً لا ينقص عدد الطلاق ثم راجعها ، وحكم شافعي بعدم عود الصفة ، صح ذلك واستباح نكاحها ، وقد جرت عادَة القضاة بفعل هذا كثيراً ، وطال النزاع في هذه المسألة ، وعُقِدت فيها مجالس ينفصل كلٌّ منها عن غير وِفاق ، منها مجلسٌ فى آخر هذا الشّهْر .

ولاية الكافيجي للشيخونية

وفي هذا الحد وصلت كتب شيخ الزّمان الكمال بن الهمَّام ، بأنّه قد حصل له فَتْقٌ ومرضٌ شديد أَوْجَب مجاورته في مكّة المشرَّفة (١) ، وأنّه

(١) في «حوادث الدهور» (٢٠١) ذكر أن ذلك بحكم مجاورته في المدينة النبوية ، بينما اتفق صاحب «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٨) مع البِقاعي ، أنّ مجاورته كانت في مكة المكرمة .

قد رغب عن وظيفة مشيخة الشيخونية (١) ، وسأل أن يوليها السلطان لمن يكون أهلاً لها ؛ وسبب ذلك أنَّ الشيخ محيي الدين (٢) الكافيجي التركماني كان سعى فيها في أوائل سلطنة هذا السلطان ، فلما بلغ الكمال المذكور ذلك مع الحجاج ، وكان مِنْ أعلى النَّاس هِمَّةً ، وأشدهم سكينة ، وأزهدهم في الدنيا ، وأعلمهم بغالب الفنون ، وأقربهم إلى الانقطاع إلى الله ، شرفت نفسه ، وعلت همته عن شيء ينازعه فيه منازع ، فَلَمَّا شاع أنَّ الكمال تركها ، استُدعى الكافيجي ، وساعده الدويداران ، وعارضه ناظر الخاص ، وكاتب السِّرِّ ، وبُرْدُبَك صهر السلطان ، فأتاهم برسالة أمير المؤمنين ، وألح في ذلك ، وركب الصعبة والذلول ، وأطلق لسانه في انتقاص الشيخ وغيره [٨٦] [من] (٣) العلماء ، وادعى أنها منحصرة فيه ، فقال السلطان : لا أنزعها من ابن الهمام أبداً ، كلما عزل نَفْسَه فهو مُوَلًّى ، فألح عليه المساعِدون للكافيجي . فلما وصلت كتب الشيخ

---

(١) راجع « هامش ٥» من (ص ١٧٣) من القسم الأول .

(٢) هو : محمد بن سليمان بن سعد ، أو سعيد بن مسعود محيي الدين أبو عبد الله الرومي الحنفي، المعروف بالكافيجي أو الكافياجي ؛ بسبب كثرة اشتغاله بكتاب الكافيه في النحو ، ولد بككجة كي من بلاد صروخان من ديار ابن عثمان ، الروم ، سنة ٧٨٨ هـ ، ويقول السخاوي في « الضوء اللامع » (٧ / ٢٥٩) : « ومن قال سنة إحدى وثمانمائة فغلط » ، كان إماماً عالماً فاضِلاً بارعاً في العلوم ، ماهراً في الفقه ، والحديث والعلوم العقلية ، انتهت إليه رئاسة مذهبه في مصر ، وولي عدّة وظائف منها : مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومشيخة تربة الأشرف بَرْسباي ، مات ليلة الجمعة ٤ جمادي الأولى سنة ٨٧٩هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٧ / ٢٥٩ رقم ٦٥٥) ، وجاء فيه أن وفاته كانت في جمادي الثانية ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٥١ ـ ١٥٢) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٣٢٦ـ ٣٢٨) .

(٣) إضافة اقتضاها السياق .

كمال الدين ، ولاّها السلطان للكافيجي ، وألبسه خلعةً لذلك يوم السبت [1] سادس عشري محرم هذا ، وقدّم للسلطان قِصّةً رأيت أن أكتبها برمتها ، لتكون دليلاً على ما ادَّعاه ونصها بعد البسملة :
«الداعي الفقير محمدالكافيجي الحنفي يبتهل إلى الله تعالى بصالح الأدعية في صحائف مولانا السلطان المالِك المَلِك الأشرف أعزَّ الله تعالى أنصاره ، وينهى أن الشيخ كمال الدين بن الهمّام استمر المجاوَرَة بمكة المشرَّفة شرّفها الله وعظّمها ، وأعرض عن الوظيفة مشيخة الشيخونية ، وصرّح لجماعته عنها ، وتواتر ذلك بما أخبر به القاضي أفضل الدين والقاضي صدر الدين نائِبا قاضي القضاة الحنفي ، وغيرهما ، وسؤاله مِن الصدقات الشريفة شرَّفها الله وعظَّمها استقرار الدّاعي عِوضاً عنه ؛ بحكم إعراضه عن ذلك وكونه ممن اتّصَفَ بما شرطه الواقف في المشيخة بها صدقةً عليه ، وإحساناً إليه ، إن الله لا يُضيع أجر المحسنين » .

فانظركم في هذه السُّطَيْرات من خطأ ، وعبارة ركيكة ، مع إجابة صاحبها إلى ما سأل !! والسلطان وأخص خواصه لا يريدون ذلك ، لكن أعانه على قصده دعاء الشيخ كمال الدين في تلك المشاهد العظيمة بقطع نصيبه من هذه المدرسة ، كما أخبرني بذلك غير واحد من طلبة العلم ، ثم إن السلطان قال : كم كان معلوم الشيخ في المدرسة ؟ فقيل له : ستة آلاف دِرْهم في كل شهر ، يكون ذلك زيادة على سبعين ألفاً في كل سنة ، فقال رتَّبت له ذلك في الذَّخيرة ، وعجَّلت له ذلك عن سنتين، مع مائة دينار مِن عندي ، فتضاعف دعاءُ أهلِ الخير له ، زاده الله توفيقاً وإحساناً .

---

(١) راجع خ « حوادث الدهور » (٢٠١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨) .

قصة شيخ جبل نابُلُس مع عرب البلقاء

وفي هذا الشهر ، أرسل إسماعيل بن عبد القادر شَيْخ جبل نابلُس إلى نائب القدس ، وإلى نائب الصَّلْت يعلِّمهما أن السلطان رسم أن يسيرا معه إلى إدريس أمير عرب البلقاء ، فيبيتوه ، ووعدهم ليلةً يفعلون ذلك فيها ، ففعلوا ، فقتلوا بعض رجاله ، ونهبوا أموالهم ، وما أفلت إدريس إلا بعد الجهد ، فأرسل إلى السلطان يقول : إن كان هذا لمرسومك فعلى الرأس والعين ، ويُذكر لي ذنبي لأتوب [1] . . اقتص لي من غرمائي ، وإلا ائذن لي في قتالهم ، كما قاتلوني ، فسأل السلطان من إسماعيل ، فادعى أنَّ نائب الشام أمره بقتاله ، فسأل نائب الشام ، فأنكر ، وشهد لإدريس بأنه مظلوم ، فأنكر السلطان على من قاتله .

قصة الزّين الأستادار في عوده

وفي هذا الحد، زاد الكلام فى أمر الزين [2] الإِسْتَدَّار ، فَمِن قائل يُوَلَّى كتابة السّـرّ ، ومن قائل يعود إلى الإِسْتَدَّارِيّة ؛ حتى كادت كلمة الإِسْـتَدَّار [3] تضعف ، فرسم السلطان بِنَفْيِهِ إلى القُدُس ، ونهى أنْ يُشَـيِّعه أحد ، فخرج لذلك يوم الخميس ثاني صفر سنة ثمان وخمسين ، وشيّعه قليل مِن النّاس ، فرسم السلطان بردِّه ، ومن معه ، وما معه ،

صفر

وأخبر السلطان : أنه كتب إليه بعد تأمينه له ، يُخبر أن جهات الإِسْتَدَّارية ليست عاجزة ، وأنّ ابن الأَهْنَاسي كاذِب في ادِّعائه ذلك ، ظالم في أخذه مِن السلطان ما يستعين به على الجامِكيَّة ، وأنه خان في هذه المدّة اليسيرة بعض الجهات في نحو أربعين ألف دينار . قال السـلطان : فُعلم من ذلك أنه ما اختفى وهو قادر على السّداد إلاّ لإتلاف المملكة عليّ ، وأنه

---

(١) هنا ما يقرب من ثلاث كلمات غير واضحة الرسم في الأصل .

(٢) وهو : زين الدين يحي بن عبد الرَّزاق المعروف بالأشقر .

(٣) أي الإسـتَدَّار القـائـم ، وهـو علي البُرد دار بن الأَهْنـاس ، « النجـوم الزاهـرة » (١٦ / ٧٧) .

كان يأكل من هذه الجهة التي قال إنَّ ابن الأَهْنَاسي أَكل منها مالاً كثيراً في جميع هذه المدد التي باشر فيها ، وأقل الأمور أَنْ نأخذ منه ما أقرضناه ، حين ادَّعى العجز ، ورُسِم عليه على ذلك في البحرة ، وعلى من كان معه ، وهما المعين الطرابلسي و .. [1] ابن الوشاقي ، ثم أطلق الطرابلسي ، وأُخذ منه خمسون ديناراً ، واستمر ابن الوشاقي ، وأمره السلطان أن يلي الإسْتَدَّاريَّة فأبى ، فزاد غضب السلطان عليه ، وهدَّدَه بالعقوبة ، فلم يكترث [2] .

وفي يوم الاثنين سادس صفر المذكور ، أُلْبس الأمير علاء الدين ابن الأَهنَاسي الإسْتَدَّار ، خِلْعةً تقوية لأمْره .

وفي يوم الخميس تاسع صفر المذكور ، زاد الكلام ؛ بسبب الإسْتَدَّار ، فقام عليه ابن السلطان [3] ، وصهره بُرْدْ بَك ، وأثخنوا جراحاته ، فرسم السلطان بعصر الزين الإسْتَدَّار ، فَعُصِر إبهام رِجْله ، حَتّى تَكَسَّر عَظْمُه ، وعُصر كعباه إلى أَنْ أُغْمي عليه ، وأُشيع موتُه ، لكن لم يكسر عظمهما ، فَرَقّ له النّاسُ رِقّةً شديدة ، وكان أعظم السّاعين في خلاصه ، ناظر الخاص [4] ، ثم ساعدت خَوَند [5] حتى لم تَدَع لِأحد مقالاً ، ولم تزل تفتل الذين عليه في الذّروة والغارب حتى انحلّ بَرْمُهم؛ فأحضره

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

(٢) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٧٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٨) .

(٣) وهو : المؤيد أحمد .

(٤) وهو : عظيم الدولة ، الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جكم . « النجوم الزاهرة » (١٦/٧٧) .

(٥) وهي : خوند الكبرى زينب بنت البدري حسن بن خاص بك . « النجوم الزاهرة » (١٦/١١١) .

ولاية الزين الإسْتَدَّار

يوم الأحد ثاني عشر الشهر ، فأُتِيَ به في بساط ، فأمره السلطان ، بأن يباشر الوظيفة على عادته ، وقال : ليس عندي إسْتَدَّار غيرك ، ثم أَلبسه خِلْعةً ، وأمر بأن يُرسم عَلَىَ ابن الأَهْنَاسي عنده ، حتى يُسْتخلص منه ما في جهته ، فحصل لكافة النّاس ، من العوامّ والمباشرين وغيرهم ، من السرور ، والاستبشار ما يفوت الوصف ، وَزَيَّن الناس الدّكّاكين ، وكان يوماً عظيماً ، لم يكن للناس كلامٌ إلا في أمره ، وغض الناس من الأمير ناصر الدين بن أبي الفرج ، نقيب الجيش ؛ لكثرة أذاه لزين الدين ، وأكثروا الدُّعاء لناظر الخاص ، وكل من كان سَبَباً في خلاصه ، وطلع العوامّ إلى القلعة ؛ فإنه تَخَلّف بها ؛ لما برجله من الوجع ، وَأَلْبسه السلطان كامِلِيَّة ، من ملابسه ، ليحقق أنّه إسْتَدَّار ، وذهبت أعوانُه إلى بيت ابن الأَهْنَاسي فنهبوه ، لم يدعوا به شيئاً ، وذهبوا إلى دكّان أبيه في سوق الصـّاغَة (١) ، فأخذوا ما بها من نقدٍ ، وكذا مخزن له في حاصل (٢) قَلمطاي .

وفي يوم الاثنين ثالث عشر الشّهْر أُطلق ابن الأَهْنَاسي بواسطة غالب جماعة السلطان ، منهم صهره بُردْ بَك ، ورسم أن يردّ إليه ما أُخِذَ منه ، إلاَّ إنْ ثبت أنَّ في جهته للديوان شيئاً .

---

(١) سوق الصاغة : ذكر (المقريزى) أنه تجاه المدارس الصالحية ، بخط بين القصرين وقد كان مطبخاً للقصر يُخرج إليه مِن باب الزهّومة ، وهي الآن وقف على المدارس الصالحية ، وقفها الملك السعيد بركة خان المسمَّى بناصر الدين محمد والد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري على الفقهاء المقررين بالمدارس الصالحية .

« الخطط » (٢ / ١٠٢) .

(٢) الحاصل : جاء في « محيط المحيط » (١٧٣) الحاصل ، المخزن ، وهي لفظة مولّدة .

موت حماة السلطان

وفي أواخر [٨٧] هذا اليوم ، ماتت حماة السلطان ، أمّ زوجته ، وكانت مزاحمة المائة ، ثم صَلّى عليها مِن الغد ، في باب النّصْر أميرُ المؤمنين ، ودُفنت في تربة بني خصبك ، خارج باب النّصْر ، إلى جهة سيدي حسين الجاكي ، وحضرها الأمراء ، والقضاة ، وجمع كثير من الفقهاء والأَعيان ، وأخرج قدَّام جنازتها صدقة على عادة الأكابر .

وفي يوم الثلاثاء هذا ، وهو رابع عشر صفر المذكور ألبس الإسْتَدَّار خِلّعة ونزل إلى بيته ، ونزل معه المباشرون ، وبعض الأمراء ، وكان يوماً مشهوداً ، ثم أتى من شَـيّعه من المباشرين ، والأمراء إلى تربة أم خَوَند ، وبات القُرَّاء على قبرها تلك الليلة .

موت أبي البركات الغراقي

وفي يوم الأربعاء نصف صفر المذكور ، مات الإمام الفاضل المفنن أبو البركات [١] محمد بن محمد بن محمد بن على بن يوسف الغراقي الشافعي، وكان رأساً في الفرائِض والحساب ، قلّ من كان يساويه في ذلك ، مشارِكاً في بقية الفنون ، كثير الاشتغال ، شديد التّواضع ، حسن العشرة ، حُلْو النّادِرة ، فكِه المحاضرة ، من أعاجيب الدَّهر في ذلك ، وناب في القضاء للشرف يحيى المناوي ، وصُلِّي عليه في الجامع الأزهر ودُفِن في ناحية تربة الشيخ سليم [٢] ، وحضر جنازته كثير من الطَّلَبة والأعيان، وعظم تأسّف الناس عليه ، وبكاؤهم لفقده ، ودعاؤهم له .

---

(١) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٩ / ٢٥٣ رقم ٦٠٥) .

(٢) تربة الشيخ سليم : ذكر (السخاوي) في « الضوء اللامع (٩ / ٢٥٥) ، أنها تقع خارج باب البرقية .

ولاية عبد العزيز الصغير الحسبة

وفي هذا [١] اليوم ولي عبد العزيز بن محمد الصُّغَيِّر (بالتّصْغير مثقلاً) وظيفة الحسبة ، عن علي بن الشهاب [٢] أحمد الكاشف ، وأظهر النِّداء في أسواق البلد ، أنه لا مشاهرة [٣] ، ولا مجامعة [٤] ، ولا غير ذلك من أنواع الغرامات والكشف بعد ثلاثة أيام ، وقال : ما الدِّرَّة [٥] أنا لا أعرف ما هي ، إنما ضربي بالمقَارِع [٦] ، فخاف منه الباعةُ خوفاً عظيماً [٧] .

عزل ابن امرأة الفيسي عن الولاية

وفي يوم الاثنين العشرين من هذا الشهر ، صُرِف ابن امرأة الفَيْسي عن ولاية الشرطة ، وعاد إليها خَيرِ بَك ، الذي كان أُخذ عنه .

زواجي لبنت البوشي

وفي يوم الجمعة رابع عشري الشهر حَضر بالخانقاه الناصرية [٨] ، من مدينة الخانكة ؛ لتزويج كاتبه بسعادات [٩] بنت الأمام نور الدين

---

(١) راجع « حوادث الدهو » (٢٠٣) .

(٢) جاء في « حوادث الدهور » (١٩٧) أنه علي بن شهاب الدين أحمد الكاشف المعروف أبوه بابن أم خرج ، استقر في الحسبة يوم السبت ٢٩ ذي القعدة سنة ٨٥٧هـ ، ببذل ثلاثة آلاف دينار .

(٣) مشاهرة : جاء في « لسان العرب » (٦ / ١٠١) ، « شاهَرَ الأجيرَ معروفة مُشَاهَرَةً وشِهاراً ، استأجره للشهر . . والمُشَاهَرَة المعاملة شهراً بشهر ، والمُشَاهرة من الشهر كالمُعَاوَمة مِن العام ، ولعل المقصود بها هنا الضرائب ، أو الغرامات التي تؤخذ في نهاية كل شهر .

(٤) المجامعة : جاء في « المعجم الوسيط » (١ / ١٣٥) ؛ « استأجر الأجير جِماعاً ، ومُجَامَعَةً ، أعطاه أجره كل جمعة » وهي أيضاً هنا فيما يبدو بمعنى الضرائب أو الغرامات التي تؤخذ في نهاية كل جمعة .

(٥) الدِّرَّة : هي السوط يُضرب به ، ومنها دِرَّة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، راجع : « محيط المحيط » (٢٧٦) ، و « المعجم الوسيط » (١ / ٢٧٩) .

(٦) المقَارِع : جمع مِقْرَعة ، خشبة يُضرب بها ، وكل ما قَرَعْت به ، وجريدة معقوفة الرأس ، وأكثر ما تكون في كتّاب الصبيان .

(٧) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٣) .

(٨) الخانقاه الناصرية : هي خانقاه سريا قوس التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون .
راجع « هامش ٢ » من (ص ٣٤٠) من القسم الأول .

(٩) هي : سعادات ابنة الشيخ نور الدين علي بن أحمد البوشي (نسبة لبوش من قرى الصعيد) ذكر (السخاوي) في « الضوء اللامع » (١٢ / ٦٢ رقم ٣٧٧) ، أنَّ البقاعي تزوجها بكراً بعد موت والدها ، وقاست معه أنواعاً من الذلّ والفقر ، فطلقها بعد ولادتها منه ، وتزوجها يحيى بن أحمد بن عبد العظيم الخانكي ، ومات معها ، ثم تزوجها محمد بن مزيريع ، يقول السخاوي : « وهي الآن سنة تسع وتسعين [وثمانمائة] حَيَّة » .

البوشي ، كثيرٌ من أعيان القاهرة ، من قضاة القضاة الحنبلي [1] ، ومن المشائخ الأَمين الأقصرائي ، شـيخ الأشرفيـة ، ومحقـق الزّمـان الشـيخ أبو الفضل البجائي ، والعضد الصِّيرامي شيخ البرقوقية ، والولي الأُسْيوطي شيخ الجمّالية ، والشّهاب القاياتي شيخ البيبرسِيّة ، ومن الأمراء بُرْدُ بَك الدويدار صهر السلطان ، والأمير عبد اللطيف الطُّوَاشي مقدّم المماليك كان ، ومن المباشرين الشرف الأنصاري وكيل بيت المال ، والناصر بن المخلّطة ناظر المرستان ، والزّين أبو بكر بن مزهر ناظر الإصطبل ، والبرهان الدَّيْرِي ، والنَّجمْ بن البها بن حجّي والنجم عبد الرحيم بن البارزي ، وأبو الفضل خطيب المسجد الحرام ، والشيخ علي العجمي وغيرهم من الطَّلبة ونوَّاب القضاة ، ومشائخ الفقراء الأخيار ، وهو أوّل نكاح حضره أعيان القاهرة بالخانكة ، وقام بضيافة الأعيان فيه عنِّي المحب بن الأشقر ، ناظر الخانقاه ، وكان يوماً مشهوداً كثر فيه السرور ، جعل الله عاقبته إلى خير ، وقَرَنه بالتوفيق والإحسان المؤدي إلى سعادة الدُّنيا والآخرة آمين .

ثم جُليت عليَّ ، وزُفّت إلىّ في ليلة الاثنين سابع جمادي الأولى من السَّنةِ وكان أيضا ذلك أمراً مشهوداً ، قال أهلُ الخانكة : أنه ما اتفق مثله قطّ في كثرة الأطعمة ، واجتماع نساء أعيان البلد ، وعدم دخول رجل وقت الجلا إلا أن يكون زوجاً أو مَحْرما ، وفيها أنزل الله عليه من السكون ، والجلالة ، والمهابة ،فلله الحمدُ ومن عجائب هذا الأمر المبشّر بهنأ العيش ودخول الجنَّة إن شاء الله تعالى ، أن ميعادي في الجمعة التي عُقد فيها العقد ، كان في قوله تعالى :

---

(١) وهو : عز الدين أحمد الحنبلي ، استقر قاضي قضاة الحنابلة في مصر يوم السبت ٩ جمادي الأولى سنة ٨٥٧هـ ، بعد وفاة قاضي القضاة بدر الدين بن عبد المنعم .

«النجوم الزاهرة» (١٦ / ٦٧) .

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ، يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [1] ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [2] الآيات ، وفي جمعة الدّخول في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [3] الآيات ، ورأت هذه الزَّوْجةُ في منامها ظهر يوم الأربعاء خامس شعبان سنة ثمان وخمسين المذكورة ، أَنْ جاءها شخصٌ عليه ثيابٌ بيض حسان ، وله شعر يضرب إلى منكبيه ، وعمامته حسَنَة لم تر مثلها في عمائم النّاس ، وهو ملثَّم وفي وجهه مثْل البرق من النّور ، فوقف على بابنا ، وقال : تعالوا . قالت : فلبست إزاري وذهبت معه ، وجئت أنت ورائي ، فذهب بنا غير بعيد ، ثم فتح باباً ، وقال : ادخلوا . فدخلنا إلى بستانٍ فيه من جميع الأشجار، التّفّاح ، والكمثرى ، والنّبق ، وغير ذلك ، وفيه مياه تجري يميناً وشمالاً في غير أخدود ، وعلى الأشجار طيور ، لم تسمع أَحْسَن من أصواتها ، وإذا مشينا كانت الثمار على رؤوسنا ، وتربة أرضه صفراء كالزّعفران ، ولها ، ولأشجاره ، ورياحينه من الرّوائح ما لم يُرَ مثله فانتهينا إلى مكانٍ منه ، فطلعنا فوق شيء كأنه السَّرير ، فجلسنا متكئين ، وكانت الثّمار على رؤوسِنا ، فشرعنا نقتطف ، ونأكل ، وكأنّها ظنّت أنّا نرجع إلى بيتنا . فقالت لي : خذ لنا من هذه الثمار. فقال ذلك الرّجل : أنتم لا تخرجون من ههنا ، وكنّا لما دخلنا إلى ذلك المكان دفع إلينا ثياب بيض

---

(١) الزخرف / ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الزخرف / ٧٠ .

(٣) محمد / ١٥ .

وخضر ، وقيل لنا اخلعوا ثيابكم ، فارموا بها ، والبسوا هذه ، ففعلنا ثم جاءنا ذلك الرجل بعد يسير قالت : فكلمته أنت بشيء . فقال : الساعة تأتيكم النّاس ، واستيقظت ونحن على تلك الحال ، حقق الله ذلك آمين .

يوم السبت خامس عشريه لبِس الزّين يحيى بالإسْتَدّارخلعة بإسْتَدّارية المَقَرّ الشريف الشهابي سيدي أحمد بن السلطان عز نصره [١] .

وفي هذا الحد مرض قاضي الشّافعية العلم البُلْقِيني بالدّوْخة ، فأرسل إلى السلطان ، يشكو من ذلك ، فَرَسم له أن يستمر راكباً إلى جامع القلعة ، ففعل ، وصار ذلك له عادة ، وكان الظاهر جَقْمَق ، قد رسم لقاضي الحنفية السَّعْد الدَّيْرِي ، بأن يطلع راكِباً إلى الدَّهِيْشَة لشيخوخته وعلمه ، فصارا يركبان في القلعة من بين القضاة .

قصة سالم الحنبلي

وفي يوم الثلاثاء ثامِن عَشْرِيّةِ ، ورد الخبرُ من نائب حلب [٢] ، أَنَّ القاضي مجد الدين سالماً الحنبلي قَتَل عبدَ الرحمن بن قاضي عنتّاب [٣] ؛ لأنه أُدّعى عليه عنده عليه بكلمات كفرِيّة ، وأنه قتل ولده ، وجاريته ، فحكم بكفره وأراد قتله ، فذكر عبدُ الرحمن أنّ بينه وبين القاضي ما يمنع حكمه فيه ، وذكر أشياء من الخصومات المشهورة بينهما بتلك الدِّيار ، فمنعه النائب مِنْ قتله إلا بطريقه الشَّرْعي ، واجتماع القضاة على ذلك ، فأخذه من السِّجن ليلاً إلى بيتـه وخنقه ، وأخـرجـه في مستهل صفر ميّتاً

---

(١) وذلك عوضاً عن العلائى علي بن الأهناسي ؛ بحكم عزله .
راجع « حوادث الدهور » (٢٠٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٨) .

(٢) وهو : قانِبَاي الحمزاوي .
« حوادث الدهور » (٢٠٣) .

(٣) عنتاب : جاء في « معجم البلدان » (٤ / ١٧٦) « قلعة حصينة ، ورستاق بين حلب وأنطاكية ، وكانت تُعرف بدُلوك ، ودُلوك رستاقها ، وهي الآن مِن أعمال حلب » .

على رأس حَمَّال ينادي عليه ، هذا جزاء من يكفر بالله ، وأقل جزائه ، ثم ألقاه على باب دار السَّعَادة ، فغضب السلطان من ذلك ، وطلب القضـاة ، وفاوضهم في ذلك ، يوم الأربعاء تاسع عشريه ، فأجمعوا على خطأ القاضي ، واتفقوا على قتله ، فكان ذلك من أغرب الأمور ، أن يجزم بقتل غائب ، بكتاب نائبٍ من نوّاب البلاد من غير أن تعرف حجّته على تقدير صحة الإنهاء ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ، وذهب القاصد لرفعه إلى القلعة ، لينظر ما يفعل فيه ، ثم استفتى السلطان القضاة ، فكتبوا خُطُوطَهم بأنه يُقتل إنْ كان قتله عدواناً، فكانت هذه أَدْهى وأمر، وشاع أن القضاة أفتوا بقتله ، وجّهزت مراسيم بذلك ، ثم جهزت مراسيم بأن يضرب كلّ شاهدٍ شهد عليه خمسمائة ، فكانت هذه القضية من أغرب القضايا أولاً وآخِراً ، وسِرّ هذا الخباط فيها ؛ أن ناظر الخاص [1] كان شديد البغض في كاتب السّـرّ ابن الشحْنة، شديد الحب لأهانته ، ثقيلاً عليه ولايته ، عزيزاً عليه اتصاله بالملك ، ورأى أن غرض نائب حلب إهانة سالم ، وأنّ السلطان يُراعي نائب حلب ، وأنّ ذلك على خلاف غرض ابن الشّحْنَة . لأمرين : الأول أنه خلاف الحق ، الثاني أن سالماً من محبّي ابن الشحنة ، وابن قاضي عتّاب من أعدائه ، فقام في ذلك أشدّ قيام، وشمّر فيه عن ساعد الجدّ، وكشف القناع على أنّ زَنْدَقة ابن قاضي عتاب بلغت حَدَّ التواتر ، وجاءت كتبُ أهل الخير من حلب بتحسين ما فعل سالم ، من ذلك كتاب شخصٍ يُقال له عبد الرّحمن بن داود ، شابٌّ نشأ في عبادة الله ، والاشـتغال بالعـلم، والتحـلي بخـلال الخيـر،

---

(١) وهو : جمال الدين يوسف بن كاتبَ حجَكَم .

« النجوم الزاهرة » (١٦ / ٧٧) .

فكتب إلى كاتب السّرّ ما نصُّه ومن خَطّه نقلت : « هو الله الحق البصير ، العَظمة لك ، والبقاء لوجهك ، يا ولي التوفيق ، وقاصم كل كافر وزنديق ، عز مجد ربنا وجل ذكره ، وتقدس كماله ، ولا إله غيره ثم ليعلم سيدنا شيخ الإسلام أيّده الله ، أنّ أهل الحق ، من أهل حلب قاطِبة شكروا الله سبحانه سروراً بمقتل عَدُوّ الله المارق من دين الإسلام ، الذي قد شاع وذاع بين من يعرفه من المسلمين زندقته واستخفافه بالجناب الإلهي ، والشّرْع المحمّدي ، ولله الحمدُ والمِنَّة على ظهور الدين الحنيفي ، ونفوذ أمره ، والله أكبر على كل متكبر يطغى في دين الله ، ويطعن أو يحط من قدره ، ونَبْرأ إلى الله من خاذلي الأحكام الشّرْعِيّة ، وناصري رهط الضلالة على أهل العصابة الإيمانية ، استرسالاً مع حظوظ نفوسهم المدنّسة ، وإباءً عن الانتصار للشريعة المقدّسة ، ومع ذلك يزعمون أنهم سَلْم لك ، وحربٌ لأعدائك ، كذبوا والله ، فإنّهم لا عهد لهم ، فالله الله يا سيدي إلا ما دحضت حجج الباطل بسيف الحق » .

ثم رسم بتجهيز مِثَال [1] إلى نائب حلب ، بأن يضرب كل واحدٍ من الشهود الذين شهدوا عَلَى ابن قاضي عنتّاب خمسمائة عصا [2] .

وفي يوم السبت ثاني شهر ربيع الأوّل قَدّم عبد العزيز بن محمد الصّغَيّرَ المحتسب للسلطان ست عشرة فرساً ، منها ثمان كاملة اللبوس الحربية ، ونحو عشرين قفصاً لم أعلم ما فيها ، ولبس ابن البشيري [3]

---

(١) مِثَال : كتاب .

راجع « صبح الأعشى » (٦ / ٢٠٠ ، ٢٠١) .

(٢) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٣ ـ ٢٠٤) .

(٣) هو : حمزة بن الصاحب سعد الدين إبراهيم بن بركة البشيري ، ولي نظر الاهراء ، والمواريث ، والدولة في أوقات مختلفة ، مات في ذي القعدة سنة ٨٧٤هـ وهو مختف .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٣/ ١٦٣رقم ٦٢٣) و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٠٢).

خِلعةً بنظر الدولة عن التاج الخطير [1] [٨٨] وفي ليلة الاثنين [2]

مولد السلطان

حادي عشر شهر ربيع الأوّل مِن السَّنة ، وهي سنة ثمانٍ وخمسين وثمانمائة ، عمل المولد النَّبوي للسلطان ، وحضره الأمراء والقضاة والأعيان على العادَة .

غضب تمراز

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرة ، غضب تِمْرَاز الدويدار الثاني ، وطرد النقباء ، ورأس نوبتهم عن بابه ، وترك الطلوع إلى الخدمة ؛ وسبب ذلك أنه كان بينه وبين اثنين من أكابر الجند شركة في قريتين بالغربية ، نفيه وأبْشيه ، فَقَبَض على بعض فلاحيهما ، وأهانهم ، فاعترض عليه رفيقاه ، فطلب قسمة كلٍ من البلدين بينه وبينهما ، فلم يجيباه إلى ذلك ؛ خوفاً مِن أَنْ يتغلب ما يختص به من الفلاحين على من يختص بهما ، فتَخْرب حصتهما وتخاصما في ذلك بحضرة السلطان ، فحسَّن السلطان كلامهما ، فعز ذلك عليه . ولما انقطع عن الخدمة ، أتاه المباشرون كلهم ليستَعْطِفوا خاطره ، فأخْفَى نفسه منهم ، ثم تردَّدُوا إليه وهو يخفى نفسه ، ويقول أتباعه : إنّه في الرَّبيع ، ثم ذهب إليه الدويدار الكبير ، فقيل له مثل ذلك ، فقال : إن لم يخرج إليّ هجمت على حريمه ، حتى أنظر هل هو في البيت أو لا ، فخرج إليه ، فلم يزل به حتى طلع به إلى السلطان ، فأصلح بينهم ، بأن أعطاه أحسن البلدين ، وجعل لصاحِبَيْه في الخزانة مثل ما فاتهما ، إلى أن ينحل من الإقطاعات ما يوازي ذلك فيعطيه لهما .

---

(١) في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٩) الخطيري ، ولم أعثر له على ترجمة فيما وقفت عليه مِن مصادر .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٠٤) و « في يوم الأحد عاشره عمل السلطان المولد بالحوش على العادة » .

سفر الاسْتَدَّار

وفي هذا الحد توجّه الإسْتَدَّار إلى ناحية بِلْبِيس ، وأرسل مَنّ جنده مِنْ بَيَّت محمد بن عبيد المشهور بالفضل ، في مظَنّاته ، فلم يظفروا به ، وقبضوا على جماعة قالوا إنهم مِنْ جماعته ، وقبضوا على جماعة من مشائخ العربان ، ودخل بهم يوم الجمعة ، ثم ضرب مشائخ العربان يوم السبت سادس عشره ، لعدم تضييقهم على الفضل ، وتحصيله ، ورفع بعضهم إلى البرج .

موت الشريف النشابي

وفي ليلة الثلاثاء تاسع عشرة ، توفي الشريف عمر بن [أحمد بن يوسف] (١) العبَّاسي الحلبي النشابي (٢) ، عن أكثر من سبعين سنة ، وكان اسْتاذاً في صنعة النُّشاب (٣) ، لم يكن في زمانه مثله ، مع الدِّين المتين ، والكرم ، وملازمة الرِّباط (٤) في ثغر دِمْيَاط ، والمواظبة على أفعال الخير وتلاوة القرآن والاعتزال عن الناس ، مع محبتهم فيه وتعظيمهم له ، لا سيّما الأجناد ، لا سيّما الأكابر منهم ، وكانت له حظوة كبيرة عندالظاهر جَقْمَق وجماعته .

نزول السلطان إلى خليج الزّعفران

وفي هذا اليوم (٥) سَيّر السلطانُ إلى خليج الزَّعفران (٦) ، ثم رجع من باب النصر ، وشقّ بين القصرين ، فكان ذلك مِن الخوارِق الـدَّالـّة

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « عنوان الزمان » (مخطوط) (٣٦٦) ، و « الضوء اللامع » (٦ / ٧٣) .

(٢) له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٣٦٦ ـ ٣٦٧) ، و « الضوء اللامع » (٦/ ٧٣ رقم ٢٤٨) .

(٣) النُّشّاب : جاء في « محيط المحيط » (٨٩٢) ، هي السهام مأخود من النشوب ، الواحدة نُشّابة ، كما جاء في « صحيح الأعشى » (٢ / ١٤٢) النَّبْلُ ما يُرمى به عن القِسِيّ العربية ، والنُّشاب ما يُرمى به عن القِسِي الفارسية .

(٤) الرِّباط : هو ملازمة ثغر العدو ، أو أن يَرْبط كل من الفريقين خيولهم في ثغره ، وكلٌّ مُعِد لصاحبه .

« محيط المحيط » (٣٢٠) .

(٥) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٧٨) في يوم الثلاثاء ٢٦ ربيع الأول .

(٦) خليج الزعفران : يفهم مما جاء في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (١ /١٩٥) أنه يقع عند قبة باب النصر بالقرب من المطرية .

على قوة ثباته ، ومتانة عَقْله ، وأَصالة رأيه ، ومن ثمرات إغضائه في مثل قضية تِمْرَاز الدويدار الثاني ، وإضرابه ، ودخل إلى القلعة من حيث خرج من الباب الذي إلى جانب الحوض ، الذي دون باب المدرّج ، وكان يَوْماً مشهوداً (١).

قصة سليمان البحيري واسلال السلطان على القضاة

وفي العشر الأخير ، مِن هذا الشهر أُطْلِع السلطانُ على عَوَار (٢) في قضية للذي كان قاضي المِحْمل الحجازي في هذه السّنة ، فسأل عنه ، فقيل إنه نائب للقاضي الشافعي ، ثم ذكرت له أحوال نُوَّابه في الكثرة الزائدة عن الحد ، والجهل والدناءة ، ثم وقع شخصٌ يُقال له سليمان البحيري ، كان الظاهر جَقْمَق جعله إماماً بالقصر وقرَّبه ، وهو غير مستحق للقرب ، فاتُّهم في هذه الأيام بسرقة أمتعة نفيسة لزوجته ، وأنه واطأ على ذلك جارية زنجيَّة عتيقة ، فادّعِىَ عليه عند يونُس (٣) الدويدار الكبير ، فأنكر ، وادّعى أنه لا يعرف هذه الجارية بوجه من الوجوه ، ثم أنه رُفع أمره إلى بعض نُوَّاب القضاة ، فحلف على نفي ما وسموه به ، وخلص ، ثم ذهبت الجارية إلى دِمْيَاط فتبعها ، وأراد بيعها هناك ، فاستغاثت بالنّاس ، فصادفه من كان حاضراً ما اتفق له عند الدويدار ، فحدَّث نائب دِمْيَاط بذلك ، فوضعه في زِنْجير ، ثم جهّزه إلى الدويدار ، فأعلم السلطان به ، فتأثّر لذلك ، فشكا إليه الوالي خَيرِ بَك أنّ المتهمين ، يذهبون إلى القضاة ، فيقنعون منهم بالأيمان ، ويحكمون بعدم معارضتهم إلا من الشرع وأن أحكام أهل السياسة تعطّلت لذلك ، وشكواه من كثرة نوّاب القضاة وتهافتهم ، فأمر بأن يعرضوا عليه [٨٩] ،

---

(١) راجع الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٧٨ ـ ٧٩) . و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر ١٩).

(٢) عَوَار : جاء في « محيط المحيط » (٦٤٣) ، العَوَار الخرق والشّق في الثوب والعيب .

(٣) راجع « هامش ٣ » من (ص ٣٠) .

فعزل الشافعي أكثر نوّابه ، وأما الحنفي فتصلّب ، وقال : لا أعزل من نُوَّابي أحداً ، فلما طلع القضاة يوم الأحد مستهل شهر ربيع الآخر لتهنئة السلطان بالشهر ، عاتبهم في أخذهم من بيوت حكام السياسة ، فبادر الشافعي إلى إنكار ذلك ، وسأل الدويدار الكبير ، هل أخذ من عندك غريماً قط ؟ فقال : أكثر من ثلاثين مرة ، فنقلهم كاتب السّرّ المحب بن الشّحْنة إلى كلام آخر ، شغلهم به عن الخوض في هذه القضية ، وانفصل المجلس على ذلك .

شهر ربيع الأخر

وفي أوائل هذا الشهر ، أطلق أُزْبُك صهر الظاهر جَقْمَق من الصُّبَيْبَة ، وأُمر به إلى القدس .

عقد المجلس لابن السائح

ولمّا كان يوم الأربعاء ، رابع الشهر عقد مجلس في الصّالحية بالقضاة الأربعة ، لابن السائح بدر الدِّين حسن ؛ بسبب حكمه الماضي في أيتام أَهل الذِّمّة ، فأجمع الأربعة على أَنَّ هذا الحكم غير صحيح ، ولا جائز ، واعتذر الشافعي له ، بأنّ مراده عدم التعرّض لهم بما يؤذيهم ، وعلى هذا يكون صحيحاً ، وأنّ الموقّعين كتبوا عنه ما لم يُرِدْه ، وأيّد ذلك بأنه لا يُظَنّ بمسلم أن يقصد ظاهر قول الموثقين أنه حكم باستمرارهم على دين آبائهم ، اليهودية والنَّصْرانية ، وشنّع عليهم جماعة من أتباع الحنفي من أهل القدس ، بأن العادة جرت ، بأن يحكم القضاة باسلام الكُفَّار ، وهذا حكم بكفر المسلمين ، فصاح عليه العوام ، وأرادوا رجْمه ، ثم عُقد له مجلس بحضرة السلطان بكرة يوم الخميس من الشهر ، فقيل فيه نحو من ذلك ، وانفصل المجلس على عزله من النيابة في القدس ، ونقْض حكمه ، وإرسال مرسوم إلى الحنبلي بالقدس ، ليحكم بإسلام كل من حكم بكفره ، وقال السلطان : انظروا شكله ، هل يكون حكمه إلا مناسباً لشكله ،

وكان شكله في غاية القباحة ، كَوْسجاً (١) ، منفخ العينين ، سمج الوجه ، كبير العمامة ، رقيع البشرة ، قصير القامة . وكان من المتعصّبين له ، القائمين معه الدويدار الكبير يونُس ، وكان ممن أفتى له ، أنّ حكمه صحيح ، الجلال (٢) المَحلّي ، ويحيى المناوي ؛ لأجل الدويدار رجا أنْ يحضر عقد المجلس بحضرة السلطان ، فيكون سبباً بميل السلطان إليه ، بعد أن أُفتي بالبطلان ، وكان قد قرّر الدويدار (٣) مع نقيب الجيش (٤) أن يُحضر كل مَنْ أفتى بالصّحّة فلم يفعل ذلك ، وكان اجتماع القضاة في الصّالحية بغير علم الدويدار ؛ فانحرف لذلك ، فلما أتاه قاصد

---

(١) كَوْسَجاً : جاء في « محيط المحيط » (٧٩٧) ، « الرجل صار كَوْسجاً ، الكَوسج الأَثَطُّ وهو الذي لحيته على ذقنه لا على العارضين ، قال الأزهري : لا أصل له في العربية ، وقال بعضهم : معرَّبٌ ، وأصله كَوْسَق أو كوسة ، والعامَّة تقول : كُوْسَا ، وقيل : هو عربي مِن كسج الرجل أي لم ينبت له لحية » .

(٢) هو : محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن هاشم ، الجلال أبو عبد الله بن الشهاب أبي العباس بن الكمال الأنصاري المحلي الأصل ـ نسبة للمحلّة الكبرى من الغربية ـ القاهري الشافعي ، ويعرف بالجلال المحلي ، ولد في مستهل شوال سنة ٧٩١ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، واشتغل في عدة فنون : التفسير ، والحديث ، والفقه وأصوله ، والعربية ، والفرائض ، والحساب ، والمنطق، والجدل ، والمعاني ، والبيان ، والعروض ، كان إماماً علاَّمة ، محققاً ، نظاراً ، مفرط الذكاء، اشتهر ذكره، وبعد صيته ، وقُصد بالفتاوي من الأماكن النائية ، مات بعد أن تعلل بالإسهال صبيحة يوم السبت أو الأحد مستهل سنة ٨٦٤هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٢٠٩) ، و « الضوء اللامع » (٧ / ٣٩ رقم ٨٢) ، و«حسن المحاضرة » (١ / ٤٤٣ ـ ٤٤٤) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٤)، و «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٦٧ ـ ٦٨) ، و « شذرات الذهب » (٧ / ٣٠٣ ـ ٣٠٤) .

(٣) كان الدويدار الكبير في هذه الفترة يونس السيفي آقْبَاى نائب الشام ، أما الدويدار الثاني فهو تِمْرَاز الإينالي الأشرفي) .

راجع « النجوم الزاهرة » (١٦ = ٧٣ ، ٧٥) .

(٤) وهو الأمير ناصر الدين محمد بن أبي فرج .

راجع « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٧٦) .

نقيب الجيش فأخبره بما اتفق بحضرة السلطان أمر به ، فبُطح على الأرض ، وضُرب ، وكان شبهة المَحَلِّي ، ومن تابعه في الإفتاء بالصِّحة ما في باب اللقيط [(١)] من الروضة [(٢)] وغيرها في الجهة الثالثة من جهات التبعية ، وهي الدّار ، الحال الثاني دار الكفر ، فإن لم يكن فيها مسلم فاللقيط الموجود فيها محكوم بكفره ، ولو كان فيها تجار مسلمون عاكفون فهل يُحكم بكفره تبعاً للدار ، أو باسلامه تغليباً للإسلام ؟ وجهان أصحّهما الثاني ، وحيث حكمنا بالكفر ، فلو كان أهل البقعة أصحاب ملل مختلفة ، فالقياس أَنْ يجعل مَنْ أَصوبهم ديناً فَشَرْع اللقيط الموجود في دار الإسلام لو ادّعى ذمي نَسَبَه ، وأقام عليه بيِّنة لحقه وتبعه في الكفر وارتفع ما كنّا نظنه ، وإن اقتصر على مجرَّد الدّعوى ، فالمذهب أنه مسلم وهو المنصوص وبه قَطَع أبو إسحاق وغيره ، وصَحَّحَه الأكثرون ، وقيل قولان ثانيهما يحكم بكفره ؛ لأنه يلحقه بالاستلحاق ، وإذا ثبت نَسبُه تَبِعه في الدِّين ، وتمسكهم بهذا غلطٌ صرْف لا ريب فيه ؛ فإنَّ المراد بالحكم في جميع هذه المسائل إسناد الكفر إليهم والإخبار به عنهم من وادي قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ ، وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [(٣)].

---

(١) اللقيط : جاء في محيط المحيط » (٨٢٢) هو المولود الذي يُنْبَذ ، وشرعاً اسم لما يُطرَح على الأرض مِن صغار بني آدم خوفاً مِن العيلة ، أو فراراً من تهمة الزنا .

(٢) وهو كتاب الروضة فى القروع « روضة الطالبين وعمدة المتقين » للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦هـ .

راجع «كشف الظنون » (١/ ٩٢٩) .

(٣) الجاثيـة / ٢١.

وهذا مع اعتقادنا المنع من الكفر ، وأنه يسخط الله ، وأنَّ الرَّامي به ، مستحسنا له كافر .

وأمّا الحكم الذي هو قضاء القاضي فلا يكون إلا في أمر تعتقد صِحَّته وجوازه ، ومما يدل على إطلاق الأصحاب الحكم على نفس التقرير من غير قضاء القاضي ما اختاره السُّبْكي [(١)] في أنكحة الكفَّار إذا أسلموا من أنَّها إنْ وقعت على وِفْقِ الشرع فهي صحيحة ، وإلاَّ فهي محكوم لها بالصحَّة ، ولا نقول أنها صحيحة ؛ لأنَّ الصِّحَّة حكم شرعي أَنْهى معنى محكومٌ لها بالصِّحَّة أنه يُفعل بها مايفعل بالمقضي به من تقريره ، وعدم التّعرض إليه ، ولا نقول أنها صحيحة أي ولا نصفها بالصِّحَّة ، بل نَصِفها بأنها مقرّرَة والله أعلم .

وفي نفس كتاب اللقيط مما يرد عليهم أكثر مما تمسكوا به ، يُعْرف ذلك بالتّأمل الصحيح له مع ما قبله ، وما بعده ، منه قوله في الصَّبّي المميز إذا تكلم بالإسلام : والثالث يصح إسلامه ، وعلى هذا لو ارتَدَّ صحت رِدَّتُه . قلت : الحكم بصحة الرِّدَّة بعيدٌ ، بل غلط والله أعلم . ومنه : وأما ما يتعلق بالآخرة فقال الأستاذ أبو إسحاق إذا أضمر الإسلام كما أظهره كان من الفائزين بالجنَّة ، قال الإمام في هذا إشكال ؛ لِأنّ من يُحكم له بالفوز بإسلامه ، كيف لا يُحكم بإسلامه ويُحاسب عنه بأنّه قد يحكم بالفوز في الآخرة ، وإن لم نحكم بأحكام الإسلام في الدنيا كمن لم تبلغه الدَّعوة ،

---

(١) لعله : تاج الدين بن عبد الوهاب بن علي بن السبكي الشافعي ، المتوفي سنة ٧٧١ هـ صاحب كتاب جمع الجوامع في أصول الفقه ، له عدة شروح أحسنها شرح جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي ، يقول (حاجي خليفة) « وهو شرح مفيد ممزوج في غاية التحرير والتنقيح » .

راجع « كشف الظنون » (١ / ٥٩٥) .

ومنه التَّبعِيَّة في الإسلام ثلاث جهات ، أحدها إسلام الأبوين أو أحدهما ، ويُتَصَوَّرُ ذلك من وَجْهَيْن ، أحدهما أَنْ يكون الأبوان ، أو أحدهما مسلماً يوم العلوق ، فيُحْكَمُ بإسلام الولد ؛ لأنه جزء من مسلم ، فإن بلغ ووصف الكفر فهو مُرْتَدٌّ . ومنه ثم إذا بلغ هذا الصَّبِيُّ ، فإن أفصح بالإسلام تأكّدَ ما حكمنا به ، وإن أفصح بالكفر ، فنقول : إنَّ المشهور أنه مُرْتَدّ ؛ لأنه سبق الحكم بإسلامه جزماً ، فأشبه من باشر الإسلام ثم ارتد ، كما إذا حصل العلوق في حال الإسلام ، والثاني أنه كافر أصْلي ؛ لأنه كان محكوماً بكفره أولاً ، وأُزيل تَبَعاً ، فإذا استقل زالت التَّبعِيَّة ، وكثير من مثل هذا .

سفر نائب جدة

وفي يوم الخميس هذا ، توجَّه الأميرُ جَانِبَك نائب جُدّة إلى جُدَّة ، ومعه تَوْلِية الشَّريف معْزي إمرة يَنْبُع ، فبلغنا أنَّه لما وَصَلَ إلى يَنْبُع بذلك صادف الذي أخذ عنه معْزي قد مات [(١)] .

وفي يوم الخميس هذا ، سافر أيضاً الأمير بُرْدبَك ، صِهْر السلطان إلى الفيّوم ؛ لكشف ما تحتاجه القَنْطَرة التي بها ، وذهب معه الشَّرف الأنصاري ، ويوسف المهندس .

إنزال الفقهاء عن الخيل

[٩٠] وفي يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الآخر هذا ، وهو من سنة ثمان وخمسين وثمانمائة ، تفرّق كثير من الجند في البلد ، فلم يَلْقوا أحداً من غيرهم على فرسٍ إلا أنزلوه عنها وأخذوها ، فإن نازعهم ضربوه ، وكان أكبر ذلك على الفقهاء ، وأشاعوا أن السلطان رسم لهم بذلك ؛ وأنّ سبب ذلك أن بعضهم أراد يشتري فَرَساً ، فزايَدَه فيها بعضُ الفقهاء

---

(١) راجع الخبر في «حوادث الدهور» (٢٠٤) .

زيادة فاحِشةً كان [الجندي إذا] [1] زاد مائـة أو خمسين أو نحو ذلك ، يزيد الفقيه ألْفاً ، فترك الجندي ذلك ، ورفع إلى السلطان ، فرسم بما ادَّعوه ، وجاء النّاسَ هذا الأمرُ على بَغْتة ، فأوْذِيَ بسبب ذلك أكثر النـاس ؛ فأسْفَرت العاقِبةُ عن أنّ ذلك اختلاقٌ على السلطان ، من تدبير أكابر ذوي مَكْرهم، جعلوه مقدِّمة لركوبهم عليه ؛ فأرادوا أن يحرْقوا قلوبَ الناس منه على قِصَر مُدَّته فتجتمع القلوبُ على محبة زواله ، فإذا ركب عليه أحد اجتمع الناسُ على نصْرَته ، وغضب السلطان لمَّا بلغه ذلك غضباً شديداً ، وأمر بِرَدِّ خيول النّاس ، وتهدَّد مَنْ امتنع بالتوسيط ، فَرُدَّ كثيرٌ منها في هذا اليوم ، ثم استمرّ شرهم ، ولكن أخف مما كان ، وقامت قرائنُ تدل على أَنَّ السلطان وقعت منه زلَّةٌ في الإذن لهم ، ثم نَدِم عليها أو لم يندم ، ولكنه أَظهر النُّدم لكراهة نسبة الفعل إليه والله أعلم بحقيقة الحال [2] .

وفي يوم الخميس ثاني عشرة قدِم الأميرُ بُردْبَك ، فأعْلَم السلطانَ بأنّ القنطرة [3] تحتاج إلى إصلاح ، وأنّه يصرف عليها نحو ثلاثة آلاف دينـار، وأن الصَّواب أن يُشْرع في [أمرها] حين هبوط النِّيْل ، ليتم ما يراد من ذلك ، وأَمَّا الشروع الآن فخطأ ، لعدم تمام المقصود قبل ارتفاع النيِّل والخوف على ما يعمل منه .

---

(١) ما بين الحاصرتين غير واضح في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) أشار (ابن تغري بردي) لهذه الحادثة في « حوادث الدهور » (٢٠٥) ، وذكر أنّ الجند ضربوا خلائق مِن الفقهاء والقضاة والمتعمِّمين والأعيان ، وأخذوا خيولهم ، ونهبوا بعض حوانيت القاهرة ، وأكد أن ذلك كان بأمر السلطان .

(٣) ذكر (المقريزى) المتوفي سنة ٨٤٥هـ ، أن القناطر في زمنه بلغت أربع عشرة قنطرة . راجع « الخطط » (٢ / ١٤٦) .

وفي هذا الحد، توجّه والي الشرطة [١] على ركائب [٢] هِجْنٍ [٣] خُفْيَةً، ولم يعلم إلى أيّ شيء توجّه، فذهَبَتْ أَوْهام الناس في ذلك كل مَذْهب، وقالوا: إنّه تَوَجّه نحو قَطْيا، ثم كُشف أمره عَنْ أَنَّهُ ذهبَ لأجل شخص يُفْسد سِكَّة السلطان، كما يأتي، ويضرب الدَّراهم خارج دار السلطان.

وفي يوم الاثنين سادس عشره اجتمع كثيرٌ من جند ظاهرية جَقْمَق [٤] على ناظر [٥] الخاص، فأرادوا ضَرْبَه، فحماه منهم قَوْمٌ آخرون منهم، وتَلَقَّوا عنه الضَّرْب، وقالوا: إنّ سبب ذلك طلبهم أن يبذل لهم السلطانُ ما كان وَعَدَهم به من النَّفَقة، وهو عشرون ديناراً لكل واحد، ثم اجتمعوا على شخصٍ من الأشرفيّة [٦] يقال له بيبرس أمير آخور صغير، فضربوه لكونه لبس سَلاَّرِيّاً، وليست له وظيفة تقتضي، وكان ذلك عند مدرسة السلطان حَسَن، فهرب منهم وهم وراءه إلى أَنْ إلتجأ إلى بيت الأمير بُرْدُ بَك، وهو المجاور لذلك المكان، فدخلوا وراءه حتى وصلوا بخيولهم إلى عند المقعد الذي به، فرأى الناس أنهم افْتَأتوا على

---

(١) وقد يُقال له: والي القاهرة، وهو في هذه الفترة علي بن إسكندر.
راجع «النجوم الزاهرة» (١٦ / ٧٦).

(٢) ركائب: أي الإبل.
«محيط المحيط» (٣٤٧).

(٣) هِجْن: جاء في «المعجم الوسيط» (٢ / ٩٧٤)، الهِجَان مِن الأشياء، أجودها وأكرمها أصلاً، ومِن الإبل البيض الكرام، يستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع.

(٤) أي السلطان الظاهر جقمق.

(٥) وهو: عظيم الدولة الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب جَكَم.
«النجوم الزاهرة» (١٦ / ٧٧).

(٦) أي أتباع الأشرف بَرْسِباي.
«النجوم الزاهرة» (١٦ / ٧٩).

الفقهاء فما أنكر السلطان ذلك إنكاراً يردعهم ، ثم فعلوا هذا فكذلك ، فغلب على ظنونهم أنّ السلطان أغراهم على مثل ذلك لِيَتَضَادَّ الجندُ فيأمن بشغل كل طائفة بأخرى (١) .

وفي هذا الحد (٢) ، ورد الخبر بموت القاضي تقي الدِّين أبي بكر (٣) الأذرَعِي الشافعي في هذا الشهر ، فيما أظن بدمشق عن أكثر من خمسين سنة ، وكان موته فجأةً ، وكان علاّمة في الفقه ، عفيفاً في قضائِه ، نَزِهاً رحمه الله .

ثم ورد كتاب القاضي صلاح الدين خليل بن السَّابق أنّ مَوْتَه كان ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الأخر هذا ، وأَخَذَ وظائفه شخصٌ من أمراء دمشق، يُقال له علاّن ؛ فطرق الفقهاءَ داهيةٌ لم يُطْرَقُوا بمثلها ، ثم أَخَذَها ناظرُ الخاصّ الجمال يوسف بن كاتب جكم، ثم أرسل إليه قاضي الشَّافِعيَّة بدمشق الجمال بن الباعوني بأنه أخذ بعضها وأعطى البعضَ الآخر لبعض أعيان دمشق ، فأجاز لهم ذلك ، وأرسل إليهم مستنده .

وموت الإمام العلاّمة حسين بن يوسف بن علي الخلاطي الأصل العجمي (٤) في مكَّةَ المُشرَّفة ، عن أكثر من ستين سنة ، وكان إماماً عالِماً عامِلاً مُفَنَّناً علاَّمة في عِدَّة فنون .

---

(١) راجع الخبر في : «حوادث الدهور» (٢٠٥ ـ ٢٠٦) ، و «النجوم الزاهرة» (١٦ / ٧٩) .

(٢) في «الضوء اللامع» (١١ / ١٩) في ليلة السبت سلخ ربيع الأول .

(٣) هو : أبو بكر بن أحمد بن سليمان بن داود بن أبي بكر ، التقي أبو الصدق بن الشهاب بن أبي الربيع الأذرعي ثم الدمشقي الشافعي ، ولد سنة ٧٩٨ هـ ، بدمشق ، ونشأ بها ، كان أحد أوعية العلم ، وأعيان النوّاب .

له ترجمة في : «الضوء اللامع» (١١ / ١٩ رقم ٤٩) ، و «بدائع الزهور» (طبعة بولاق) (٢ / ٤٦) ، و «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (١٩) .

(٤) في : «الضوء اللامع» (٣ / ١٥٩ رقم ٦٠٨) ، الخلاطي الأصل الوسطاني ، نسبة لمدينة وسطان من مدائن العراق ، المشهور جده بأخي عبد الله ، وُلد في مدينة وسطان بعد سنة ٧٩٥هـ .

وفي يوم الأَرْبعاء ثامن عشر هذا الشَّهْر ، رجع والي الشُّرْطَة فأسْفَرت عاقِبته عن أَنّه توجّه في طلب شَخْصٍ يضرب الزَّغَل [١] فوجده في قَطْيا، فقبض عليه ، ووجد معه ستين ألف درهم عَدَداً مِنْ ضَرْبه .

وفي يوم الخميس سادس عشري الشهر قابل محمدٌ بن عبيد بن سلامة الوائلي المسماري (نسبة إلى قرية بالشَّرْقِيَّة تُسَمَّى تل مسمار) المشهور بالفضل السلطانَ ، فقبل طاعته وأمَّنَه ، وهذا الرّجل أَحدُ عربان بني وائل من الشَّرْقِيَّة ، وكان خارِجاً عن طاعة السَّلْطَنَةِ ، وهو شجاعٌ بَطَلٌ فاتِكٌ لا يُصْطَلَى له بنار ، مع الشَّكل الحسن ، والقامة التَّامَّة ، رجلٌ شـابٌّ ، مُمْتَلِىء شباباً ، بِلِحْيةٍ حَسَنَةٍ معتدلة حادّة السَّواد ، طويل ممتلىء الجسم ، غير منسوبٍ إلى السِّمَنِ ، أبْيَض اللّون أزهر .

ولم يُنقل عن أَحدٍ من أَهْلِ زَمَانه مثل شجاعته وفروسِيَّته ، ولا مثل عِفَّته وتُؤدَته في عصيانه ، يكون في أَقل من عشرين فارِساً ، فيقصدهم المائة من الترك وغيرهم ، فلا يهرب بل يكون قريباً منهم ، فإذا مشوا للقائهم ، كَفَّ عنهم واجتهد في مناشدتهم في الرّجوع عنه ، فإنْ لم يكفُّوا ، وتحقق منهم الشّـر ، حمل عليهم فشتَّتَ شملهم ، وأباد منهم ، من قَرُبَ إليه أجلُه ويهزم الباقين ، ولا يقطع الطَّريق على أَحَدٍ ، بل عيشه من أنه يقصد البلد ثم يرسل إلى كبيرها أو أكابرها أنّ محمد بن عبيد يطلب ضيافته ، فيرسلون له ما يسمحون به من عشرة دنانير فما فَوْقها ، وربما ضاق عَيْشُهُ ، فيقصد مالاً للإسْتَدَّار ونحوه من الأَعْيَان فيأخذ منـه مـا أراد ، ويقول للموكّلِين به : قولوا للأمير ، محمد بن عبيد أخـذ من مالك

---

(١) الزَّغَل : هو الغش ، والمقصود الدراهم المغشوشة .
راجع « محيط المحيط » (٣٧٣) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٣٩٥) .

كذا [٩١] بسبب الإدلال على صَدَقاتك ؛ لأنه محتاج إليه ، وله من مثل ذلك ما لو كُتِب في مجلد لاحتمله ، وكان له نحو خمس سنين خارِجاً عن الطاعة ؛ وسبب طاعته بعد هذا العصيان المتطاول الزّمن أَنَّ السلطان قبض على جميع مشائخ العرب بالشرقية ، وأهانهم وضرب بعضهم لإيوائه والإحسان إليه عندما يقصدهم ، فصار إذا قصد بعد ذلك أَحَدَاً منهم سأله الخروج من بلاده ، ولم يُحْسِنْ إليه ؛ فَلَانَ لِلطَّاعة ، ثم اجتمع به قاضي الخانكة عز الدين [١] المنوفي فَكَلَّمه في ذلك ، ومشى بينه وبين الإسْتَدَار [٢] بِمَ أوصلوا القضية بالسلطان ، فأَمَّنَه إلى أن حضر في هذا اليوم وسُرَّ الناس بذلك ، وأقام بالقاهِرَة أَيَّاماً ، ثم ردَّه السلطان إلى بلاده بخِلعة حَسَنَة .

موت ابن المخلطة

وفي يوم الأحد تاسع عشري شهر ربيع الآخر المذكور مات القاضي ناصر الدين محمد [٣] بن المخلطة ، أحد أعيان نُوَّاب المالكية ، وناظر المرستان المنصوري عن نيّفٍ وستين سنة ، وَصَلَّى عليه قاضي الشافِعية العلم البُلْقِيني في باب النَّصر ، وحضر جنازته القضاة الأربعة ، وأعيان الناس ، ولم يكن له يد في علم من العلوم ، وكان من قضاة السوء ، لا يحتشم من التصريح بأخذ الرِّشوة على القضاء ، مع نسبته إلى أمور غير ذلك ، مما يُخِلّ بالدِّيَانة والمروءة ، وعِشْقٍ لأذى النَّاس والتهكّم بهم ،

---

(١) هو : محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم ، العز بن الشمس المنوفي القاهري الشافعي ، ناب في القضاء في منوف ، وأبيار ، والأعمال المرصفاوية ، والخانقاه السرياقوسية استقلالاً، واستقر بالتدريس بناصريتها السرياقوسية ، وسافر قاضي المِحْمَل مراراً ، مات في مستهل صفر سنة ٨٧٥ هـ.

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٩/ ٢٦٧ رقم ٦٩٧)

(٢) وهو : على البُرْد دار بن الأَهْنَاسي .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٧٧) .

(٣) راجع (هامش ٦) من « ص ٢٠٤ » من القسم الأول .

وَهَبَّت يوم موته ريح شديدة حارَّة نسَفَتِ التُّرَاب والرّمل ، فأظلم لها الجوُّ واشتدَّ بها أذى الناس ، لا سيّما من حضر جنازته ، ولم يكن مثلها في يوم موت أحد فيما شاهدناه ، إلا ما كان يوم موت البدر الأسيوطى [١] ، كما تَقَدَّم ، فقال بعض الفضلاء : هذه تشبه ما اتفق في غزوة بني المُصْطَلِق [٢] من الرِّيح التي هالت الصَّحَابَةِ رضى الله عنهم ، فقال النبيُّ ﷺ أنها هبَّت لموت عظيم من المنافقين . وخلَّف ولـده القـاضي بدر الدين [٣]، من فضلاء المالكية وعقلائهم ، وسَعَى النّاس في نظر المرستان بالمال ، حتى بذل بعضهم للسلطان نَفْسه ألف دينار ، فأَبى ، وولّاها للقاضي جلال الدين عبد الرّحمن بن القاضي نـور الدين على بـن شيـخ ولاية ابن الملقن

(١) راجع « ص ١٠٥ » من القسم الأول .

(٢) وهي المُريسيع ، والمُصْطَلِق من خزاعة ، واختُلف في زمن وقوعها ، في سنة أربع ، أو في شعبان من سنة خمس ، أو شعبان من سنة ست ، وكان قد بلغ رسول الله (ﷺ) أن بنى المُصْطَلِق يَجْمعون له بقيادة الحارث بن أبي ضرار ، فخرج إليهم (ﷺ) حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له : المُريسيع من ناحية قُديد إلى الساحل ، فهزم الله بنى المُصْطَلِق وقُتل منهم عشرة ، وأُسر سائرهم ، ولم يُقتل من المسلمين إلاّ رجل واحد ،

راجع « سيرة ابن هشام » (٣/ ٢٨٩) ، و « البداية والنهاية » (٤/ ١٥٦ ـ ١٥٩) ، وجاء في « البداية والنهاية » أنه عندما نزل رسول الله (ﷺ) في طريق عودته من هذه الغزوة على ماء فويق النَّقِيْع يُقال له بقعاء هبت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها فقال رسول الله (ﷺ) : لا تخوفوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار ، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع ، وكان عظيماً من عظماء اليهود ، وكهفاً للمنافقين مات ذلك اليوم .

(٣) هو : محمد بن محمد بن محمد بن يحيى البدر أبو الفتح بن ناصر الدين بن العز بن المحيوي السكندري الأصل القاهري المالكي المعروف بابن المخلّطة ، ولد ظناً سنة ٨٢٤ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، برع في فنون مختلفة : التفسير ، والفقه ، والأصول ، واللغة ، والمعاني ، والبيان ، والعروض ، والفرائض ، والأدب ، وأُذن له في التدريس والأفتاء ، جاور في مكة ، وناب في القضاء عن الولي السنباطي ، وولى التدريس بأم السلطان والقمحية والإعادة بالصالحية ، وناب عن أبيه في نظر البيمارستان ، مات ليلة السبت ١٩ ربيع الأول سنة ٨٧٠هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣٤٤) ، و « الضوء اللامع » (١٠/ ٨ رقم ١٣) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٥٨) .

الإسلام سراج الدِّين عمر بن المُلَقِّن [1] من غير سَعْي منه ، بل لصحبة له بالسلطان قديمة ، فحمد النّاس له ذلك ، وأطبقوا على مَدْحه به ، وعظم سرورهم ؛ لعقل ابن الملقن الوافر ، ودينه المتين ، وحشمته الكبيرة ، وخُلِع عليه بذلك يوم الثلاثاء مستهل جمادى الأولى ، ونَزَل بالخِلْعة إلى المرستان ، والقضاة معه ونُوّابهم وغيرهم من أحبابه ، فكان له موكبٌ جليل ، وعدَّها النّاسُ نِعْمَتَيْنِ ، موت ذاك ، وولاية هذا ، نسأل الله له التَّوْفيق والمعونَة . وكان قاضي المالِكِيَّة الولي السِّنْباطي خائِفاً من أنْ يُعزل بابن المخلطة ، فلما طلع في هذا اليوم لتهنئة السلطان بالشهر طلع من باب القلعة ماشِياً على عادِته وطلع الشَّافعي والحنفي راكبين إلى باب القلعة على ما استمر لهما من العادة ، فتمارض المالكي في هذا اليوم ، وأَظْهر ضَعْفاً كبيراً ، فلما هَنَّأوا ابن السلطان ، وكان نازِلاً في أَقْصى الحوش ، وطلب القاضيان بغلتيهما ليركبان من عند باب الدِّهِيْشَة ، طلب المالكي بَغْلَتَه فركب معهما ، ولم يبق فيهم ماشِياً إلا الحنبلي ، وهو العز أحمد بن نصر الله الكناني .

شهر جمادى الأولى

ركوب المالكى فى القلعة

وفي يوم السَّبت خامِس الشهر ، اتَّفَق لدويداريَّ السلطان يونُس الدويدار الكبير ، وتِمْراز الدويدار الثاني أمرٌ ، وهو أنّه كان من أهل ذيبى ، بلد بنواحي ديروط رجل مشهور بالشجاعة والفتك والشّر ، اتّهم

(١) هو : عبد الرحمن بن علي بن عمر بن أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الجلال بن النور بن السراج الشافعي المعروف بابن المُلَقِّن ، ولد في رمضان سنة ٧٩٠ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها وقرأ على علمائها ، باشر وظائف والده عندما توفي بنفسه وهو ابن سبع عشرة سنة ، كالحديث بدار الحديث الكاملية ، والفقه والميعاد بالسابقية ، وناب في عدّة تداريس وكذلك ناب في القضاء ، واستقر به الأشرف إينال في نظر البيمارستان عقب وفاة ناصر الدين بن المُخَلِّطة ، فباشره برفق ولين مدة تقرب من أربع سنين ، مات صبيحة يوم الجمعة ٨ شوال سنة ٨٧٠هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/٣٤٨ ـ ٣٤٩) ، و « الضوء اللامع » (٤ / ١٠١ رقم ٢٨٨)، و « نظم العقيان » (١٢٤ رقم ١٠٢) و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٦٣) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٣١٠) .

بقتيـل ، فشكى عليه بسببه ، واشتد عليه الأمر فيه ، وكأنه كان بريّاً من قتله ، فالتجأ إلى تِمْرَاز فأمَّنه ، فالتجأ أخصامُه إلى يونُس ، فطلبه من تمراز فمنعه منه ، ثم أرسله إليه في يوم السَّبتِ هذا ، فَضَربه بالمقارع وسجنه ، فلما طلعوا يوم الأحد إلى القلعة واجتمعوا لدى السلطان أغلظ تِمْرازُ ليونَس ، ونسبه إلى الحكم بهوى النَّفْس والإعْراضِ عن الشَّرْع ، فنصر السلطانُ يونُسَ عليه ؛ فغضب من ذلك ، وقال : لا حاجة لي بالدويدارِيَّة . فقال السُّلْطانُ : اخرج عَنِّي لعَنَكَ الله ، فنزل إلى بيته فطرد النُّقباء ، وأغلق بابه ، ثم ذهب إليه الأكابر فَتَرضَّوه ، فلم يرض ، وكان من أكابر القائمين في إزالة دولة المنصور، و إثبات دولة هذا ، فقال لناظر الخاص لمَّا ذهب إليه ليترضّاه : هكذا حَظِّي طلع الظاهر [٩٢] إلى القلْعة يوم تَسَلْطَن وأنا آخذٌ بركابه ، وكان حَظِّي عنده ما علمت من النَّفْي والْحَبْس والسَّعْي في إراقةِ الدَّم ، وكان قيامي في نصر هذا الرجل كما علمت ، فكان حَظِّي مِنْه ما ترى ، ثم كثر المتردِّدون إليه مِنْ إخوته ومن غيرهم يسألون أنْ يطلع يوم الخميس عاشر الشهر بلبس خِلْعة باستمراره على عادته ، فلم يجب ، واسْتَمَرّ في بَيْتِهِ مُنْقَطِعاً عن الخدْمَةِ ، يتردَّد إلى القَرَافَةِ وغيرها مما كان يتعهّدُه قبل الدويدارية ، ولم يخرج للقاء نائب الشام [١] ، فاشتدّ غضب السلطان لذلك ، فطلع إليه الأمير جَانَم أخو الأشْرف بَرْسِباي في غير وقت الخدمة يشْفَع فيه ، فازداد غضباً من ذلك وكلَّمه كلاما صَعْباً في ما يتحدَّث فيه الأشرفِيَّة فيما بينهم ، وما يبرمونه له من المكائد ، وأنه تُنْقَل إليه جميعه ، وقال له : هل رأَيت أَحَداً من الأمراء طلع إلى[السلطان في] [٢] غير وقت الخدمة ؟!ونحو ذلك من الكلام ، الذي معناه أنكم لاتنظرون اليّ بعين الإجلال الَّلائق بالملوك . وقـالَ لـه :

---

(١) وهو الأمير آخور الأمير جُلُبّان .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٧٩) .

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

أَقيموا سَنْجَقكَم بالرُّمَيْلة ، فلم يخرج من عنده إلا ساقط القوى ، ثم رسم السلطان بنفي تِمْرَاز ، فَنُفِي يوم الأحد العشرين من الشَّهْر ، ولا يشك هو، ولا أحد أنه ذاهب إلى القدس ، فلما كان في غَزَّة وُضِع في عنقه زنجير وفي رجليه قيدٌ وأرسل إلى صَفَد [١] .

وفي يوم الجمعة حادي عشر الشَّهْر ، تواترت القرائن الدَّالة على أَنَّ نائب الشام جُلُبَّان يصل يوم الأحد إلى الخانكة ، فطلع النَّاس لملاقاته ، ابن السلطان ، وجميع الأمراء ، الكبار والصِّغار ، والمباشرين إلا كاتب السِّـرّ ؛ فإن السلطان منعه لما يعلم من ضعف حاله، وخِفَّةِ ذات يده ؛ لما حصل له في أيام الظاهر مِن المِحَن ، وأقام المُلاَقون ظاهر الخانكاه إلا ناظر الخاص وبُرْدُبَك صهر السلطان فتقدّما إلى بِلْبِيس .

وثار في يوم الأحد ثالث عشر الشهر ريحٌ عاصِفٌ رمى الخِيام وسَفَى عليهم الرَّمل ، وأظلم له الأُفُقُ وقاسوا منه شَدَائد ، وكان قد تواتر مثل ذلك في أيام متعدِّدة في هذا الشَّهْر ، والذي قَبْلَه فأفْسَدَ المقاثي [٢] ، وغلت الخضروات حتى لم تكد توجد .

وفي يوم الخميس طلع نائب الشام إلى السلطان في القصر ، فقام له وأكرَمه ، ثم أمر له بخِلْعة استمرارٍ فأُلْبِسَها ، فلما جاء نهض له السلطان ولم يقم ، فلما أراد الإنصراف قام له ، ثم أنزله في الميدان ، وأجرى عليه الضّيافة ، ثم طلعت تَقْدِمَتُه مائتي فرس وثلاثمائة قفص على رؤوس ثلاثمائة حَمّال ، وطَبَقاً فيه ذهبٌ قيل : إنه أربعون ديناراً [٣] .

---

(١) راجع الخبر في : « حوادث الدهور » (٢٠٦) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٧٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٩) .

(٢) المقاثي : جاء في « المعجم الوسيط » (٢/ ٧١٥) القِثَّاء ، نوع من البطيخ نباتي ، قريب من الخيار ، لكنه أطول ، والمَقْثَاة ، موضع القِثَّاء يزرع فيه وينبت ، والأرض الكثيرة القِثَّاء .

(٣) راجع الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٧٩ ـ ٨٠) .

وفي يوم الأحد العشرين من الشَّهْرِ طَلَب السعد إبراهيم الوزير من السلطان ، أَنْ يُعَيِّنه في الجامِكِيّة ، فسعى الأمين بن الْهَيْصَمَ ، بواسطة الجمال يوسف ناظر الخاص فأجيب .

نفي تمراز الدويدار الثاني

وفي هذا اليوم نُفِيَ الأميرُ تمراز ، الذي كان دويداراً ثانياً ، أرسل إليه السلطانُ نقيبَ الجَيْش ، فأخْرَجه مِن بيته وشَيَّعه إلى الخانكة ، ووكل به من وَصَل معه إلى قَطْيا .

ولاية الأمير بُرْدْبَك الدُّوَيْدارية الثانية حـادي عشـري جمادي الأولى سنة ثـمـان وخمسيـن وثمانمائة

وفي يوم الاثنين حادي عشري الشهر أُلْبِس بُرْدْبَك صهر السلطان خِلْعة بالدويدارية الثانِية ، ولأمين بن الْهَيْصَمَ خلعة بالوزر ، وكان يوماً مشهوداً ؛ لبُرْدْبَك لقربه من استاده ، وتمكنه لديه ولظهور ضخامة ملك استاده بهذه الفعايل والله تعالى المسؤول أن يُقَدمٍّ في ذلك كل خير (١).

وكان قَدِم مع نائب الشّام العِجْل بن نُعَيْر من آل فضل ، وكان قبل ذلك خارجاً يقطع الطّريق ، ويُفسد في الأرض ، وكان أمير عربان آل فضل واحداً منهم اسمه عَسّاف ، فأرسل نائب حلب قانِبَاي الحمْزاوي يخبر أَنّ سيرة عسّاف حَسَنة وأن العربان في غاية المحبَّة والطَّواعِيَة ، والناس معه في خير ، وأنّ سيرة العِجْل سيئة جِدًّا، وربما يحصل من ولايته شَرٌّ ، فحار السلطان بين نائب الشَّام ، ونائب حلب ، ثم رأى أنه لا يُخَيِّب نائب الشام ، فولَّى العِجْل ، وألْبَسه خِلعةً بإمرَة العربان ؛ وذلك لأنّ نائب الشام كان شفع عنده في قانِبَاى الشَّرْكَسِي ليُخْرِجَه من السِّجن فلم يجبه واعتذر له بأنِّي لست مبقيه في الحبْس غَضَباً عليه ، ولكن لأجل الإصلاح ؛ وذلك أنَّ الأمور ليست في غاية الإحكام ، بل

---

(١) راجع الخبر في : « حوادث الدهور » (٢٠٧) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨١ـ ٨٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٩).

الكلام كثير وللمفسدين قصدٌ كبير في اختلال الأمور ، ولقد تكَلَّموا فيك بها لو لم أكن ثابِتاً لجرى ما لا خَيْر فيه ، فإنهم قالوا : إنّك نَدِمْتَ على طلب الحضور ، وأنّك عَزَمْت على العصيان ، فلما توجَّهْت إلى السَّفرِ قالوا : إنّك إذا وصلت إلى القاهرة نَصَبْت الحرْبَ ، وأنَّ غالب الجند قد كاتبوك لذلك ، واتّعد تم له ، فلما وَصَلْت ولم يقع ذلك قالوا : إنّك تجلس في الميدان ليجتمع الجندُ ، ثم تفعل . وأنا أعلم أن ذلك لم يكن منه شيء ، ولاقصد المتكلمين به الا الفساد ، فالحال غير قابل لاخراج مثل قانِباَي وسأُخرجه إن شاء الله تعالى ، وأفعل معه ما يسُرُّك . ثم كلّمه في إعادة المكوس التي كان أبطلها الظاهر ، فاجتمع من دِمشق والقاهرة وغيرهم نحو أربعمائة نفس ، وفيهم الأشراف والأعيان ، وحملوا الرَّبعات وطلعوا إلى القلعة يصْطَرخون ، فأعلم السلطان بهم ، فأجابهم إلى إبطال المكس ، وأنْ يُنْقش [٩٣] ذلك في رخامة ويضعها في جدار دار السَّعادة ، فقالوا : بل في جامع بني أُمَيَّة ، فأجابهم إلى ذلك ، ثم ذهبوا إلى نائب الشام إلى الميدان ، وصاحوا عليه وشتموه ، وأسمعوه غليظ ما يكسره وخذله الله في ذلك ولله الحمدُ ، وسقط من أَعين النّاس بعد أن سقط من عين الله . هذا وقد قارب المائة ، فهو هَرِمٌ لا يكاد يقدر على الركوب .

وفي يوم الخميس رابع عشري الشهر مات القاضي علاء الدِّين بن السائح قاضي الشَّافِعية بالقدس ، فاستقرّ بعده في القضاء البرهان إبراهيم بن الجمال عبد الله بن جماعة .

وفي ليلة الثلاثاء تاسع عشري جمادي الأولى المذكور ضُرِب شخص من أَتْباع الوالي ، وهو مقدّم المقرعة عند خيمة الغلمان ، تحت شبّاك الصالحية بسكّين ، فوقع ميّتاً ، فقيل له وهو بآخر رَمَقٍ من ضَرَبك ،فقال :

فلان من غلمان الإسْتَدَّار فطُلب ، فَوُجِدَ ، فضُرِب ، فأَقَرَّ ، فوسِّط يوم الأربعاء مستهل جمادى الآخِرَة سنة ثمانٍ وخمسين المَذكورَة في الموضِع الذي قَتَل فيه .

وفي يوم الخميس ثانيه لَبِس نائب الشّام خِلْعة السَّفر ، ونزل من القلعة إلى خليج الزَّعفران مُسَافِراً ، فنزل به إلي الظُّهْرِ ، ثم رَحَل[1] .

ولَبِس قاضـي الشَّـافِعيَّة العَـلَم البُلْقِيني خِلعـةً باسـتمراره في القضـاء[2] ، وذلك لأنَّه كان أمِن العَزلَ لطول الأيَّام ؛ لإنه ليس له مِنَ العقل ما يتأمّل به العواقِبَ فردّ شفاعات زوجته امرأة ابن مزهر ، وشفاعات خَوَند ، بل أرسلت إليه تستأجر منه بلداً تحت نظره ، بمثل ما كانت مع غيرها ، فلم يجبها ، وهي التي كانت تساعِده بواسِطة زوجته ، فلما علم من له غرض في أداء ذلك سَعَى للمناوي[3] بثلاثة الآف دينار، فكاد يَتِمُّ أمْرُه ، فعلم الحمْصِى ، وقد كان تكلم له صهره أميرُ المؤمنين[4] مع السلطان ، فلما عَلِم ذلك حصل عنده المُقِيمُ المُقْعِدُ فأرسل إلى أبي السلطان وأمِّه خَوَند ، فتكلَّما في أمر الحمصي بالثلاثة الآلاف ، فابرماه إلى أنْ كاد يَتِمّ ، فَعِلمَ البُلْقِيني ، فاستغاث بناظر الخاص ، فأنِفَ ناظرُ الخاص أن يفعل شىء بغيره ، فسعى في إبطال ذلك ، ولم يزل يُدَلِّس ويتلَطّف إلى أنْ أبطله بألف دينار يعطها العَلَم .

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٨) .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٨) .

(٣) راجع « هامش ٢ » من (ص ٦٤) القسم الأول .

(٤) أي حمزة القائم بأمر الله .

وفي يوم الجمعة ثالثه ، وصلت[1] جثّةُ خليل بن السلطان فرج بن بَرْقُوق ؛ وذلك أنّه كان حِيْنَ رجع مِنْ الحجّ رسم السلطان أَنْ يكون في دِمْياط ، فمات بها في أواخر جمادى الأولى ، ودُفن ، فأمرت أُخْتُه ، زوجة شَرِباش أمير آخور بنقله ، وأَقامت بتربتهم تنتظره ، وعندها النَّوَّاحات ، فَنُبِش ، ونُقِل ، ووصل في هذا اليوم ، فَصُلِّي عليه ودُفِن في تربة أبيه وَجَدِّهِ ، فلا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشّهْر وَصَل عبد العزيز بن معلاق الرَّمْلي ، ناظر القدس والخليل ، وإسماعيل بن عبد القادر ، شيخ جبل نابُلُس ، فقابلهما السلطان بالإكرام وخلع عليهما .

وفي يوم الخميس ثالث عشريّة ، سافر جيش رأسهم جَانَم ، أخو الأشْرَف إلى البُحَيْرَةِ لأجل عربانها[2] .

زيادة البحر

وفيه ، وهو الموافِق لسادس عَشْري بؤونة مِنْ أشهر القبط بُشّرَ بزيادة النيل[3] .

وفي يوم الجمعة رابع عشريَّة ، نادى المنادي ، أنّ زيادة البحر خمس أَصابع ، وكانت قاعدته سبع أذرع ونصف ذراع وإصبع ، وذلك خمس عشرة إصْبعاً ؛ لأن الذِّراع قبل اثني عَشَر ذِراعاً ثمانٌ وعشرون إصْبعاً ، وبعد ذلك أربع وعشرون .

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٨) .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٨) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٠) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٠٨) أنه أُخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة سبعة أذرع وخمسة عشر إصبعاً .

وفي أواخر هذا الشّهر ، وهو جمادي الآخِرَة سنة ثمان وخمسين ، ورد الخبرُ عن قُضاة حلب ، أنّهم لم يجدوا وجْهاً شَرْعِيّاً لقتل المجد سالم الحنبلي ، فأوقع ناظرُ الخاص في ذهن السلطان ، أن هذا من ابن الشِّحْنَةِ لِدَسِّهِ في مراسيم السلطان ما يمنعهم مِن الإقدام ، وإلاّ فلا مانِع من قتله ؛ لأنَّ قضاة مصر قد حكموا بقتله ، وسَمَّى له إفتاءهم حُكْماً ، فغضب السلطان لذلك، وأمره بالكتابَة بقتله ، فقال : على حكم الشَّرْع وما أفتى به العلماء . فقال : نعم ، فكتب بذلك ، فلم يرض به ناظرُ الخاص، فأمر بتغيير المرسوم ، فغُيِّرَ مِراراً ، وهو لا يُرْضي ناظر الخاص، وفي آخر الأمر قال ابنُ الشِّحْنَةِ : هذا يأبىٰ يكتب الذي يريده مولانا السلطان، وترك عنده المعين [1] بن الشَّرف الأشقر، فكتب لهم ما أرادوا، وكانوا أوقعوا في ذِهن السلطان ، أن قَتْل الزِّنديق الذي قتله سالم مع منع نائب حلب له مِنْ ذلك ، وأنّ نائب حلب شديد الحنق عليه ، كثير الطّلب لقتله ، ولم يكن ذلك صحيحاً ، وإنما المُريد لذلك كاتب سِرِّ حلب؛ فهو يكتب على لسان نائب حلب ما يريد، ثم إنّ

---

(١) هو : عبد اللطيف بن أبي بكر بن سليمان بن إسماعيل بن يوسف بن عثمان بن عماد المعين أبو اللطائف بن الشرف بن العلم ، الحلبي الأصل القاهري الشافعي ، المعروف بابن الأشقر ولد في سنة ٨١٢ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وحفظ عدة مختصرات ، له مشاركة في الفقه والعربية ، وكتب الخط المنسوب ، وبرع في صناعة الإنشاء ، وباشر التوقيع بالقاهرة ، واستقر مكان أبيه في نيابة كتابة السر بالقاهرة سنة ٨٤٤هـ ، مات في ٤ شوال سنة ٨٦٣هـ .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (١ / ٤٢٦ رقم ١٤٧٢) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٦)، و « الضوء اللامع » (٤ / ٣٢٥ رقم ٨٩٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٦) .

كاتب سرّ دمشق القطب الخَيْضري [1] ، كتب عن نائب الشّام ، أنّه اطَّلع على أنّ قتل سالم للزنديق ما كان إلا بأمر ابن الشِّحْنَة ، وكان الخَيْضِري أَحَدَ عبيد ناظر الخاص ، فعلم أَنَّ ذلك منه ، ولم يزالوا يُغَيِّروا خاطر السلطان إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس شهر رجب الفَرْد ، فعزل المحب بن الشحنة من كتابة السّـرّ ووليها المحب بن الأشْقر ، بواسطة ناظر الخاص، والدويدارَيْن، فاشتدّ غضبُ ابنِ السلطان [2] من ذلك؛ فإنّ ولاية ابن الشّحْنة كانت بسببه ، وكان لهم أو لبعضهم سوابِق في معارضته ، وتردّدَ إليه المذكورون للاستغفار ، فلم يزده ذلك إلاّ حنقاً ، وكلّم كّلاً منهم على انفراد كلاماً غليظاً ، وأبدى بعض وُجْدِه للسلطان، وقال : يا مَوْلانا السلطان ، قد نظرت أحوال أولاد ملوك هذه البلاد ، فلم أر أحداً منهم أصاب بعد أبيه خيراً إلا نادِراً ، فأنا عِزّي إنما هو في حياتِك ، فإذا لم تنفـذ لي كلمـةٌ في صـاحـبٍ أُريدُ رعايَتَـه ، فكيف يكون

عزل ابن الشحنة

---

(١) هو : محمد بن محمد بن عبد اللهبن خَيْضِر بن سليمان بن داود بن فلاح بن ضُميدة ، القطب، الخَيْضِري الزُّبيدي البلقاوي الأصل الترملي الدمشقي الشافعي ، ولد في ليلة الاثنين منتصف رمضان سنة ٨٢١ هـ ببيت لهيا من دمشق ، ونشأ بها ، أقبل على الحديث ، وأكثر من السماع ، ولازم الحـافظ بن ناصـر الـدين فَتَنَّبه بـه ، ثـم لازم ابن حجـر وتخـرج ، ألـف « شـرح ألفـية العـراقي » ، و « الخصائص النبـوية» ، و « طبقات الشافعية » و « شرح التنبيه » ، و « الأنساب » ، و « البرق اللموع في الخبر الموضوع » وغيرها ، ولي قضاء الشافعية بدمشق ، وكتابة السر بها ، ومات في ربيع الأول أو ربيع الثاني سنة ٨٩٤ هـ بالقاهرة .

له ترجمـة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٦٦١) ، و « الضوء اللامع » (٩/ ١١٧ رقم ٣٠٥)، و « نظم العقيان » (١٦٢ رقم ١٧٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٢٥٨ـ ٢٥٩) .

(٢) وهو الملِك المؤيد أحمد بن إينال ، تولى السلطنة قبل وفاة والده بيوم واحد يوم الأربعاء ١٤ جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ « ، واستمر في السلطنة خمسة أشهر وخمسة أيام ثم خلع .

« سمط النجوم العوالي » (٤/ ٤١) .

عَيْشِي ، ونحو ذلك من الكلام ، فأفاد ذلك كفَّهم عن بعض أَذى ابن الشحنة ، فإنهم كانوا قد عزموا له على شرٍّ كبير (١) .

وفي يوم الثلاثاء هذا عمل الأمير بُرْدُبَك الدويدار الثاني مولده ، فحضره مِنَ الخَلْق ما يتعسّر حصرهم ، ولم يتخلَّف عنه أَحدٌ من أكابر القضاة والأمراء [٩٤] والمباشرين ، والأعيان ، وكان من الأيّام المشهودة .

وفي يوم الخميس تاسع شهر رجب المذكور من سنة ثمانٍ وخمسين ، نودِي بالزِّينة ؛ لأجل المحمل ، فبادر النّاس إلى ذلك ، وانهمكوا فيه تاب الله عليهم .

وفي يوم الأحد عاشِره ، عرض الوالي النّفط ، فإذا هو شيء ما رأى الناس مثله ، منذ أزمان ، منه فيل مصوَّر، راكب عليه اثنان ، وشاهَدت مشْفره يتَثَنَّى إلى داخل وخارج ، وأسد ، وزرَافَة ، وغير ذلك من أَشْياء مخرعة (٢) ، وحُمل ذلك على عجل وأُحرِق في الرُّمَيْلة على العادَة ، وذَهَبَتْ فيه أَموالٌ جليلة ، فلا قَوّة إلا بالله .

وفي يوم الاثنين حادي عشرة ، أدير المحمل ، والقضاة والأكابر أمامه على العادَة ، فكان يوماً مشهوداً (٣) .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرة سافر عبد العزيز معلاق ناظر القدس والخليل .

---

(١) خبر إعادة المحب بن الأشقر إلى كتابة السر، ورد في « حوادث الدهور » (٢٠٩) ، و «بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٠) .

(٢) في « القاموس المحيط » (٣/ ١٧) من معاني الخَرَع ، الدَّهَش .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٤٦) ، و «بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢١) .

وفي هذا اليوم مات . . [١] ابن عَزّاز (بمهملة ، ثم معجمتين مشدد) الطَّرَابلسي الحنَفَي عن نحو أربعين سنةٍ ، وكان شكلاً حَسَناً ، عاقِلاً ، وقُوراً ، دَيِّناً فاضِلاً ، في الفقه والنحو والأصول ، أستاذاً في المنطق ، لازم شيْخنا ، الشيخ أبا الفضل المغربي فيه إلى أنْ فاق أبناء الزَّمان رحمه الله .

وفي يوم الاثنين ثامِن عشر الشّهر ، أُلْبس ناظر الخاص [٢] خِلعةً ؛ وذلك أن السلطان كان رسم أَنْ يعمل لقبور الخليل وآله عليهم الصلاة والسَّلام كِسْوةً ففرغها ، وطلع بها في هذا اليوم [٣] .

فروغ كسوة الخليل عليه السلام

وفيه أُلْبِس كاتب السّـرّ المحب بن الأشْقر خلعةً بالأنظار التي كانت لكاتب السّـرّ .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرة أُلْبِس ناظر الخاص أيضاً أيضاً خِلْعةً .

وفي هذا الحدّ ، وصل الخبرُ بموت الشريف [٤] مَعْزي أمير يَنْبُع ، وقدم ابنه يسعى في الإمْرَة ، فلم يجَب ، وولى الشريف مُخَدَّم [٥] (بفتح الخاء المعجمة والدال المهملة المشدّدة) [٦] .

وفي يوم الجمعة ثاني عشريه ، بعد الصلاة ، سافر الأمير بُرْدْ بَك الدويدار بكسوة قبور الخليل وآله عليهم الصَّلاةوالسَّلام ، وسافر في خدمه

---

(١) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات ، لم أجد ما يصححه في المصادر المتوفرة .

(٢) وهو الجمالي يوسف بن كاتب جكم .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٠٩) .

(٤) راجع « هامش ٣ » ، من (ص ٢٠٥) ، من القسم الأول .

(٥) هو : مُخَدَّم بن عقيل بن وبير بن‌نخبار ، أمير الينبوع بعد معْزى ، قتل في صفر سنة ٨٥٩ هـ له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠ / ١٥٠ رقم ٦٠٠) .

(٦) كان ذلك في يوم الثلاثاء ١٩ رجب راجع « حوادث الدهور » (٢٠٩) .

الشرف الأنصاري ، وشاهين [١] السّاقي المشهور بغزالي ، وسبعة مِن الأمراء والمباشرين والقضاة، مَنْ يتعسَّر حصرهم، وشقّ بين القصرين ، واجتمع له من المُتَفَرِّجَةِ ، مِن النساء والرِّجال ما يفوت الو [صف] [٢] وكان من الأيَّام التي قلّ أَنْ سُمِعَ بمثلها لمسافر ، فنزل في سبيل ابن قيماز خارج الحُسَينية ، ومدّ له الإسْتَدَّار هناك وليمة عظيمة ، ونام هناك جزءاً من الليل ، ثم سار فَصَبَّح الخانكة ، ومَدّ له المحب الأشقر ، ناظر الخانقاه بها مَدَّةً رجحت على مَدَّةِ الإسْتَدَّار ، وشيَّعه إلى هناك بعض[٣]، ثم سار الظُّهر إلى بِلْبِيس ، وكان معه أكثر من خمسمائة عَلِيْقة[٤] ، وسافر معه من التُّجار ، وأصحاب الحوائج ما اجتمع منه جيشٌ عظيم [٥] .

وفي يوم الأحد رابع عَشْرِيِّة ، عُزل عبد العزيز بن محمد الصُّغَيِّر ، عن الحِسْبة ، وأعيدت إلى الشَّيْخ على العجمي ، وسُرَّ النّاسُ به كثيراً وكان له يوم مشهود ، واستناب في بابه الشمس البنهاوي [٦] .

---

(١) هو : شاهين الرومي الظاهري جقمق الطواشي ، ويعرف بشاهين غزالي ، أعتقه الظاهر جقمق ، وجعله خازناً ، ثم ساقياً ، وجعله الظاهر خشقدم راس نوبة الجَمَدارية ، مات ليلة ثامِن إحدى الجماديين سنة ٨٧٣هـ . له ترجمة في : «الضوء اللامع» (٣/ ٢٩٤ رقم ١١٢٨).

(٢) ما بين الحاصرتين غير واضح في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) هكذا في الأصل .

(٤) جاء في « محيط المحيط » (٦٣٧) العليقة ، البعير يوجّهه الرجل مع قوم يمتارون ، فيعطيهم دراهم وعليقةً ليمتاروا له عليها .

(٥) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٨٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢١) .

(٦) الخبر في : « حوادث الدهور » (٢١٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٤٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢١) .

وفي أواخر هذا الشهر وصل الخَبَرُ بأنّ سالِماً الحنبلي ، قاضي حلب قُتِلَ في آخر العشر الأولى من هذا الشهر، أو أوّل الثاني، ثم تحرَّر أنّ قَتْلَه كان ليلة الأربعاء ثالث عشر شهر رجب ، وذلك أنه لما وصلت المراسيم بقتله أُمر نائب القلعة بذلك وكان مسجوناً عِنْدَه ، فقال : إن اجتمع نائبُ البلد والقضاة ، واجتمع أَمرُهم على ذلك ، فَعَلْتُ وإلاَّ فَلاَ سبيل إلى أنّي أفعله ، ولو أُتِيَ على نَفْسي ، وإن كنتم تريدون فيه شيئاً أَسْلَمْتُه إليكم ، فجمع النائبُ القُضَاة والأمراء ، ودار بَيْنهم كلامٌ كثيرٌ حاصِله ، أنّ النائب لم يَجْسُر على قَتْلِهِ وأراد إيقاع أحدٍ من القُضاة فى شىء يجعله له حُجَّة ، فلم يظفر بذلك ، فطلبه ليقتله ، فلما حَضَر ، أَتي الخَبرُ بموت الشريف المنسوب إلى خدمة بني السّفّاح ، المشهور عند الحلبيين بقُطَيْش (بالقاف والمعجمة مُصَغّر)؛ لأنه كان مقطوع إحدى الأذنين، وكان من أعظم القائمين على سالِم ، وكان من أشرار الحلبيين ، وذلك يوم الاثنين حادِي عشر الشّهر ، فأخّر النائِبُ قَتْله ، ورفعه إلى سجنالمدينة ، فلما كانت ليلة الأربعاء ثالث عشره ، أصبح مخنوقاً ، فكانت قضِيّةً ما سُمِع في الإسلام بمثلها ! قاضٍ ثبت عنده زندقة إنسان ؛ فقتله ، فقُتِل به ، بغير حكم حاكم ، بل مع قول القضاة أنّه لم يثبت عليه ما يُقتل به ، وضُرب الذين شهدوا بالزَّندقَةِ ضرباً كثيراً ، قيل إنه خمسمائة لكل واحد ، وأنّ أحدهم ضُرب بالمقارِع ، وكانوا يقولون له : قل ما شهدت بشىء . فيقول : بلى والله قد شهدت ، وكان قضاة القاهرة أعظم الشركاء في قتله ، ولا حجّـة لهم عنـد الله فيما أَفْتَوا به ، لَقَـدِ اجتمعتُ بالحنبلي [1] ، وكان

---

(١) وهو في مصر ، عز الدين أحمد الحنبلي ، وقد استقر في قضاء مصر يوم السبت ١٩ جمادي الأولى سنة ٨٥٧ هـ ، بعد وفاة قاضي القضاة بدر الدين بن عبد المنعم .

« النجوم الزاهرة » (١٦ / ٦٧) .

صديقه ، فلمته على إفتائه ، وسألته عن صورة الإستفتاء ، فقال : أنْهوا أنّه عَدُوَّه ، وأنه قتَله بغير أعذار ، وهو حاضر في البلد إلى غير ذلك [٩٥] من الإحلال بشرائط الحكم ، فقلت : هم أنْهوا ذلك ، وأنتم تعلمون حقيقة الحال ، وعلى تقدير التّسليم لهم في دعواهم ، وثبوت زندقة المقتول ، ماذا يلزمه ؟ بل نفرض أنه غير قاضٍ ، وقتل زنديقاً فهل يُقتل به ؟ فَلَمْ يُجْر جواباً ، على أَنَّ الوجود ما كان مفتقراً إلى فَقْدِ سالم ، فإنه كان جاهِلاً جريئاً مُصِراً على الكبائر ، وكان سِنُّه مقارباً للخمسين وكذا الشّريف فيما يُقال عفى الله عنهما .

وفي مستهلّ شعبان سنة ثمانٍ وخمسين هذه ، طلع القضاة ، لتهنئة السلطان بالشّهر ، والحنفي والشافِعي راكبان ، ثم وقفت بغلتاهما لانتظارهما عند باب الدَّهِيْشة على ما تقدَّم لهما مِن العادَةِ ، الحنفي مِن أيّام الظاهر لشيخوخته وضعفه عن المشي ، والشافعي لما ادَّعى مِنَ الدَّوْخة في هذا العام فخرج الأمرُ بأن تنزل البغلتان إلى حيث يقف النّاس بدوابّهم على باب القلعة (لا جزى الله واسطة السُّوء في ذلكخَيراً) .

وفي أوائل هذا الشهر اشتَدَّ سعي أعداء ابن الشِّحْنة في أذاه ، فأغروا مُدَا ينيه بِشَكْواه إلى السلطان واحِداً بعد واحد ، وكان منهم ابن الرَّسَّام الذي كان ناظر جيش حلب ، فَرَدّه السلطان ردّاً قبيحاً ، فَرَأوا أنّ ذلك غير مفيد ، فقَرَّرُوا في ذهِن السلطان أَنَّه يدور عَلَى الأكابر ، ويَسْعى في وظائف المباشرين وأنْ عُيِّن نظر الجيش ، وقال : إنه أشرف على ولايتها ، وأَنّ ذلك يوهِن كلمة ناظر الخاص ، وأنه لا يستقر حال النّاس إلا إن أُخرج مِن القاهرة ، فالصّواب أَنْ يُوَلّي ما كان معه من الوظائف في حلب ، ويُخلع عليه بها ، ويسافر ، فطلبه السلطان وفتح معه الباب بأرْباب الدَّيْن ، فقال : ليس يخفى عن أَحَدٍ أَنَّ مارَكِبَني من الدَّيْنِ ما اشتريت به

متاعاً أَتمتع بِهِ فيباع عَلَيَّ ، ولا أنفقه على لذَّةٍ في مباح ولا مُحَرَّم ، وإنِّما استدنته إلا لما غَرَّمني الملك الظاهر ، وهو سبعة وثلاثون ألف دينار ، وديني لا يبلغ هذا المِقْدار . فقال له السلطان : فما الذي يُعمل معهم ؟ فقال : ما أمر به الله . قال : وما هو ؟ قال : قال الله تعالى ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْـرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [١] . فقال السلطان : إنَّك لا تستريح إلا بالرجوع إلى وَطَنِك ، فتبيع عقاراتك وتواسِيهم بها ، فبكى ، وقال : سألتُك بالله يا مولانا السلطان ، أن تَرْحمني فإنَّ تَعَبي إنما يكون بذلك ، فدعني تحت نظرك ، وأنا أُرسل إلى أملاكي من يبيعها ، ولم يزل به يترقّق له حتى قال : اذهب لسبيلك ، فعاوَدَوا السلطانَ في أَمْره ، حتى أظهر موافقتهم ، ثم طلبه يوم الخميس سادس الشَّهْر ، وقد هُيّئت له خِلعة ، وكان قد شاع عنه أَنَّه حلف أنه لا يلي في حلب وظيفةً ، فأجمعوا على أنه إنْ اعتلّ باليمين ، يُقال له : اذهب إلى دمشق قاضِياً ، ويُلَبَّس الخِلْعة ، فلا يسعه المخالفة ، وإن خَالَف أخرج مُرسَّماً عليه ، بغير شيء ، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذي عملت ؟ . قال : ما فارقت عليه مولانا السلطان . فقال : ما فارقتني ذلك المجلس إلا وقد رضيت عنك ، فبلغني عنك ما أغضبني ؛ وهو أنك تتكلَّم فيما لا يعنيك ، وتجتمع بالأكابر ، وتَسْعى في الوظائف . فقال : والله ما كان شيء من ذلك . هذا الأمير الدويدار (يعني الكبير يونُس) ، وَهَذا القاضي ناظر الخاصّ بابك الذي يَسْعى منه النّاس سَلْهما هل دَخَلْتُ لهما بيتاً ، أو كلمتهما في شيء من ذلك ؟ فقال : أنا أعطيك في حلب ثلاث وظائف بلا شيءٍ فما الـذي تَعْمـل تأخـذها أوْ لاَ ؟ فقـال : لا والله يا مولانا السـلطان [٩٦]

---

(١) البقرة/ ٢٨٠.

ارحمني يرحمك الله ، إذا كان هذا كذب الأعداء عَلَيّ وأنا تحت نظرك ، فيكف يكون حالي إذا بَعُدت . فقال : نُقِل إليّ أنّك قلت : إنك تسعى في نظر الجيش ، وهذا القاضي ناظر الخاص عندنا عزيز لم تقول هذا في شيء يتعلق ، فقال : والله ما قلتُ هذا ، ولا دار في فكري ، ولو عرض على السلطان شيئا في تعلقه وبذل معه مالاً ما أخذته ؛ لأنّي أضعف عن مقاوَمته ، ولا طاقة لي به ، فقال السلطانُ : والله لقد تَعَجَّبْتُ من ذلك ، ولم تسكن نفسي إلى أنك فعلته ، أنا أمكِّنك من الإقامة هنا بشرطين ، أن تحفظ لسانك ، ولا تذهب إلى بيت أَحَدٍ من الأكابر ، فقال : رضيت بذلك ، ووالله ما فعلتُ شيئاً منه ، فخلّى سبيله ، ولم يزل ابن الرّسّام يُكثر كلامه ، حتى أخرج السلطان إقطاعاً كان في يَدِه لنائبٍ من نوّاب تلك البلاد ، كختا أو كركر أو ما قاربهما ، والله تعالى يقضي الحقّ ، وهو خير الفاصِلين .

وفي هـذا الحـد ، وصـل الخبر بأن مقْلدا (بإسكان قافه) أمير عرب آل مرّي ، بيَّت قريبه أبا بكر بن قُدَيم (بالتصغير) ، وهو الذي كان أميراً قبله ، فقُتلت بينهما قتلى ، كانت الدائرة على أبي بكر ، فنهب مقْلد إبلَه وأموَاله ، [وأرسل] [1] إلى السلطان من جماله ألف جمل وذكروا أَنّ السبّب في ذلك أن خُشْكَلدى الكُوَيْزي دويدار السلطان بدمشق ساعد أبا بكر فقويت نفسه ونشأ من ذلك شرٌّ كانت غايته هذه الوقْعة ، فرسم السلطان باعتقال خُشْكَلدي في قلعة دمشق ، وأن يأخذ المتسفِّر منه ألف دينار ، وولى الدويدارية لفارِس الأمير الكبير بغزة .

عزل خُشْكلدِي الكُوَيْزي .

---

(١) في الأصل (وأرسله) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

وفي هذا [١] الحد ، وصل الأمير يَرْشِباي الذي كان توجّه مع قاصد بن عثمان [٢] .

وفي هذا الحد [٣] أيضاً ، أَرسل الزّيْن يحيى الإسْتَدّار إلى محمد بن عُبَيْد المُلَقّب بالفضل يستدعيه ، فأجابه ولم يتأمل ما قِيل في سالِفِ الدّهر :

لا تَأْمَنَنّ امرأً أسكنت مهجتَه غَيْظاً وإنْ قلتُ إنّ الجرحَ يندملُ

فلما وصل ، أنهى الإسْتَدار إلى السلطان ، أَنَّه رجع إلى ما كان عليه من العصيان وندم على ما دخل فيه من الطاعة ، وقال : كنت آمر على القرية فيطيعونني مهما أردت ، فصرت الآن لا أسأل من أحد إلى رغيف خبز ، وادّعى أنه بيّته فقبض عليه ، وعلى آخر معه ، فأمر السلطان بسجنهما في المقْشَرة ، ثم ضربهما بالمقارع يوم الأحد تاسع شعبان المذكور، وأمر بردّهما إلى المقْشَرة شهرين يُنادى عليهما ، هذا جـزاء من يعصى السلطان ، فقال: لا تقل هكذا ، ولكن قل : هذا جزاء من يُطيع السلطان ، ثم أمر فسلخهما والي الشرطة في المقْشَرة قبل انقضاء هذا النهار ، وحَشَا جلدهما تِبْناً ، وطِيْفَ بهما ، فتأسّف النّاس عليه كثيراً ، وعَدُّواً قتله ظلماً ، وقاتله منتهِكاً للحرمة ، تارِكاً للمروءة ، فإنّ هذا لو كان محارِباً لما شاع قتله ، لأنَّ الله تعالى استثناه ، فقال تعالى :

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٨٢) ، في يوم الخميس ٦ شعبان .

(٢) راجع « ص ٤٣٦ » من القسم الأول .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢١٠) في يوم الأحد ٩ شعبان .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [1] ، فكيف ولم يكن بهذه الصِّفة ، بل كان من أَعَفّ النّاس وأشهمهم نَفْساً ، وأعززهم مروءة ، وأجملهم شجاعة ، لا يوجد مثله في مائة ألف من أهل هذا الزّمان في مجموع ما فيه مِن الخَلْقِ والخُلِق فرحمه الله وعفى عنه [2] .

وفاء البحر

وفي يوم الأربعاء ثاني عشر شعبان المذكور ، وهو الموافِق لرابع عشر [3] مسرى من أشهر القِبط أَوْفَى البحر ست عشرة ذِراعاً ، وزاد من السابع عشر سبع أصابع فَفُتِح [4] سدُّه ، وجرى الماء في خلجان القاهرة ولله الحمد . ومن حين أخذ في الزِّيادة لم يقف إلا أربعة أيام فحصل للناس منها من الرّغْب [5] إِثْر تلك الشدائد ما الله به عليم ، وتغيّرت فيها أحوال البلد ، ثم لم ترجع كلها كما كانت . وأقل زيادته إصبع ، وإكثرها ثلاثون .

موت الخواص

وفي يوم الخميس ثالث عشر الشهر مات شهابُ الدِّين الخواص [6] ، وهو شيخ كبير، وكان عالمِاً صالِحاً مفنَّناً ، وكان خاملاً منة طعاً [97]

---

(١) المائدة/ ٣٤ .

(٢) الخبر في «حوادث الدهور» (٢١٠ ـ ٢١١)، و «بدائع الزهور» (طبعة بولاق) (٢/ ٤٧)، و «النجوم الزاهرة» (صفحات لم تنشر) (٢١) .

(٣) في «بدائع الزهور» (طبعة بولاق) (٢/ ٤٧) . و «بدائع الزهور» (صفحات لم تنشر) (٢٢) ثالث عشر مسرى .

(٤) في «حوادث الدهور» (٢١١) ، ونزل الشهابي بن السلطان ، فخلّق المقياس وفتح خليج السدّ على العادة ، وكان يوماً مشهوداً .

(٥) الرّغب : السَّعة وكثرة الأموال ، والأرزاق .

راجع معاني الرغب في «لسان العرب» (١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨)

(٦) هو : أحمد بن عباد بن شعيب ، الشهاب أبو العباس القنائي ثم القاهري الشافعي ، ويعرف بالخواص ؛ لكونه كان يتكسب أول ما قدم الجامع الأزهر بعمل المراوح ، بعد رعي الغنم في بلاده ، ولد بقنا من أعمال أسيوط بالصعيد ، وقدم منها سنة ٨٠٦ هـ ، وبرع في الفقه وأصوله ، =

عن النّاس راضياً بالقليل ، ملازِماً لأشغال الناس ، انتفع به كثير من الطَّلَبة ، وكان كثير الملازمة للجامع الأزهر ، وكان مشهوراً بمعرفة البهجة[1] ، نظْم الحاوي [2] وشرحها ، وبالعروض ، وله يدٌ في كثير من الفنون ، ونُقِل إِلَيَّ أَنَّ له مصنَّفات [3] .

وفي يوم السبت منتصف شعبان المذكور وُسّط الذيبي [4] ، الذي نُفِيَ تِمْرَاز الدويدار في شأنه .

= والفرائض ، والحساب ، والعربية ، والعروض ، والمعاني وغيرها ، وكان عمره عندما مات قد قارب الثمانين ، ودفن خارج باب النصر في حوش الصوفية .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١/ ٣٢٠) .

(١) ذكر (حاجى خليفة) في كشف الظنون » (٢/ ٦٢٧) ، أن البهجة من نظم زين الدين عمر بن مظفر الوردي الشافعي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ في خمسة آلاف بيت سماها (البهجة الوردية) ومن شروحها : شرح للشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين بن رسلان الرملي الشافعي المتوفي سنة ٨٤٤ هـ ، وشرح للفاضل أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي المتوفى ٨٢٦ هـ ، وشرح للقاضي زكريا بن محمد الأنصاري المتوفي سنة ٩١٠ هـ وسماه الغرر البهية ، وشرح لعماد الدين إسماعيل بن إبراهيم بن شرف القدسي الشافعي المتوفي سنة ٨٥٢ هـ في مجلدين ، وشرح ليوسف بن أحمد بن داود الشغري الحلبي الشافعي ، المتوفي سنة ٨٨٥ هـ .

راجع أيضاً « إيضاح المكنون » (٣ / ٢٠٠) ، و « هدية العارفين » (٥/ ٧٨٩) .

(٢) هو كتاب الحاوي الصغير في الفروع ، لنجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني الشافعي المتوفي سنة ٦٦٥ هـ ، وهو من الكتب المعتبرة بين الشافعية ، وجيز اللفظ ، بسيط المعاني ، محرر المقاصد ، مهذب المباني ، حسن التأليف والترتيب ، جيد التفصيل والتبويب ، لذا عُكِفَ عليه بالشرح والنَّظْم .

« كشف الظنون » (٢ / ٦٢٥) ، و « هدية العارفين » (٥/ ٥٨٧) .

(٣) ذكر (السخاوى) في « الضوء اللامع » (١/ ٣٢١) من مؤلفاته « الكافي في العروض والقوافي» ، شرحها من طلبته الشهاب بن الصيرفي ، ونظمها هو والشهاب القليجي .

(٤) راجع (ص ٤٠) .

وفي يوم الاثنين سابع عشره ، شكا الإسْتَدار من عجز جهاته ، وقال: إنه لا يقدر على السَّداد وإنْ أدّى ذلك إلى هلاكه ، فقطع [١] السلطان المرتَّبين على الدِّيوان المفرد من غير الترك ، وهم أولاد النّاس ، والفقهاء وغيرهم [٢].

وفي هذه الحدود ، هرب محمد بن سليمان [٣] ، شيخ جبل نابُلُس من سجن اسكندرِيَّة ؛ وذلك أنَّه كان أمَرَ جماعةً من أصْحابِهِ فباشروا عند كاشف البحيرة [٤] ، وشرعوا يمشون في أقْطار تلك البلاد إلى أنْ جاسوا خلالها ، وَعُرِفوا خلالها من غير نكير على أَحَدٍ منهم ، وأَلِف أهلُ البلاد تلك الهيئات مُدَّة مديدة ، ثم اشترى جارِيةً في طولِه ، ولم يدع عنده في السِّجن سواها ، وشَرَعَ يُحْسِنُ إلى السَّجَّان ، حتى ملك رقّه فصار لو رآه هارِباً بنفسه لتأوّل له تأويلاً ؛ لأن حُبَّك لِلشَىء يُعْمي ويُصمّ ، ثم أمر رجاله أن يأتوه بفَرَسٍ سابقٍ إلى بساتين إسكندرية في يَوْمٍ سمّاه ، ثم إنّه سأل السَّجَّان أنْ يأذن لجاريته في الخروج إلى الحمَّام ، وأنْ يمشى قدَّامها إلى مكان سمَّاه ، ثم أَخذ ثياب جاريته سرّاً منها ، ثم أعلمها أنَّه أَعتقها ، وأمرها بالاستتار منه إلى أَنْ يتزوّجها ، ثم أغْلَق عليها باباً ثم لَبِس ثيابها ، وخرج فظنَّه السَّجَّان الجارية ، فمشى معه إلى الموضع الذي سَمَّاه ثم رجَع وجلس في مكانه من الباب ، وخرج معه اثنان من

---

(١) في « حوادث الدهور » (٢١١ ـ ٢١٢) في ٢٣ شعبان .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢١١/ ٢١٢) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٢ ـ ٨٣) ، و« بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٤٧) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢١٥) محمد بن عبد القادر .

(٤) وهو ، حسن بك الدوكاري أو الدكري ، وقد استقر في كشوفية البحيرة في ٣٠ رجب سنة ٨٥٧ـ ، عوضاً عن قشتم المحمودي الناصري ، الذي قُتِل غدراً على يد عرب لبيد من البحيرة بالقرب من (تروجة) وذلك في ٢٦ رجب سنة ٨٥٧ هـ .

راجع «حوادث الدهور » (١٨٩ ـ ١٩٠ ، ١٩١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٣)

رجاله كأنّهم يُشيِّعون الجارية إلى الحمَّام ، فلما كانوا بأثناء المدينة لقُوا غلاماً لبعض أكابر أهل اسكندرية ، فأعْطَوه عشرين ديناراً ، وقالوا له ركِّب لنا هذه الجارية على هذا البَغْل إلى البساتين ففعل ، فلما رآه البَّوابون سألوا عنها ، فقال هذه جارِيةٌ سيِّدي ، فلم يعرضوا له ، وخرج الرَّجلان عقبهما ، ثم أَنزلوه ، ورجع ذلك الغلام ، ثم أَلْقى عنه هيئة النِّساء ، وذهبوا إلى مكان الفَرَس ، فركِب وسار به الأدِلَّةُ من رِجاله ، فلم يناموا [1] [إلا] بالقاهرة ، فأرسل من فاوض بعضَ الأكابر في أنه هَرَب ، وأَنَّه يستأذِن على مقابلة السلطان ، فأجابه بأنّه متى رفع للسلطان وسَّطه ، فلم يكذب خبراً ، وتوجَّه في البرية ، فخرج من بلاد الكرك ، وأَقام في كفر يهودا ، وبها نحو خمسمائة رجل كلهم يحبه ، وليس في تلك البلاد أَحدٌ يقوم لهم في شجاعة ولا كثرة ، ثم اجتمع إليه من رِجاله كثيرٌ ، فكان يركب في نحو مائتي فرس ، ويذهب إلى نابُلُس ، فيخرب ويفعل الأفاعيل ، فضيَّق عَلَى ابن عمّه الذي أَخذ عنه ، وفسد حال البلاد لذلك .

وفي يوم الجمعة ثامن عشري الشهر ، وصل الأمير بُرْدْبَك الدويدار ، وجاني بك حاجب الحجّاب بدمشق إلى التربة .

وهذا اليوم ، آخر السَّنَةِ القِبْطِيَّة فيه وصل البحر إلى ثماني عشرة ذراعاً ، وفي يوم السَّبت تاسع عشري شهر [شعبان] [2] المذكور ، الموافق لأوّل أَيَّام النَّسِيم ، نادى منادى البحر بذلك على عادَته في أَنَّ المناداة بزيادة كل يوم في صبيحة الذي يليه .

---

(١) في الأصل (إلى) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) في الأصل (رمضان) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

وفي أواخر هذا اليوم مات بدر الدِّين [عبد العزيز بن محمد بن عبد الله] [١] بن عبد العزيز [٢] المباشر على أوقاف الجامع الطولوني ، والحرمين وغيرها ، وكان من سوء المباشرة واللّدد على جانبٍ لم يرَ مثله ، فاستراح منه البلاد والعباد ، عفا الله عنه .

وفي أوائل [٣] شهر رمضان مِن السَّنَةِ قَدِم جانِبَك الظَّاهري مِشَدَّ جُدَّة بمالٍ جَزِيلٍ للسلطان ؛ لكثرة الواصِل من المراَكب ، قيل : إنّه مائة ألف دينار ، وقريب من ذلك ، والذي صحّ أنّه يزيد على خمسين أَلف دينار نَقْداً [٤] .

وفي هذا الحدّ بلغ السُّلطان أنّه اتّفق بين قضاة دِمشق شَنَان [٥] ؛ مِن أجلِ حكم حكمه القاضي حميد الدين بن أبي حنيفة ، قاضيالحَنَفيّة ، فاعترض عليه رفقته ، الجمال الباعوني قاضي الشّافِعية ، والشّهاب التلمساني قاضي المالِكيَّة ، وكاتب فيه الباعوني ، بأنّ جميع حنفية دمشق اتَّفقوا على أنّ حكمه باطل وأنه لا يرافق لكثرة فِتَنه ، فَعُزِل ، ثم قام معه قائمون ، وعُرِض حكمه على حنفية مصر فصوَّبوه وَخَطّأوا من خطّأه ، وشق عليهم تعصب القضاة عليه فأعِيْدَ ، وجُهِّز مرسومٌ بعقد مجلس يجمع علماء الحنفية بدمشق للنظر في هذا الحكم .

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « الضوء اللامع » (٤/ ٢٢٨) .

(٢) هو : عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز ، البدر أبو محمد بن الشمس أبي عبد الله بن الرشيد أبي محمد بن العز أبي محمد الأنصاري القاهري المالكي ، يعرف بابن عبد العزيز ، ولد قبل سنة ٧٨٠ هـ تقريباً بالقاهرة ، ونشأ بها .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٤/ ٢٢٨ رقم ٥٨٥) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢١٢) في يوم الخميس رابعه .

(٤) الخبر في « حوادث الدهور » (٢١٢) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٤٧) ، و «بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٢) .

(٥) شَنَان : أي مباغضة .

راجع « محيط المحيط » (٤٨٥) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٤٩٥) .

وفي هذا الحد [١] ، نودِي أَنَّ أولاد الناس على عادتهم في جوامِكهم .

وفي يوم الخميس رابع شهر رمضان الموافِق لأول توت من أشْهر القِبْط ، فُتِح سدالأميرية ، وكان البحر فيه على عشر أصابع من تسع عشرة ذِراعاً .

فتح سد بني منجا

وفي يوم السبت سادس الشّهر ، الموافق لثالث توت ، فتح سد قناطر بني منجا والبحر في أربع عشرة إصبعاً من الذِّراع التاسعة عشرة ، فنقص لأجله إحدى عشرة إصبعا ، ارتقى البحر إليها إلى يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان ، الموافق لثامن توت ، وزاد إصبعين ، فصار على ست عشرة إصبعاً من الذِّراع التاسعة عشر .

وكان قد اشْتَدَّت شكاية الزَّين يحيى الإسْتَدار من ابن الأَهْنَاسي ، وأنه يرجف به في كل وقت فتضعف كلمته في البلاد ، وانضم إلى ذلك أَنْ حصل بينه وبين زوجته شَرٌّ ، فشكته إلى المقام الشِّهابي بن السلطان ، وذكرت أن عنده فِسْقِيّة [٢] مملوءة ذهباً ، وكان له عنده أربعمائة دينار لم يطالبه بها رِفْقاً به ، فلما ظنّ أنه موسّع طالبه بها ، فَرَدَّ جوابا خَشناً جداً ، فأفهم الزَّيْن الإسْتَدّارَ أَنَّهُ لا ينصر ابن الأَهْنَاسي ويعجبه أذاه ، فخَافَ ابن الأَهْنَاسي على نَفْسه ، فاختفى هو وأبوه ، فأعلم الاسْتَدَّار أنهما في بيت الشهاب بن الهَيْثَمي ، أخي كريم الدِّين الذي كان نقيب السّفْطي ، فرفع ذلك إلي السلطان ، فأرسل الوالي فهجم عليهم في أواخر شهر رمضان [٣]

---

(١) في « حوادث الدهور »(٢١٢) في يوم الأربعاء ثالثه .

(٢) فِسْقيّة : « حوضٌ من الرّخام ونحوه مستدير غالباً ، تمجّ الماء فيه نافورة ، ويكون في القصور والحدائق والميادين (ج) فساقِيّ » .

« المعجم الوسيط » (٢ / ٦٨٩) ، وانظر أيضاً « محيط المحيط » (٦٩٠) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢١٣) في يوم الثلاثاء ٢٣ رمضان .

المذكور ، فوجدهما ، واستخرجوا من بيت الهَيْثَمي خَمْراً كثيراً ، فهرب ورُسِّم عَلَى ابن الأَهْنَاسي وأبيه في بيت الإسْتَدَّار ، وحصل لهما من رسل الإسْتَدَّار وحاشِيَته من الخِزْي والأذى ما لا يوصف ، فأرْضَى ابن السلطان في ماله فأُطْلِقا في اليوم الثاني، أو الثالث من القَبْضِ عليهما (١) .

وفي أوّل شوّال (٢) من هذه السَّنة ، وصل الأمراء الَّذين كانوا تَوَجَّهوا إلى البحيرة ؛ لأجْل عرب لبيد (٣) .

وفي يوم الاثنين رابع عشره ، سافر جانِبَك ، حاجِب الحجاب بدمشق .

وفي يوم السبت تاسع عشر شوال هذا ، سار المَحْمَلُ الحجازي إلى البركة ، وفي يوم الأَحَدِ العشرين منه ، سار ركب المماليك من البركة ، وفي يوم الاثنين حادي عشريه سار الأول وأميره خَيرِ بَك (٤) .

وفي هذا اليوم ، وهو الموافِق لسابع عشر بانَة ، نودِيَ بوداع زيادة البحر ، وأنها آخر ما انتهت إليه إحدى عشرة إصْبَعاً من عشرين ذِرَاعاً .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عَشْرِيِّه ، سار المحمل وأميره جانِبَك الظريف ، الذي كان أميراً في العام الماضي ، ثم تبعهم المغاربة ، وكانوا في غاية الكثرة ، ثم ركب التَّكْرُور، حَفِظَ الله الجميع (٥) .

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢١٣) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢١٣) يوم الثلاثاء .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٢١٣) ، وقد جاء فيه ، أن وصولهم كان يوم الخميس ٢٥ رمضان .

(٤) الخبر في « حوادث الدهور » (٢١٤) ، وفيه أن أمير حاج المحمل جانِبَك الخَزَنْدار ، وأمير ركب الحاج الأول خَيرِ بك الأشرفي .

(٥) الخبر في « حوادث الدهور » (٢١٣) .

وفي هذا الشهر رُسِم بإطْلاق خُشْكَلدي الكُويْزي الدويدار من سجن قلعة دِمشق ، وأُذِن له في قدوم القاهرة . وقَدِم الخَبَرُ في أوائله بموت المُتَسفِّرِ بسجن خُشْكَلدي المذكور ، وهو ما مق الذي كان يُقال له أخو السلطان في دمشق ، فسأل رسول خُشْكَلدي في إقطاعه ، فأجاب السلطانُ : بأنـه حقير بالنسبة إلى خُشْكَلدي ، ووعَـدَ أنه يُعطيه أعظم منـه .

وفي هذا الحدّ ، والحاج في البركة وصل شبانة بن مشاق [٩٨] ، شيخ بعض جبل نابُلُس مطلوباً من قِبل السلطان ؛ بسبب أنه قيل : أَنّ محمد بن سليمان [١] نزل عنده ، بعد أَنّ هرب من السّجن فأَضافَه ، وهو يعلم أَنّه هرب من سجن السلطان ، فأمر به السلطانُ إلى البرج ، فكلَّمه فيه بعض الأَتْرَاكُ ، وخُلِع عليه بعد ذلك بيوم أو يومين .

وفي يوم الخميس رابع عشري شوال هذا ، وهو أحدُ شهور سنة ثمان وخمسين وصل رأسُ محمد بن سليمان ، وجاء الخبر أنه جمع نحو ثلاثمائة فارس ، وغزا بهم ابنَ عمه إسماعيل في بلاد نابُلُس ، فسمع به إسماعيل فلاقاه ، فلما تراءى الجمعان ، وتصادم الفريقان ، حمل محمد على جَمْع إسماعيل ، فصار في وسطهم ، فالْتَفَّت عليه الفرسان ، فقُتِل بعد أنْ طعن إسماعيل فرماه عَنْ فرسه رحمه الله وعفا عنه ، فلقد كان شكْلاً حَسَنْا ، حلْواً ، شجاعاً ، ذكِيّاً ، فطِناً ، كاتِباً ، قلَّ أَنْ رأيت في الرِّجال أَحْلى شكلاً منه ، وكان مع ذلك من أَعفّ بني عبد القادر ، وأخفَّهم وطأةً على الناس ، وأَظُنّه لم يتجاوز الخمسين والله أَعلم [٢] .

---

(١) في «حوادث الدهور» (٢١٥) محمد بن عبد القادر .

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » (٢١٥) .

وفي هذا الشَّهْر ، هَرَب محمد بن إينال [١] الذي كان أمير شِكَار [٢] للظاهر[٣] ؛ وذلك أنه كان أخرب المكان المُسَمَّى بالتّاج ، والسّبع وجوه[٤] ، وكان بناءً عظيماً لم ير الرّاؤون مثله ، وكان فيما بين خليج الزَّعْفَران وشبْرا ، وقد بنى ناظرُ الخاص الجمال يوسف كاتب شكم موضعه بناءً سمّاه الكوم الأبيض ، وكان التّاج من مفاخر مصر ، أظنُّ أَنه كان به سبعة أواوين محيطة بدور قاعته ، وكان معلَّقاً على بئر عظيمة جِدّاً ، فادُّعى عَلَى ابن إينال في هذه الدّولة في أمره ، والزم بثمنه ، فلم يسعه إلا الهرب[٥] .

وفي أوّل [٦] ذي القعدة من هذه السَّنة ، ورد الخبرُ بأنّ عرب لبيد قربوا من البُحَيْرَة وأنَّه يُخْشى من فسادهم ، فندب [٧] السلطان

---

(١) هو : محمد بن العلاء علي بن الأتابك إينال اليوسفي ، رباه الملك الظاهر جقمق ، ثم صيَّره مِن مماليكه ، ولما تسلطن رقاه أمير شكار أو أمير عشرة ، وأعطاه عدَّة أقاطيع ، يقول(السخاوي) : «وبالجملة فهو نهّاب وهّاب » ، وعندما تولى الظاهر جقمق ، أخرج أمرته عنه ، ومنعه من الأمير شكارية ، فهرب ، ثم وُجد فرُسم عليه ، مات في سنة ٨٧٤هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٨/ ١٧١ رقم ٤٢١) .

(٢) أمير شِكَار : جاء في « صحيح الأعشى » (٥/ ٤٦١) ، « لقب على الذي يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها ، وسائر أمور الصيد ، وهو مركَّب من لفظين : أحدهما عربي ، وهو أمير، والثاني فارسي وهو شِكَار . . . ومعناه الصيد ، فيكون المراد (أمير الصيد) .

(٣) أي السلطان الظاهر جقمق .

(٤) ذكر (السخاوى) في « الضوء اللامع » (٨/ ١٧٢) ، أن التاج تعرف أيضاً بمنظرة الخمس وجوه وهي مقاربة لكوم الريش ظاهر القاهرة ، وقد كلف بناؤها مع السبعة وجوه ما يقارب عشرين ألف دينار ، وكانت هذه المناظر من أجل متنزهات القاهرة .

راجع أيضاً : « خطط المقريزي » (٢/ ١٣٠) ، و « حوادث الدهور » (٢١٧) .

(٥) الخبر مفصلاً في « حوادث الدهور » (٢١٥ ـ ٢١٨) .

(٦) في « حوادث الدهور » (٢١٨) أوله الأربعاء .

(٧) في « حوادث الدهور » (٢١٨) في يوم الثلاثاء سادسه .

العسكر إلى التّوجّه إليهم وَحثّهم في الإسراع ، ثم بطل أمرهم ، ولم يتوجّه أحدٌ من الجند [١] .

نَفْي الحُميد

وفي هذا الحد ، أو أواخر شوّال جاء الخبرُ ، بأنّ الحميد بن أبي حنيفة البغدادي قاضي الحنفيَّة بدمشق نفي إلى بغداد ؛ لأمور نقلها عنه أعداؤه ، منها : أنه كاتب جهنشاه يُخبره بِعَوْرات هذه البلاد ، وكان من أَعظم المقَرِّرين لمثالِبه الشاكين منه ، الأمير جانِبَك حاجب حجّاب دِمشق شَافَهَ السلطان بذلك لَمّا ورد عليه ، وأخذ المتَسَفِّر با لمرسوم المعلَّم بنفيه معه .

ضرب الأنصاري

وفي هذا الحد ، ضرب جماعة من المماليك الظاهرية ، الشَّرَفَ الأنصاري وهو نازل من القلعة ضَرْباً قَوِيّاً ؛ رموه عن فَرَسه فانقطع لذلك في البيت ، ثم قصدوه في بيته ليلاً ، وأرادوا أَنْ يهجموا عليه فيه ، فضربوا غلمانَه ، ثم رُدوا عنه ؛ وسبب ذلك أنّ شخصاً منهم يُقال له : شادِ بَك النَّاصري أرادَ أن يشتري بَيْتاً ، وأراده شخصٌ من أصحاب شرف الدين ، فاشتراه له ، وقصد إخفاء ذلك ، فلم يخف ، فلامه ذلك المملوك ، فاعترف بشرائه ، وأغلظ لذلك المملوك ، فجمع له جمعاً ، وفعل ما فعل ، فلم يسع الأنصاري إلا أنْ تَوَجّه إلى بيت ذلك المملوك ، وأعطاه البيت ومائتي دينار حتى كفّ عنه .

ثم بعد ذلك بأيام تَعَرَّض المماليك لناظر الخـاص من جهـة كسوتهم (الفراء في الشتاء) فانقطع في بيته أيّاماً ، يُظهر أنّه مريض .

---

(١) جاء في : « حوادث الدهور » (٢١٨) ، أن السلطان عين مقدّم العسكر إلى عرب البحيرة تنبك الظاهري ، ثم استعفى ، فعيَّن عوضه خير بك المؤيدي أحد مقدّمي الألوف ، وعين معه عدّة أمراء طبلخانات وعشرات .

هرب الوزير

وفي ليلة الأحد [1] ثاني عشر ذي القعدة هذا ، هرب الوزير أمين الدين بن الهَيْصَم ، وهو ابن خالة ناظر الخاص ، فعلم بهربه ، فاجتمع بفيروز ، خَزَنْدار السلطان ، وهو داخِلٌ إلى الخِدْمَة ، وحَسَّن له ان يتولى الوزَرَ فأبي ، ثم أرسل من أخبر السلطان باجتماعه به ، وسؤالِهِ لَهُ في ذلك ، وأنَّ ذلك مكيدة منه ، يسأل السلطان في ذلك ، فيظن أنَّه بإرادة فيروز فيجيبه ، فغضب السلطانُ ، فلما دخَلَ إليه ناظِرُ الخاص لَقِيَهُ السلطانُ بوجْهٍ عبوسٍ وانْتَهَرَه ، وشتمه ، ونسبه إلى اللعب بالمملكة ، وأَنه تكلم في عزل السَّعْد فرج بهذا ، وادّعى أنّ ذاك لا يَسِدّ ، وأَنَّ هذا يَسِدّ ، وكذا في عزل ابن الأَهْنَاسِي من الإسْتَدارية ، وتولِيَة الزَّين يحيى ، وقد تبيَّنَ الكَذِب في الاثنين ، ابن الهَيْصَم هرب ، والزَّين مشرف على ذلك ، فكان على ناظر الخاص يومٌ ما مَرَّ به مثله [2] .

القبض على الإسـتدار

وفي يوم الاثنين ثالث عشرة ، قبض السلطان على الزَّين يحيى الإسْتَدار ؛ خَشْيَةَ أن يتبع الوزير في الهرب ، ويُعطِّل أمر الجامكيّة ، كما فعل في كلا الأمرين أوّل مرة .

وخلع على السَّعْد فرج ، كاتب المماليك بكتابة [٩٩] المماليك عن التّاج ابن المقسي ، صِهْر الزَّين يحيى الإسْتدار .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة هذا ، خُلع على السّعْد كاتب المماليك فرج بالوَزَر على ما معه من كتابة المماليك [3] ، وخُلِع على الأمير ناصر الدين بن أبي الفرج بالإسْتَدارِيّة ، ثم أُعطى عبد العزيز بن محمد الصُّغَيِّر نقابة الجيش .

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٣) ، في يوم السبت حادي عشر ذي القعدة .

(٢) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٣) ، وقد جاء فيه أن سبب هربه ، لعجز محصّل الدولة عن القيام بالكلف السلطانية .

(٣) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٣) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٤٧) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٢) .

وفي هذا الشهر ، بعد عزل حميد الدين ، حَسَّن الجمالُ يوسف ، ناظر الخاص للسلطان أنْ يُعطي المحبَّ بن الشّحْنة قضاء الشّام ففعل ، فامتنع من ذلك ، فقرّر ناظر الخاص أنْ مُكْثَه في القاهرة مُضِرٌّ به ، ومُوقِفٌ لحالِه ، وأنَّه إن لم يخرج منها تعطّلت مصالحِهُ ، فألحّ عَلَى ابنِ الشّحْنةِ في قبول قضاء دِمشق ، فقال : إنه وقَع منه يمينٌ أنه لا يخرج من القاهرة إلاّ إلى أَحَدِ الحَرَمين ، فأُلْزِم بالسَّفر في البحر ؛ لأَنّ السَّفر في البَرّ الآن مُتَعَذِّر ، فامتنع من ذلك ، فقيل للسلطان : إنّه امتنع مِنَ السَّفرِ في البحر ، وطلب التَّوجَّهَ إلى القدس ، فأمره بذلك ، فأرسل يقول : إنه ما قال ذلك . فلم يقبل منه ، وهَدَّدَ إن لم يُسافِر ، فاعتلّ بعدم ما يتجهَّز به ، فأعطاه السلطان مائتي دينار ، ثم أعطاه ناظر الخاص مائتي دينار ، وسافر ليلة السَّبْت سادِس عشري ذي القعدة المذكور [١] .

وَوَلِيَ قضاء الحنفية بدمشق ، الحسام بن بُرَيْطع الغزي ، وسكن في المنزل الذي كان به ابن الشّحنة ، وهو القصر ، محمد[٢] بن أَيْتَمُشر الخِضْري ، وهـو ابـن أخت خَوَند [٣] ، وهو منزلٌ مشؤوم ، مـا رأيت أحَداً سكَنَه إلا أصابه ذِلٌّ ، وكان ابن الشحنة لـما سكنه حُسِّن له أنْ يُغيِّرَ

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٢١٨) ، أنه في يوم الخميس ٢٣ ذي القعدة أُخرج المحب بن الشحنة للقدس بطّالاً .

(٢) هو : محمد بن أيتمش الخِضْري الناصري ، ابن أخت خوند زينب زوجة الملك الأشرف إينال ، مات في ٨ ربيع الآخر سنة ٨٦٥ هـ ، كان رئيساً حشماً منهمكاً في اللذات ، يميل إلى المغنى وشراب الراح ، ثم قرُب موته أظهر التوبة ، واشتغل بالعلم على مذهب الحنفية ، وأخذ عن الشيخ تقي الدين الشمني ، ومات وهو على خير وتوبة .

له ترجمة في : « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٤) و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٨١) .

(٣) راجع « هامش ٣ » من (ص ٣٩٢) من القسم الأول .

بابه ، وكان قد فُتح له بابٌ من الدَّرب النافِذ إلى السَّابقية [١] فأَغْلَقَه ، وفتح بَابَه القديم ، وهـو النافـذ إلى الـدَّرْب المواجِه لشبابيك الكامِلية[٢] .

وفي هذا الشَّهْر أظن أنّه في وَسَطِهِ ، كاتب الشمس البَلاَطُنُسي [٣] في أمر الحميد بن أبي حنيفة ، وأَنَّ نَفْيَه لا يَحِلّ ، ولا يَحْسُنْ ، ولا ينبغي السّكوت عليه ، واجتمع هو وجماعة من فضلاء دمشق ، مثل الشيخ زَيْن الدِّين خطَّاب الغزاوي ، بالجمال بن الباعوني قاضي الشَّافعيَّة ، وقَبَّحوا له ما وقع للقاضي حميد الدين ، وبالغوا له في الكلام ، فكسروا من سَوْرَتِهِ ، وَبرَّدُوا من حِدَّته ، فتكَلَّم فيه جَانَم أخو الأشرف بَرْسِبَاى ، وقال له : أقبح الأمور نَفْي العلماء من مملكتك ، إنما الذي ينبغي أَنهُ إذا سُمع بِعَالِمٍ في بغداد يطلب إلى حلب ، وإذا كان في حلب يُسْتدعى إلى دمشق ، وإذا كان في دمشق يُسْتجلب إلى القاهرة ، فرسم بردِّه إلى حلـب .

---

(١) السابقية : مدرسة داخل درب قرمز من خط بين القصرين ، أنشأها الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأنوكي ، مقدم المماليك السلطانية الأشرفية سنة ٧٦٣ هـ ، وهي الآن معطلة الشعائر ، وتعرف بجامع درب قرمز راجع «خطط المقريزي» (٢/ ٣٩٣ ــ ٣٩٤) ، و«الخطط التوفيقية» (٦/ ٧) .

(٢) الكاملية : راجع « هامش ٢ » من (ص ١١٨) من القسم الأول .

(٣) هو : محمد بن عبد الله بن خليل بن أحمد بن علي بن حسن ، الشمس البَلاَطُنُسي الكردي الدمشقي الشافعي ، ولد سنة ٧٩٨ هـ ببلاطُنُس من أعمال طرابُلُس ، ونشأ بها ، ورحل إلى طرابُلُس ودمشق ، وتلقى عن مشائخها ، وبرع في الفقه والتصوف ، وجلس للإفتاء والتدريس والأشغال إلى أن مات ليلة الثلاثاء ٢٦ أو ٢٧ صفر سنة ٨٦٣ هـ .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٣٨٨ ـ ٣٨٩) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٩ ـ ٢٠٠) ، و « الضوء اللامع » (٨/ ٨٦ رقم ١٨٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦١) .

وفي هذا الحد[1] ، قدم الخبر ، بموت الشيخ قوام الدين الحنفي ، الذي أخذ عنه قضاء الحنفية القاضي حميد الدِّين ، فَكَأنَّه مات في أواخر ذي القعدة هذا ، فعظم تأسف النّاس عليه ؛ فلقد كان نادِرةً في هذا الزّمان ، فإنّه ما وليَ قضاء الحنفية مرة إلا بسؤالهم له فيه ، وما عُزِل مَرَّةً فأَتْبَعَهُ نَفْسه ، ولاَ تعمَّم له ، ولا سعى فيه ، وتكرّرَ ذلك له ، وما تغيّر عن حاله قط ، مع علم غزير ، ومشاركة في كثير من فنون العلم ، وعِفَّة باهرة ، وشَهَامَةٍ عزيزة ، ومروءة وافِرة ، وخلق حَسَنٍ ، رحمه الله .

وفي يوم الجمعة ثاني ذي الحجَّة الحرام سنة ثمانٍ وخمسين ، أُخرج الزَّين يحيى الإسْتَدَّار مِنَ القاهرة ؛ منفيّاً إلى القدس ، بعد أن أنزل من القلعة إلى بيت ناظر الخاص ، فمكث به أيَّاماً حتى غلّق عشرة آلاف دينار .

وفي أوائل هذا الشَّهْرِ أصلح محمد بن إيْنال المقربين من السلطان ، وظهر فَشفعوا فيه ، فتُرِك .

وفي سادس عشر ذي الحجّة هذا ، سافر الأمير بُرذْبَك الدّويدار إلى جهة المنزلة في البحر .

وفي سابع [عشره][2] أَخاف الأجلاب الوزير ، ونهبوا أو أتباعهم من بعض الدّكاكين ، ثـم أخافوا ناظِر الخاص ، وقصدوه في بيته ، ثـم كفُّوا عنه .

وفي هـذا الشهر مـات البرهان إبراهيم [3] بن عمر السُّوْبِيني بدمشق، كان في القدس ، ثم أُرسل إلى القاهرة ؛ يسـعى في رزق ، أو في

---

(١) في ليلة الخميس ٨ذي القعدة ، راجع «النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٧٣) .

(٢) في الأصل (عشريه) ، والتصحيح مِن مفهوم السياق .

(٣) راجع « هامش ٣) من (ص ١٤٨) من القسم الأول .

القضاء ، فلم يُجَب ، فرجع إلى دمشق ، فمات بها ، وكان فاضِلاً في الفرائض ، مشارِكاً في الفقه والنحو وغيرهما ، لكنه كان سيىء التصور ، واقف الدَّهر ، صنّف مصنّفات تدل على ذلك ، وولى قضاء مكّة ، وحلب ، وطرابلس ، ودمشق ، وأظهر حسن السِّيْرَةِ والعِفَّةِ الزائدة ، لكنه كان يميل على من يحنق عليه لحظ نفسي ، ويتجاوز في أمره عفى الله عنه آمين .

وفي يوم الاثنين رابع عشري [١] الشّهْر ، أَطْلع الإسْتَدار إلى القلعة أكثر نفقة المماليك وكانت تلك عادتهم ، أَنهم يُجَهِّزُونها ناقِصةً ، وينفقون على من حَضَر ، ثم يتابعون الحمل إلى أن يفرغوا ، فكان كاتب المماليك قَصَد أَذى الإسْتَدار ،فأبي أن يشرع في النفقة قبل التمام فنزل الأجلاب إلى بيت الإستدار، وهو آمن ؛ لأنّه لم يجترح ذنباً في أمرهم ، ولا خرق لهم عادة فنهبوه ، ولم يدعوا به شيئاً حتى قلعوا رخام بيته ، وأخذوا الخيل واسطالها[٢] وعدّتها ، وسلبوا الحَلَق والأساوِر من بناته ونسائِه ، وأَخذوا بعض جوارِيه ، وقُتِل ابن له مرضع [٣] ، وساء ذلك من في قلبه شفقة على المسلمين ، وكان من الغرائب أَنَّ الأمير بُرْدْبَك ما غاب عن القاهرة في أيَّام استاذه إلا حصل بها اختلالٌ ، وحضر في ليلة الثلاثاء خامِس عشريه ، فذكر للسلطان ما في السكوت عن ذلك من الاختلال ، وأنّ النّاس قد تجَاهروا بشرْب الخمْر وَبيْعه ، وبيْع الحشيش ، وأكثروا العبث في الطّرقات ، وعاثوا في الأرض بالفساد ،

---

(١) جاء في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٤) يوم الاثنين سادس عشرين ذي الحجة.

(٢) أسطالها : السَّطْل ، إناء من معدن كالمِرْجل ، له علاقة مركبة من عروتين جمع أسْطَال وسطول معرَّب (شطل الفارسية) .

« محيط المحيط »(٤١٠)، و« المعجم الوسيط »(٤٢٩/١ـ٤٣٠).

(٣) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٤) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٤٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٣) .

وأنه مطالب بهذا ؛ فإن الرَّعية ليسوا آمنين بغَلَبة أهل الفساد ، فطلب المحتسب وكلَّمه في أمر المنكرات ، فذكر أنَّ الأمر فشا فُشُوّاً لا يقدر معه على إنكاره إلا بمعونة من السلطان شديدة . وأخذ في تحرير أمر الَّذين نهبوا بيت الإسْتَدَّار ، من الأجلاب ، وأمرهم برَدِّ ما أخذوا فَرَدَّ بعضُهم ، ثم أَخذتهم الحميّةُ .

وفي هذا الشَّهْر عزل السلطانُ شاذ بك [1] دويدار نائب الشّام من دويدارية استاذه ، والوقوف على بابه للكلام في أمور النّاس ؛ لما تواتر عنه من الاخبار قبل سلطنة السلطان وبعدها ، من الامور الذميمة ، والمخالفة لِمَا يرد من المراسيم .

سنة ٨٥٩

وفي يوم السبت مستهل عام تسع وخمسين ، اجتمع الأَجلاَبُ [١٠٠] وقالوا : متى قُبض على أحَدٍ منا ، بسبب الإسْتَدَّار نَهَبْنا البلد ، ثم نزلوا لينهبوا فأراد مقدم المماليك ، ومَنْ معه من الطَّوَاشِيَّة المرتَّبين على باب القلعة منعهم ، فلم يستطيعوا ، فلما وصلوا إلى أَسفل المدرَّج رَدَّ بعضُهم بعضا ، وخاف الإسْتَدَّار ، فلم يستطع المضى إلى بيته في ذلك الوقت ، ثم استعفى من الوظيفة ، وأظهر العجز ، فَوَلّى السلطان قاسِماً [2] كاشف الغربيَّة يوم الأحد ثاني محرّم من السَّنَةِ ، واستمرت البلد في مثل جمرة نار ، ولسان الكون ناطِقٌ أَنَّ الجنّد يركبون على السلطان ، وأشاعوا أَنّ رأسهم يونُس ، وأنه حالف الظّاهِرِيَّة ، وكثيراً من أَصاغِر الأشرفيّةِ ،

ولاية قاسم الكاشف الاستدارية

---

(١) هو : شاذ بك دوادار قجماش نائب الشام ، قُتل في مصافقة بين عسكر الأشرف ، وعلي دولات بمكان يُقال له الاندرين في صفر ٨٨٩ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣/ ٢٩٠ رقم ١١١٢) .

(٢) جاء في « حوادث الدهور » (٢٢١) أن قاسماً هذا كان « صبياً من الحوشة ، ثم عمل غلاماً مدّة سنين إلى أن اتصل بخدمة الصاحب كريم الدين بن كاتب المناخ ، فرأى منه النجابة فرقّاه إلى أن وُلّي كشف الوجه الغربي ، فباشر ذلك سنين وأثرى وتموّل ورُشّح للإسْتَدَّارية فوليها » .

وكثرت الأقاويل وعظمت التَّهاويل ، وخاف الأكابرُ الجندَ المباشرين على بيوتهم ، فنقلوا ما فيها ، وصار كلّ منهم خائفاً يترقّب ، وجاهر السلطان الأمراءَ في ليالي الخدمة ، بأن يقول : ما هذا الكلام الكثير ، وما للذي في قَلْبِهِ شيء ما يبرز ويعمل ما ينقل عنه ، لكن الذي له غرض في الفساد معذور ، فإنِّي ما قتلت أَحَدَاً ولا قطعت رزق أحدٍ ، ولا عاملت أَحَداً بما تقضيه جريمته ، فربما يُظَنّ أن ذلك عن عجزٍ لا ، ولكِنِّي أريد إقامة الحجَّة ، فمن أبرز عنقه ينظر ماذا يفعل مما كان الناصر فرج يعامل به الْبرِيءَ والْجَرِيء ، فسكت الأمراءُ كلهم إلا جَانَم أخو الأشْرف فإنّه قال : نحن مماليك السلطان وسيوفنا ورقابنا بين يديه ، فأعجب السلطان منه ذلك ، وسرّ به ، وقال بعضَ من .. [1] ما يصلح لأَن يكون أَتابك العساكر إلا جَانَم [2].

وفي حادي عشر محرَّم هذا اتّفق من الأمور الغريبة ، أَنَّه ورد الخبرُ من نائب دِمياط الأمير بَيْغُوت ، أنه نُقِل إليه ، أنّ بعض المباشرين عند ناظر دمياط من النصارى كان عنده جمع بجوار جامع الزّكي ، وهم يتعاطون خَمْراً وما يلائمه من الفسوق متجاهرين به ، فأرسل النّائب من أحضره فضربه ، ونهاه عمّا كان فيه ، وأطلقه ، وكاتب الناظرُ ، ناظرَ الخاص بما أَراد من تزيين الشيطان من أنّ هذا الأمر يوهِن أَمره ونحو ذلك ، فتكلَّم في النائب فعُزل مع شيوع خيره ، ودينه ، وعفّته ، وفي أهل دِمياط به ، لأَنَّه ما ولي بلدهم مثله ، فكان ذلك من المصائب الَّتِي لا تلّبس عليها الثِّياب فلا قُوَّة إلا بالله .

---

(١) كلمة غير واضحة الرسم في الأصل لم نجزم بتصحيحها .

(٢) أشار (ابن تغري بردي) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٤) إلى هذه الأحداث وقال : «وفي يوم الأحد ثاني محرم سنة تسع وخمسين وثمانمائة ، أشيع بين الناس وقوعُ فتنة ، وكثر كلام الناس في هذا المعنى ، حتى بلغ السلطان ذلك ، فلم يلتفت السلطان لقول من قال» .

وفي يوم الخميس ثالث عشر محرَّم هذا ، مات مُغُلْ بَاي الشِّهابي [١]، وهو الذي نُسب إلى السِّفارة بين يونُس والظاهرية ، وكان من أمراء الظاهر[٢] وكان في هذه الايام بطَّالا، وكان منسوبا إلي العقل والدِّيانة .

وفي يوم الجمعة حادي عشري محرم هذا وصل كثير من الحجاج ، ثم تواتر وصولهم إلى أن قدم المحمل يوم الاحد ثالث عشريه [٣] ، وأخبروا عن مشاقّ حَصَلت لهم عظيمة من جهة البَرْدِ والمَطَرِ والسّيول ، وموت الجِمَال وضعفها ، وأذى العرْبان ، وأنّه حصل بينهم ، وبين طائفةٍ كبيرة من بني لام [٤] قتال ، ثم تركوهم ، ومَضَوا إلى ركب المغارِبة ، فخرجوا عليهم في خمسين فارساً ورواحل كثيرة ، وكانوا مُلَبّسين أَنفسهم وخيولهم لِبْساً كامِلاً ، وكانت خيول المغارِبَة قليلة ، فحصل بينهم قِتَالٌ شديد ، قتل المغارِبةُ منهم خمسة أنفس ، وأخذوا بعض خيولهم ، واقتطعوا هم من ساقَة [٥] المغارِبة نحو خمسين جملاً ، ولم يُقتل من المغارِبَة إلاّ شخصٌ واحِدٌ ، ثم تركوهم وَذهبوا إلى التكْرور ، فقاتلوهم قِتالاً شديداً طويلاً إلى أنْ مل الفريقان ؛ فتركوا القتال ، وتكلَّموا في الصلح ، فاستقَرَّ الحال بعد كلام طويل على أن يُعْطِيهم التَّكرور ألفاً وخمسمائة دينار ، فلما شَرَعوا في

---

(١) هو : مُغُلْ بَاي بن عبد الله الشهابي الناصري ، كان من مماليك الشهاب أحمد بن الجمال يوسف البيري الإسْتَادار ، ثم صار للناصر فرج ، صارخاً صكياً ، ثم رأس نوبة الجَمَدارية في أيام الظاهِر جقمق ، ثم أمير عشرة ، حتى أخرجها عنه الأشرف إينال حيث استمر بطّالاً .

له ترجمة في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٧٤) ، و « الضوء اللامع » (١٠/ ١٦٥ رقم ٦٧٦) وجاء فيها أن وفاته كانت ليلة عاشر المحرم .

(٢) أي الظاهر جقمق .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٢٢) ، « في يوم السبت ثاني عشرية وصل الركب الأول من الحاج . . ووصل من الغد أمير حاج المَحمل بالمَحمل » .

(٤) بني لام : من عرب الحجاز ، نسبة إلى لام بن عمرو بن طَرِيف بن عمرو . . بن قَطرة بن طيّ ، ديارهم جَبَلا أَجَا وسَلْمَى ، وظفير من لام ، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية .

« مسالك الأبصار / قبائل العرب » (١٥٣) ، و « صبح الأعشى » (١/ ٣٢٤) ، و « معجم قبائل العرب » (٣/ ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨) .

(٥) ساقة المغاربة : أي مؤخرتهم .

راجع معنى (السَّاقة) في « المعجم الوسيط » (١/ ٤٦٤) .

جبايتها مِنَ النّـاس أَبَت طائِفَـةُ الملثَّمين منهم أن يُعْطوا ، وقالوا : هذا خِداع و إذا أَخذوا مِنَّا أَعادُوا القتالَ ، فاشتجروا وكان فيهم جماعة كثيرون مِنْ المغارِبة ، فقالوا للعرب نحن من إخْوانِكم بني هلال [1] ، فقالوا لهم : اذهبوا في أَمان الله ، فذهبوا ، وكان التّكارِرَةُ قَلِيلاً فاستدار العربُ لهم مِن جهة الرِّيحْ وحملوا عليهم بعد ذهاب المغارِبة ، فكان الهَوَى يردُّ سِهام التّكْرُور ، ويُضعِف نكايتها ؛ فضعفوا ، فأخذتهم العربُ إلا قليلاً ، ومات من ركب المغارِبة في التِّيه [2] الفاضلُ البارع المفنَّن ، أبو عبد الله محمد [3] أخو علاَّمة الدُّنيا ، الشّيْخ أبي الفضل ولدا العلاَّمة الزَّاهِد ، شيخ الغرب أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم المَشَدالّي البجاي ، كان أبوه أرسله ليحجّ ، ويُحْضِر أخاه الشيخ أبا الفضل معه ، وكان الشيخُ أبو الفضل غير عازم على الرّجوع ، فَفُجع أَبوهما بهما مَعَاً ، هذا بالموت ، والشيخ أبي الفضل بالرِّضى بالغُرْبَة .

ثم بلغنا أنّ سبب خروج العَرَبِ ؛ أَنّهم كانوا سأَلوا أمير الكرك ، أَن يرعوا أموالَهم في بـلاده ، فأَذِنَ لهم ، فلـما اطْمأَنُّوا غـدَر بهـم ، فانْتَهَبَ

(١) بني هلال : وهم بنو هلال بن عامر بن صَعْصَعة ، من هَوازِن ، من قيس بن عَيْلان ، من العدنانية ، كانوا يقطنون الحجاز ، ونجد ، حول مكة ، وفي بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان ، كما قطنوا الشام ، ثم انتقلوا إلى مصر ، والمغرب ، وقد جازوا إلى المغرب منذ أول المائة الخامسة .

« مقدمة ابن خلدون » (٢/ ٥١٥) ، و « قلائد الجمان » (١١٧) ، » « صبح الأعشى » (١/ ٣٤١) ، و « البيان والإعراب » (٣٦) ، و « معجم قبائل العرب » (٣ / ١٢٢١ ـ ١٢٢٢) .

(٢) التيه : جاء في « معجم البلدان » (٢/ ٦٩) هو الموضع الذي ظل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه ، وهي أرض بين أَيْله (العقبة) وبحر القُلْزُم (الأحمر) ، وجبال السَّراة مِن أرض الشام ، مساحتها أربعون فرسخاً في مثلها ، وقيل : اثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ ، تغلب عليها الرمال ، وفيها مواضع صلبة ، ونخيل وعيون مفترشة .

(٣) له ترجمة في « الضوء اللامع » (٩ / ١٨٨ رقم ٤٦٧) وجاء فيه أنه أتم عقلاً من أخيه ، وأصح فهماً ، وأحفظ مع اشتراكهما في التخليط ، وأن وفاته كانت ليلة العشرين من المحرم ، وقيل أنه مات قبل الحج .

أموالهم ؛ فقصدوا الحجاج ليفعلوا فيهم ما يُنْكي السلطنة ، وتعود اللائمة به على نائب الكرك[1] .

وذكر الحجَّاجُ ، أنه انقطع منهم ناسٌ كُثُر من فقد الجمال ، فأرسل القاضي ناظِرُ الخاص الجمال يوسف بن كاتب جَكَم إليهم من أَتَى بهم على جمال اكتراها لهم ، فكان له بذلك خَيْرٌ عظيم ، وذِكْرٌ جميل ، حَسَدَهُ عليه العاجزون ، من أَهْلِ الخير أدام الله توفيقه .

وفي جُمُعَ هذا الشهر ، لا سِيمًا بعد شيوع اضطراب الأتراك ، كثر الفسادُ في أطْراف القاهِرة بالقتل والنّهب .

وفي يوم الثلاثاء خامِس عَشْرِي الشَّهْر قَبَض منصور بن الطبلاوي ، والى مصر على ثمانِيَة أنفس مِن العبيد ادَّعى أَنهم كانوا يُفْسِدون ، وطلع بهم إلى السُلْطان ، فَسُرَّ بِهِمْ ، وألْبَسَه خِلْعَةً ، وسُمِّروا ، ونُودِي عليهم ، وهو وراءهم إلى ناحِية باب النَّصْر ، فضرب أوْساطهم ، ثم صَحَّ أنّ فيهم من لَيْسَ له جرمة ، وأَنَّها كعادَتِهِ في تَرْوِيج أموره ، كما كان يَعْمَل وهو والي ، من أنَّه يأخذ كل يَوْمٍ مِنَ السِّجْنِ ناساً ، يعرضهم على السلطان ، ومعه أَمتعةٌ مِن بيتِهِ يخبر أنه وَجِدَها معهم ، قد سرقوها ، فيضربهم ويأتي بهم قدَّامه إلى بيته ، ينادي عليهم ، ويا لَيْته فعل في هؤلاء كذلك ، بل سمعتُ أنّ منهم من لم يكن في السِّجن ، بل منهم من كان سيِّده قد بعَثَه يقضي له حاجَةً ، فقبض عليه من وَسَطِ السُّوْق ، وطلع يَشْكوا حاله للسلطان ، وأخذ معه من يشهدُ له ، بأنّه أرسل عبده في تلك السَّاعة ، لأمْرٍ سمّاه ، فلم يمكّن من الدّخول ، فلا قُوَّة إلا بالله .

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٢٢) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٤٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٤) .

[١٠١] وفي هذا الشّهر ، عُزل زينُ الدِّين رِضْوان بن الأعسر عن قضاء المالِكِيَّة بغزَّة ، وَقَدِم القاهِرة فأُخْرج منها في زِنْجِيرٍ ، وكان مستحِقّاً لذلك ؛ لإمورٍ منها : أنَّ أَبّاه كان مِنْ أكابر الشّافِعِيَة ، وحفظ هذاالمنهاج ، وسعى أوّلاً في قضاء الشّافعية ، فلما امتنع عليه ذلك ، سعى في قضاء المالِكِيّة ، ومنها أنَّه نشأ بزَيِّ الأجناد ، وسعى في أن يكون حاجِباً بغزَّة ، ومنها عَرَى عن العلم في كل مذهب ، ومنها أنه من الظلم والجبروت والعتُوّ على جانب عظيم ، وَمَا كان سبب تقدُّمه إلا أنّ السلطان كان وهو نائب غزّة يعرف أباه بالعلم والعظمة عند الخاص والعام ، فأتَّفَقَ أنّ قاضي الشافعية بغزة الشّرف موسى بن مفلح أرسل هديَّة إلى المقر الشهابي ولد السلطان ، فقيل لرضوان : إنه كاتب فيك ، وأرسل يسعى في قضاء المالِكية لشخصٍ يُسَمَّى ابنُ عيد ، والكتاب مع المُتَسَفِّربالهديّة ، فلحقه إلى خان يونُس ، فطلب منه الكتاب فأنْكَرَه ، فضربه ضَرْباً شديداً وفتَّش أمتعته فأخرج الكتابَ وأَخذه ، فلما وصل المُتَسَفِّرُ أَخبر ابنَ السلطان بذلك ، فعزله ، فجاء ليسد القضية ، فأمر ابنُ السلطان بإخراجه من القاهرة في التّرْسِيم ، فنزل إلى بيوت بعض الأكابر ؛ لِيَسْعى له في رِضى ابن السلطان ، فبلغه ذلك ، فغضب من مكثه بالقاهرة بعد أمْره له بالخروج ، فأخرجه في زنجير ، بعد أن ضربه .

وفي هذا الشهر ، عـزُل أمير يَنْبُع ، الشريـف مُخَدَّم بـن عقيل ؛ لأخذ العرب للحجـاج في بـلاده ، وولّى الإمرة بهـا الشـريف . . [١] بن هجّـان [٢] ،

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

(٢) ورد في « حوادث الدهور » (٤٨ ، ٢٩٨) ، و « الضوء اللامع » (١٠/ ١٥٠/ ٢٠٨) هَجَّان بن محمد بن مسعود الضويمر .

والتزم برد ما أخذ العربُ وجُهِّزَت مراسيم إلى نائب الكَرَك ، بأن يُرَكِّب وراءهم بجنده وعشْرانه ، ويقتل منهم ويأسر من يُقْدِرُه الله عليه ، فكانت هذه من محاسن القضايا ، لكن عندي أنه كان من تَتِمَّاتِها أن يُرسل إلى أمير المدينة الشريفة ، وأمير آل نعير ، وَيُؤمر الأرْبعة بأن يسير كلٌّ منهم من جانبه ، ويأخذوهم في الوَسَطِ إلى أن يجتمعوا في مكان يُسَمَّى لهم والله الموفِّق .

وفي هذا الشّهر ، طُلِب ناصر الدين محمد بن خثعم ، خَفير[1] الخانْكة ، وأُلْزِم بخفر الحُسُيَنِيَّة ، وهي الخرائب التي في طرف القاهرة مما يلي الشّام ، فأبي وقال : هذا يشغلني عن دركي[2] ، وهذا شيء لم تَجْرِ لي به عادة ولا لِأحد كان قبلي ، وهذا من درك والي القاهرة ، فلم يُقبل منه ذلك ، وهُدِّدَ بالتوسيط ، فراجع إلى أنْ تَحَقَّق أنّه إن لم يفعل قُتِل ، فأجاب ثم ذهب إلى الخانْكة فتحمّل بأهله ومن يعز عليه ، وذهب في البرِّيَّة ، فكانت هذه من مساوىء الأمور ؛ وذلك أَنَّه كان خير حافظٍ للخانْكَةِ وجميع طرقها ، يأخذ بعض المفسدين بالسَّيْفِ ، وبعضهم بالحيلة ، وبعضهم بالتَكَرّم عليه ، والمحاسنة له ، فكان عديم النَّظَرِ في ذلك ، وبلغني من وَجْهٍ صحيح ، أَنَّه كان لا يبيت إلاّ على ظهر فرسه بالسِّلاح واللّبْس الكامل ، ولا ينام من الليل شيئاً ، فلا قُوَّة إلا بالله ، ثم وُسِّدت إلى شخصٍ من أقاربه يُسَمّى أبا بكر .

---

(١) خَفير : حارس .

راجع « محيط المحيط » (٢٤٤) ، و« المعجم الوسيط » (١/٢٤٦) .

(٢) جاء في « المعجم الوسيط » (١/ ٢٨١) « .. ورجال الدَّرك : الشُّرطيّون ؛ لإدراكهم الفارّ والمجرم » .

وفي هذا الشَّهْر أَيْضَاً عُثر على أَنَّ السّراج الحِمِصِي سَـرَق عَلَامَةَ صهره أمير المؤمنين ، وكتب تحتها كِتاباً على لِسان الخليفة إلى السلطان محمد بن عثمان مَلِك بلاد الرُّوم يُؤانِسَه بالكلام ، ويطلب مِنْه هَدِيَّة ، فَسُرَّ بذلك ابن عثمان ، وأرسل ما طلب منه ، فحقَّق ذلك ما يُظنّ في الحمصي من الجُرْأة ، وقِلَّةِ الدِّيْنِ ، فزاده بُعْدَاً مِن قلب السلطان ، فمنعه مِنَ السَّلام عليه ، وأرسل إلى أمير المؤمنين ليَمنعه من السكنى عنده ، فسكن في القَرَافَةِ عنده في مَدْرسة الإمام الشّافعي التي هو مدرسها .

وفي بكرة يوم الخميس خامس شهر صفر سنة تِسْعٍ وخمسين وثمانمائة ، نزل الدويدار الكبير يونُس من القلعةمَرِيْضاً، فشاع بين النّاس أَنّه سُقي ، وكثر ذلك ، ثم عُوفي عن قرْب ، ومع ذلك فاستمر الناس في قلقلة ، تارة مِن الحديث بركوب الجند ، وتارة بتغّلب الوزير في اللّحم ؛ فَيُثَوِّر ذلك المماليك الأجلاب إلى أَنْ كان نصف صفر هذا ، فقال الأَجْلاب : ما نأخذ في الجامِكِيَّة إلاَّ ذهباً ، وما نأخذ ثَمَن كل أَلْفَي درهمٍ فلوساً إلاّ سبعة دنانير ، وكان سِعْر الدِّينار إذْ ذاك بثلاثمائة دِرْهم وسبعين دِرْهماً ، فكان التَّفَاوُتُ كبيراً ، وقاموا قِياماً صَعْباً ، فمنعوا مَنْ عِنْدَ السلطان مِن المباشرين وغيْرِهم من النزول ، وغيرهم مِن الطّلُوعِ ، فغُلِّقَت أبوابُ القَلْعَةِ ، وقال السُّلْطان : ما صَـرَفْت في أوّل ولايتي وإلى الآن إلاّ فِضّةً ، فَمِنَ الآن لا أَصْرِف إلا فلوساً ، أَوْ عسلاً ، أَوْ نحو ذلك ، كما كان على أَيّام مَنْ مضى من الملوك ، واستمرّ الحالُ إلى العصْرِ فخمدوا ، ونزل المباشِرون ، وأرغبهم الله ، فرضوا بأخذ الألفين .. كيف ما كان ، والله تعالى المسؤول في إصلاح الأحوال ، وتبليغ أحسن الآمال(١) .

---

(١) الخبر في «حوادث الدهور» (٢٢٣) .

وفي هذا الحدّ ، قَدِم ، شَرَفُ الدِّين موسى ناظر جيش طرابُلُس ابن خالة الجمال يوسف ، ناظر الخواص الشريفة .

وفي يوم الخميس ثامِن عشر الشهر ، قُبض على الشّهاب أحمد البولاقِي المغَرْبل ، المعروف بالمدني ، بو شاقِيّة [1] كثيرين . فأنزلوه عن بغلته ، وسحبوه سحْباً عنيفاً ؛ بسبب قضيَّةٍ قِيْلَ : إنه زوَّرها ، وكان مَعْروفاً بالسَّعْي في ترويج الأمور الباطِلة المحقَّقَةِ الزُّوْر ، وتمْشِيتها على قانون الشّريعة ، وله في ذلك وقائع كثيرة مشهورة ، ثم عُرِض على السلطان ، ثم طلبه يوم السَّبْت العشرين منه ، فضربه على أكْتافِه ، ثم أمر بسجنه في المقْشَرة .

وفي هذا الحدّ، أُعيد ناصر الدين محمد بن خثعم إلى غَفَر الخانْكةِ على ما كان عليه ؛ وسبب ذلك أنّه كان محْسِناً إلى أَهْلِ الخانْكة قائِماً بما يجب عليه حفْظه على أَتَمّ وجه ، فلما غَيب شقّ عليهم ، فلما لاقى القاضي ناظر الخاص ابن خالته الشَّرَف موسى ناظر جيش طرابُلُس استغاث به أهلُ الخانكة في إعادَته إليهم، فأرسل إليه من أمّنه من السلطان، وضمن له أنه[١٠٢] يلزم بما لا يـلزمه فحـضر إلى الشيخ المعتقد [2] إبراهيم المتبولي

---

(١) يفهم مما جاء في « مسالك الأبصار / دولة المماليك الأولى » (٩٧ ، ١٠٣) ، و « صبح الأعشى » (٢ / ١٣٣ ـ ١٣٤ ، ٤ / ٨) ، و « كتاب زبدة كشف الممالك » (١٥٥) أنهم فرسان مسؤولون عن إصطبل السلطان . ومن شعار دولة المماليك أن يركب إثنان من الوشاقِيَّة أمام السلطان في بعض المناسبات على فرسين أشهبين برقبتين ، نظير ما يركب السلطان .

(٢) هو: إبراهيم بن علي بن عمر، برهان الدين الأنصاري المتبولي ثم القاهري ، أحد المُعْتَقدين ، قدم من بلده متبول من الغربية إلى طنتدا ثم القاهرة ، ونزل بظاهر الحسينية بزاويةٍ هناك بدرب التتر تُعرف بالشيخ رستم ، ثم تحول إلى زاويةٍ بالقرب من درب السباع ، ثم انتقل إلى برْكة الحاج ، وأنشأ فيها زاوية كبيرة ، وبستاناً وسبيلاً . مات عند توجهه لزيارة القدس والخليل بمكان بين غزة والرَّمْلة يُقال له سدود ليلة الاثنين ١٨ ربيع الأول سنة ٨٧٧هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١/ ٨٥ ـ ٨٦) ، و « نظم العقيان » (٢٣ رقم ٧) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٤٥) وجاء فيه أن سدود (أسدود) مكان في المنوفية .

إلى القرْية التي أنْشأها في بركة الحاج ، فحضر معه إلى ناظر الخاص ، فطلع به إلى السلطان ، فخلع عليه ،وَوَلاه ما كان معه من الغَفَر من غير زيادة .

وفي يوم الاثنين ثاني عشري الشهر المذكور ، وهو صفر سنة تسْعِ وخمسين وثمانمائة ، مات الأمير شهاب الدِّين أحمد [1] بن أخي الجمال الإسْتَدَّار البيري الأصل المصري ؛ بعلَّة الفالِج [2]، وكان أحدَ الحجَّاب في القاهرة ، وكان منسوباً إلى عقلٍ كبير ، ورأى سديد ، ومالٍ كثير ، وَوَلِيَ حجوبية السلطان بإسكندرية على أيّام الظَّاهِر ، نحو سنة سبع وأربعين، ثم استعفى منها ، وكانت سنّه نحو ستين سنة رحمه الله .

وفي يوم الأَرْبِعاء ، رابع عشري الشهر ، ورد الخَبَرُ أن نائب الشام جُلُبَّان [الأمير آخور] [3] مات [4] في اليوم السّابع عشر [5] منه ، وكان شيخاً كبيراً ، أظُنُّه مات وهو في حدود التِّسعين ، وكان خفيف الوْطأة على أَهْلِ دِمَشْق بالنّسْبَةِ إلى غيره ، وعُيِّن [6] نائبُ حلبٍ قانِبَاي الحْمزاوي لنيابة الشام .

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن قاسم ، الشهاب ابن الشمس العثماني البيري الأصل ، ثم الحلبي القاهري ، المعروف بابن أخي الجمال الاسْتَدَّار .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٣٦٢) ، و « النجوم الزاهرة » (٢/ ٨٣ رقم ٢٤٧) .

(٢) الفالِج : شلل يصيب أحد شقيّ الجسم طولاً .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٩٩) .

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر « هامش ٤ » .

(٤) راجع « هامش ٣» من (ص ٣٤٦) من القسم الأول .

(٥) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٧٤) يوم الثلاثاء سادس عشر صفر .

(٦) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٤ ـ ٨٥)، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق)(٢/ ٤٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٤) .

وفي يوم السَّبت سابع عشري الشهر ، اختفى الوزير سعد الدين ، الشّهِير بكاتب المماليك ، فَوُلِّيَ الوَزَر [شمس الدين نصر الله] بن النَّجار يوم الاثنين تاسع عشري الشهر (١).

وفي يوم الثلاثاء مستهل شهر ربيع الأوّل ، ولي السراج الحمصي قضاء الشافعية بدمشق ؛ وذلك أنّه لما بلغ السلطان أن الجمال الباعوني أثبت وصيَّة نائب الشَّام ، وفيها أنّه أَقَرّ أن عليه نحو خمسين ألف دينار لناس مُفَرَّقِين من التُّجّار ، فغُضب عليه لذلك(٢) .

وفي يوم الخميس ثالث الشهر ، ولِيَ الشهابُ بن الزهري قضاء الشافعية بحلب ؛ وذلك أَنَّ قاضيها الشّريف تاج الدِّين عبد الوهّاب الحسيني(٣) الدِّمشقي كثر إرساله في الاستعفاء من ذلك ، واشتَدَّ سعى هــذا .

سفر الأمير بُــرْد بَـك إلى الشّـام

وفي يوم الجمعة رابعه سافر الأمير بُرْدبَك الدويدار الثاني من القاهِرة ؛ لضبط تركة نائب الشّام جُلُبَّان ، وتسليم جَانَم أخي الأشرف مدينة حلب ، فوصل إلى دِمشق يوم الجمعة ثامن عشـره ، ولاقـاه مَـنْ بهـا من

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ٨٥) .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٢٤) وجاء فيه ، أنه اعترف بأن عليه نحواً من ثلاثين ألف دينار .

(٣) هو : عبد الوهاب بن عمر بن الحسين بن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة بن محمد . . التاج الحسيني الدمشقي الشافعي ، ولد بعد سنة ٨٠٠ هـ بدمشق ونشأ بها ، رحل إلى القاهرة ، وأخذ عن بعض شيوخها ، وناب في قضاء دمشق ، ثم استقل بقضاء حلب وحُمدت سيرته ، له مشاركة في عدة فنون خاصة الفقه والفرائض ، مات في مكة يوم الأحد ٢ جمادى الأولى سنة ٨٧٥ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٥ / ١٠٦ رقم ٣٩٠) .

الأُمراء وقضاة القضاة والمباشرين ، وغيرهم إلى قبه يَلْبُغَا ، وبعضهم لاقاه إلى أبعد منها[1] .

وكان أبو الخير النَّحَّاس بدمشق ، فكان ناظر الخاص خاف من اجتماعه بالأمير بَرِدْبَك حدوث فساد ، إمَّا بأن يدله على عَوْراته ، أو يُزَيِّنَ له أن يشفع له في رَدِّه إلى القاهرة ، أو نحو ذلك من الأمور التي يُتَوقَّع منها ضربٌ عليه ، أو على من يلوذ به ، فتوصَّلَ إلى كِتابَةِ مرسوم بِنَفْيِهِ من دمشق الي حماة ، ثم ارسله مع ساعٍ ، وأمره بتعجيل السَّيْر ، ليصل قبل الامير بُرِدْبَك ، وكتب الي الحاجب بانه حال وقوفه علي المرسوم يخرجه من دمشق ولا يؤخِّرَه بها ساعة واحِدَة ، ففعل ذلك ، ونُفِيَ قبل وصول الأمير بُرِدْ بَك بيوم [2] .

وكان ولَدَا [3] نائب الشّام ، وجماعةٌ مباشِرِيَّةٌ قد تَوَجَّهوا إلى القاهرة فمنعهم الأمير بِقَطْيا مِن الجواز ، فَرُدُّوا واحتال [4] شاذِ بَك دويداره الكبير إلى أنْ جازها ، فظفر به الأميرُ بُرِدْ بَك بالقرب من بِئْر قَرَاجَا فَرَدَّه معه مُرَسَّماً عليه ، ثم لحق بقية جماعة نائب الشام في خان يُونُس دون غَزَّة[5] ولمـَّا وصل إلى دِمَشْق شرع في ضبط التَّركة ، وأعلم مباشريه

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٢٥) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٤٩) . و «بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٤) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٢٥) ، « وفي هذه الأيام رَسَم السلطان بتوجه أبي الخير النحاس من دمشق إلى طرابُلُس على حاله بطَّالاً من غير إكرام ، ولا احترام ، فوصل إلى طرابُلس في أواخر الشهر المذكور .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٢٤) ولد جُلُبّان الأكبر .

(٤) هو : شاذ بك الجُلُبّاني ، أتابك دمشق ، وصاحب المدرسة التي بالقنوات منها ، مات في جمادي الآخرة سنة ٨٨٧ هـ ، ودفن بمدرسته .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣ / ٢٩٠ رقم ١١٠٠٦) وراجع أخباره في « حوادث الدهور » (٢٢٤ ، ٢٥٤ ، ٤٠٠ ، ٦٢١ ، ٧٥٨) . وجاء فيه (شاد بك) .

(٥) في « حوادث الدهور » (٢٢٤) أن سبب توجه هؤلاء ، هو المصالحة عن موجود جُلُبّان

أَنَّ السلطان رسم أَنْ يُؤخذ من التّرِكة مائتا ألف دينار ، فجزعوا من ذلك ،وراجعوه القَوْلَ إلى أن نَزَل إلى مائة وعشرين أَلف دينار ، عشرين له ، ومائة للسلطان ، ثم شرعوا في تقويم ما خَلّفه من المتاع : المماليك ، والخيل ، والقماش ، وغير ذلك .. وحَبَس جماعة النائب : دويداره ، واسْتَدَّاره ، وكاتب خزانته في القلعة ، وصار يطلبهم إلى الإسطبل ، وإلى البيت الذي نزل فيه وهو في ناحِيَة المنيبع مشاة وتكرر منه ذلك مرَّةً بعد أخرى ، فشَقّ ذلك عليهم ، وأَظْهروا الجَلَد ، وأنّه لا مال معهم ، وخاف الدويدار من منع أهل الشام لهم ؛ لكون ما يفعله مخالفاً للشّرْع ؛ من جهة نقض الوصية الثابتة على القضاة ، ومن جهة أن للنائب من الأولاد الذكور وغيرهم من يسْتَغْرِق التَّرِكة ، وكان لِأَهل الشّام سوابِق في معانَدَةِ الملوك ورَدِّهم عن أغراضهم ومنْع الله تعالى لهم مِمّن يُرِيدهم بِأذى ، فكان بُرْدْ بَك كلّ يوم في وَهْن وَجَمَاعة النائب كل يَوْم يزدادون من القَوّة بمقدار ذلك الوَهْن إلى أن رضى منهم بخمسين أَلْف دينار فَسّفَّه ذوي العقول عَقْله ، وعقل من أَرْسَله ، واسْتَسْفَلوا هِـمَمَهُـم ، واستفسدوا آراءهم ، وأَجْمعوا أنّه لو حصل في هذا الأمر تدبيرٌ سديد حصل ذلك من واحِدٍ من المباشرين ، وأَنّهم لو مكّنُوهم من الوصول إلى القاهرة ، وَرَسّموا عليهم هنالك ، وهدَّدُوهم بأن يُرَدُّوا إلى الشَّام في زناجير ، وَوَعَدُوهم بأنهم إنْ أَرضوهم ، أحسنوا إليهم ؛ لبذلوا أَضْعاف ذلك ، واستراح السّلطان من شناعة الدخول في تركة لها وُرَّاث تستغرق ، وَمِنْ فَتْح باب مصادَرَة الأَتراك التي يُخْشى منها على جماعته من بعده مثل ذلك [١٠٤] ، ودويداره صهره ، من الدّخول في هذا الأَمْر ، الذي يزري به ، لِأن العادة جارِية في مثله ببعض البريدية من أولاد النّاس فإن عَظُمَ فبعض الخاصْكِيّة ، ولذلك لم يصف عامة النّاس بُرد بَك إلا بالخاصكي ،

والحاصل أنه جمع في هذه القضية بين الإفحاش والشَّنَاعَةِ ، وقلة المُتَحَصّل .

وقد سألهم عَلَمُ الدين الدِّيوان الذي كان لنائب الشَّام قبلهم أن يحاسب مباشري النائب وتثبّت في جهتهم ما اختلسوا من الأموال على اسم النائب مما لا حقّ له فيه ، فتؤخذ منهم ؛ لكونها لبيت المال ، لا حقّ للورّاث فيها ، وهي مِقْدَارٌ كبير ، ربما تكون أكثر من القدر الذي حصلوا عليه ، فلم يُلتفت إليه ، ولو أَوْهَموا بذلك ، لبذلوا أكثر مما بَذَلوا في أسْرع مُدَّة .

وكذا ضَرَّة زوجة النائب ، نَبَّهَت على أمور جليلة ، فلم يُلتفت إليها ، إلى غير ذلك من الأمور ، والله الموفّق .

وفي يوم الجمعة ، رابع عشري شهر ربيع الأوّل المذكور ، بعد الصلاة وُلِد وَلَدي محمد أبو اليُسْر مِن سعادات بنت الشَّيخ نور الدِّين البُوشي أسعدها الله ، وكنت مُسَافِراً بدمشق فأتاني بذلك كتابُ القاضي شمس الدين الونائي زوجِ جدّته منتصف يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر ، فقرأته مع آذان ظهره ، فحصل من الدُّعاء له في ذلك الوقت ما يُرْجى قبوله وبركته ، وكان يوم وِلَادته موافِقاً للنصف الثاني من آذار ، أحد شهور السُّريان ، فكان ذلك مقاربا لوقت ولادة النبي ﷺ ، فإنه في ثاني عشر ربيع الأول ، الموافق لشهر نيسان ، فأرسلت جواب الكتاب:

لله دَرّ كتــــاب منــــك وافــــاني	بطلعــة الـولـــد الميمــون هَنَّــــاني
في شــهر مولــدِ خيـر الخـلق مـولدُه	ونصـــفُ شــهرٍ أتى مِنْ قبل نَيْسان
فالقــرب في زمـــن المَيلاد فــاز بــه	في شــهر عــُربٍ وفي شــَهرٍ لسُرْيان
وحــاز أعـدلَ مــا في العــام مقتبــلاً	خــيرات بــارئــه في خيــْرِ أزْمــان
ســـرٌّ يُشــيــر بــأنَّ الله منْبِتــُه	للـــدِّين في حفــظ أخبــار وقـــرآن
ويجـمع الســـنَّةَ الغَرَّاءَ مقتفــياً	لأعلــمِ الخلقِ مــن قاصٍ ومــن دان

وكنت قد أوصيتهم قبل السَّفر أن يُسَمُّوه محمداً ، ففعلوا وتركوا أمر الكُنْية إلىّ ختامه كتاب البشرى ، فوجدت فيه وقد حصل (يعنى وقت الولادة) غاية اللطف والتّيْسير ؛ فاخترت أن تكون الكُنْية إحدى اثنتين : أبو اللطف ، وأبو اليُسْر ، وجعلت الخيرة في ذلك إلى أُمـة وجدَّته وزوجهـا ، فما وقع اتّفاقهم عليه كان ، والمرجو من كَرَمِ الله ، أن يكون قد رضِيه ، وجعل فيه العافِية والرَّحْمَة والبركة والنّعمة .

وقد رأيت في المنام ليلة أَتَاني الكتاب بالبشرى ، أَنّي جزت في طريق على وَرَقة ملقاة ، فهممت أَنْ أَرْفَعها ، ثم قلت سيرفعها أهلُ هذا البيت الذي إلى جانبها ، ثم خطر لي ما وقع لبشر [1] بن الحرث الحافي ، من أنّه مَرَّ على ورقة ملقاة فيها اسم الله ، فرفعها ؛ فنودِي من جانب الحق تعالى : طَيَّبت اسمي ، لأُطيبن اسمك في الدنيا والآخرة ، فرفعتها ، فإذا فيها: بسم الله الرّحمن الرّحيم ، وفي جانب آخر الحمد لله رب العالمين ، فطويتها لأضعها في جدار إلى جانبي ، ثم تذكّرت أَنَّ بِشْراً وضع تلك الورَقة في رأسه ، فوضعتها في رأسي فأوّلْتُ ذلك ، أنّ الله يشيع لي ذكْراً صالِحاً ، فلما أتتني هذه البُشرى ، رجوت أن يكون لهذا الوَلد في ذلك حظٌّ عظيم ، وأنِّي أُذْكَر به ذِكْرَاً حسناً من بعدي والله تعالى المسؤول في بلوغ السّؤل ومن عجائب هذا الولد المترقبة حققها الله تعالى .

---

(١) هو : بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء ، أبو نصر المَروزيُّ ، ثم البغدادي ، المشهور بالحافي ؛ لأنه كان لا يلبس نعلاً ، ولد سنة ١٥٠ أو ١٥٢ ، أصله من مَرْو من قرية يقال لها بَرْسام ، سكن بغداد ، وكان من أولاد الرؤساء والكتّاب ، كما كان من كبار الصالحين ، وأعيان الأتقياء المتورعين . مات يوم الجمعة من شهر ربيع الأول سنة ٢٧٧هـ ، وقيل : في شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ وقيل في ذي القعدة سنة ٢٣٨هـ ، في بغداد ، أو مرو .

له ترجمة في : « تاريخ بغداد » (٧/ ٦٧ _ ٨٤) و«وفيات الأعيان» (١/ ٢٧٤ _ ٢٧٧)، و«سير أعلام النبلاء»(١٠/ ٤٦٩_٤٧٧)، و « تهذيب التهذيب »(١/ ٤٤٤_ ٤٤٥) .

ما حَدَّثني به القاضي ناصر الدين [١] محمد بن القاضي شمس الدين محمد الزِّفتاوي بالقاهرة قبل سفري ، أنه بات ليلة السَّبت سادس عشري ذي القعدة سنة ثمانٍ وخمسين وثمانمائة ، وقد حصل له ترددفي قوله تعالى في سورة النُّور ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [٢] هل هي منصوبة أو مرفوعة ، قال : فرأيت أبي في المنام واقِفاً عند سلّم بيتك على باب سرّ المسجد (يعني مسـجدي الذي أَنا نازل بعلوه) قال : فقرأ أَبي الآيَة حتى ختمها ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ والله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَاب ﴾ [٣] وقال : بالفتح . فقلت : يا أبي ، لِمَ أنت واقِفٌ هنا . فقال : ابن الشيخ برهان الدين كان مع العبد ، فنزل به من السّلّم ، فأشرف على أن يقع به . قال : وكان أَبي جاء ليحفظه مِنَ الوقوع . قال : فقلت له : الشيخ برهان الدِّين ليس له ولد . فقال : نعم له ولد . قال : فسكتُّ إجلالاً له عن المراجعة . قال : ونظرت فإذا فَتَاك عمرو ونازِل من سلَّمك بصبيٍّ سنّه نحو ثلاث سنين ، ثم انفتل في السلَّم ، فكاد أن يَرْمي الصغير ولم يَرْمِهِ ولا حصل لِأَحد منهما ضررٌ فَلَمّا حَدَّثني بهذا المنامِ قال لي : هَلْ عِنْدك حاملٌ ؟ فأخبرته : أَنْ نَعَمْ ، فقـد حَقَّقَ الله الحمـلَ

---

(١) هو : محمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد ، ناصر الدين أبو اليمن بن الشمس أبي عبد الله بن الجمال بن الشهاب الزفتاوي الأصل القاهري الشافعي ، وُلد سنة ٧٨٥ هـ بالقاهرة ونشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم ، والعمدة ، والتنبيه ، والمنهاج الأصلي ، وألفية بن مالك ، ناب في القضاء عن الجلال البُلْقيني ، كما وُلِّي قضاء الإسكندرية مرة عوضاً عن الجمال بن الدماميني ، مات ليلة الجمعة ٩ جمادي الأولى سنة ٨٧٦ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٩/ ١١٦ رقم ٣٠٢) .

(٢) سورة النور آية/ ٣٨.

(٣) سورة النور آية ٣٨ .

وكوّنه صبيّا ، وهو المسؤول في تحقيق ما بقي مما تضَّمنَته الآيـة .
ومن عجائب أمر هذا الولد ، أنَّه مع شَبَهه لي في شكْله شابهني في هَيْئَتِي عنـد الميـلاد ؛ فإنِّي ولـدت (كما أخبرتني أمّـي فاطمة بنت علي بن محمـد السُّلَيمي ـ بالتصغير ـ وكانت امرأة صالِحة) مِن غير صراخ ، بحيث ظُنّ أنِّي ميِّت ، وتُرِكت مُلْقى من غير ساتر ، حَتَّى تأمَّلَتني بَعْض نساء أعمامي ، فأشفقت عَلَيّ وَوَدَّت حَيَـاتي ، فاسْتَدْعت بكبريت[1] أو نَحْوه ، فلما شَمَمْتُه عطست ، وكذا اتّفَق لهذا الولد ، لم يـصرخ ولا تَنّفـس، فلم يُشَكّ في موته إلاّ أَنّ القـابِلة ألبسته ما كانوا أَعَدُّوه له ، ثم أشمَّته شيئاً فعطس ، وأخبرتني أُمُّهُ ، ومن له خبرة من نسائهم أَنّ وِلاَدَته كانت في الشهرِ الثـامِن من حملِهِ ، حقّـقَ الله له كلَّ خَيْر ، ودفـع عنه كل ضـرّ. واستمر بعـد الولادة نحـو شـهرين لا يَقْدِرُ على التِقَامِ ثَدْي بل كانت خالته لِأمّه فاطِمة بنت الشَّيْخ نور الدَّين البوشي . تحلب مِن ثَدْيها اللبن وتقطره في فمه ثم صار بعد الشهرين يشرب من الثدي لكنه كان لايحب لبن أمه أما ثديها الأيسر فكان لا يَشرْب منه أَصْـلاً ، وأمَّا الأيمَن فكـان يشـرب منـه على كُرْهٍ ويتقيَّأ في الغالـب مـا يشـربه .

---

(١) كبريت : جاء في « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (٤ / ٤٩ ـ ٥٠) الكبريت يكون كامناً في عيـون يجري منها مـاء حـار ، ويُصاب في ذلك الماء رائحة الكبريت ، وهو على أربعة ضروب : أحمر وأسود وأبيض وأصفر ، وكلها حارّة يابسة لطيفة ، وجاء فيه أنـه حـجرٍرِخْو من جـواهر الأرض ، وأيضاً أنه حـار يتولّدمن البخار اليابس الحـار الدخاني إذا ماسّ شيئاً رطباً من البخار الرطب .

وحدَّثتني فتاتي حَسْبِيَ الله بنت خَلِصَه (بفتح المعجمه وكَسْرِ اللام وفتح المهملة) سلطان بلاد المسلات أنها رَأت في المنام قبل ولادته بيومين أنَّ نَعجَةً في خان ، وأنَّ تلك النَّعجة وَلَدت شيئًا على هيئة السَّمَكَة يظهر أنّه ليس به روح ، قالت : وإذا نساء لا أعْرفهنَّ . فقالت لي واحدة منهـــن : ماذا في نَفْسك ؟ تريدين ، أنْ يموت هذا الولد ، أو نُحييه ؟ فإنهم ليس فيهم خَيْر . قالت : فالتَفَتُّ إلى الجهة التي أَشرن إليها فإذا زوجتك وأمها . قالت : فقلت : بل تحيونه وشأنكم بالنعجة . فقالت : قُدَّامه بحر ، إن عاش ترين منه كل خَيْر . قالت : فقلت : ضعوه فى هذا السبيل (أُشير إلى زير فيه ماء) فَوَضَعْته فيه فَحَيِيَ ، فذهبت إلى البحر فجئته بإناء فيه لبن حليب ، وإناء فيه طعام أُحضر كأنَّه ملوخِيَّة ، فَسَقْتهُ المرأةُ مِنَ اللبن ، وأطعمته إناء من الملوخية ، قالت : ولما أخذت تلك السمكة بعد حياتها إذا حَطبةٍ تُدَخِّن دخانًا قويًا ، فدستها برجلى إلى أن أطفأتها لـــــم [أر] (1) بها نارًا ولا دخانًا ، ثم لم أر النعجة التي ولدتـه، ولا زوجتك ، ولا أحدًا من أقاربها ، والله المستعان . فكان تأويل هذا ولادته على الهيئة المتقدّمة ، وما حصل لي منهم بعد قدومي من الشَّرِّ الذي أفضى إلى مفارقتهم ، وتَرْك الولد عندي ، وحَضَنته حسبي الله المذكورة ، فكان لا يسكن إلاّ إليها ، وأرضعته عزيزة بنت عبد الرّحمن غلامي ، وكانت من أطيب النساء لبنًا فعُوفِيَ مما كان به ، واشتدّ وصَلُح على لبنها ، فتبيَّن أن ما حصل من أُمِّهِ مِنَ الشَّرِّ الذى أَفضى إلى فراقها كان مِن ألطاف الله إلى خَيْرٍ آمين .

---

(1) في الأصل (أرع) والتصحيح من مفهوم السياق .

وفي يوم السبت سادِس عشري الشهر قَدِم خُشْ قَدَم ، متسلِّم قانِبَاى الحمزاوي ، الذي نُقل من نيابة حلب إلى نيابة الشَّام ، وهو دويداره ، وله في خِدْمته مدة مديده ، وكان بعض أهل الخير خَوَّفه من صلحاء الشَّاميين في الأمور المنكرة ، ولا سيَّما الخمْر ، فقال : نعقد التَّوْبة مع الله تعالى ، قبل أَنْ ندخل إلى دِمشق ، فلما دخلها اجتمع به أَهلُ الشّرِّ ، وَجَرَّأوه على المصائب .

فأوّل ما أحدث مِن الأمور الَّتي عُلِمَ أَنّه يُرِيْدُ بها الضَّخامة ، أَنْ وَضَع على بَابَي دار السَّعادة سِلْسِلتين ، في كل باب سلسلة ؛ لمنع الرّكاب ، وكان قبل ذلك طريقًا مسلوكًا ، يدخل الرُّكّابُ من أَحدِ بابيه ، ويخرجون مِنَ الآخر ، كما يفعل المشاة .

وفي هذا الحد ، بلغنا أنّ الأمير يونُس العلائي أخَا السُّلطان مَرّ من بلاد وادي التيم إلى حلب ؛ ليأتي بنائبها إلى دمشق .

وفي آخر هذا الشهر خرج أكابر أهل دمشق إلى لقاءِ نائِب الشام ، ولَـمَّا تقارب فرَاغ الأمير بُرْدْ بَك من شغله في دِمشق ، وأشرف على السَّفر إلى حلب خِيف من اجتماع أبي الخير النَّحّاس به في حماة ، فأتى مرسوم في أواخر شهر ربيع الأوّل هذا ، بنفي أبي الخير من حماة إلى طرابُلُس [1].

وفي يوم السَّبت ثالث شهر ربيع الآخر ، من سنة تسع وخمسين هذه ، وصل قاضي القُضاة الحِمْصِي الشّافِعي إلى القبيبات من دِمشق ، ونزل في

---

(١) راجع « حوادث الدهور » (٢٢٥) .

تربة تَنَم[1] ، فقصده الأكابر ، وسلَّموا عليه ، ثم قصد دخول دِمَشْق في صبيحة يوم الأحد رابعه ، وسأله بَعْضُ الفقهاء عن تركه للعادة في الدّخول يوم الاثنين أو الخميس ، فعلَّلَ بكون الاثنين خامِس الشَّهر ، يعني وقد قيل أنه من الأيام المشؤومة ، فأتاه الأكابرُ والأعيانُ ، من الأمراء والفقهاء صبح الأحد المذكور ، ثم أحضر خِلعة السلطان وألبسه إيَّاها حاجب الحجاب جانِبَك على العادة ، ورَكِب النّاس ليركب ، فانتظر ساعةً ، فسألتُ عن ذلك ، فقيل : إنّه تأخَّرَ لتدخل السَّاعة الرابعة ، لأنها ساعة سُعد ، فَنَسْألُ الله المعافاة من مثل ذلك أنْ يَعْتَقِدَ من ينتسب إلى العلم ، فضلاً عن أن يكون من قضاة الشّرع مثل هذا الأمر المنافي للدين ، المُحـذِّرُمنه خاتم النَّبيين عليه أفضل الصَّلاة والتَّسليم ، ثم ركب بعد أن ألبسه الخِلعة حاجب الحجّاب ، وسار قُدامه من أتى مِنْ الأكابر ، ثم دخلوا من باب الفَرَح إلى الجامع الأمـوي ، فقرأ توقيعه به الزَّين سُلطان مُوَقِّع الأمير حاجب الحجَّاب ، ولم يكن كاتب السّرِّ ولا ناظر الجيش حاضرين ؛ كانا قد خرجا لملاقاة نائب الشّام قانِيبه الـحَمْزاوي .

وفي يوم السَّبت عاشِرَ الشهر ، نُودي بالزِّينة ؛ لقدوم النائب .

---

(١) وهو تَنَم (تنبك) سيف الدين الحسني الظاهري برقوق ، نائب دمشق ، أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ، استمر في نيابة دمشق مدّة طويلة إلى أن مات استاذه سنة ٨٠١ هـ ، وتسلطن ابنه الملك الناصر فرج ، فخرج تنم عن طاعته ، وعزم على التوجه بمن وافقه إلى مصر ، إلاّ أنه انكسر وهُزم أمام جند السلطان خارج غزه وأُسر وحُبس في دمشق إلى أن مات مقتولاً بها ليلة الخميس ٤ رمضان سنة ٨٠٢ هـ ، من مآثره بناء تربة بدمشق عُرفت بتربة تنم .

له ترجمة في : « المنهل الصافي » (٤/ ١٦٨ رقم ٧٩٨) ، و « الدليل الشـافي » (١/ ٢٢٨ رقم ٧٩٦) ، و « النجـوم الزاهرة » (١٣/ ١٦) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٤٤ رقم ١٨٢) .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عَشْره، مات القاضي شمس الدين بن خَيرةَ (بخاء معجمه ، ثم تحتانية ممالة ، ثم مهملة) الأسيوطي ، أحد نُوَّاب الشَّافِعِيَّة بالقاهِرَة بها على ما بلغنا ، ودُفِن من الغد عن أكثر من سبعين سنة فيها أظُنُّ ، وكان فاضِلاً في الفقه والنحو ، وله مشاركة في غيرهما ، وكان مقدامًا ، وله اتصال ببعض الأتراك وكان يذكر بسوء السيرة في القضاء ، ويوصف بالميل فيه مع الطمع ، والله أعلم رحمه الله .

وفي هذا اليوم خرج الأمير بُرْدُبَك دويدار السلطان ، ومن بقي من أكابر أهل دمشق للقاء نائب الشَّام ، فوصل إلى مصطبة [١] السلطان ببَرْزَة [٢]، آخر يوم الأربعاء، رابع عشره ، ثم دخل دِمشق بكرة يوم الخميس خامس عشره في موكب عظيم ، ولم يتخلف عن الاحتفال بالنَّظَرِ إليه في دِمشق من الرِّجال والنِّساء الكبار والصِّغار كبير أحد ، وكان يومًا مشهودًا ، وأكد احتفالهم بذلك مع ما جرت به العادَةُ في مثله أنَّه كان قد قُذف في قلوب [١٠٥] جميع العَوَام ، وكثير من غيرهم أنه يُمْسك حال دخوله إلى دمشق ، وأنّ القصد من استدعائه من حلب ليس إلا ذلك ، وأجمع أكثرهم على أنَّ القبض عليه يكون عند صلاتِه ركعتين ، عند باب القلعة الذي بقرب باب دار السعادة الغربي على ما جرت به عادة النُّوَّاب حال قدومهم ، واشتدّ خوضُهم في ذلك بفنون من الأقاويل ، وأعاجيب من التّهاويل ، لا دليل لعاقِلٍ على شيء منها إلى

---

(١) ذكرها (النعيمي) في « الدارس » (٢/ ٢٣٣) .

(٢) بَرْزَة : قرية من غوطة دمشق عند مدخل وادي معربا . « معجم البلدان » (١/ ٣٨٢) ، و«الدارس » (١/ ١٦ هامش ٥) .

أنْ كادت تكون جِدّاً ، وخيف من عاقبتها ، وشُبْهتهم في ذلك أنّ هذا الباب له خَشَبٌ على الخندق يُـمَدُّ حين إرادَة الدّخول منه إلى القلعة ، ويرفع عند إرادَة منع الدخول ، وكان بعض أخْشابه قد تلف ، فلما مات نائب الشّام جُلُبّان جَدَّدَ نائب القلعة ما كان محتاجًا إلى التَّجديد مِنْ هذا الباب ، فقالوا : ما أصلحه إلاّ ليمسك النائبَ الجديد ويدخل به من هناك إلى القلعة . فسبحان من جعل أكثرهم حثالة كحثالة التَّمْر ، وسَلَبهم فنون المعرفة نسأل الله العافية من ذلك ، وكان قد دخل النَّائب من كثرة ما سمع من التَّهاويل خوفٌ عظيم كاد يفضي به إلى خلع الطَّاعـة ، ثم إنّ الأمير بُرْدُبَك صهر السلطان لاقاه إلى بعض الطريق ولم يزل يطيِّب خاطِره ، ويكلمه بما يسرّه ، ويُذكِّره عن السلطان بما يبسطه إلى أنْ انشرح صَدْرُه ، وتـمَّ له أمره .

فلما دخل إلى دمشق ، وأَمِن مما كان يخاف لم يُقابل النِّعْمة بالشكر ، بل أظهر العُتُوَّ والجبروت ، والسَّطْوَة ، والعظموت ، وأضمـر إهانـة الفقـراء ، وأهل الدِّين من الأمّارين بالمعروف ، وكان يأتيه أكابِرُ الفقراء للسّلام عليه ، فلا ينزل عن المدورة (١) ، وبلغني أن كاتب السّرّ قال لـه : ليس ذلك بعادة . فقال له : وأيُّ شيء بقى من العوائد ؟

وكاتب السلطان في جل ما كان لذلك النائب ولحاشيته مِن الحمايات له ، وكان ذلـك قـد خـرج لذخيرة السلطان ، وكذا ما كان له من العادة

---

(١) المدورة : قبة كبيرة مرتفعة من كَتّان تسمّى قبة الساقة ، تُضرب للسلطان في منازل سفره أمام شُقَّة من الكتان فى قلبها جلود يقوم بها عِصِيٌّ وحبال من القصب في أوتاد ، تُسمّى الـحَوْش ، وتُخصص المدورة لجلوس الناس فيها وحُضُورهم عنده بها .
« صبح الأعشى » (٥/ ٢٠٩) .

على القمامة ، وأن لا يحمى أحدٌ من النّاس عليه بَلَدًا من بلاد الشام ، عن دوره ، ولا عن غيرها ، وأن يُقَوَّى ويُعان بزُرع ولوبيه [١] والناعمة ، وكانت هذه البلاد للسلطان ، ليست في إقطاع أحدٍ من الأمراء ، بل يعيِّن السُّلطان بها من يشاء .

وكاتَبه أيضاً في إعادة المكس ، وبيت الولع ، وهو الحانة التي يأتيها الفسَقَةُ للخمر والزِّنا وغير ذلك من الفسوق .

وكان أولاد الحنَش ، أكابر مقدّمي البقاع [٢] اغتنموا موت نائب الشّام ، فقصدوا طرفاً من البقَاع ، من ناحية مَشْغَرَا [٣] يُعرف بتقدمة ابن علاق للفساد ، فهرب منهم قمر الدين بن علاق مقدم ذلك الطرف ، فنهبوا بيوته ، ثم حرقوها ونهبوا ما قدروا عليه من تلك المعاملة [٤] وفسقوا في النِّساء على هيئةٍ هي في غاية القباحة والمجاهرة ، وكان النّساء يجتمعن ، فيُفعل في بعضهن بحضرة بعض ، وبحضرة الرِّجال ، ولقد حكى لي شخصٌ من أتباع حاجب الحجّاب ، أنّه شاهد واحِدًا منهم ، يُعالِجُ امرأةٍ لذلك ، وَهـي تُمانعه ، فكان يرميها تارَة ، ويأخذ رِجْليها ،

---

(١) لوبيه : من البقول المعروفة .

« إحياء التذكرة » (٥٧٠) .

(٢) البِقَاع : ويُقال له ، بِقاع كلب ، قريب من دمشق ، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق ، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة ، أكثرء شرب ضياعها من عين ، يقال لها عين الجَرّ .

« معجم البلدان » (١/ ٤٧٠) .

(٣) مَشْغَرى : قرية من قرى دمشق ، ناحية البقاع .

« معجم البلدان » (٥/ ١٣٤) .

(٤) تلك المعاملة : يبدو أن المراد بها تلك البلاد ، أو الناحية .

ثم تغلبه وتقوم ، ثم يَرْميها ، واستمرّا على ذلك زماناً طويلاً ، ثم نجَّاها الله منــه ، ولم يقدر عليها .

وكان متوَلِّي كِبَر ذلك منهم داود ، فشكى عليهم ابنُ علاق وأخوه لأمّه المقدّم ناصر الدين بن الجمال ، وتكرّرت شَكْواهم ، فلم تغـن شيئًا ، ثم شكا عليهم الحنابلة ؛ لأنّ المنصورة [(١)] من قرى تلك المعاملة وقْفٌ عليهم فأخرَبوها وأجْلَوا أهلها ، فقبض على واحد منهم اسمه الحنش ، وضربه ولم يُقبض على كبيرهم محمد ، ولا أحضر داود .

وقَتَل جماعةُ إسماعيل بن يوسف مقدم بعض بلاد الزَّبداني رجلاً بحضرة بعض مماليك هذا النائب بأمر إسماعيل ، فاعتقله أيَّامًا ، فَلَمّا رَشَاه أطْلَقه .

وفُعِل من نحو ذلك مِنَ الفساد كثيرًا ، فقصده الشَّيخ أحمد العدّاس ، أحد الأمّارِين بالمعروف ، يوم الاثنين تاسع عشر الشهر فى دار السعادة ، فأخبره : أن من عادة الفقراء الأمر بالمعروف وسأله في المناداة بذلك ، فلم يُحسن في جوابه .

وفي يوم الأربعاء ، حادي عشريه ، نُقل إلى العدَّاس ، أنَّ في بعض البقاع المجاورة لجامع دنكر [(٢)] مناكِر ، فأخذ بعضَ مماليك الأمير بُرذْبَك، وأزالها ، وعصى عليه بعض أرْبابِها ، فاستعان عليهم بالأمير بُرذْبَك ، فطلبهم إلى بيته وأهانهم .

فنادى النائب في يوم الخميس ثاني عشريه : من عَلِمَ بمنكر فَلاَ يتعرّض له إلاّ بأمـر النائب ، ومن تجاوَز ذلك شُنق على باب زاويته هـو ،

---

(١) المنصورة : قرى معروفة في البقاع ، وجبل عامله .
« الدارس » (١/ ٥٤ هامش ٧) .
(٢) جامع دنكر ، ويقال له (تنكز) ، أو (دنكز) .
راجع « الدارس » (١/ ٣١ ، ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٢٣٥) .

وربما قال المنادي عُلِّق ، وربما قال وسِّطَ على باب [١٠٦] زاويته ، ولم يدع بالبلد شارِعًا إلا مَرّ به وَسُرَّ أهْلُ الفساد بذلك ، فلما سمع به حماة الدِّين ، وأتباع المرسلين أخذتهم غيرة الإسلام فاجتمعوا بعد صلاة الجمعة في جامع بني أُمَيَّة ، وَرَأسهم الشيخ أحمد العدَّاس بذكر وخشوع وَجُؤار إلى الله وخضوع ، وأتوا إلى الشيخ شمس الدين البَلَاطُنُسي ، فكتب إلى النَّائِبِ وَرَقَةً ضَمَّنَها أنَّ هذه المناداة مصادِمة للشريعة ، مخالِفَة لكتاب الله وسُنَّة رسول الله وإجماع العلماء ، وأنَّ النَّاس ما حَكَّموهم فيهم إلاَّ بالإسلام ، فإذا تُرِك الإسلام زال الحكم ؛ فارتاع النائِبُ لذلك ، وَرَدَّ الجواب ، بأنَّ الـمُنَادِي كذب عليه ، وأنّه ما أمر إلاّ بإزالة المنكرات ، ومن تَعَسَّر عليه شيء منها رَفَعَهُ إليه لِيُعِيْنه عليه ، وسينادي بذلك ، فكان ذلك أوّل كَسْرٍ لناموسِهِ واختلالٍ وقع له ، وعار عظيم جَاهَرَ به ، وشناعة مُهْلِكَة ضُبطَتْ عليه ، ولما رَدّ الجواب بذلك ، خرج الفقراء من الجامِع يضجون بالتّهليل والذِّكر ، فَدَاروا في غالب البلد ، لا سِيَّما الناحِيَةِ التي تلي دار السَّعادة ، فكسر ذلك مِنْ شوكَةِ أهْلِ الفساد ، وَقَوِيَ أُلِي الرَّشاد ولله الحمدُ ، ونُقِل ذلك إلى بُردْبَك ، فقال : إنَّ هذه المناداة لا يَرْضاها فرعون ولا هامان ، وأخذته الألسنة من كلِّ جانب ، والله تعالى يتولَّى توفيقه وإرشاده وهدايته لسلوك طرق السَّعَادَة .

وفي هذا الحَدَّ ، وصل الصَّارِم البريدي بمراسيم فيها الأمر بالقبض على بني الحنش كلهم ، وبالمناداة على الذَّهب بأنْ يكون الدِّينار منه في دِمَشق بخمْسين دِرهمًا عَدَدًا بمعاملتهم ، فنُودي على الذهبِ ، وأما أوْلاد الحنش فلم تظهر من النائب عناية بتنفيذ المرسوم فيهم ، والله الموفِّق .

وَبَعْد وصول النائب بأيَّام رُفِعت السِّلْسِلَةُ عن بابَي دار السَّعَادة ، فكان الرُّكَّاب يدخلون على عادَتِهم .

وفى يوم الأحد خامِس عَشْري الشهر وَصَل الخبرُ بأنَّ الأمير جَانَم [1] نائب حلب وصل إلى قُرْب جمد يوسف، فسافر الأميرُ بُرْدُبَك الدّويدار، يوم الاثنين سادِس عَشْرِيِّه على دَرْب الزَّبَداني لِيَلْقَاه على بَعْلَبَك ، ليتوجَّه معه إلى حلب مُسَلِّمًا لها من جهة السلطان ، وترك شاذِبَك دويدار جُلُبَّان نائب الشَّام ، وبعض مباشريهم بالقلعة على ما قُرِّرَ عليهم ، وأوصى أنه إنْ ضَمِنهم أحَدٌ من الأكابر أطْلِقوا في ضمانه .

وكان قد أمَرَ ببناء جامِع تِجاه حَمَّام [2] العلائي ، بين باب الفرج ، وباب الفراديس فأُسِّسَ بحضوره ، وأوصى به نائب القلعة وغيره من الأكابر ، فرَفعوا كثيرًا مِن جُدُرِه في غيبته .

وفي يوم الاثنين هذا ، طلب نائبُ الشّام المشاعلي ، في الموكب بحضرة القُضَاة ومن هناك من أهل الخير ، وأمره أن ينادي على لسانه ، أنه من رأى من الفقراء أو الفقهاء منكرًا فليبادر إلى تغييره ، فإن عجز رفعه إلى الحكام ، ومَن تهاون من أكابر الحارات في إزالة منكر ، أو واطأ عليه ، رفع إلى الحكام ليقابلوه ، وقال : هكذا أُمرت في تلك المناداة .

فخرج المشاعلي يُنادِي بذلك ، ومعه بعض الفقراء لئلا يغير ، فداروا به أقطار البلد ، فعلت ولله الحمدُ كلمةُ الإيمانُ وسَفَلت أكذوبة الطغيان ، وحق الحقُّ وزَهق الباطل واندقّ .

وفي يوم الخميس تاسع عشري الشّهر شَكَا جماعةٌ من أَهْل عَجْلون

---

(١) راجع خبر تولّيه نيابة حلب في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٤ـ ٨٥) .

(٢) في « الدارس » (٢/ ١٩٠) حمام العلائي خارج باب الفرج ، والفراديس .

على الأمير حسن بك الدُكري نائب السّلط وعجلون [(١)] ، أنه يظلهم ويهينهم ، وأنه يُريد أنّ يُجدِّد عليهم مظالم كان أبْطلها الملك الظاهر ، فطلبه فأخرج مرسومَ السلطان ، بأنّهُ يأخذ ما كان له من العادة ، وكان قاصِده قد لقيَ الأمير بُرِدْبَك الدويدار في غزّة وقدَّم له فَرَسًا ، فكتب معه إلى السلطان با لمساعدة ، فأجابه إلى ما سأل ، ورسم له بعادته ، ولما قَدِم إلى دمشق اجتمع بالأمير بُرِدْبَك قبل سفره ، وقال له شفاها : خذ عادتك [١٠٧] وما عليك من أحد ، فلما أخرج المرسوم لنائب الشام زجره ، وقال له : أنت دلَّسْت على السلطان حاشى لله أن يجدد السلطان ظلما أبطله غيره ، أُقسم بالله لئن أخذت منه دِرْهمًا لأُوَسِّطنَّك ، ثم شكا عليه ناس من أهل عجلون ، أنه أخذ منهم ظلامه فأرسل معهم نقيب الجيش يقول له : أعطهم حقهم ، أو اذهب معهم إلى أيِّ قاض أرادوه ؛ فشكر الناس نائب الشام على ذلك ، وَذَمُّوا الأمير بُرِدْبَك ، وَدَعْوا لكلٍ بما يستحق .

وفي هذا الشهر ، بلغنا أنّ الأمين بن الهيصم الذي كان وزير السلطان مات ، وكان سنُّه إذ ذاك نحو الخمسين سنة ، وكان ليِّن الجانب [(٢)] . وأن ابن النجار الذي استوزر بعده فرج هرب ، وأنَّ السلطان أراد فَرَجًا على ولاية الوَزَر فامتنع فضربه ورسم عليه بالبحرة إلى أنْ أذعَن لذلك ، فخلع عليه بالوَزَر ورضى عنه [(٣)] .

وفي أوَاخره ، ورد المرسوم السلطاني بأن يؤخذ من شاذِبَك الدويـــدار

---

(١) السلط ، وعجلون ، مدينتان تقعان في الأردن حاليًا .

« أطلس العالم » (١٩) .

(٢) راجع « هامش ٤ » من (ص ٧٦) من القسم الأول .

(٣) راجع « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٦) ، و « بدائع الزهور » (٢٥) .

وحده خمسون ألف دينار ، فرفع إلى القلعة ، وضمنه ضامنون بعد سفر الأمير بُرْدُبَك ، فأطلقه الحاجب .

وفي هذا الشهر ، أو الذي قبله مات القاضي شمس الدين بن خَيرة الأسيوطي ، أحد نوَّاب الشافعية بالقاهرة عن أكثر من سبعين سنة فيما أظُنّ ، وكان فاضِلاً مفنَّناً عارفًا بصناعة القضاء ، غير أنه لم يكن محمود السيرة عفا الله عنه .

وفي يوم السَّبت مستهل شهر جمادى الأولى من السَّنة سافر الأميرُ يونُس العلائي مُتَسَفِّر نائب الشام ، ولم يسمع له في دمشق كلمة ، ولا دخل في أمر من أمورها ، ولا كلَّف أحدًا من أهْلِها ، فكثر ثناؤهم عليه ، وذَمُّوا الأمير بُرْدُبَك ، بأنه فعل نقائض أفعاله كلِّها ، حتى أنّ القاضي صلاح الدِّين بن السَّابِق الحموي لم يُسَلِّمْ عليه ، لأنه كان مريضًا حال قدومه وقَبْلَه بمدَّةٍ ، وكان عاجزاً عن الجلوس فضلاً عن غيره ، فطلب ولَده عَلِيًّا ، وأخذ منه بَغْلَةً كانت تحت غلامه ، وَرَسم عليه حتّى أخذ منه مائة دينار .

وفي يوم الأربعاء خامس الشهر ماتَ الشيخ الإمام رئيس الموقتين بالجامع الأموي شهاب الدين أحمد [1] بن ابراهيم بن خليل بن أحمد الحلبي ، وكان رجلاً دَيِّناً خَيِّراً سهلاً لَيِّنًا ، يشار إليه في علم الوقت ، استاذًا فيه ، وله فيه مصنَّفات وتحريرات على بعض من تقدم ، لم يخلف بعده في دمشق مِثله ، فيه سمعت شيخنا العَّلامة الوَرِع تاج الدِّين محمد

---

(١) جاء في « الضوء اللامع » (١/ ١٩٤) « أحمد بن إبراهيم بن خليل بن محمد الحلبي الميقاتي ، مات بعد الخمسين ، ذكره ابن عزم مجردًا » .

بن بهادر يقول : انّه في علم الوقت كالبُلْقِيني في علم الفقه ، وكان يقرأ على الشيخ تاج الدِّين في الفقه وغيره ، فإذا فرغ دَرْسه ، جلس الشيخ جلوس التلميذ وقرأ عليه في علم الوقت .

وفي هذا اليوم ولي اسْتَدَّارية نائب الشَّام فرج الذي كان والي الخاص ، وكان أُريد الشِّهاب بن البغدادي ؛ لذلك فلم يُفعل وعُولج أشد العلاج ، وكذا علي بن الصُّوفي ، الذي كان اسْتَدَّار جُلُبَّان .

وفي يوم الخميس سادِسه ، وَرَد المرسوم السلطاني بالإفراج عن شاذِبك وتخلية سبيله إلى أيّ جهة أراد ، إنْ شاء إلى مصر ، وإنْ شاء يمكث في دِمشق .

وفي يوم الأحد تاسعه ، قَدِم الخبرُ بعزل [1] . . دويدار السلطان بدمشق ، وتولية خُشْكَلدي الكُوَيْزي الدويدارية بها ، وأُعْطِي المعزول إقْطاعًا كان مع مازِي [2] ، وكان بَطَّالاً ، وأعطى مازِي إقطاعًا كان مع سيدي خليل القدسي ، أحد الأمراء الكِبار بدمشق ، وهو الذي ولي الإسْتَدَّاريَّة أيام الأشرف [3] بَرْسِبَاي ، ونقل خليل إلى إمرة عَشْر من بطرابُلُس .

---

(١) بياض في الأصل ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتوفرة .

(٢) جاء في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٨) مازي وهو من مماليك الظاهر برقوق ، كان نائب الكرك ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، مقداماً في الحرب ، توفي في ذي الحجة سنة ٨٦٤ هـ .

(٣) هو : بَرْسِبَا بن عبد الله السلطان الملك الأشرف أبو النصر الدقماقي الظاهري الجاركسي ، سلطان الديار المصرية ، والبلاد الشامية ، والأقطار الحجازية ، تسلطن يوم الأربعاء ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ ، وتوفي بعد مرض طويل في يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ ، وكان من أعظم ملوك الجراكسة بعد برقوق .

له ترجمة في : « المنهل الصافي » (٣/ ٢٥٥ رقم ٦٥١) ، و « الدليل الشافي » (١/ ١٨٦ رقم ٦٥٠) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٨ رقم ٣٨) ، و « سمط النجوم العوالي » (٤/ ٣٨ـ٣٩) .

وفي هذا الحد ، وَرَد الخبرُ بالإفراج عَنْ لاشِين ، الذي كان مسجوناً في قلعة الصُّبَيْبَة من جماعة الظّاهر ، وتخلية سبيله إلى حماه بطّالاً ، وبالبشارة لتَمُرْبُغا دويدار الظاهر ، وكان مع لاشين بأنه سَيُخْلى سبيله إلى القُدِس .

وَوَرد الخبر بأنّ خَوَند زوجة السلطان مرضت حتى أشرفت على الموت ، ثم عُوفِيَت [1] ، وأنّ الشَّرَف يحيى المناوي سعى في قضاء الشّافعية بمصر إلى أن ترجحت قضيته ، ثم بذل العَلَم صالح بن البُلْقيني ألفي دينار ، فأقر ولُبِّس ابن امرأته خِلعَة .

وأن القاضي شمس الدين الخطيب ابن أبي عمر سَعَى على قضاء الحنابلة بمصر إلى أن أُجيب ، واستمرَّ الحال خمسة أيام ، ثم تكلَّم الشيخ أمين الدين بن الأقصرائي للقاضي عز الدين ، فأُقِرَّ وأُلْبِس خِلْعَةِ بذلك .

وفيه أيضاً وَرَدَ الخبرْ بموت خَيرِ بَك [2] ، أحد الأمراء الكبار بمصر ، فاحتاط السلطان على أمواله فلم يجد ما يرضيه ، فقبض على زوجته

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩) أنها نزلت من القلعة مريضة في محفّة إلى البيت المعروف بابن قطينة بساحل بولاق في ليلة السبت ١٠ ربيع الآخر ، وعُوفيت في العشر الأخير منه .

راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٦) .

(٢) هو : خَيرِ بك بن عبد الله المؤيدي الأجرود ، الأمير سيف الدين : من مماليك المؤيد شيخ ، وصار خاصكيًا بعد وفاته ، ونفاه الأشرف بِرِسْباي إلى الشام ، ثم صار من جملة إمراء دمشق ، ثم جعله الظاهر جَقْمق من مقدّميها ، ثم أتابكها ، ثم أمسكه وحبسه في سنة ٨٥٦ هـ . ولم يلبث أن أطلقه ، ثم صار أميرًا بالقاهرة إلى أن مات في يوم الاثنين ٢٩ ربيع الآخر سنة ٨٥٩ هـ .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (١/ ٢٩٣ رقم ١٠٠٩) ، و « حوادث الدهور » (٣٦٤ ـ ٣٦٥) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٧٦) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٢٠٩ رقم ٧٨٤) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٤٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٦) .

وخَدَمِـهِ ؛ فغضب الجند لذلك ، وكـادت تكونُ فِتنةٌ كبيرة ، ثـم كفَّها الله .

وفي هذا الحد وَلّى نائب الشَّام ، رجب بن قرا ، نيابة بَعْلَبك ، وأخذ منه أربعين ألف درهم شامِيّة ، وأمره أن لا يظلم أَحَدَاً ، وهدَّدَه على مخالفة ذلك .

ألقاه في اليَمِّ مكتوفاً وقال لـه إيَّاكَ إيَّاكَ أن تبتلَّ بالمـاءِ .

[١٠٨] فلما وَرَدَ بَعْلَبك ، وكان مشهورًا بالظلم والفِسْق رجمه أهلُها ، ثم زاد الأمر بينه وبينهم حتى أخلوا له البلد ، وَرَحلوا منها ، فقصدهم إلى الأماكن التي تفرَّقوا فيها ، وقبض على جماعةٍ منهم ، وأكثر أذاهم ، نسأل الله لنا ولهم العافِية .

وكان قد وَلَّى أيضًا نائبًا في بيروت يُسمى خُشْ قَدَم ، فلما وردها وقرىء مرسومه ، وكان ذلك يوم الجمعة رابع عشر هذا الشهر ، طلع شخصٌ على منبر الجامع ، وقرأ مرسوم السلطان ، (وعليه خط نائب الشام بالإعتماد) بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم مرسوم قاضي قضاة الشافعية بالشام ، سراج الدين الحمصي بمثل ذلك ، فلما كان وقت العصر ، بلغ الفقراء هناك ، ورأسهم الشريف الصالح عمر بن محمد الجعفري وولده ، أنَّ الوالي فتح الخمَّارة ، ووضع بها الخمر ، وأَحضر إليها الزَّواني ؛ فتوجه الفقراء إليها ، وأراقوا الخمر ، وأخرجوا الزواني ، فأتى إليهم الـوالي بجنده بأيديهم السِّلاح ، السيوف مصلتة ، والدّبـابيس (١)

---

(١) الدبابيس : جمع دبّوس ، وهي عند المولّدين هراوة مُدَمْلكة الرأس ، وفي طرفها كالأبرة من النحاس في طرفها كتلة صغيرة .

« محيط المحيط » (٣٦٨) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٢٧٠) .

والعِصي ، فضربوا الفقراء ، فكتبوا بذلك مَحْضَرًا عند القاضي ، ثم حضروا إلى دِمشق ، فأتبعهم الوالي بكتاب ادّعى فيه أنَّه أراد يبني سجنًا فمنعوه ، وضربوا جماعته ، فدخل هو إلى بيته ، وأمر جماعته بالكف عنهم ، فضربهم الفقراءُ ، فأدموا منهم رجلاً ، وهو مشرف على الموت ، وأرسل ثيابًا ملطخةً بدم ، وامرأة تشكو بها ؛ فغضب من ذلك أشد الغضب ، ورسم على الفقراء ، ثم سجنهم ، وذلك يوم الاثنين سابع عشر الشهر ، فأرسل إليه الشيخ شمس الدين البَلاطُنِسي قاضي القضاة الحنفي ، فأطلقهم في آخر ذلك اليوم ، وأرسل إلى بيروت ، يحضر تجّارها وأكابرها فلاقُوَّة إلا بالله .

وفي هذا الحدِّ ، وَرد الخبرُ بأن نائب حلب [1] وصل إلى حلب في نحو نصف هذا الشهر ، وأنّه سار سِيرة حسنة ، ما سارها أحَدٌ قبله في هذه الأعوام ، وأنّه ألَّف بين أهل حلب بعد العداوة ، بين أهل بَانَقُوسَا [2] وأهل داخل البلد ، وأنَّه أزال المنكرات ، وهذا لعمري نتيجة الكسر بالحبس وغيره ، فإنّه كان في جميع أيّام الظاهر في غاية الضيق والخوف على نفسه ، أتم الله عليه نعمته ، وأدام تهذبه .

وفي يوم الخميس العشرين من الشهر ، حكم السراج الحمصي قاضي دمشق الشافعي ، بحقن دم شخص من دعاة الرافضة [3] ، وحملة

---

(١) وهو : جانم الأشرفي ، نيابة عن قانباي الحمزاوي الذي عيّن نائب الشام .

« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٤) .

(٢) بَانَقُوسا : جبل في ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال .

« معجم البلدان » (١/ ٣٣١) .

(٣) الرَّافضة : جاء في « الملل والنحل » (١/ ١٥٥) أنهم شيعة الكوفة ، الذين رفضوا زعيم الزَّيدية ، زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم ؛ عندما عرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين (أبي بكر وعمر) رضى الله عنهما .

أباطيلهم ، وكان قد عثر عليه بعض الناس ، وفي يده كتابٌ ، وعِنده جماعة قد انكبوا عليه يسمعون ما يقول على هيئة مريبة ، فاجتمع عليهم العَوَامَّ ، وأتوا ببعضهم إلى بيت المالكي ، فوجد في الكتاب قبائح وأكاذيب تتعلق بالصِّدِّيقِ والمهدي ، وادّعى مُدّعٍ من سُنِّيَّة أهل بغداد ، معروف بالخير عليه في دار السعادة ، بحضرة نائب الشام قانباي الحمزاوي ، أنه ذكر له أنّ فلانًا تمتع بفلانة ، وذكر عَلِيًا والصِّدِّيقة رضى الله عنهما وأرضاهما ، وشهد بذلك شاهِدَان ، وَزَكّاهما بعضُ أهل العلم ، فقال المالِكي : إنّ هذا كفر ، وأنّ الرَّافضة كلهم كَفَرَة ، ونازعه كاتب السرّ القطْب الخيْضري في ذلك ، وطال نزاعهما ، حتى غضب كلٌّ منهما مِنْ صاحبه ، وانفصل ذلك المجلِس ، ولم يُحكم في أمره بشيء ، وكان الرَّافضة من أهل العراق قد كثروا بدمشق ، وكان كثيرٌ منهم نازلين داخل باب الجابِيَة ، بالقرب من بيت كاتب السّرّ الخيضري ، وناظِر الجيش البدر بن المزلق الأطروشي ، فحمى بعض الرَّافضة لبعض ، وَجَبوا من بينهم أمْوالاً عظيمة ، ومشوا بها بالليل إلى الأكابر ، فلما كان الموكب الثاني ، إذا غالب الجماعة قد حال عن رأيه ، وقال المالكي : هذا الكلام لا يوجب كُفرًا ، فإنّ المتعة مختلفٌ فيها ، ونازعه البدر بن قاضي شهبه ، بأنّ هذا أذىً لرسول الله ﷺ ، ونسبه من ذكر إلى الإقدام على زِنًا أو نكاح ، مخالف لصريح كتاب الله ، بإقرار جميع الصحابة رضوان الله عليهم على ذلك ، فقد نسب الكل إلى الكفر ، ولا يتوقف أحدٌ في كفر من نسبهم إلى ذلك ، وطعن ناظر الجيش في المدعي ، ونسبه إلى أنه جاسوس للشعشاع ، وأنه يمده بالسلاح ، واشتد قوله في ذلك ، وطعن بعضهم في الشهود ، وكانت تكون للمدَّعي ، ولمن يجتمع عليه من الرافضة مواقف مشهورة ، في أقطار دمشق ، وقصدوا قتله غير مَرَّةٍ ،

وكان المتولي كبر ذلك ، الشريف بن عجلان الدمشقي ، نزيل القُبَيْبَات (١) ، أخبرني من شاهده يُكَلِّم هذا المدعي بكلام ، يريد أن يستوقعه به في واقع ، وأنّه رأى بعينه في غضون ذلك في يد الشريف سِكِّينًا مسلولةً ، وأنَّه اجتمع عليهم في ذلك المجتمع كثيرٌ من الرَّافضة ، وكادوا أن يقتلوا المدَّعِي ، ثم استغيث له بأهل [١٠٩] السُّنَّةِ فأدركته عصابة منهم فأنقذوه من أيديهم ، بعد أنْ كاد يحصل بينهم حَرْب .

وَلَمَّا أرضوا نائب الشام شرع يطلب من القضاة فصل القضية ، ثم ردُّوا الأمر إلى الشافعي ، وسألوه حقن دَمه ، فكاد أن يجيب ، ثم خَوَّفه بعض أخصائِه بأنّه ربما يرجمه بعض العوامّ ؛ فأحْجم ولم يثبت على الحقّ في هذا الأمر من القضاة إلاّ الحسام الحنفي المشهور بابن بُرَيطع ، والبرهان بن مفلح الحنبلي ، فلما كان يوم الخميس هذا واجتمعوا في دار السعادة ، قال كاتِبُ السرّ للقضاة بحضرة النائب: ملك الأمراء (٢) يقول لكم : أنكم من حين حضوره إلى الآن لم تفصلوا قضية ، فإما أنْ تبتوا هذه القضية ، وإمّا أن يُرسل إلى السلطان ؛ يُحْضر له قضاة غيركم . فقال الشافعي : إني أخشى أنْ أحكم بِحَقْن دمه فلا يُنَفِّذُ لي أحدٌ . فقالوا : بل إنْ حَكَمْتَ نَفَّذْنا حكمك . وقال الحنبلي : إنّ هذا الأمر لا يخفى على السلطان ، وربما تأتِي منه عليه لائِمة ، فالصواب تأخير الأمر حتى يُكاتَب السلطان فيه ويستفتى علماء مصر . فقيل له : لم تدع إلى

(١) القُبَيْبَات : جاء في « معجم البلدان » (٤/ ٣٠٨) أنها محلّة جليلة بظاهر مسجد دمشق .

(٢) ملك الأمراء : جاء في « صبح الأعشى » (٥/ ٤٥٥) « وهو من الألقاب التي اصطلح عليها لكُفَّال الممالك من نوّاب السلطنة ، كأكابر النُّواب بالممالك الشامية ، ومن في معناهم ، وذلك أنه قام فيهم مقام الملك في التصرف والتنفيذ ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان ، وأكثر ما يُخاطب به النوّاب في المكاتبات ، وذلك مختص بغير المخاطبات السلطانية ، أما السلطان فلا يُخاطب عنه أحدٌ منهم بذلك » .

ذلك حاجة . فحكم الحمصي بحقن دمه ، ونَفَّذ له رِفْقَتُه ، وضُرب هذا الرافضي شيئاً من الضّرب ؛ يُكسَّرُ به سَوْرَة [1] القائمين عليه ، وذلك تسع وثلاثون ضَرْبَة ، ثم أُطْلِق ، فإنا لله وإنّا إليه راجعون .

وفي أواخر يوم الاثنين ، رابع عَشْرِي الشهر وصل أهلُ بيروت : القاضي زين الدين رجب بن رجب الزهري ، وأعيان التجار وغيرهم مرسَّماً عليهم ، ثم في بُكْرة يوم الثلاثاء خامس عشريّة أُحْضِروا إلى النائب ، فضرب واحدًا من الشهود بالمقارع ضربًا أشفى منه على الموت ، وأقاموا جاريةً ، تدَّعي على القاضي ، أنّه زَنَى بِها ، فرماه إلى الأرض وضربه ، بعد أن عَرَّاه من ثيابه نحو مائة عصى ، فياليته سَوّى بينهم ، وبين الرافضي القاذف ، بل الكافر المارق ، وكان قد طلب القضاة ، فحضروا إلاّ الشافعي ، فشفعوا ، فلم يُقبل منهم ، فوقفوا على أقدامهم ، ووقف معهم الأمير جانِبَك حاجب الحجّاب مَرّتين وقَبَّل يَدَ النائب فلم يقبل ، فنزل الحنفي من عندهم غضبان ، فوصل إلى أسفل الدَّرَج حافِيًا ، وتبعه من يسأله الرّجوع ويترضّاه ، فالتفت فرأى المالكي والحنبلي واقفين لم يتبعاه ، فرجع فكفُّوا عن ضرب القاضي ، ثم أمروا بإخراجهم مُرَسّماً عليهم ، فوضعوهم في المسجد الذي في دار السعادة ، مُضيَّقًا عليهم ، فلا قُوَّة إلا بالله ، ثم شفع السيد تاج الدين عبد الوهاب الشافعي ، الذي كان قاضي حلب ، في القاضي والشريف عمر وولده ، فأطلقوا بكرة الأربعاء سادس عشريه .

وفي هذا اليوم ، قُبض على جماعة من أصحاب ولد الشيخ [2] أحمد

---

(١) أي شدة غضبهم . راجع « محيط المحيط » (٤٤٠) .

(٢) جاء في « الضوء اللامع » (١١/ ١٨٥) عبد الله بن أحمد بن محمد بن محمد الشامي ، فاضل صالح.

الأقباعي ، أنكروا منكرًا على مقدّم الوالي ، فحصل بينهم مكاونة ، حصل لمقدم الوالي جرْحٌ يسير ، فأظهر أنه شارف الموت ، فحُمل على بابٍ وجاء نساؤه وراءه إلى دار السعادة مهتّكاتٌ يستغثن ، وجاء معه ناسٌ كثيرٌ ممن له غرضٌ في الفساد يثنون عليه خيرًا ، وعلى الفقراء شَرَّاً ، فضرب واحدًا من الفقراء على كَفَّيْهِ ضربًا كثيرًا وسجنهم .

وفي أواخر هذا اليوم ، قَدِم من أهل بَعْلَبَك نحو خمسين رجُلاٍ بعضهم في الأغلال ، وبعضهم في الحبال .

وفي يوم الخميس ثامِن عشريّه ضرب النائب من أهل بعلبك ثلاثة عشر رجلاً بالمقارع ، أكثرهم لم يحضر واقعة النائب مع أهل بعلبك ، وقال أحدهم : يا ملك الأمراء ، إنّا من أهل القرآن ، ووالله ما حضرت رجمهم للنائب ، ولا لي ذنبٌ . فقال غيره : فقال لي : ولك موقفٌ بين يدي الله ، فضربه ، ولم يلتفت إلى شيء من كلامه ، ثم أمر بهم إلى السجن ، وهم نحو أربعين رَجُلاً .

وفي يوم الجمعة تاسع عشري الشهر ، أطلق غرماء مقدم الوالي ، وهم الذين من زاوية الأقباعي ، بعد أن أغرمهم مالاً يزيد على الألفين . وأطلق أهل بيروت ، بعد أن أخذ منهم أربعة آلاف درهم ، وأوصاهم بواليهم الذي كانت لهم معه هذه الكائنة [١١٠] فأجاب أكثرهم بما يُرضي الفسقة ، وتوقف بعضهم عن الجواب ، وعزم الشريف عمر على أن يقول إن دعوه لذلك : نحن نُطيعه ما أطاع الله كما أمرنا رسول الله ﷺ، فلم يتفق لهم طلبه ، وحَلَف هو بيمين مؤكده ، أنّه لا يسكن بيروت مادام هذا واليها ، وجلس معي يوماً نتحادث في هذا الأمر ونتسلى ببعض أخبار السلف ، ونتعلل بآثار الصالحين من الخلف ، وجرى بنا الحديث

إلى أن قال : حدثني المجاهد شمس الدين بن بَلْعَة (بفتح الموحدة والمهملة بينهما لامٌ ساكِنة) نزيل ثغر [(١)] رشيد ، أنه ركب البحر مرة في المركب كثيرٌ من الفرنج ، فشرع واحدٌ منهم يعيبُ المسلمين، ويذكر كثرة أخذ النصارى منهم ، ونهبهم لبلادهم ، وقِلّة مثل ذلك فيهم من المسلمين ، وشرع يذكر الوقائع من ذلك برّاً وبحرًا ، فلم أكُن أجد له جوابًا ، إلاّ بابن عثمان والمغاربة ، ونحو ذلك إلى أن قطعني بالحجة فسكت فقال لي شخصٌ من أكابرهم ومشائخهم : أنت مسلمٌ لا تعرف تتكلم . قل له : لما جاء محمد ، ذلك الرّجل الطّيِّب وخَلَّف أصحابه المباركين ، فتحوا البلاد شرقًا وغربًا واستنقذوا الشام ومصر وغيرهما ، من أسلافِك على كثرتهم وقُوَّتِهم ، ولم يزالوا كذلك ، حتى صارت ملوك هذه البلاد مِنّا ، فصرنا حينئذ نأخذ منهم ، ونظفر بهم .

قال الشريف : وحدَّثني أبو بكر بن الزُّبَيْدِيَّةِ (بضم الزّاي ، وفتح الموحَّدَة ، وآخر تحتانيّة مشدَّدة) اللاذقي قال : أسَرَنِي بعضُ الفرنج ، ودخلوا بي إلى بَلَنْسِيَة [(٢)] ، من جزيرة الأندلس ، قال : فسُرْنَا يومًا في مركب ، فإذا غالِب أهْلِهِ يَقْرأون القرآن ، وهم كالفرنج في زيّهم وكلامهم ، فسألتهم ، فإذا هم مسلون استمروا ساكنين في بلادهم ،

(١) رشيد : جاء في « معجم البلدان » (٣/ ٤٥) بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الاسكندرية ، كما جاء في « الخطط التوفيقية » (١١/ ٧٥) أنها بليدة غربي النيل الغربي عند مصبه في البحر ، شرقي الإسكندرية على مرحلة منها ، تعتبر الآن من أشهر مدن الديار المصرية ، وثغر من ثغورها .

(٢) بَلَنْسِية : مدينة مشهورة بالأندلس ، شرقي قرطبة ، وهي بريّة بحرية ، ذات أشجار وأنهار، وتعرف بمدينة التراب ، ملكها الروم سنة ٤٨٧ هـ ، واستردها الملثمون ملوك المغرب قبل عبد المؤمن سنة ٤٩٥ هـ ، أهلها خير أهل الأندلس ، يسمون عرب الأندلس .
« معجم البلدان » (١/ ٤٩٠) .

بعد أن غلب عليها الفرنج ، فلما علموا أنِّي مسلم ؛ فرحوا بي ، وسألوني عن بلادهم ، فلما أخبرتهم أنِّي من بلاد الشام ، سألونى عن القُدُس ، فأخبرتهم : أنّها قريبة من بلادنا . قال : فسألوا الذي اشتراني أن يرسلني معهم ؛ ليُضَيِّفُوني ، قال : فذهبوا بي إلى قريتهم ، فإذا هي كبيرة ، وذهبوا بي إلى المسجد ، فإذا هو كبير حَسَنٌ ، وبه ماءٌ جارٍ ، وصبيان يتعلمون القرآن ، قال : فأضافوني ، فأحسنوا ضيافتي ، ثم قال لي بعضهم : هل بقيت لك شهوةٌ ؟! فقلت : نعم الخمرُ ، قال : فتعجَّب مني عجبا عظيماً ، وقال : ألم تقل أنك مسلمٌ ؟! فقلت : بلى . فقال : فالمسلمون في بلادكم يشربون الخمر ؟! فقلت : نعم ، وفي كل بلدٍ من بلادنا فإنه يباع بها الخمر ، فقال : مع إسلامهم وقراءتهم القرآن ؟! فقلت : نعم ، قال : فأفكر زماناً ثم قال : كذبت ؛ تلك بلاد الأنبياء ،والمعاهد الشريفة ، لا يكون بها ما ذكرت ، ثم دَعا آخر فأخبره ، فقال : كذب ، ثم آخر وآخر ، ولم يخبر أحدًا منهم بذلك إلا كذَّبني حتى جاء شيخٌ منهم ، فقالوا له ذلك ، فقال : ما حُكَّامهم ؟ وهل هم منهم ؟ فقلت : لا ، بل هم مِن أسرى الكفرة عندنا ، الفرنج وغيرهم . فقال : الآن أمكن هذا ، فلا أرانا الله هذه البلاد ، ولا جمع أرواحنا بأرواحهم ، فقال الكل : آمين .

وفي آخر السبت تاسع عشري جمادى الأولى هذا ، وصل قاضي القضاة حميد الدين إلى دمشق من حلب ، بإذن السلطان له في الرجوع إلى عياله ، والسُّكنى في دمشق (١) .

ووصل الخبرُ عن الأمير بُرْدَبَك ، أنَّه أساء السيرة في حلب جدًا ؛ من الطَّمع في أموال الناس ، حتى أغلق أهلها أسواقهم ، وهموا برجمه ،

---

(١) راجع « الدارس » (١/ ٦٣٩) .

فتدارك ذلك نائبها الأمير جانم ، وأنّه اتَّفق له مثل ذلك في كل مدينة دخلها ، من بَعلبك وحمص وحماة ، وكذا كان أَمْرُه في دمشق ، لم يُسَلِّم عليه الصَّلاح خليل بن السَّابِق ، الذي كان كاتِب سرّ دمشق قبل دَوْلتهـم ؛ لمرض كان يمنعه من الحركة ، فعمل لولده ذَنْبًا وَرَسم عليه ، وأخذ منه مائة دينار ، وبغلةٍ ، وأرسل إليه الخواجا شمسُ الدين بن النّحاس هدية بنحو أربعمائة دينار ، فردّها عليه ، وأرسل من يستجلبه لأكثر من ذلك ، فغضب ، وحلف أنَّه لا يزيده شيئًا ، وقال : أنا رَجُلٌ سوقي [١١١] ، وليس لأحدٍ عليَّ فضلٌ في شيء ، وإن كانت سكناي في بلادهم لا ترضيهم سافرتُ منها ، فلما أعجزه قبل ما كان أرسله ، وتوانى والي الشرطة في دمشق في بعض أموره ، فرسم عليه ، ونهب بيته ، إلى غير ذلك من أمور يعسر حصرها ، مع أنه لم يكن له مُحِبٌّ في جميع المملكة ، إلاَّ السلطان ، وأما غير السلطان ، فالكل له أعداء ، وهم بين مجاهر ومُكَاتِـمٍ ، وإنما كفّ أهل دمشق عن مثل ما فعله معه غيرهم ؛ لأنه كان لا يفحش في الأمور بها ، خوفاً من الشيخ شمس الدين البلاطُنُسي ، لمعرفته بقيامه على أبي الخير النَّحَّاس وأتباعه ، لما تعدى ضررهم إلى دمشق ، وأن زوال دولته كانت على يده ، فكان الأمير بُرْدْبَك يأتي إلى الشيخ كل يوم جمعة ، بعد الصلاة ، فيُسلِّم عليه ، ويستدعي حوائجه ، وكان الشيخ يجلس بعد الصلاة بالمشهد الذي في شرقي الجامع بالصحـن .

وفي بكرة يوم الأحد ، ثامن جمادى الآخرة من السنة ، قدم الأمير بُرْدْبَك مِن حلب ، فلاقاه ملك الأمراء ، وأكابر أهل الدولة ، ونزل القصر الذي بالميدان .

وفي هذا اليوم ، وصل الأمير خُشْكَلدي إلى قُبّة [1] يَلْبُغَا دويدارًا للسلطان بدمشق ، وفي بكرة يوم الاثنين تاسع الشهر دخل ولاقاه من له عادةٌ بملاقاة مِثله ، وسُرَّ به أهل دِمشق .

وفي يوم الثلاثاء عاشره ، بلغ الشيخ شمس الدين البلاطُنسي ، أنّ الأمير بُرْدُبَك يريد أن يأتيه ليأخذه إلى نائب الشام ؛ ليسلم عليه ، ويستأنس به ، ثم يركب هو ونائب الشام يشيعانه إلى بيته ، فبادر الشيخ وذهب في ناس من جماعته فتلقاه النائب أحسن تلق ، وسُرَّ به ، ووعظه الشيخ بشيء من الموعظة ، فأظهر قبولها ، ثم ذهب من عنده إلى الأمير بُرْدُبَك فسلَّم عليه ، وأعلمه بسلامة النائب ، فَسُرّ بذلك ، وسأله الشيخ في إبطال المكس عن الحجَّاج ، فوعده بفعل ذلك ، وسأله أن يكتب له تذكرة بخطِّه ليراجع السلطان في جميع ما فيها ، ثم أتى إلى الشيخ يوم الأربعاء حادي عشر الشهر .

اسداء أمْرِي في خان الفندق

وفي ليلة السبت ، رابع عشره ، سافرت إلى خان الفندق ، المنسوب إلى عمارة الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكي رحمه الله لإعادة ما تهدَّم منه، وإصلاح أمره، وسافرمعي قاضي المالكية

---

(١) قُبّة يَلْبُغا : تقع هذه القبة على الجامع المعروف (بجامع يَلْبُغا) على شط نهر بردى تحت قلعة دمشق ، وأُزيلت في محرم سنة ٨٣٩ هـ ، على يد الأمير محمد بن منجك وبُني موضعها سقف على المسجد .

« الدارس » (١/ ٤٢٣ ، ٤٢٥) .

بدمشق شهاب الدين التلمساني (١) ، وقاضي الحنابلة (٢) برهان الدين بن القاضي أكمل الدين بن مفلح ، وجماعة من أعيان الفقهاء والفقراء ، منهم القُدْوة الشيخ أحمد العدّاس ، والمعلِّم أحمد بن المعلِّم محمد بن الزنيك معلِّم البنائين بدمشق لكشف الخان وكتابة ما هو عليه كان ، وتقدير ما يُصْرَف عليه ؛ ليقوم كما كان ، والمعلم سعد بن علي العجلوني ، لتعاطي البناء ، فتفاءلت باسمه ورجوت أنِّي أسعد فيما أردت ، وذلك بعد أن أجمع الناس على أنَّ دون ذلك خرط القتاد ، وتقطيع الأكباد ، وزادوا في ذلـك ونقصـوا ، فمنهم من قال : إنه يحتاج إلى عشرة آلاف دينار ، ومنهم من قال : دون ذلك ، وأقل ما قِيل ثلاثة آلاف دينار ، كما قَدَّرها ابن الزنيك بحضرة القضاة ، وبذلك قال الأمير بُرْدُبَك صهر السلطان ، لما طلع إلى بلاد الزّبَدَاني مارًّا إلى حلب ، وكنت سألته في المرور عليه لينظره ، لأني كنت راجيًا العون عليه ، خائفا أن يقال بعد أن أبنيه ، أحد أمرين ، أنه لم يكن به محتاجًا إلى الإصلاح إلا شيء يسير أو أنّ المتحصِّل من وقفه شيء كثير يوفي بعمارة مثله ، فإذا رآه انتفى الأمران ، أحدهما بالمشاهدة ، والثاني بسؤال أهل البلاد، وكان الأمير المشـار إليه مـن أكبر

---

(١) هو : أحمد بن سعيد بن عثمان بن محمد بن سعيد بن إبراهيم ، الشهاب أبو العباس التلمساني المغربي المالكي ، أخذ القضاء بدمشق عن علم الدين سالم في سفر سنة ٨٤٥ هـ ، وسار فيه بحرمة وافرة ، مات يوم الاثنين ١٨ جمادى الأولى ، وقيل في ٤ ربيع الآخر سنة ٨٧٤ هـ . له ترجمة في : «الضوء اللامع » (١/ ٣٠٦) و«الدارس» (١/ ٢٢ـ ٢٦) .

(٢) هو : إبراهيم بن محمد بن أبي عبد الله محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج بن عبد الله ، القاضي برهان الدين بن الشيخ أكمل الدين الراميني الدمشقي الصالحي الحنبلي ، ولد يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى سنة ٨١٦ هـ ، وقيل : سنة ٨١٥ هـ ، بدمشق ، ونشأ بها ، ولي قضاء دمشق غير مرة فحمدت سيرته ، صنف شرح المقنع في الفقه ، وطبقات الأصحاب (المقصد الأرشد في ترجمة أصحاب الإمام أحمد) ومات في دمشق ليلة الأربعاء ٤ أو ٥ شعبان سنة ٨٨٤ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (١/ ١٥٢) ، و « الدارس » (٢/ ٥٩ ـ ٦٠) ، و « شذرات الذهب» (٧/ ٣٣٨ـ ٣٣٩) .

القائمين عَلَيَّ المانعين لي عن تعاطي عمارته شفقة عَلَيّ من دخولي [١١٢] فيما لا أُطيق، وكان من لا يستطيع مواجهتي بالمنع عن ذلك يبلغني تهكمـه عليّ ، أو ترفقـه لي ، وكنت كلّما خذلني مُخَذِّل يُشدد الله عزمي ، ويفتح بصيرتي، بحيث لا تمر ساعة إلا وعزمي فيها أقوى مما قبله كما قيل:

إذا هَـمَّ أَلْقى بين عينيه عزَمه   وأَعْرَضَ عن ذكر العواقبِ جانبا

واختلفت عبارات الناس لي ، واختلفت أجوبتي لهم ، فمنها أنّ الأمير بُرْدْبَك قال لي : سألتك بالله لا تفضح نفسك وتفضحنا ، يعني بفضيحتي دخولي فيما أعجز عنه ، فأنسب إلى ضعف العقل ، وعدم النظر في العواقب ، وبفضيحتهم ، يعني نفسه والسلطان ؛ أني معروف بصحبتهم ، ولم يساعدوني . ومنها أنه قال لي : هٰذا أمرٌ لا يقدر عليه إلاّ السلطان ، وأنا نظرته مع خبرتي بالعمارة ، وأنت لم تنظره . ومنها أنه أرسل إليّ يقول : إن كان الحامل له على توريط نفسه في العمارة ، الخوف مِن سعي أحدٍ عليه في الوقف فأنا أضمن له أنَّه لا ينزع منه أبدا ، ومنها أنهم قالوا : أنّ الملك الظاهر بذل للقاضي بهاء الدين بن حِجِّي [(١)] (ولم يكن في زمنه بعد عبد الباسط أعْلَى هِمَّة منه) ألفي دينار ليعمره فأخذ المهندسين والنّاس ، وطلـع إليه ، فلما رآه تقاصرت إليه نفسه ، وعجز عنه. ومنها أنَّ الشيخ عبد الرحمن [(٢)] بن داود وكان الله قد يسر لـه العمارة

(١) هو : محمد بن عمر بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد ، البهاء أبو البقاء بن النجم أبي الفرج بن العلاء أبي البركات السعدي الحسباني ثم الدمشقي ثم القاهري الشافعي ، المعروف بابن حجي ، ولد في سنة ٨١٢ هـ ، وُلِّي قضاء دمشق بعد موت أبيه ، ثم نُقل إلى نظر جيشها ، ثم قدم القاهرة ، وتولى نظر جيش مصر ، وعزل بعد أشهر ، ثم خلع عليه بنظر جيش دمشق ، ثم قدم القاهـرة ، ومات بها في يوم ٢٣ صفر سنة ٨٥٠ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٥/ ٥١٤ ـ ٥١٥) ، و « الضوء اللامع » (٨/ ٢٤٢ رقم ٦٥١)

(٢) راجع « هامش ٧ » من (ص ٢١١) القسم الأول .

في أماكن شتّى قصد عمارته ، فلما رآه استعجز نفسه ، ومن الأسباب العظيمة المانعة ، أن الذي أخذت منه أوقاف الخان إسماعيل بن يوسف مقدّم بلاد الزَّبَدَاني ، وله من الشجاعة والإقدام والجُرأة والشهرة بالقتل والفتك ما ليس لأحد من أهل هذه الدائرة في زمانه ، من جملة وقائعه أنه كان مطردًا من بلاد الزَّبَدَاني ، عاصيًا على الحكّام ، فطرق ابن هلال الدَّولة مُقدَّم تلك البلاد قبله في قرية أهل كفر عامر[1] ، وهي أكبر بلاد الزَّبَداني ، وفي وسط البلاد بأربعة عشر رجلاً ، فقتله ، وشرب مِن دَمه ، وأحرق بيته ، وذهب تحت الليل ، ولم يقدر عليه ، ومنها أنَّه طرق أهل كفر عامر أيضاً في يوم عيد فِطْر بخيله ورجاله ، فقتل منهم عشرة رجال كانوا أعْيان تلك البلاد ، وكان ينشد في حال المجاولة :

يـــا مـــن تَقَضَّـــي دَيْنَنَـــا | المطـــلُ ما هُـــوْ بيننـــا
عِيْـــدًا تجِيْكـــم خيلنـــا | مثـلُ العرائـس تَنْجَلِـــي

وكم له مِن وقعة مشهورة ، وداهية بينهم منقولة مأثورة ، بحيث أنّه ربى له مِن الهيبة ، لا سيما في قلوب أهـل تلك البلاد ما يَجِلُّ عـن الوصْف ، وكان قد تكرر قوله في حال منازَعتي له لنائب الشام وغيره : والله إن أخذ مِنّي هذا الوقف لأجْرِيَنَّ الدِّماء في بلاد الزَّبداني إلى تحت قلعة دمشق ، فلم يبق أحدٌ حتى خوَّفني منه ، حتى الأمير بُرِدْبَك ، فكان من أجوبتي للناس أنِّي قد عزمت على البناء وشهرت ذلك ، وحققت العزم بالسفر الطويل من مصر إلى الشام ، فالرجوع قبل المباشرة نقص عظيم في الرأي والعقـل والشجاعة . ومنها أنِّي قلت : أنا إذا عزمت على

(١) ذكره (النعيمي) في « الدارس » (٢/ ١٩٠) .

الموت أكره والله أنْ أرجع بلا موت . ومنها أن قلت للأمير بُرْدُبَك : مِثَالي ومثال هذا الخان ، مثال رجل قصد عدوّاً له بخمسة عشر رجلاً ، فلما تقاربوا أشرف على العدو من ربوة ، فإذا هم نحو خمسة عشر ألفًا ، فكان بين أن يرجع فينجو فيقضي كلّ أحدٍ بجنونه ، لأنه كان عليه أن يتعرف أخبار عدوِّه ، قبل أن يخرج من بلده فيستعد له ، وبين أن يلحق فتأخذه الخيلُ والرِّجال من كلِّ جانب مُدبرًا لم يصنع شيئًا ، وبين أن يُقْبِل فيُقتل مُقبلاً ، وربما نُصر ؛ فإنَّ النصر ليس بالكثرة ، بل من عِند الله . فالرأي أن يقبل اعتمادًا على قوله تعالى : ﴿ **كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، واللهُ مَعَ الصَّابِرين** ﴾[1] ، ومنها أني قلت للأمير بُرْدُبَك وهو [١١٣] عند الجامع الذي أراد بناءه ، بين باب الفرج ، وباب الفَرَاديس : ما يُدريك أنَّ الله تعالى يُعِينني على ضعفي ، فأبني هذا الخان قبل أن تبني هذا الجامع على قُوَّتِك ، فحقق الله ، وله الحمد ذلك ، وذلك أن الناس كانوا كلما خَوَّفوني اشتدّ خوفي واعتقادي الضعف في نفسي ، والعجز والفقر ، فصدق التجائي إلى الله ، وتَبَرُّىء مِنْ حَولي وقوتي إلى حول الله وقوته ، واشتد تضرعي وبكائي وسؤالي لأهل الخير الدعاء بتيسير الأسباب ، والمكاتبة لأهل الخير بالدعاء بأنفسهم وبمن يرجون بركته بذلك .

من ذلك ما كتبته لبعض الأصهار : « وبعد فالعبد مقيم على ما يعهده الخاطر الكريم ، مِن صدق المودَّة ، وصفاء المحبَّة ، وكثرة السّرور به وبجماعته ، على غاية من الالتفات بجميع قلْبه إليهم ، وإلى جميع الأهـل والعيال ، يَوَدُّ مـن الشـوق المبرح أنَّه يُعـار جَنَاحَيْ طائر فيطيرُ ،

---

(١) البقرة/ ٢٤٩ .

لكنه محبوس في قيد القدرة ، مرتبط بأسباب العلم ، سابح في بحر القضاء ، تُقَلِّبُهُ يدُ الإرادة ، قد استشعر الضعف ، وتردّى بالعجز ، وتبرّأ مِن حوله وقوته إلى مَن له الحول والقوّة والطَّوْل ، وإلى الآن لم يتهيأ للعبد جميع ما قصده ، لكنه شرع في الأسباب القريبة من عمل الكِلْس (١) وتعزيل المهدوم مِن الخان ، ببعض الأعوان ، وبعد أيّام إن شاء الله تعالى يطلع العبد بنفسه ، ومن يعتني بأمره ويحرّكه له ربه من أهل الخير ، إلى بلاد الزَّبداني ، ويُباشر ما يقدره الله له ، ويهيىء له أسبابه ، فسيدي لا ينسى العبد من الإمداد بالدعاء ، وجميع العيال والأصهار ، فإنهم أهلٌ للإجابة ؛ لأن دعاءهم ينشأ عن قلوب صادقة في المحبة ، شفيقة على العبد ، ضعيفة عن الإعانة ، مضطرة إلى القبول ، مع كونه في ظهر الغيب ، وكذا يستجلب سيدي الدعاء من كل من يراه من أهل الخير ، ويعتني بذلك غاية الإعتناء ، فإنَّ الأمر شديد ، فالله تعالى المسؤول أن يمنّ بإبلاغ السُؤال ، وتيسير المأمول ، فكم من ضعيف أصبح به قويًا ، وفقير أمْسى به غنيا ، هو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . إلى غير ذلك من كتب تصدع لها القلوب وتدمع العيون . ولم يكن أحدٌ يُرَجِّيني في ذلك ، ويطيِّبُ نفسي إلا العلامة شيخ الشام شمس الدين البلاطُنُسي ، والعلامة زين الدين بن خطاب العجلوني الغَزَاوي (بالتخفيف) .

واستمر ذلك نحوًا من ثلاثة أشهر إلى أن قدَّر الله الوصول إلى الخان المذكور ، فلما رآه المعلِّم والقضاة ، تشاوَرُوا في أمره ، وطالت المراجعة إلى

---

(١) الكِلْس : جاء في « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٩٥) « وهو المادة المتبقية بعد تسخين الحجر الجيري تسخينًا شديدًا ، وبعد خروج بعض مكوناته » .

أنْ استقرَّ رأيهم على أن ترقيعه يحتاج إلى ثلاثة آلاف دينار ، وهي بدراهم الشام إذ ذاك مائة ألف دِرهم وخمسون ألف درهم .

وأمّا صورته التي كان عليها ، فهي أنَّه مربّع ، يكون بُعْد كل قطر منه نحو ستين خطوة ، وفي كل جانب منه بايكتان [١] ، على ثلاثة جُدُر ، الجدار الخارج ، وهو سور الخان حامِل لما يليه من البايكة الداخلة ، وجدارها الآخر حامل لما يليه منها وما يليه من البايكة الأخرى التي إلى دار الخان ، وجدارها الآخر هو حد دار الخان التي يُسَمِّيها الناسُ الصَّحُن ، فداره بهذا الاعتبار صغيرة جدًّا ، وفي وسط البايكه القبلية الخارجة مكان صغير مربع مرتفع عن بقية أرض الخان ، وبه محراب وعليه قبَّةٌ ، وباب الخان في الشمال تلقاء هذا المكان .

وأمَّا صورته التي صار إليها ، فجميع غَرْبِيِّهِ مُهدَّم إلى الأرض ، وكذا بابه وكثير من البايكتين الشرقيَّتين من جهة الشمال ، وأمَّا بقية جدرانه فقد انهدم أكثر خارجها ، بحيثُ أنَّه لم يبق في بعض الجهات غير بايكة واحدة تحمل العقد أو ثنتان ، وساوى المتهدِّمُ السطحَ ، فصار يصعد إلى سطحه كلُّ حيوان من كل جانب ، ولم يكن به مصاطب [٢] ، ولا مرابط، فكان النّازل به يضطرُّ إلى أن يدق في الجدار ما يحفظ به دابّته وأمتعته ، فتهدَّم كثيرٌ من جدره الداخلة ، فصارت بوايكه وداره مشحونة

---

(١) بايكتان : جاء في « محيط المحيط » (٦١) ، « البائِكة مؤنث البائك ، جمع بوائِك ، ومن المخازن الواسع العظيم ، وهذه من كلام العامَّة .

(٢) مَصَاطب : ويقال (مَسَاطِب) ، وهي الدكاكين يُقعد عليها جمع (مَسْطَبة) ، و (مِسْطَبة)، وقيل : المِسْطَبة خان الغرباء ، وقيل : موضع يجتمع فيه الفقراء والسائلون ، وهي عند العامّة بقعة بجانب البيت تُحاط بجدار ، وتُردم أرضها ، فتكون أعلى ممّا حولها .

« محيط المحيط » (٤٠٩) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٤٢٩) .

بالحجارة والأتربة ، وصار يُصعد إلى سطحه من وسطه ، ولم يكن لبابه أثر غير حجرين في خَدَّي الباب من كل ناحية حجر واحد ، وهو مسدود بالتُّراب والحجارَة ، وما بقي من الخان فمشرف على متابعةِ ما انهدم ، فلم يكن أحدٌ يستطيع النزول به .

فلما كتب من كان معنا ما ندبوا إليه من التصوير والتقدير ، ورجعوا ، قام المعلِّم سعد برأي سديد ، مُشَمِّرًا عَنْ ساعد بمعونة الله شديد ، وأنَّ الله تعالى قد استجاب لي في تيسير الأسباب به وبرجاله الذين استصحبهم من دمشق ، فكانوا مِن أعظم الأسْباب ؛ لأن كُلّ رجلٍ منهم نقاوة إقليم ، قُوَّة قَلْبٍ ، وشدَّة بَدَنٍ وأصالة رأي ، وصِدق عَزم ، وذكاء قلب ، وثبات أمر ، وعظم نصح ، وكثرة شفقه ، فجزاهم الله عني خَير الجزاء .

فأخذ يبني بما كُنَّا صحبناه معنا من الكِلْس ، واستجلبناه من القصرمل من الزَّبداني ، فأدار الجدار من الجانب القبلي وأخذ شرقًا إلى أن وصل إلى الباب ، فقال : إنَّ هذا الباب كان قَوْساً مُجَرَّدًا ، وأنَّه لا يليق ذلك لهذا الخان ؛ لأنَّ القصد الرِّفق بالضعيف ، وإذا أتى ليلاً في الشتاء ، وقد أغلق البوَّاب وقف تحت الثلج ، أو المطر يستفتح ، فيهلك دون أن يفتح له ، فالرأي أن يُعمل له خباءٌ من الخارج ، ويُجعل تحته من كلِّ جانب مصطبة ؛ فيجلس عليها هذا الضعيف في كِنٍّ يقيه الثلج والمطر ، إلى أن يفتح له ، فقلت إنَّ نفقتي ضعيفة ، ولا أُحب إلاَّ الأحسن الأكمل [١١٤] ؛ لأنّ طبعي النَّصيحة ، أحفظ عن النبي ﷺ ، أنه قال : « من عمل عَمَلاً وهو يعرف خيرًا منه كان غاشًا » . فلو كنت في مصر ، عملت ذلك ؛ لأنَّ بنَّائيها يَعرِفونني فينظرونني إلى الميسرة . فقال : أنتَ

في مصر إذًا والله لا أُطالبك لنفسي ، ولا لأحد من رجالي الَّذين استصحبتهم ، حتى يُيَسِّر الله عليك . فقلت : الآن فاعمل ما تُريد ، فأخذ في ذلك ، فما كان إلاّ قليل ، يومان أو ثلاثة وإذا كِتاب من الشيخ شمس الدين البلاطُنُسي قد وَرَدَ عليَّ ، وكان لما رآني اقترض ، قال لي : ما ترجمتك في المال . فقلت : لا مال لي ، فقال : فما حالك في الجَلَد على الطلب ، فقلت : لا جَلَد لي ، فقال : فما الذي عزمت عليه ، فقلت : أحسن الأحوال أن يُبارك الله لي في هذا العام في وقف الخان ، فأوفي منه الدَّين ، وأسوأوها أنّ لا يكون ذلك ، فأنزل عن بعض وظائفي بمصر ، وأوفيه .

فلما ورد عليَّ كِتابه إذا فيه : « وفي صبيحة يوم الجمعة ـ يعني ثاني عشري جمادى الآخرة هذا ـ خلق الله تعالى في قلب العبد ، أنَّه ليس مِن المروءة عند الشاميين أنّ سيدي الشيخ يخرج من الشام ، وعليه الدَّين ، بحيث ينزل عن وظائفه ليوفي دَينه ، فرأى العبدُ تكليم أهل الخير في المساعدة في عمارة الخان ، فأوَّل من بدا بابَه الخواجا [1] شمس الدَّيْن بن النّحّاس . فقال : أُخْرِجُ ألفًا ، فقلت له اعمل لنا الباب بناءً على أنَّه يُصَفِّحه جميعه ، ثم ثَنَّيْت بالقاضي بدر الدين بن المغربي ، فقال : إنَّه يرسل ألفًا ، وأنا عازِمٌ على تكليم من أقدر عليه واسترجي منه الخير ، فسَيِّدي يثبت ، ولا يتوهم من شيء ، ويقوي إيمانه بما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فمادام الكريمُ يُحرِّك القُلُوبَ للخير فهو واصل ، وإن دام الأمر إلى أوَّلِ شعبان ، فالعبد نجى إن شاء الله تعالى ، فطِب نفسًا وثِق

---

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن إسماعيل ، الخواجا شمس الدين بن النحاس الدمشقي ، مات في رجب سنة ٨٦٢ هـ بجدة ، وترك أموالاً وأولاداً ، وهو صاحب الخانقاه النحاسية والتربة التي بها في دمشق له ترجمة في : « الضوء اللامع » (١١/ ٢٧٣) ، و«الدارس» (٢/ ١٧٤) .

بكرم الله تعالى ، والتجىء إليه بطلب المعونة والتيسير ، فإذا بُنِيَ البابُ فارسلوا لنا قِيَاسه ، ليشرع في عمله ، ونرجوا مِن الله تعالى أن نعمله على الوجه الذي نريده والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

فلما قرأ العبد هذا الكتاب ، عَلِم أنّ الله تعالى قد استجاب له في تيسير الأسباب ؛ فهطلت دموعُه ، وزاد خضوعه ، فسجد شكراً لله تعالى ، وأكثر مِن التضرع والدعاء ، ثم أقبل على ما هو فيه ، واستكثر مِن الرِّجال، ويسَّر الله عليه بأمورٍ منها ، أنه كان إلى جانب الخان غَيْضَة [(١)] له ، فقطعتها فعظم نفعها في قوالب العقود ، وتحفيظ ما أشرف على الوقوع وغير ذلك . ومنها ، أنَّه كان بالقرب من الخان في الجبل الشرقي ديرٌ [(٢)] يُسمى دير بقين ، وعند النصارى يُقال له مار إلياس ، وكان قد انهدم فجُعل زاوية للمسلمين ، ثم انهدم وزال كَوْنه زاوية وردّ وقفه على الخان ، وصار لا ينتفع به ولا تُظَنّ عمارته ، فاحتجت إلى حجارة للباب وزوايا الخان ، ونحو ذلك ، فإذا به من الآلات الحسنة الجيدة ما يعزّ وجود مثله ، فأخذت من يهدم منه ، فقال من حضر من أهل البلاد أنَّ من هَدَم منه شيئًا أُصيب ، وقد فعل ذلك جماعةٌ فأُصيبوا ، أو من يعزّ عليهم ، منهم من جُنَّ ، ومنهم من مات ، ومنهم المصاب بغير ذلك ، بحيث [١١٥] صار لا يستطيع أحدٌ التعرض إليه ، فقلت إنّ حمايته لم

---

(١) غَيْضة : الغَيْضَة ، هو الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلْتفّ ، أو مجتمع الشجر في مغيض ماء.

« محيط المحيط » (٦٧٢) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٦٦٨) .

(٢) دَير : جاء في « محيط المحيط » (٢٩٨) هو مسكن الرهبان والراهبات ، جمعه أديار ودُيُورة وديارات وأديرة .

راجع أيضاً « المعجم الوسيط » (١/ ٣٠٦) .

تكن إلا لي ، فإنّ الله علم أنّي أبني هذا الخان ، وأنّي أحتاج فيه إلى حجارة أعجز عن انشائها ، فحمى هذا الدير لأجل ذلك ، ثم هدمت ، وهَدَم من كان معي فأخذنا منه آلة كثيرة ، قال البنّاء : إن الحجر الواحد منها لا يُوجد في دمشق بعشرة دراهم ، وبعضها لا يُوجد بدينار ، فلله الحمد .

وأقمت إلى جانب الخان من الشرق أتونًا [1] للكِلْس إلى جانب الطريق السلطاني من المشرق ، وحمى الناس ، وتتابع العمل ، وكان أولاد عمِّي بَنُوا حَسَن من أهل خَرْبة رَوْحا من البقاع ، ومن انضم إليهم بحلْف أو غيره ـ بحيث صار يُعَدُّ منهم ـ يتناوبون الإقامة عندي ما بين العشرة إلى العشرين ؛ للمعاوَنة في البناء والحراسة لي مما كان يُقال .

وكانت الفَعَلة [2] تأتينا من بلاد البقاع وغيرها ، بحيث كانت نفقتها في الأكل والأجر وآلات البناء تُقارب خمسمائة دِرهم في كل يوم في غالب المدَّة ، وكان في كل عشرة أيَّام أو نحوها يَسْأَمُ بعضُ الفعلة ، فيستأذنون في الذهاب ، فإذا ذهبوا أتى غيرهم بهمة جديدة ونفس جديدة ، فلم نزل طِوال المدَّة في عزائم قوية ، وهمم عَلِيَّةٍ فلله الحمد على ذلك .

فقام الخان كُلُّه ، بَوَّابَتُهُ وجميع جُدُرِه ، على أنّ تحت الجدار منها أكثر من ثلاثة أذرع بالنجار ، بحيث يسع أن يُفرش عليه بساطان عرضا ، وأعيد ما كـان في عقـوده ساقِطاً ، ورُمَّ ما كـان بـه رثّاً من داخل ، غير أنَّ

---

(١) أتون : هو ، اخدود الجيّار والجصّاص ونحوه ، وموقد نار الحمَّام .

« محيط المحيط » (٢) ، و « المعجم الوسيط » (١ / ٤) .

(٢) الفعلة : « جمع فاعل ، وهي صفة غالبة على العَمَلة الذين يعملون بأيديهم في طين ، أو حفر ونحو ذلك .. وهو من اصطلاح المولَّدين » .

« محيط المحيط » (٦٩٦) .

الجانب الغربي لم يُقَم إلآ جداره الخارج ، وهو سور الخان ، وبقي محتاجًا إلى جدار شرقي ، تُعقد عليه بايكته ، ورأى أولوا الخبرة أن تُختصر منه ، ومن الشمالي بايكه ، ليتسع صحن الخان .

وعمل على يسْرَة الداخِل إلى الخان مسجدٌ حسنٌ واسعٌ ، على يَمْنته دكانٌ ومتْبَن [١] واسِعان ، وفي الدكان بيتٌ صغيرٌ بخشب ينتفع به وبسقفه ، كل هذا إلى أواخر شعبان ، ورُكِّب البابُ في يوم الخميس آخر يوم من شعبان ، مصفّحًا كلُّه بالحديد ، وصار النَّاس يأتون إليه من كُلِّ قُطْر [٢] يتعجَّبون من حسْنه ، وقال أهْلُ الخبرة أنه ليس في دمشق بوَّابة خان مثل بَوَّابته ، ولا باب مثل بابه .

وبقى الخان محتاجًا إلى مصاطب في أحد الجانبين ، كل بايكة وبها مرابط ، وإلى سلَّم إلى سطحه ، وإلى ميازيب [٣] حجارة وإلى تكحيل ما بقى من جدره بالكِلْس والقصرمل ؛ لتُحفظ من المطر ، وإلى تعديل أرضه وتسويتها ، وتسليط الماء إلى خارجه ، وإلى تسليط ماء السطح إلى الميازيب .

وألقى الله لي من الهيبة في قلوب أهل تلك البلاد ، ما لم يصل إليه أحدٌ في ذلك الزَّمان ؛ بعمل الحق ، والصَّرَامة في الأقوال والأفعال ، والتأييد

---

(١) مَتْبن : هو بيت التِّبن ، والتِّبْن عصيفة الزرع من بُرّ ونحوه ، تُعْلَفه الماشية .

« محيط المحيط » (٦٨) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٨٢) .

(٢) قُطْر : الناحية والجانب ، جمع أقطار .

« محيط المحيط » (٧٤٣) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٤٤) .

(٣) مَيَازيب : جمع مِيْزاب ، وهو قناة أو أنبوبة يُصرف بها الماء من سطح بناء ، أو موضع عالٍ .

« محيط المحيط » (٨) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ١٥) .

بالأقارب الشُّجعان ، فكنت أخوضُ بهم البلاد بتأييد الله ، شرقًا وغربًا ، طولاً وعرضًا ، ليلاً ونهارًا ، قَلَّ جبلٌ هناك إلاّ صعدته ، ولا مكان إلاّ جزته ، وقلّ أن قصدت شيئًا إلاّ سَهَّله الله ، وتقرَّب الناس إليَّ بإظهار ما كان أُخفي مِن أوقاف الخان ، وما انضمّ إليها من أوقاف دَير بقين ، وَدَير الما ، ودَير قُبيس وُشليا ، ووقف الفقراء والأكفان في مضايا ، وبقين ، والكبرى ، وبلوذان ، والدُلّة ، وكفر عامر ، والزّبداني ، والحاره ، والسَّفيرة ، وعيون التُّوت من بلاد الزّبداني ، وعين عرب من بلاد البقاع ، بحيث كان [ريْعُها] [1] في هذا العام نحو اثني عَشر ألف درهم شامِيّة، [و] [2] أثمان التفاح ، والجوز ، وورق التوت ، وغير ذلك من الثِّمار نحو أربعة آلاف وخمسمائة ، وأثمان نحو تِسْع عشرة غرارة قمح ، وثلاث غرائر شعير ونصف غرارة حمص ، وعَدَس ، وبيقية [3] ستة آلاف وخمسمائة درهم ، وثمن الخشب نحو ألف دِرهم .

وأرسل إليَّ بعضُ المفسدين من يفتك بي ، فظفَّرني الله به ، وفعلت فيه ما صار مثلاً ؛ فازدادت الهيبة ، وتحاماني المرتابون .

غير أنَّا طرقنا فيه ، في أواخر الأمر بمصائب ، منها أنَّه كان من أعيان مَن معنا ، مِن البنائين شخص ، يُقال له يوسف بن يحيى ، وكان شديد النفع لي ، فيما يعسر على غيره من حَمل الأثقال على ظهره ، وتحميلها ، ومن الدخول في تفكيك ما كان سقط من عقود الخان والمساعدة في الأتون ، في تحصيل الحطب والحجارة والقصرمل ، وغير ذلك ، فكدَّ نفسه

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) إضافة اقتضاها السياق .

(٣) بيقيه : نوع من البقول ، نباتها أطول من نبات العدس ، وتؤكل كما يؤكل العدس ، إلاّ أنها أعسر هضمًا ، وأقوى تجفيفًا وحرارتها معتدلة .

« الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (١٣٢) .

في رابع عشر شعبان في نقل الكِلْس من الأتون ، حتى طلع الدَّمُ من حَلْقِه وأنفه ، ثم صلَّى الظهر ، ودخل يهدّ قالب عقد المسجد ، فوقع عليه فمات ، فاشتد أسفي عليه ؛ فإنه كان نِعمَ الرّجل ، كان والله أوّاهًا مُنيبًا خاشِعًا ، ديِّنًا تقيّاً ، نصوحًا ، جَسُورًا على الخطوب ، فرّاجًا للأزمات ، كاشِفًا للهموم ، جريئًا على الصِّعاب ، قويّاً في بدنه ، جَلِيدًا في عزمه ، صافي الذهن ، ثاقب الفكر ، عارفًا بما يضر وينفع ، مُسَهّلاً عليه فيما يعانيه [١١٦] ، مقبول الشكل ، فصيح الكلام ، جزل الألفاظ ، جاد القريحة ، مقدامًا عند المضائق ، ملازمًا للصَّلاة ، مواظبًا على الخير ، يعز والله وُجدان مثله في مدينة ، أشهد له بذلك ، وأسأل الكريم أن يقبل فيه ما أعلم ، ويعفو عنه ما لا أعلم رحم الله تلك الرُّوح الزَّكية اللطيفة ، والأخلاق الرَّضية العفيفة ، والوجه البسّام ، والفم الحسن الكلام ، إني والله به لمحزون ، وفيه لمغبون ، اللهم أجرني في مُصيبتي ، واخلف لي خيرا منها ، اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني منها عُقبى حسنة إنّا لله وإنّا إليه راجعون قَدَّر الله وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله .

ومنها ، أني أسلفت في حَطب ، يعرف في الزَّبداني بالتبان ، وفي البقاع بالقتاد [١] شوك ، قالوا : أنّه شديد الموافقة للأتون ، فتنافس فيه أهل البلاد ، فحرق أهلُ قريـة بقين لأهـل قريـة هريرة [٢] منه نحـو مائـة

---

(١) القَتَاد : شجرٌ صلْب له شوك كالإبر ، من الفصيلة القرنية ، ويسمَّى في السودان الخشَّاب ، ومنه يُستخرج أجود الصمغ ، وفي المثل من دونه خرط القتاد ، يُضرب للشيء لا يُنال إلاَّ بمشقة عظيمة .

« محيط المحيط » (٧١٤) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٧١٤) .

(٢) هريرة : قرية شمالي دمشق للغرب على نحو ثلاثين كيلو مترًا منها .

« الدارس (١/ ٣٩٨ هامش ٥) .

حمـل ، على ما قيل ، فعظمت مَشَقَّةُ ذلك عليَّ .

ثم رجعت إلى دمشق بعد أن أجرت دكَّانه لشخص بثمانمائة دِرهم ، وعلية تنويره ، وأسلمته ما خَلّفت من الآلات والمؤن ، وأقمت مَن يشتهيه أي يَجْدل سطحه ، ويجرف ما يقع عليه من ثلج ، وجعلت له نظير ذلك ما يكون بالخان مِن رَبْل [1] ، وشرطت عليه أن يحصي به ما في يده من أراضي وقف الخان .

وكان رجوعي إلى دمشق ، يوم الاثنين ، رابع شهر رمضان من السنة ، فلما أطمأنّت بي الدّارُ ، وزال ما كنت أُعانيه مِن تلك الأكدار ، تذكرتُ الأهل والأوطان ، والأصحاب ، والخلاّن فقلت :

عـدِيْلةَ روحِي بـل أعـزُّ وأشـرَفُ ... فـديتُـكِ كـم لي نحـو كـمْ أتَشـوَّفُ

أهَـل تجمـع الأيـامُ بيني وبينكـمْ ... ومِـنْ ريقكِ المعسـولِ هـل أتـرشّفُ

لقـد أَضـْمَرتني الأرضُ بعدك والرُّبـا ... فكـم بيننـا مـن مَهْمَه [2] مُتَعـسّفُ

فيـافٍ تظـلّ البـُزْلُ [3] فيها نواحـلاً ... وتنكصُ سُبّاق الخيولِ وتَعْجـفُ [4]

---

(١) رَبْل : ضرب من الشجر ، يتفطَّر في القَيْظ بعد الهَيْج ببرد الليل من غير مطر، والرَّبْل أيضاً نباتٌ شديد الخضرة ، دِرهمان منه ترياق للسُع الأفاعي .

« لسان العرب » (١٣/ ٢٨٠) « القاموس المحيط» (٣/ ٣٩١ ، ٣٩٢) ، و«محيط المحيط» (٣٢١) ، و« المعجم الوسيط » (١/ ٣٢٦) .

(٢) مَهْمَه : هي المفازة البعيدة ، والبلد المقْفر .

«القاموس المحيط » (٤ / ٢٩٤) ، و«محيط المحيط » (٨٦٧) ، و«المعجم الوسيط » (٢ / ٨٩٠) .

(٣) البُزْل : هي الجمال تطلع أنيابها ، وذلك في السنة الثامنة ، أو التاسعة . «القاموس المحيط » (٣/ ٣٤٥) ، و«محيط المحيط » (٣٩) ، و«المعجم الوسيط» (١/ ٥٤) .

(٤) تَعجُف : تهزل ، ويذهب سمنها .

« لسان العرب » (١١/ ١٣٨)، و«القاموس المحيط» (٣/ ٧٧) ، و«محيط المحيط» (٥٧٨) ، و«المعجم الوسيط » (٢ / ٥٨٥) .

فـديتك لـو أبصـرتِ سيفـي مخاصـري
على متن صَهــّالٍ إلى المـوت يـُوجِفُ

أخـوضُ الليــالي المظلمــات وأنثنــي
وطـير الكـَرى [1] فوق الجفـون يُرَفـْرِفُ

بـِأَرْضِ غــَدُورٍ أهـلــها وجبالُـهـا
فـلا خـــلّ لي إلاّ حُســامٌ ومُصـْحَفُ

حُســـامٌ إذا صـــَوّبتُــه لضريبـــةٍ
وحَـــقِّ الثنايـــا الغــرلا يَتَخلــّفُ

وفِيٌّ بمقصـــود الكَمـيِّ [2] مُـــجَرّبٌ
أمـِينٌ على أغـراضه لَيــْس يُـــخلِفُ

بنيت سبيـــلاً ذُلِّلــَت لِي صِعـابــُه
وعــادَتْ بحمــد الله لــي تتــألــّفُ

بنيت سبيـلاً كـــان يشمــخ أنفـــه
على كـــل جبـّار عنيـــد ويـأنـــف

وكــم مـــِن رئيـس رامـه فَتَمنّعـــَتْ
وكــانت على عـلياه تـأبـى وتـأنــف

وكـنتُ نـَقِيَّ العِرْض مــالا مـني امـرُءٌ
ولا قيــل إنـى بالعـِدات أُســـوِّف

---

(١) الكَرى : النعاس ، والنوم .

« لسان العرب (٢٠/ ٨٥) ، و«القاموس المحيط » (٤/ ٣٨٥) ، و«محيط المحيط » (٧٧٩) ، و«المعجم الوسيط » (٢/ ٧٨٥) .

(٢) الكَمِيّ : لابِس السلاح ، أو الشجاع المقدام الجرىء ، كان عليه سلاح ، أو لم يكن .

« لسان العرب » (٢٠ / ٩٧) ، و«القاموس المحيط » (٤/ ٣٨٦) ، و«محيط المحيط » (٧٩٣) ، و«المعجم الوسيط» (٧٩٩) .

إذا سـار عـنى سائـرٌ شـال رايـةً
لمجـدي وأمـس بالمدائـح يهتِف
وكـنُـتُ إذا أمـرٌ دَهَـاني أردُّهُ
بِعـزم على متن السِّماكيـن يُشْرِف
وكـم ليلـةٍ أسْريت تُحـت ستورهـا
وبـرقُ العـوالي للعيـون يُخَطِّـفُ
وحـوْليَ عُقـبانٌ كـأن وجُوهـهم
نجـومٌ يُضـيء الليـلُ منهـا فتُعـرَف
رجـالُ حـروبٍ تَصْدِف الأسدُ عنهم
ونـارُ الـوَغـى مِن بـأسهـمْ تتخـوَّفُ
إلى حَـسنِ مرمـاهـمُ وانتسـابُهمْ
فسَـلْ عـنهمُ يخبِرْك رمـحٌ ومُرْهَـفُ
أناسٌ تهـاب الأُسْدُ قـُرْبَ ديـارهم
وتهـوىٰ الظِّباءُ الآنِسـاتُ وتـألَفُ
فـدَيتُكِ كـم أبكيْتُ قِرنـا وإنَّـني
لأنـثُرُ دُرَّ الدَّمـع فِيـك وأذْرِفُ
لقد قَطَع التّفريقُ مِنْكِ حُشاشـتي[1]
وأنحَـلَ جسـمي منك قـدٌّ مُهَفْهَفُ
ترى تسمـح الأيّـام لـي بعناقِـهِ
وأسْعَـدُ بالوَصـلِ المُريـح وأُسْعَفُ
وأشكـو صـباباتي[2] إليْـكِ وحرْقتي
فيرحمـني اللفـظ المليـحُ ويُنصِـفُ

---

(١) حُشاشتي : الحُشَاشَة ، بقية الروح في المريض والجريح ، أو رمق من حياة النفس . «لسان العرب» (٨/ ١٧٢) ، و«القاموس المحيط» (٢/ ٢٧٩) و«محيط المحيط» (١٧٠) ، و«المعجم الوسيط» (١/ ١٧٦) .

(٢) صباباتي : الصبابة ، الشوق ، أو رقته ، أو حرارته ، أو رقة الهوى والولع الشديد بالشيء . «لسان العرب» (١٩/ ٨١، ١٨٢ ، ١٨٣) ، و«محيط المحيط»(٤٩٥) ، و«المعجم الوسيط»(١/ ٥٠٥)

ولولا مصيبة الغلاء ، ومصيبة تواتر الحريق على أسواق دِمشق لم ننزل حَتَّى فرغ الخان بجميع تتماتِهِ ، لكن احترق في العشر الآخر من جمادى هذا الدهشه ، وهي السَّوق العظيم الذي إلى جهة جَيْرُن[(١)] ، وبه أكابر تجار دِمشق ، وصادفه هواء غربي ؛ فوصل الحريق إلى قرب البادرائية [(٢)] ، ثم تحوَّل الهواء شرقياً فوصل الحريق إلى المشهد الشرقي بالجامع .

ثم عن قرب احترق سوق التجار الذي تحت القلعة ، ثم احترق سوق آخر فى ناحية خان السلطان ، وغير ذلك ؛ فكسر ذلك من عزائم الناس عن المساعدة ، ولا قوة إلا بالله .

وانشأ بعض الأدباء محضرًا بالصورة التي صار إليها الخانُ نَصُّه بعد البسملة « الحمد لله مُحْيي الأرض بعد الممات ، وجامع الأمر بعد الشتات ، وميسِّر العسير ، ومُدِرِّ البركات ، أحمده حمد مَن فَوَّض أمره إليه ، واعتمد في سائر أحواله عليه ، فكفاه المهمَّات ، وأشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة ترفعك [بهديها] [(٣)] الدرجات ، وأشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، الآمر بالتبشير لا بالتنفير ، وبالتيسير لا بالتعسير ،

---

(١) جَيْرُون : هو الباب الشرقي من أبواب الجامع الأموي بدمشق .

« معجم البلدان » (٢/ ١٩٩) .

(٢) البادرائية : مدرسة داخل باب الفراديس بدمشق ، شمال باب جَيْرُون من الجامع الأموي ، أنشأها الشيخ نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان البادرائي - نسبة إلى بادرايا ، بلدة في العراق من عمل واسط - المتوفي في ذي القعدة سنة ٦٥٥ هـ ، وقد وقف عليها أوقافًا دارَّة ، وجعل بها خزانة كتب نافعة .

« الدارس » (١/ ٢٠٥ - ٢٠٧) .

(٣) رسم الكلمة في الأصل (هدها) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

المنزَّل عليه : ﴿ فانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، ذَوِي الهمم العَلِيَّات صلاة تُبلِّغ مُصَلِّها أعلى غرف الجنات ، وسَلَّم تسليماً على ممر السَّاعات ، ولما كان خان الفندق من أراضي الزَّبداني يفتقر إلى وجود مثله في ذلك المكان كل قاص ودان قيَّض الله تعالى مَن جَدَّدَ بنيانه ، بعد الأياس مِن ذلك ، وسلك في عمارته بحمد الله تعالى له أجمل المسالك ، وأعاد بوايكه أحسن مما كانت وبَابَه ، وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه ، وأتم الله عمارته في مدَّة يسيرة مع قطع بعض أرباب العقول بأنه في سنين لا يُكمّل خلا البايكة الغربية المهتم بعمارتها يومئذٍ . والمأمول من فضل الله إتمامها سريعًا ، وما خاب من أمَّل ، وصار بحمد الله من أعجب العُجاب ، لا حظَهُ عونُ مِن الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) ، قد ردّت صفائحُ بَابه كيد العِداء ، واتسع صد رُفنائِه لمن راح أو غدا ، بعد ما كان قد تهدم بنيانه وباد ، وصار بقاؤه على تلك الحال عاراً على ولاة الأمور في سائر البلاد ، يشهد بمضمون ذلك ويضع خطه آخره من يرجو من الله ثوابه ويُكتب مضمون الرَّسْمِ عَمّن شهد بذلك ، ولم يحسن الكتابة » .

الحمد لله وَحْدَه وصلى الله على من لا نبي بَعده ، وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وعظَّم وكَرَّم ، فكتب شيخ الإسلام ، قُدْوَة الأنام الشيخ شمس الدين البلاطُنُسي ما نصَّه « الحمد لله ، يقول كاتِبُهُ محمد بن عبد الله البلاطُنُني الشافعي : أنِّي شاهدت الخان المذكور وأن الشيخ

---

(١) الروم / ٥٠ .

(٢) الزمر / ٢١ .

العالم العلامة برهان الدين البقاعي ، أحسن الله تعالى إليه قد قام في العمارة المذكورة أتَـمَّ قِيام ، وحصل له عون من الله تعالى ما لم يكن يخطر بالبال ، لكنَّه ألقى زمام الافتقار ، واستعان بالملك القهَّار ، فأعانه الذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ، وكشف عنه غم ثقل ذلك وَرَعاه ، ولا عجب في ذلك ؛ فإنَّ مَنْ توكَّل على الله كفاه ، والعمارة كما ذكر أعلاه ، والحمد لله على إحسانه ، وصلى الله على سَيد المرسلين محمد وآله وأصحابه وأزواجه وذريته وأعوانه » .

وكتب العلامة زين الدين خطاب : « الحمد لله رب العالمين ، على كل حال ، يقول كاتبه خطاب بن عمر الشافعي عامله الله بكرمه : شاهدت الخان المذكور أعلاه خرابًا اثرًا لا ينتفع به أحدٌ من الناس ، ثم شاهدته عامِرًا صالحًا للسّكنى على ما شُرِح فيه ، وكان الغالب على الظن أنَّ ما حصل لا يتم في سنين ، فسبحان من هو على كلِّ شيء قدير والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وفي يوم الخميس حادي عشري جمادى الآخرة ، سافر الأمير بُردبَك إلى القاهرة ، فلما وصل العريش[1] في أواخر الشهر ورَد عليه مرسوم السلطان ، بأن يَقدُم معه بزين الدين الإستدَّار ؛ فأرسل إليه إلى القدس، يأمره بالقدوم ، ورجع هو إلى غَزَّة ينتظره ، فلما قدم عليه توجَّها إلى القاهرة ، فلما وصلوا ، خُلع على الزَّين بالإستدارية ، وعُزل

---

(١) العريش : هي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم (المتوسط) وسط الرمل.

« معجم البلدان » (٤/ ١١٣).

قاسم[1].

ولم يجعل الزَّين دأبَه إلا السَّعيَ في أذى قريبه ناصر الدين بن أبي الفرج[2] فلم يزل به حتى أمر بنفيه ، ثم بعد جهد توصّل أصحابه إلى أن جعله السلطان والي قَطْيا .

وفي أوّل[3] شهر رجب ، ركب الظاهريّة[4]، ومعهم بعض الأشرفية على السلطان ؛ وذلك أنهم سألوا صهره يونس في معلوم يسأله السلطان ، فلم يجب ، فلما نزل مِن الخدمة اعترضوه ، فخشن لهم في المقال ، فحملوا عليه بالدَّبابيس ، فأمرِ مماليكه فسحبوا السُّيوف ، فحصل بينهم ضِراب ، خرج منه بعض المخالفين ، وخلص يونس ، فاشتد الأمر وقصدوه في بيته ، فاحتال حتى طلع إلى القلعة .

فلما بلغ السلطان شقَّ عليه ما فعل بهم ، وأرسل إليهم أخا[5] يونس، والأمير يُلْبَاي ، وسُودُون قرقش ، فأخذوهم ووضعوهم في بيت الأمير الكبير المواجه للقلعة ، ومنعوهم من العود إليه ، ثم أنهم ذهبوا إلى الخليفة ، فأتوا به ، فقيل أنَّه تكلَّم ببعض ما لا يوافق غرض السلطان ، فتركهم السلطان إلى قرب الظهر فأمنوا وتفرق بعضهم ، فلما رأى

---

(١) وكان قد خُلع عليه بالاستمرار في الإسْتَدَّارية في ١٩ جمادى الآخرة من سنة ٨٥٩ هـ .

« حوادث الدهور » (٢٣١) .

(٢) وقد كان نقيب الجيش في تلك الفترة ، كما أنه تولّى الإستَدَّارية من قبل .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٧٦) .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٧) يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة .

(٤) أي ظاهرية جقمق .

« النجوم الزاهرة (١٦/ ٨٧) .

(٥) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٩) يونس العلائي أحد مقدمي الألوف .

السلطان خفة من بقى في بيت الأمير الكبير أمر مَن اجتمع عليه ، فحملوا عليهم ، فلم يقفوا لهم وكان هذا الأمر يوم الثلاثاء ثاني رجب ، فأخذوا الخليفة ، ومن هناك من الأمراء ، وطلعوا بهم ، فلام السلطان الخليفة ، وقال له : قد كنت أمرتك لما طلعت إليّ أمس أنْ تختفي . فاعتذر له ، فأمر بوضعه في البَحْرة ، فلما اصبح أرسل إلى القضاة ، فجمعهم ، وحضر المباشرون ، والأمراء ، وأقام البَيِّنَة بأنَّه كان أمره بالاختفاء ، وعدم الحركة ، وأنَّه ذهب مع البُغاة وخالف أمره فخلعه ، فحكم الشافعي بصحة خلعه ، ثم أمر بسجنه في إسكندرية .

فذهب به في ذلك اليوم واستخلف أخاه يوسف [1] ، ولُقِّب بالمستنجد بالله ، وكُنِّيَ أبي المظفَّر ، وسكنت الفتنة [2] ، غير أن آثارها استمرّت في النواحي مدّة ، وذلك أن الخبر . . [3] في دمشق وأمرنا بالزِّيْنَةِ ، فزينت البلد ، فكثر الفسادُ ، فلما كان آخر اليوم الثالث هُدَّت الزِّينة عن باب القلعة ، وكان يُظنّ أنها تمكث سبعة أيام فطار الخبر بأنّ سبب هَدمها أنه قُتل السلطان وَوَلده ، والأمير بُرْدبَك في العشر الأخير من شهر رجب ، فلولا دفع الله فَسَدَت البلاد وحصل لنا من ذلك في بلاد الزَّبداني خطرٌ عظيم نجَّى الله منه ، وله الحمد .

---

(١) هو : المستنجد بالله أبو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله ، ولد ليلة ٢٧ رمضان سنة ٧٩٨ هـ ، دام في الخلافة نحو أربع وعشرين سنة ، وأسكنه الظاهر خُشْقَدم ، حين بلغه قدوم جانم نائب الشام بالقلعة ، ولم يمكنه من السكنى بمنزله المعتاد إلى أن توفي يوم السبت ٢٤ محرم سنة ٨٨٤هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (١٠/ ٣٢٩ رقم ١٢٤٧) ، و « حسن المحاضرة » (٢/ ٩١ ـ ٩٢) و « شذرات الذهب » (٧/ ٣٣٩) .

(٢) الخبر مفصلاً في « النجـوم الزاهـرة » (١٦/ ٨٨ ـ ٩١) ، كما ورد في « بدائـع الزهـور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٠ ـ ٥١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٢٩ ـ ٣١) .

(٣) ما يقارب ثلثي سطر رسم حروفه غير واضح في الأصل ولم نجزم بتصحيحه .

وذلك أن اسماعيل بن يوسف كان قد أُلبس خِلعة من نائب الشام بالتَّقْدِمة على جماعته في بلاد الزَّبداني ، وصادف طلوعه ذلك اليوم الذي أتى فيه هذا الخبرُ ، واجتمع إليه العشير على عادَتهم في ذلك خيلاً وَرَجلاً ، وكان يوماً عبوسًا لشيوع هذا الخبر وثبوته في الأذهان ، وتصديق القلوب له ، واجتماع من لا عقل له ولا دِين من أهل النَّجدة والشجاعة ، [وهم] (1) الأعداء المحروبون المسلوبون لوقف طال ما أكلوه ، وتعالوا به على الناس ، فأحسن الله ودفع بتدبير [منه] (2) ، فله الطول والمِنَّة والحول والقوَّة .

وذلك أنه كان في ذلك اليوم قد فرغ الكلس من عندنا ، فقال المعلِّم : أنا غدًا بطّالٌ ؛ لأنه ليس عندي من الكلس ما يفضل عنِّي اليوم ، وقال الذي كان يتولَّى أمر القمح والشعير : قد فرغ شعيرنا ، وكنا نحتاج كلَّ يوم إلى سدس غرارة شعير ، وقبسنا (3) تلك البلاد المجاورة ، فلم نجد بها شعيرًا ، وكنا قد استعملنا ناسًا في أَتون كلس في قرية معربون وهي في طرف البلاد من الشمال ، فقلت هذا أمر ليس له إلاَّ أنا بنفسي ، ثم قصدت إلى معربون ، وشرعت أسأل كل قرية مررنا عليها عن الشعير ، فيقولون : لا تجده إلا في بلاد بعلبك ، فاستعير منهم دواب ؛ لأحمل عليها الكِلْس ، فشاع أنِّي إنما أنا ذاهب ، لأجل الكِلْس والشعير ، ثم أرسلت الكلس إلى الخان ووصلت أنا إلى بعلبك قاصِدًا الإقامة بها

---

(1) في الأصل (وهو) والتصحيح من مفهوم السياق .

(2) رسم الكلمة في الأصل (المسمنيه) والتصحيح حسب مفهوم السياق .

(3) قبسنا : طلبنا .

راجع معاني (قَبَس) في : « لسان العرب » (8/ 48) ، و « القاموس المحيط » (2/ 247) ، و « محيط المحيط » (711) ، و « المعجم الوسيط » (2/ 710) .

إلى أن يتحرر الخبرُ، ولم يكن فيها أحدٌ أعرفه، غير أنه شاع في تلك البلاد عمارتي للخان واستعظموه ، ولا سيما أهلُ بعلبك ؛ فإنهم أكثر الناس به انتفاعًا ، فنزلت خارج البلد وأرسلت إلى الشيخ برهان الدين (١) بن المرحِّل ، وكان عالم البلد ومسموع الكلمة بها عند الخاص والعام أطلب منه مَنزلاً إلى حين صدوري ، فلم يفعل ، فنزلت في مدرسةٍ على باب الجامع الكبير ، أظن أنها تُعرف بالغاوِية ، وأنا في غاية من الانكسار والافتقار إلى عناية الجبار ، فجاءني ناس فأحسنوا السلام والمؤانسة ، وسألوني أن أنزل عندهم ، فإذا هم من الفقراء المنسوبين إلى الشيخ عبد الرحمن بن داود الدِّمشقي رحمه الله ، فنزلت في [زاويتهم(٢)] ، وهي إلى جانب المدرسة المذكورة ، وخدموني ، أتَمَّ خِدمة ، وعرَّفوا بي الناس ، فحصلت من أكابرهم مساعدة ، وأوسقوا (٣) لنا شعيرًا كثيرًا ، فأرسلته إلى الخان ، وأمرتُ الرسول بأن يحث الناس على العمل إلى حين حضوري ، فكانت إقامتي بها جمعة ، ثم رجعت وقلت :

طلبت إليك ابن المُرحِّل منزلاً ... فقال لِسانُ الحالِ كيف أنزِّله
ألم تدر أنَّ المرء من سِرِّ أصلِه ... وأني كما قد كان أصلى مُرَحِّلُه

---

(١) هو : إبراهيم بن محمد بن محمد بن سليمان بن علي بن إبراهيم بن حارث بن حُنَيْنة بن نصيبين ، برهان الدين بن الشمس بن الشرف البعلي الشافعي ، المعروف بابن المُرحِّل ، ولد في شوال سنة ٧٧٦ هـ ببعلبك ، ونشأ بها ، برع في عدة فنون : القراءات ، والفقه وأصوله ، والعربية ، واللغة ، والأدب ، وكان ذا وجاهة وجلالة ببلده ، مات يوم الأربعاء ٧ ذي الحجة سنة ٨٦١ هـ ببعلبك .

له ترجمة في « الضوء اللامع » ١/ ١٥٩ .

(٢) في الأصل (زوايتهم) .

(٣) أوسقوا : حمّلوا .

راجع معاني (الوسق) في : « لسان العرب » (١٢/ ٢٥٨) ، و « القاموس المحيط » (٣/ ٢٩٩) ، و « محيط المحيط » (٩٦٩) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٣٢) .

وكان الأجلابُ الذين وجدهم السلطان في الطِّباق من مشتري الظاهر ، قد نزلوا مع أكابرهم لقتال السلطان ، وكان الأشرف قد أعتقهم ليصيروا منسوبين إليه ، فلم يُغنِ ذلك . وقالوا : أنحن نصير من مماليكه بمجرد ورقة أعطانا إيَّاها ؟! فلما انفصل الحربُ أرادوا أن يطلعوا إلى الطِّباق على عادتهم فمنعهم الذين اشتراهم السلطان ، وقالوا : والله لا تساكنونا ، وقد تحققت عداوتكم أبدًا [(١)].

وبعد أيامٍ دعى دويدارا يونس بعضَ مماليك السلطان المردان إلى بيت لهم ، فلما صار عندهما طلبا منه الفاحشة فامتنع ، فحصلت بينهم مكاونَةَ أوجبت علم غلامه ، فذهب إلى إخوته فاستغاثهم له ، فأتوا ، وسمع مماليك يونُس فأتَوا ولا يعرفون الخبر ، فكادت تكون بينهم مقتلة وخلص ذلك المملوك ، فشكوا بذلك إلى السلطان ، فنفى دويداري يونس ، فسكنت الفتنة بذلك ، وعظمت مشقَّة ذلك على يونس ، بحيث كان يُنقل عنه أنه إذا خـلا بنفسه ، حصلت معه حالات تكاد تفطر المـرام .

وكان أعظم ذلك ظن شماتة الأمير بُرْدْبَك به ، واحتال في استرجاعهما بكل طريق فلم يُجب ، وبذل الجهد أيضًا في الاحتيال في إغضاب الأجْلاب على الأمير بُرْدْبَك ليفعلوا معه من الضرب والتَّشغيب مثل ما فعلوا معه ، فلم يقدر ذلك ، وكان الأمير بُرْدْبَك يزداد في كل مرة رِفعة .

ثم إن الأمير بُرْدْبَك شفع في دويداري يونس في شهر ربيع الأوَّل من سنة ستين ، فأُجيب ، ووصلا إلي القاهرة في أواخر الشهر .

---

(١) راجع الخبر في « حوادث الدهور » (٢٣٢ ـ ٢٣٨) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩١).

[١١٨] وفي أواخر جمادى الآخرة ، مات [١] صلاح الدين خليل بن محمد بن السابق الحموي ، الذي كان كاتب السرّ بدمشق عن مرضٍ طويل جدًّا ، وكان سنه نحو السبعين فيما أظن ، فسافر ابنه علي إلى مصرَ ، فولي كتابة سِرِّ دمشق ، عن القطب الخيضري ، وكان الخيضري أنشأ ناظر الخاص ، ولكن كان من محاسن ناظر الخاص أنه لا يريد لنفسه ولا لجماعته الإفْحَاش في السيرة ، ولا يحب رفع من يكره الناس رفْعَتَه ، فأفحش الخيضرى فى الرشوة ، ووضع يده على تعلّقات الناس بغير مستند ، وكان يُنسب إلى فسق وكذبٍ ، فصبر الناس له ، فلما لم ينته كُوتب ناظر الخاص بذلك ، وكان أحدُ من كاتبه بذلك الشيخ شمس الدين البلاطُنُسي ، فكان ناظر الخاص هو الساعي لابن السابق هذا .

وفي أواخر شعبان ، مات جمال الدين عبد الله العسقلاني ، عن نحو سبعين سنة ، وكان له اشتغال كثير بفنون من العلم ، لكنه كان مخبّط الفهم في علمه وبحثه ومعيشته .

وفي أوائل شهر شعبان ، ورد الخبر بعزل الخيضري من كتابة سِرِّ دمشق وولاية العلا بن الصلاح بن السابق .

وقدِم في هذا الحدِّ أيضاً توقيع للشيخ برهان الدين الباعُوني [٢] ،

---

(١) راجع « هامش ٣ » من (ص ١٥٧) من القسم الأول .

(٢) هو : إبراهيم بن أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبد الله بن عبد الرحمن ، أو ابن يحيى بن عبد الرحمن ، البرهان أبو إسحاق بن الشهاب المقدسي الناصري الباعوني ، وناصرة قرية من قرى صفد ، وباعون قرية من قرى حوْران ، وُلد في ليلة الجمعة ٢٧ رمضان سنة ٧٧٧ هـ بصفد ، ونشأ بها ، وقرأ على علماء عصره إلى أن برع في عِدَّة فنون ، في الفقه ، والعربية ، والأدب ، وغلب عليه الأدبيات والشعر ، ولي خطابة دمشق ، ومشيخة الباسطية ، مات يوم الخميس ٢٤ ربيع الأول سنة ٨٧٠ هـ .

له ترجمة في : « المنهل الصافي » (١/ ٤٢ رقم ١١) ، و « الدليل الشافي » (١/ ٧ رقم ١١) ، و« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦) ، و « عنوان الزمان » (مخطوط) (١١٦) ، و « الضوء اللامع» (١/ ٢٦) ، و « نظم العقيان » (١٣ رقم ١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٥٩) ، و« شذرات الذهب » (٧/ ٣٠٩) .

بخَطَابَة جامع بني أُميّة على عادته ، وأنه لم يتقدم له عزل من ذلك ، وأن الحمصى دَلَّس فيما فعل . ثم أخذ في إهانة الحمصى ، فأتاه مرسومٌ بإرسال ثلج إلى السلطان ، كما كانت عادة القضاة قديمًا ، ثم أتاه مرسومٌ آخر بأن يدفع لِعَلَّان أمير الحاج الشامي ألف دينار ، ويرفع إلى القلعة خمسمائة دينار .

وفي هذا الشهر ، وصل الشيخ شهاب الدين أحمد الكوراني إلى القاهرة قاصِدًا الإقامة بها ، أو بالقدس الشريف ؛ وذلك أنّ الأمير محمد بن عثمان ملك بلاد الرُّوم عزله عن قضاء العسكر ، وأهانه ، بعد أنْ كان مُقَرَّبًا عِنده جدًّا ، فلم تحتمل نفسه ذلك ، فسافر من بلاده .

وسبب عزله أمورٌ منها ، أنّه اشترى مملوكًا في غاية الجمال ، فطلبه السلطان منه فمنعه إيّاه ، ومنها ، أنَّه كان يجترىء عليه ويخاطبه في الخلاء والملاء بما لا يليق بالأمراء ، فضلاً عن الملوك ، ومنها ، أنه قرَّب شخصًا من الناس من طلبة العلم ، فشرع الشيخ شهاب الدين يغض منه ، وشتمه بحضرة السلطان محمد ، فأفحش ، وتكرر ذلك منه .

ولما قدم إلى القاهرة أهدى للسلطان الأشرف إينال وأركان دولته ، فأنزله ناظر الخاص وقراه ، ولم يُمكَّن من إقامته بالقاهرة ، فرُتِّب له في كل يوم دينار على جوالي القدس ، وأُعطى النظر والمشيخة بمدرسة ابن ذي الغادر بها .

ثم توجه إليها ، فوصل إليها يوم خروجي منها ، يوم الثلاثاء الآتي ذكره ، فأقام بها يشغل الناس بالعلم ، وشرح جمع الجوامع لابن السُّبكي شرحًا حَسَنًا .

وفي يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان قَدِم علاء الدين بن السابـق ، فتلقاه الأكابر والقضاة ، وسُرَّ به نائب الشام وأثنى الناس على أبيه ، والله المسؤول أن يُعينه ويوفقه لما يرضيه آمين . وفى هذا الحد بلغنا أن أبا الخير النحَّاس ، رُفع إلى قلعة المرقَب فى الحديد .

وفي أواخر شهر رمضـان بلغنـا بدمشـق أن بركـات ، أمير مكـة مـات [١] بعد أن كان رجع عن الزَّيدية [٢] ، واستمر مدة مديدة يتروَّى في إظهار ذلك ، وأنه شافعي ، ثم قدَّر الله إظهاره ، وضيَّق على الزيدية كثيرًا رحمه الله .

وفي هذه السنة ، بعدَ قضيَّة الرافضة [٣] المذكورة فيما سبق توالى الحريق على أسواق دمشق وبيوتها ، وغالب ما كان يحترق أسواق التجار التي يُباع فيها الثياب ، فمن قائل هذا انتقام من الله ؛ لأجل مُساعدة الأكابر للرافضة ، وترك الانتصار للنبي ﷺ وأصحابه ، وإفشاء الخمر والزنا ، وإطفاء كلمة الحق ، وحجتهم على ذلك أن الهواء يكـون ساكنًا ،

---

(١) كانت وفاته في شعبان بوادي مرّ خارج مكة .

راجع « هامش ١ » من (ص ١٦٤) من القسم الأول .

(٢) الزيدية : هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم ، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضى الله عنها ، ولم يُجَوِّزوا ثبوت الإمامة في غيرهم ، إلا أنهم كانوا لا يتبرأون من الشيخين ، أبي بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما ؛ لأنهم يرون جواز أن يكون المفضول إمامًا ، والأفضل قائم ، فيُرجع إليه في الأحكام ، ويحكم بحكمه في القضايا .

ينقسم الزيدية إلى ثلاثة أقسام : الجارودية ، أصحاب أبي الجارود زياد بن أبي زياد ، والسُّلَيْمانية ، أصحاب سليمان بن جرير ، والصالحية والبترية ، الصالحية أصحاب الحسن بن صالح بن حي ، والبترية أصحاب كثير النوى الأبتر ، وهما متفقان في المذهب .

« الملل والنحل » (١/ ١٥٤ ـ ١٦٢) ، و « الفَرْق بين الفِرَق » (١٦ ـ ١٧) .

(٣) راجع « ص ١٠٣ »

فإذا وقع الحريق ثار ثَورانًا عجيبًا مختلفًا حتى يسوق النارَ تارة يمينًا وتارة شمالاً ، وربما زاد اختلافه [فيسوقها [1]] إلى أربع جهات .

ومن قائل : هذا بمباشرة بعض الرافضة ؛ لأجل قيام جماهير أهل الشام عليهم ، من الفقهاء والعامَّة ، وحجتهم على ذلك أنه وُجد في مواضع أُريد إحراقها كبريت مختلط بدهن نفط وقصب مرضوض .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشري شهر رمضان احترق سوق التجار في باب الفرج [2] المشهور بسوق الشيخي بعد العصر ، وانتشرت النار إلى ما يواجهه من سوق الخُضَر وتلك البيوت التي إلى جانب باب الفَرَج والخان ، ومشت شرقًا إلى قريب بيت عَلَّان ، وحَمَّام [3] العلاني من الصف الشمالي، واستمروا يعالجونها [إلى [4]] أن دق ثلثه ، وهو الثلث الأخير واحترق فيها ناسٌ ، وقَلَّ أن مضت ثلاثة أيام لم يحصل فيها حريق، منه ما يتداركه الله ، ومنه ما يُسلطه .

وكان قد اتفق في أوّل هذا الشهر أمرٌ غريب ، وذلك أنَّ قاضي الحنابلة البرهان بن مفلح أثبت يوم الخميس أوّل رمضان ، وكان فيها أُرّخ تاسع عشري شعبان ، ونُودى بصيامه ، فصامه ناس كثير ، واتهم آخرون الشهود بأنهم رافِضة ، فلم يصوموا ، فلما كان ليلة الجمعة تراءاه الناس ، فلم يره إلاَّ الأفراد الحديدوا الأبصار في صيدا والبقاع ودمشق، ولم يصم

---

(١) مطموسة الرسم في الأصل ، والتصحيح مِن مفهوم السياق .

(٢) باب الفرج : أحد أبواب دمشق الشمالية .

«الدارس » (١/ ٧٧ هامش ٩).

(٣) حمام العلاني : جاء في « الدارس » (٢/ ١٩٠) أنه يقع خارج باب الفرج والفراديس ، من أبواب دمشق .

(٤) ما بين الحاصرتين : إضافة اقتضاها السياق .

أحدٌ فيما بلغنا الخميس إلاَّ من امتثل أمر الحنبلي ، فلما كان ليلة السبت ، تاسع عشري هذا الشهر عند من أرّخه بالجمعة تراءاه الناس ، ثم نزلوا إلى الجامع الأموي ، ولم ير أحدٌ ممن كان في مآذِنه شيئًا ، فكانت للناس ضجة عظيمة ، واستمر القضاة جالسين بعد الفراغ من صلاة التراويح زمانًا طويلاً ، فلما كان آخر ذلك جاء اثنان عجميّان ، فشهدا أنهما رأيا الهلال فطلب تزكيتهما فلم توجد ، ثم جاء شخص شريف ، فأخبر أنَّه جارهما ، وأنه لم يرهما يُصلّيان جماعة قط ، وذلك بحضور الشيخ شمس الدين البلاطُنُسي ، وكان هو مِمَّن اتهم الشهود الأوّلين فانفضّ الجمعُ ، على أنَّ يوم السبت من رمضان واستمر الحالُ على ذلك إلى قريب [١١٩] عَصْرِهِ ، وإذا الخبرُ قد جاء إلى دمشق أنَّ الحنبلي أثبت أنه عيدٌ وأفطر جميع الحنابلة ، وغالب أهل الصالحية ، وأتى إلى النائب ، فأعلمه بذلك ، فلم يمتثل ذلك ، وقال : حتى يُجمع على ذلك القضاة الأربع وقام الشافعية في ذلك وقعدوا ، وأرسل البلاطنُسي من نادى في الأسواق ، أن اليوم من رمضان ، فلم يُفطر أهل المدينة ، وكان في ذلك غريبة ما رأى الناس مثلها ؛ أهلُ بلدٍ واحدٍ ، بعضهم صائم من رمضان ، وبعضهم مفطر متجاهر على أنَّه من شوال .

ثم حدَّثنا الثقات بالسَّنَد المتصل أن بيت الشهود الذين شهدوا بالرؤية ، وطُعن فيهم احترق في ليلة السبت المذكورة ليلاً ، بعد رد شهادتهم ، فدَق عليهم الجيران الباب ، فلم يُفتح ولا أجاب أحدٌ ، فكسروا الباب ودخلوا ليطفئوا النار فإذا البيت ليس فيه أحد ، ولا شيء من الأمتعة ، فأطفأوها ، وكثر الشهود عليهم بما يقتضي الرَّفْض والفِسْق ، فغلب على الظنِّ أنهم انتقلوا وتعمدوا إحراق البيت ليحترق ما حوله ،

واتهَّم أحد من يحرق أسواق المسلمين ؛ فندبت بعض الأكابر إلى تحصيلهم ليخَوِّفوا ، وتُعرف حقيقة الحال ، فلم تكن له همة .

ثم ترادفت الأخبار أن الهلال رؤى ليلة السبت في بعلبك والبقاع ، ومن جملة ذلك قريتنا خرْبة رَوْحا ، رآه جمعٌ كبير ، وهي دون مسافة القصر مِن دمشق .

وفي أوائل [1] شوَّال هذا وصلت خِلعةٌ للزين [2] عبد الرحمن السويدي المغربي بقضاء المالكية بدمشق ، وعُزل الشهاب التلمساني .

وفي يوم الأربعاء خامس شوَّال سافرت من دمشق قاصدًا الرجوع إلى القاهرة بعد أن استأذنت بعض القضاة في الاقتراض على وقف الخان لتتميم ما بقى منه ، ووكلت شيخ الإسلام ، الشيخ شمس الدين البلاطُنُسي في الاقتراض ، وأخذ في أسباب إتمامه والطلوع إلى ذلك بنفسه ، وقدمت عبد العزيز ، ابن عمي محمد سويد بن حسن الرُباط لنقل ما أسلفت فيه من الحطب ، وعمل بعض المصالح قبل طلوع الشيخ .

ولما سافرت قصدت قريتنا ، وما حولها من الأماكن التي بها عشيرتي لزيارتهم ، فأدركني المبيت فى قرية حلوا ، ثم سرت في صباح الخميس سادسه ، فلما قربت من قريتنا خَرْبه رَوْحاً وجدت من ينتظرني خارج البلدة، على أني كنت أخفيت توجُّهي إليها خوفًا من الأعداء، فلما رآني

---

(١) في « الدارس » (٢/ ٢١) في ١٥ شوال .

(٢) هو : عبد الرحمن بن محمد بن عثمان بن منيع ، زين الدين ، السويدي المغربي المالكي ، مات في أوائل سنة ٨٦٢ هـ .

« الدارس » ٢/ ٢١ ـ ٢٢) .

ذلك الرجل أقفل إلى القرية يعدو ، فأعلمهم ، فأقبلوا أجمعون ، وأوّل من لاقاني الأعداء الذين قتلوا بعض أقاربي ، وقَتَل آباءهم أبي ، وضربوني بأسيافهم ، فلم يقدرهم الله على قتلي [(١)] ، فَقَبّلوا رجلي في الرِّكاب ، ولم يبق بها رَجُلٌ إلاّ فعل ذلك ، ولا امرأة ، ولا صغير إلاّ خرجوا من البيوت حتى طلعوا فوق الأسطِحة ينظرون ، حتى خرج العواتق من الخدور وكان يومًا ما شوهد مثله في مِثْلها في هذه الأَعْصار ، واجتهد الأعداء في أن يُنزلوني في بيوتهم ، ويذبحوا لي فلم أفعل ، وأجبتهم إلى النزول في المدرسة التي في وسط البلدة ، وأمرتهم أن لا يذبحوا ، بل يُحضروا ما تيسر فإني مستعجل ، فما فرغت صلاة الظهر حتى فعلوا ذلك فأكلت ، ومن معي من أقاربي مُحدقُون بي ، ثم ركبت فزرت بنات العمِّ ، وفرّقت عليهن ، وعلى صغارهن ما قدَّرني الله عليه من الدارهم ، وأخذ بعض الصغار من غيرهن .

ثم توجهت نحو قرية كفر ديْنَس ، وقد انذهل أهل خَرْبه رَوْحا مما رأوا فزاد شكري لمن مَنَّ بذلك ، وحمدي ، لا أحْصي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه ، فلما أشرفت على كفر ديْنَسْ إذا أكابر أهلها [١٢٠] وصلحاؤهم قد لاقوني بالأعلام والتكبير والتهليل ، ولما دخلتها بدأت ببنات العم ففعلت ما تقدم ، ثم حَلَف عليّ بعض الأقارب بالمبيت واللبث إلى أن أصلي الجمعة ولحقني كثير من أهل خَرْبة رِوْحا ، وخطيبها برهان الدين إبراهيم بن القاضي الفاضل شمس الدين محمد بن إبراهيم الشافعي .

فلما صليت الجمعة سرت نحو وادي التيم لحاجة كانت لي هناك ، ثم

---

(١) راجع أحداث المذبحة التي وقعت بين أسرة البقاعي ، وأقاربه وبين بعض أهل قريتهم في «عنوان الزمان » (مخطوط) (١٤٢ ـ ١٤٣) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٣٣٩ـ ٣٤٠) .

أتيت شَبْعَا [1] لأُجدِّدَ بها عهدًا ، وأنظر عينًا بها تُسَمَّى عين الجوز ، ما كنت رأيتها حين سَلِمْنَا بها في سنة أحد وعشرين ، فلاقاني أهلها وأضافوني ، ورأيت عندهم من العز مثل ما تقدم ، وكنا لما طُردنا من قريتنا بعد قتل رجالنا أتيناهم ، فدخلت قريتهم وسِنِّي اثنتا عشرة سنة ، وأنا حامل جرًّا كبيرًا على كتفي ، فقضى أن دخلتها بخيل ورجال وأحمال وبغال ، فسبحان من يُعِزُّ ويُذِلّ ، له الأمر وبيده النفع والضرّ .

ثم أخذت في السفر ، ففارقت شَبْعَا يوم الأحد تاسع الشهر ، فوصلت إلى الرَّمْلة صُبح يوم الخميس ثالث عشره ، ثم عرَّجت إلى القُدُس للزيارة وصِلَة بعض الأقارب بها ، ثم رَحلتُ منها يوم الثلاثاء ثامن عشر الشهر فزرت سيدنا الخليل وآله صلوات الله عليهم أجمعين ، ورأيت كِسوة قبورهم ، التي عملها السلطان الملك الأشرف إينال العلائي ، وكان أرسلها مع صِهْره الأمير بُرِدْبَك الدويدار ، فإذا هي عظيمة ، وإذا الأمير بُرِدْبَك قد دفع إلى خدَّام سيدنا الخليل مالا ليشيِّدوا مقامه به ، فبيضوه من داخل ، ومن خارج حتى المئذنة ؛ فكان له منظرٌ بديعٌ غريبٌ ، وتيسَّر لهم في ذلك ما لم يحصل لمن قبلهم ، فإنَّ غيره أراد تشييد داخل القبَّة ، فمات بعضُ صنَّاعه ، ولم يتفق له ذلك ، ثم توجَّهْتُ في أثناء يوم الأربعاء ، فوصلت إلى غزَّة ظهر يوم الخميس ، العشرين من الشهر ، ثم وصلت إلى الخانكة ليلة السبت تاسع عشري الشهر ، فنمتُ عند أصهاري ، فعتبوا عليَّ زواجي في دمشق ، فاعتذرت بأنه لم يكن لي صبرٌ في هذه المدة الطويلة عن النِّكاح ، وبأني طلقتها عند سفري ؛ رِعاية لِخاطرهم .

---

(١) شَبْعا : جاء في « معجم البلدان » (٣/ ٣٢١) ، أنها من قرى دمشق من إقليم بيت الآبـــــار .

ثم قدمت القاهرة ، ونمت في بيتي ليلة الأحد سلخ شوَّال ، فلم يُحْسِنوا لقائي ، ولا عملوا أشياء مما ينبغي للمقيم أن يعمله للمسافر .

وفي صبيحة يوم الاثنين مستهل ذي القعدة سلَّمتُ على السلطان ، وأوقفته على المحضر المذكور في بناء الخان ؛ فسُرَّ بذلك ، وقال له ناظر الخاص : إنه بقي محتاجًا إلى مائتي دينار ، فرسم بها .

وفي هذا اليوم ، قَدِمت علينا حماتي من الخانكة ، ثم استقبلتني ليلة الثلاثاء ثانية بشرٍّ ما سُمع بمثله ، ثم صارت تجمع لي أقاربها رجالاً ونساءً إلى أن اشتدَّ الأمرُ ، وانتشر الشر ، وأنا صابر خوفًا من ضياع الولد ، واستمرينا على ذلك إلى يوم الجمعة تاسع عشر ذي القعدة المذكور ، بعد أن دخل في ذلك غالب [١٢١] رؤساء القاهرة ، ووصل الأمر إلى السلطان وزوجته وولده ، ففارقتها في هذا اليوم ، على جميع ما كان يلزمني لها ، وأسقطت حقَّها من حضانة ولدي لي ، وألزمت نفسها أنها إن طلبته في وقت من الأوقات بنفسها ، أو قائم شرعي عنها لزيارة أو غيرها ، كان لي في ذمَّتها من الذهب خمسمائة دينار حالَّة ، وحكم لي بذلك القاضي بدر الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن المخلّطة ، أحد نواب المالكية ، وأذنت لها في وفاء عدتها بالخانكة فالله المسؤول في إصلاح الحال ، وإقرار البال ، ثم إنّ أهلها لم يدعوها بالخانكة ، بل كانوا ينقلونها حيث شاءوا ، أو شاءت ، ولم ينزعوا عن شرورهم ، بل واصلوا الجراح بُعَيد بُرْئِها ولم يدعوا للصلح موضعًا ، فأردت الاعتراض فلم يُفد ؛ لعدم الناصر للحقِّ ، والجابر للعثرات من الخلق ، فتركتهم للعزيز العليم ، القدير ، الحكيم ، هو المستعان ، لا حول ولا قُوَّة إلا به .

وكنت قد وصلت في ميعادي بالجامع الظاهري بالحسينية إلى آخر

سورة الحشر ، فكان أوّل ميعاد عملته بعد فراقها ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُم أَوْلِيَاءَ ﴾ (١) إلى قوله (٢) : ﴿قَدْ كَانَتْ (٣) لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيَ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ (٤) الآية ، وقوله : ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٥) الآيـة ، وقـوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ (٦) الآيات إلى ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ (٧) .

وفي هذا الحد ، وَرَدَ عليَّ كتابُ الشيخ شمس الدين البلاطنسي ، أنَّه طلع بنفسه بعد فراقي لدمشق ، فحرق بذلك الحطبُ ثلاث أتونات كِلْس جاءت في غاية الحسن والاستواء ، وأحضر من دمشق زيادةً على ثلاثين قِنْطار (٨) كِلْس ، وأكمل ما كان بقي من الخان ، وبنى البايكة الغربية ، وعقد بابها بحجارة منحوتة ، وجعل في عقدها أربع قناطر ، وتلقاء الباب شوكة نظير قنطرة ؛ لتكون أمكن ، وعقد قُبَّة المسجد القديم الذي تجاه الباب بحجارة منحوتة ، وعمل على رأسِها هِلال من حجر منحوت، وجاءت مرتفعة حَسَنة تُرى مِن الأماكن البعيدة، وكحَّل

---

(١) الممتحنة / ١ .

(٢) في الأصل (لقد) .

(٣) في الأصل (كان) .

(٤) الممتحنة / ٤ .

(٥) الممتحنة / ٤ .

(٦) الممتحنة / ٧ .

(٧) الممتحنة / ٩ .

(٨) قِنطار : معيار وزن أربعين أوقية من ذهب ، وقيل ، ألف ومائة دينار ، وقيل مائة وعشرون رِطْلاً .

« لسان العرب » (٦/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) .

جميع ظاهرها ، وظاهر الخان ، وظاهر جدر صَحْنِه ، وعزل جميع ما فيه ، وبنيت المصاطب بحجارة ثقيلة ، وبها مرابط في داخل البوايك ، ودائر الصَّحْن ، ورفعت أرض القبَّة وطُيِّنت بالكِلْس والتراب . وعزل جميع ما كان في الخان ، وما قدام بابه ، بحيث صار الباب أعلى مما قدامه لئلاَّ يدخل إليه سيل ، وجُعِلت ميازنيه حجارة منحوته وأثبتت في مواضعها ، وجعل للماء من داخل الصحن مجرى إلى خارج من جهة الغرب متقن ، وكان هذا جميعه في أربعة وعشرين يومًا ، ثم توجَّه إلى دمشق ، وخلَّف هناك من يُكمل السُّلَّم ، ويبني بالبايكة الغربية مصطبة ، بعد فك قالبها وتغريلها[1] ، فلله أتم الحمد ، كم له من نعمة لا نحصى ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

وفي أوائل ذي القعدة هذا ، عُزل السِّراج الحمصي عن قضاء الشافعية بدمشق وأُعيد الجمال الباعوني[2] فسُرَّ بذلك الناس سرورًا عظيماً ، وعُزل أيضًا الزين عبد الرحمن السويدي عن قضاء المالكية بدمشق ، وأُعيد الشهاب التلمساني .

وفي هذا الحد ، أو أواخر شوال[3] غضب السلطان على عبد العزيز ابن محمد الصُّغَيِّر ؛ لإغرائه بعض المماليك على ناظر الخاص ، فضربه ضربًا كثيرًا ، وعزل من الحسبة ، ونفاه إلى دِمياط ، وولى[4]

---

(١) تغريلها : تطيينها .

« محيط المحيط » (٦٥٧) .

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » (٢٤٦) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٣) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٤) .

(٣) جاء في « حوادث الدهور » (٢٤٤) أن ذلك كان في يوم الأحد ١٥ شوال .

(٤) في « حوادث الدهور » (٢٤٥) كان ذلك في يوم الثلاثاء ١٧ شوال .

الشيخ علي العجمي الحسبة .

وفي أوائل[1] ذي الحجة ، ولي علي بن امرأة الفَيْسِي (بفتح الفاء ثم تحتانية وسين مهملة) نقابة الجيش عن [خشكلدي[2] السيفي قجقا رجغتاي] .

وفي حادي عشري ذي الحجة وصل بشير الحاج ، وجاءت الكتب أنهم بخير ، وأنّ المحب بن الأقصرائي[3] مات في أوائل ذي الحجة مُحرِماً مبطونًا .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشري ذي الحجة الحرام من هذه السَّنة مات القاضي الفاضل البارع زين الدين قاسم[4] [بن إبراهيم[5] بن عماد الدين] الزفتاوي الشافعي ، أحد نُوَّاب الشافعية ، وكان مشارِكًا في

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٢٤٦) أنه ذلك كان في يوم الخميس ثالث ذي الحجة .

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « حوادث الدهور » (٢٤٥ ، ٢٤٦)

(٣) هو : محمد بن أحمد بن أبي يزيد بن محمد ، المحب أبو السعادات بن الشهاب ، العجمي الأصل ، القاهري ، الحنفي الأقصرائي ، المعروف بابن مولانا زادة ، ولد في ٢٧ ذي الحجة سنة ٧٩٠ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وأخذ عن أبرز علماء عصره ، له حاشية على الكشاف ، وحاشية على الهداية ، وحاشية على البديع لابن الساعاتي ، ودرّس بالأيتَمُشِية ، والمؤيدية ، والجمالية ، وأمَّ بالسلطان الأشرف إينال ، وكانت وفاته في يوم الجمعة ٣ ذي الحجة .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٣٦٩ ـ ٣٧٠) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠) ، و « الضوء اللامع » (٧/ ١١٥ رقم ٢٥٣) ، و « نظم العقيان » (١٣٨ رقم ١٣٣) و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٤) .

(٤) هو : قاسم بن إبراهيم بن عماد الدين ، الزفتاوي الأصل ، القاهري ، الشافعي ، ولد قريبًا من سنة ٨٠٨ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها ، وألقى دروسًا بجامع الغمري وغيره .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ١٧٧ رقم ٦٠٢) وجاء فيه ، أن وفاته كانت يوم الثلاثاء ٢٤ ذي الحجة من سنة ٨٥٩ هـ .

(٥) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « الضوء اللامع » (٦/ ١٧٧) .

الفنون : الفقه ، والنحو ، والأصول ، والمنطق ، وغير ذلك ، ملازمًا للاشتغال ، محبًا في العلم ، وناب في القضاء للسفْطي ، وابن حَجَر ، ويحيى المناوي ، والعلم البُلقيني ، وكانت له جنازة حافلةٌ وأثنى عليه الناس رحمه الله .

وفي أوائل هذا الشهر ، كُتبت مراسيم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غالب بلاد الشام على يد شخص من فقراء حلب اسمه محمد النَّقاش ، قَدِم بكتاب من عند الشيخ عبد الرحمن الكردي من حلب إلى الأمير بُرْدُبَك الدويدار ، فتسبَّبَ له في ذلك ، وهي مراسيم عظيمة مشحونة بالآيات الكريمة والأحاديث [١٢٢] النبويَّة ، فلما ورد إلى القدس ، قرىء المرسومُ على . . . . . (١) يوم الجمعة عقب الصلاة ، وحَصَل الدعاء للسلطان ، وكانت ساعة عظيمة رقَّت فيها القلوب ، وذرفت العيون ، فاجتمع بعضُ الناس بالمذكور وكلمّه في أنَّ المحتسب يحصل منه ضررٌ عظيم بأمرٍ مقرَّرٍ له على الناس ، فكأنه تكلم في ذلك فلم يُجَب ، فذهب مغتاظًا ؛ فخيفت غائلته ، فكتب فيه نائب القدس ابن أيوب التُّركماني ، وهو مِن شرار عباد الله ، وناظر القدس والخليل عبد العزيز بن معلاق ، وهو شَرٌّ منه إلى كاتب السر ، وذكر أنّ في المرسوم الأمر بالتجسس ، وأنَّ القاصد كلَّف الناس إلى عرامه (٢) ، وكان كاتب السر كما تقدم بعيدًا عن مثل هذه المراسيم ، سريعًا إلى الأباطيل ، فبادر بكتابة مرسوم بأن يحضر إلى القاهرة على حالةٍ قبيحة

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل ، لم نجزم بتصحيحها .

(٢) عَرَامة : شدة .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٥٩٧) .

للنكال به ، فاجتمعت به وأخبرته ، أنَّ هذا كذبٌ ، وأنه ليس في شيء من المراسيم تعرض للتجسس أصلاً ، وصدّق على ذلك النُّور بن الإنبابي أحد رؤساء[1] الموقعين ، وأحضر إليه شخص من أهل القدس ، وأخبره : أن القاصد لم يكلِّف أحداً شيئًا ، فلم يصدّه ذلك عن أذى الرجل ، فقلت إن كان ولابدّ فيجعل المرسوم بأنّه إن ثبت عليه أنّه كلّف أحدًا لشيء يُحضر ، وإلا يُخلى سبيله ، فلم يجب فلا قوّة إلا بالله .

ثم تواترت عليه الأخبار من أكابر المقادِسة ، بأن الرجل لم يتناول لأحدٍ شربة ماء ، فلما لم يجد فيه شيء من ذلك أخبرت الأمير بُرْدُبَك الدويدار ، وبيَّنت له ما في ذلك من الشّناعات على دَوْلتهم فعنَّفه على ذلك ، وأمره أن يُتْبع ذلك المرسوم [بمرسوم[2]] يأمر فيه بعدم التعرض إلى الرجل ، وبإكرامه ، وبتأكيد مامع النقاش من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلم يسعه إلا الفعل ، غير أنه لم يبادر به ، فأدركه المرسوم الأوّل في حلب ، قبل أن يقرأ ما معه ، فطلبه النائب فوضع في عنقه زنجيرًا ، وردّه مع شخص من ظلمته ، فتباكى أهلُ الخير ، وسُرَّ أهلُ الشرّ ، واستمرَّ في ذلك الأمر الشنيع إلى مدينة حمص ، فأدركه الساعي الذي معه المرسوم بإكرامه هناك ، فَفُكَّ عنه الغِلّ ، غير أنَّ رسول نائب حلب أخذ المراسيم من الساعي فأخفاها وصحبه معه إلى دمشق ، وقال لنائب دمشق : إنَّ المراسيم التي أحضرها زُور ؛ فحصل بذلك وَهْنٌ عظيمٌ لأهل الدين ، وصولة كبيرة لأهل الطغيان .

---

(١) جاء في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٧١) ، أنه عين موقّعي الدست الشريف .

(٢) كلمة رسْم بعض حروفها غير واضح في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

ولما وصل الخبر إلى السلطان ، اشتد غيظه على كاتب السر ، وزاد لومه له ، وتعنيفه على ما وقع لهذا الفقير ، وأراد عزله ، فشفع فيه بعض الأمراء ، غير أن ما حصل من الوهن لا يُجبر إلا بعد حد عظيم في مُدَدٍ طوال ، وأين نحن من ذلك ؟! مع قِلّة المساعِد ، وكثرة المعاند فلا قوّة إلاّ بالله ما شاء كان ، وما لم يشاء لم يكن ، به المستعان وعليه التكلان .

سنة ستين استهّلت يوم الخميس

وفي العشر الأوْسط من محرَّم الحرام سنة ستين وصل الشريف علي القصيري الذي كان توجَّه بهديَّة السلطان إلى سلطان الغرب ، ومعه هدية من صاحب الغرب وقاصد من عنده وفي يوم الخميس ثاني عشري الشهر ، وصل [1] الحجاج إلى البركة ، وقدم أكثرهم إلى القاهرة ، وشكوا من أميرهم بُرْدَبَك البَشمَقدار ، أحد مماليك الظاهر جقمق ؛ من عَسْفه وعدم رفقه ونظره للضعيف ، وأخبروا بموت قاضي المالكية بالمدينة الشريفة ، جمال الدين عبد الله [2] بن فرحون في ثامن عشري ذي الحجة سنة تسع وخمسين ، عن نحو تسعين سنة ، وكان شيخًا يُهَيّأ مُسِنّاً ، قوَّامًا في الحق ، فيصلاً ، عظيم الهيبة على الرَّافضة ، رحمه الله .

وفي هذا الحد ، تناهى الغلاء في دمشق ، بحيث وَصلت الغرارةُ القمحُ إلى خمسمائة درهم ، وذلك نحو تسع دنانير ، ثم زاد بعد ذلك إلى

---

(١) خبر وصول الحاج في « حوادث الدهور » (٢٤٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٥) .

(٢) هو : عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن فرحون ، المدني المالكي ، ولد في ربيع الأول سنة ٧٧٧ هـ بالمدينة ، ونشأ بها ، أجاز له عدد من العلماء ، منهم : الحلاوي ، والسويداوي ، وابن خلدون ، والبُلقيني ، وابن الملقن ، والعراقي ، ولي قضاء المدينة بعد أخيه ناصر الدين أبي البركات سنة ٨٢٢ هـ ، ثم عزل في أواخر سنة ٨٥٦ هـ ، ثم أُعيد في أوائل سنة ٨٥٧ هـ ، واستمر حتى مات ودفن بالبقيع .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٥/ ٥٥ رقم ٢٠٥) ، و « التحفة اللطيفة » (٢/ ٣٩٥ رقم ٢٢٢٨)

ستمائة وأربعين ، والرطل الزيت إلى اثني عشر درهمًا ، والسَّمن إلى ثمانية عشر ، والدِّبْسُ إلى أربعة ونصف ، ثم ارتفع كلُّ واحد من ذلك بعد ، وكان الغلاء بها من أوّل سنة تسع وخمسين وقبلها ، نسأل الله الرِّفق بنا وبهم آمين .

ومع ذلك فلم يحصل لأهل الغيِّ كفٌّ عن بلاياهم ، بل فشا الظلم بها من أبواب كثيرة ، وكان الناس في غاية الانهماك في ارتكاب شرب الخمر ، وغيره من الفواحش ، وقَست القلوبُ حتى لا يلوي أحدٌ على آمر بمعروف ، ولا ناه عن منكر ؛ لفساد نائبها قانباي الحمزاوي وحواشيه ، وانهماكهم في جميع ذلك . هذا عن كتاب الشيخ شمس الدين البلاطُنُـسي .

وفي أواخر محرَّم هذا ، قُبض على محمد بن موسى الشهير بابن خطيب قَرَتيّا [1] ، ونسب إلى التَّزوير على السلطـان والمحاكـاة لخطِّه في المربعات وغيرها ، فجُعل في الحديد ، وقُبض على أخيه صالح معه ، ونُسب إلى أنَّه يأخذ ما يحصل أخوه محمد من المال ، من هذا الباب ويتَّجر فيه ، وأودِعا السِّجن ، واستمرَّ أيامًا ، وكاتب السر ، ويونس الدويدار ، وناظر الخاص ، يعملون في أمره ويهتكون في سِتْره ، ثم سُلِّم للوالي فأحضره قُدَّام السلطان بكرة يوم السبت ثاني صفر من السنة ، فرسم بضربه ، فنزعت عنه ثيابه ، ثم أُمر بقطع يده ، وضُرب أخوه ، ونزل بهما ينادي عليهما ، وقدَّامهما جملة من العبيد مُسَمّرين ، فذهب بهم إلى قنطرة الحاجـب، فشنق العبيدُ ؛ لأنهم نسبـوا إلى الفساد في الأرض وقَطْع

---

(١) قَرَتيا : بلد قرب بيت جبرين من نواحي فلسطين من أعمال البيت المقدس .

« معجم البلدان » (٤/ ٣٢٠) ، راجع أيضًا تعريف (البقاعي) لها في (ص ١٥٤) .

الطريق على الحجاج ، وأما ابن الخطيب وأخوه فرُدَّا إلى المقشرة ، فانزعج لقضيته غالبُ الناس ؛ لكونه على زيِّ الفقهاء ، ولم يُحسن المشاعلي قطعه ، فرقت له القلوب ، ووقعوا فيمن سعى به ، ودعوا عليهم ، واستمر الناس أيَّامًا ليس لهم شغل إلاَّ الحديث في أمره ، والترقق له .

وكان هذا الرجل من أعاجيب الرجال ؛ لم أر أثبت منه جنانًا ، ولا أقوى لِسَانًا ، وكان بَدءُ أمره بدءًا صالحًا ، فسبحان الهادي المضل ، وذلك أنّ الظاهر جقمق كان في حدود سنة خمسٍ وأربعين ولَّى شخصًا يُقال له محمد بن الدم الأسود ، من دِمشق ولاية ظُلم ادّعى له أنه يأتي له منها في كلِّ سنة بعشرين ألف دينار ، وهي أنّه يستأجر الأوقاف والمستأجرات ، ويعطي أربابها مستحقهم ويأتي من فائدتها بما ذكر ، فعظمت مشقَّةُ ذلك على الأكابر ؛ لكون غالب الأوقاف مستأجرة معهم ، وبالأُجُرِ التافهة ، وعلى الأصاغر ؛ لاحتياطه على ما خفي من أوقافِهم على الأكابر ، ولم تنله أيديهم ، وعولج السلطان في ذلك إلى أن آيس منه ، وبقي الناس مدَّة متحيرين ، وفعل ابن الأسود في البلاد الشَّامية من العظائم ، ما رَوَّعَ الألبابَ ، فقصد الشاميون إرسال شخص إلى السلطان على لسان الفقراء ، وأهل الخير ينصحه في ذلك ، ويبيع نفسه لله ، فانتدب لذلك محمد بن الخطيب هذا ، وجاء بجبَّة صوف إلى أنصاف ساقَيْه ، وعمامة صوف صغيرة ، وطلع إلى [١٢٣] السلطان ، فكلّمه بقلبٍ أقوى من الجلْمد ، ولسان أحدّ من المِبْرَد، فقصد السلطان حجاجَهُ فلم يقم له، فعرض عليه مالاً ليُسكِتَه به فلم يقبل، وتردد إليه أيَّامًا ، وطال الكلام بينهما والسلطان يُخادعه بأنواع الخداع، فلم ينفعه شيء من ذلك، ولكن كان الأكابر من أهل الدَّولة يُقَوُّوْن عزمهُ، ويُعَلِّمونه

ما لَعَلَّه يخدع به إلى أن أُعْيِيَ السلطانُ فأجابه ، وكتب معه بالقبض على ابن الأسود واستخلاص ما حصَّل ، فقُبض عليه وضرُب بالمقارع ، وأُودع السجن ، فصار الشيخ محمد هذا من أعظم المعتَقَدين عند جميع أهل الدولة ، ولو أنه حَفَّه لطفٌ ، فطلب ما يعيش به فعلُوا ، ولكنه دخل في الدنيا بنوع آخر ، وهو أنه استأجر من بنت الملك المؤيد وغيرها بلادًا في ناحية طرابلس ، وبسط يده ؛ فانكسر عليه مالٌ ، فَسُجِن عليه ، فقام في تأجيره بعض من كان يعتقد فيه الخير فخلص ، ثم استمر في القاهرة ، وكان يتلقى كلَّ من يرد من البلاد الشامية في حاجة فيُضيِّفه ، ويتلطف به إلى أن يُطلِعه على أمره ، فيسعى في حاجته على إقدام وبسط لسانه بالصدق والكذب ، فَيقْضِها بواسطة اعتقاد الناس له بما رأوا منه ، وسمَّى نفسه شيخ السلطان .

وكان مُبذِّرًا للمال ، فتسامع به أهل الحوائج ، ولا سيما المبطلون منهم ، فقصدوه ، وكان آية في استجلاب الأموال ممن يريدها منه ، فكثرت عليه الأشغال ، وظهر للناس بعض أمره ؛ ففزع إلى أهل الزور من الموقِّعين والشهود ، فتعرَّف بهم ، وكان يُمشِّي أمورًا كثيرة بطرق كثيرة وسكن في العطوف . ونواحي الخراب ، وأفسد نساءً كثيرة ، وحَلَّ أوقافًا متعددة ، وأكل من الأموال بنحو هذه الطرق ما يزيد عن الحصر إلى أن قصده بعض التركمان في إقطاع بأيدي ناسٍ منهم ، فأخرج لهم مربعًا ومنشورًا بذلك ، فذهبوا فأخذوه ، فأبى الذين هو في أيديهم ، فشكوا أمرهم ، فقيل لم نخرجه عنكم ، فطلب أخصامهم ، فأخرجوا ما معهم ، فقيل : هذا زورٌ ! من أعطاكم إياه ؟ فقالوا : الشيخ محمد ، وأخذ مِنَّا خمسمائة دينار ، هكذا نُقِل عنهم ، وقيل : أنهم قالوا : سبعمائة دينار ، وأنهم قالوا : قتل أباهم ، وأخذ منه مالاً كثيرًا كان معه ، وقد كان أبوهم أقام عنده ، ومات فادَّعوا أنه إنما قتله ، وكثرة الشكاة عليه ، ففعل به ما

ذكر ، نسأل الله العافية والعِفَّة والسَّداد في الأفعال والأقوال .

واستمر في المقشرة ، يشكو عليه مَن ظَلَمه في مالٍ أو زوَّر عليه أمرًا ، وكان في كلِّ وقت يظهر عليه من ذلك عجائب إلى نحو نصف شهر ربيع الأول من السنة فأُطلع إلى السلطان على قفص حمَّال ، وهو في حكم العدم ، لأن اليوم الذي قُطع فيه كان في غاية من شدة البرد ، ولم يَحْسم[١] جرحه ؛ ففسدت يده ، وسقطت منها بعض العظام ، فلما أعلم السلطان بحاله أطلقه ، فاستمر إلى يوم الاثنين ثالث عشري ربيع المذكور فمات بعد الظهر رحمه الله . (وقَرَتِيًا ، بفتح القاف والمهملة وكسر المثناة من فوق ، ثم تحتانية مشددة من قرى غزَّة في جبل القدس) .

وأخبرني العلامة الصالح شهاب الدين أبو الأسباط أحمد قاضي الشافعية بالرَّمْلة ، أن محمدًا هذا عاشِر عشرة إخوةٍ ، كُلُّ واحد منهم شَرٌّ مِن الآخر ، ليس فيهم من يُرجى بخير إلاَّ واحد ، وكان أبوهم من أعيان تلك البلاد .

وفي أوائل هذا الشهر ، ضُرب شخصٌ يقال له إبراهيم مُتَزَيّ بِزَيِّ الفقهاء ، كان عند جانِبَك الوالي ، بالمقارع وجرِّس يُنادى عليه : هذا جزاء من يُفسد حريم المسلمين ؛ وذلك أنَّه كان اتهم بإفساد زوجة أبي الفتح[٢] بن الشيخ شهاب الدين الحجازي إمام سيِّدي أحمد بن

---

(١) يحسم : جاء في « محيط المحيط » (١٦٩) حسَمه يحسِمُه ، قطعه مستأصلاً إياه ، والعرْق قطعه ثم كواهُ لئلا يسيل دمه ، وفي الحديث أنه أُتي بسارق ، فقال : اقطعوه ثم احسموه أي اقطعوا يدهُ ، ثم اكووها بالنار لينقْطع الدم .

(٢) هو : محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ، فتح الدين أبو الفتح بن الشمس القليوبي القاهري الشافعي ، المُكتب ، المعروف بالحجازي ، وهو بكنيته أشهر ، تصدى للتكتيب ، واستقر في تكتيب البرقوقية ، وباشر التوقيع والقضاء ، وسافر على قضاء المحمل أكثر من مرة

=

السلطان ، فَطَلَّقها ، فتزوجها المتهم ، فطُلب وهدِّد ، فطلَّقها ، وعلَّق طلاقها على نكاحها بصيغة كلّما ، فحجَّ أبو الفتح في سنة تسع وخمسين ، فرجع فوجده قد تزوجها ، فكثرت القرائن الدالَّة على التهمة .

وفي أوائله أيضاً ، حصل بَرْدٌ عظيم لعلَّه ما رؤي في بلاد مِصر مثله ، واستمرت إلى أواخر الشهر ، فورد الخبرُ بما يكون سببًا له ؛ وهو أن بلاد الصعيد وقع بها ثلجٌ غطى الأرض ، ووصل إلى نحو أنصاف عِيْدان القَصَب ، واستمر أيامًا ، بحيث تلف القصب ، ثم ورد الخبرُ أنَّ الثلج وقع في ناحية رشيد على نحو ذلك ، وهذا لم يُعهد مثله في هذه البلاد .

وفيه أيضًا بلغ الخبر أن بَيْرم [1] خُجَا ، الذي كان ناظر الحرم المكِّيّ مات ببلاد الحجاز ، أظنُّه بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة ، وكان مشكور السيرة ، لما ولى النظر ، أمَّارًا بالمعروف نهَّاءً عن المنكر ، كثير التعب في ذلك ، وكان فاضِلاً في فقه الحنفية ، مشاركًا في بعض الفنون ، مشهورًا بالدين والعفة والعقل رحمه الله .

وفي[2] يوم الثلاثاء ثاني عشر الشهر ضرب الأجلابُ ناظِرَ

= ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٩/ ٢٠٠ رقم ٤٩٣) ، ولم يحدد تاريخ وفاته بدقة ، وإنما قال : « اختص بالمؤيد أحمد في إمرته وأم به فيها ، ومات بعدها » .

(١) هو : بيرم خجا بن قشتدي أصلي الشاد ، ولي نظر المسجد الحرام في أواخر سنة ٨٥٠ هـ ، له بالمعلاة سبيل وحوض للبهائم انْتُفع بهما ، مات بمكة ظهر اليوم الاثنين ١١ صفر له ترجمة فى « الضوء اللامع » (٣/ ٢٢ رقم ١٠٨) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٥٠) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٥) في يوم الأربعاء ١٣ صفر ، راجع أيضاً « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٦) .

الخاص ، وقطعوا عمامته حتى لم يُبقوا بهـا مِصَحًا [1] ؛ لكونه لم يشفع في ناس منهم ضربهم السلطان ، فاعتذر إليهم ، فلم يقبلوا منه ، فانقطع يومين ، ثم طلع واختفى في ذيْنك اليومين الوزير ، فكاد الناس أن يتخبطوا ، ونهب العبيدُ الذين يأخذون منه اللحم للناس بعض أشياء ، ثم طلع الوزيرُ ، وسكن الحال [2] .

وفي يوم الأربعاء العشرين من صفر من السنة مات الفاضل برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن البيطار القدسي الشافعي الكُتبي فجأة بالقاهرة ، قدمها للتجارة في الكتب عن نحو سبعين سنة ، وكان فاضلاً في التاريخ ، مُتقدمًا فيه ، وله اشتغالٌ في الفقه وغيره ، وكان خبيرًا بالتجارة في الكتب ، عارفًا بأسمائها وأسماء مُصنفيها ، وكان حُلو الكلام، حسن المحاضرة ، هيِّنًا لينًا ، سهلاً عليه أمر الدنيا ، ودُفن في مقابر الصوفية سعيد السعداء بالقرب من صديقه الحافظ تاج الدين بن الغرابيلي [3] ، وله إخوة وعقبٌ بالقدس رحمه الله ، وأعلى درجته .

---

(١) مِصَحًا : أي أثرًا .

راجع « القاموس المحيط » (١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩) ، و « محيط المحيط » (٨٥٣) ، و « المعجم الوسيط » (١ / ٨٧٣) .

(٢) الخبر في : « حوادِ الدهور » (٢٥٠ ـ ٢٥١) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٦) .

(٣) هو : محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مسلم بن علي بن أبي الجود ، التاج بن الأمير ناصر الدين السالمي القاهري ثم الكركي المقدسي الشافعي المعروف بابن الغرابيلي ، ولد سنة ٧٩٦ هـ بالقاهرة ، ونشأ بالكرك ، وفي سنة ٨١٧ هـ تحول به أبوه إلى القدس ، فاشتغل ، وحفظ عدة مختصرات ، ومهر في الفنون إلاّ الشعر ، وأقبل على الحديث ، وقيَّد الوفيات ، ونظر في التواريخ ، مات في يوم السبت ١٣ جمادى الآخرة سنة ٨٣٥ هـ .

له ترجمة في : « إنباء الغمر » (٨/ ٢٦٩ ـ ٢٧١) ، و « الضوء اللامع » (٩/ ٣٠٦ رقم ٧٥٧) ، و« شذرات الذهب » (٧/ ٢١٥) .

وفي هذا الحد بلغ الخبرُ ، بأن شخصًا من عرب فَزَارة [1] عصى وخرَّب بعض التخريب بالبحيرة ، وانضم إليه خيلٌ كثيرةٌ ، وأضعافهم من الرجال ، بحيث أنهم يقاربون الخمسمائة ، وأنهم قصدوا الرُّكوب من خيل السلطان التي في الرَّبيع ، فَعَيَّن السلطان أميرَين لحراسة الخيل ، أحدهما يونس العلائي ، الذي يُقال له أخو السلطان في أجلابٍ كثيرة [2] .

وفي [١٢٤] أواخر صفر هذا مات محب الدين [3] عبد اللطيف البنهاوي الشافعي المعروف بالسّكّري ، عن نحو ثمانين سنة ، وكان عنده فضلٌ وله معرفة بالدنيا وتصاريفها ، واعتنى بالمتجر في السكر حتى عُرف به ، ثم اعتنى بالمتجر في الكتب ، وفتح له دكانا في سوقهم ، وراج في ذلك ، بحيث عُرف بينهم في أقرب مُدة ، وبذل الجهد في الاحتيال على جَلْب الفوائد من ذلك ، وأراد الله خلاف ذلك ، فكان هذا السبب سبب

---

(١) فَزَارة : وهم بنو فَزَارة بن ذبيان بن بغيض بن رَيث بن غطفان بن سعد قيس عيلان .. منازلهم نجد ، ووادي القرى ، ثم تفرقوا فنزلوا بصعيد مصر ، وضواحي القاهرة ، في قليوب ، وبهم يُعرف خراب فزارة من بلاد القليوبية ، كما نزلوا البَهْنَسا مما يلي الجيزة .

« مسالك الأبصار ـ قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين » (١٦٥) ، و « قلائد الجمان » (١١٣ ـ ١١٤) ، و « معجم قبائل العرب » (٣/ ٩١٨) .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٥١) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٦) .

(٣) هو : عبد اللطيف بن محمد بن محمد بن محمد، المحب القاهري الكتبي ، المعروف بالسكري، كان من أكثر الكتبيين كتبًا .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٤/ ٢٣٨ رقم ٩٣٩) .

فَقْـره ، لم يمت حتى أرْمل [1] جدًا ، وأظن أنَّه كان يمكث أيامًا لا يملك درهمًا ؛ وذلك أنه كان يُعَسِّرُ على المشترين ، وربما كان تعسيره على الطلبة أكثر ، وسَنَّ في السوق سنَّة قبيحة ، ما أظنه سُبق إليها ، وهي أنّ ما زاد على العقد وقاربه يُقطع ، مثلاً : إذا بيع الكتاب بمائة وعشرين يُعطي بائعة مائةً ، فإذا طلب العشرين ، قيل : هذه زيادة على العقد ، فإذا قال : لا أبيع إلاّ بذلك رُدُّوا كتابي ، قيل : قد لزم البيعُ وليس لك ذلك ، فأفقره الله مِن حيث ظنّ الغِنى ، اللهم فلا تزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنا آمـين .

وفي هذا الحدِّ ، أَخرج السلطانُ ، أحمدَ بن بشارة الرافضي ، أحد أكابر أهل جبل عامله ، من بلاد صفد ، من سجن اسكندرية وولاه تَقْدِمة بلاده عن ابن عمه محمد بن بشارة ؛ لأن محمدًا كان لا يحضر على نائب صفد ولا غيره من الحكام ، فإنَّه لاقى مرة بعض نواب صفد فسجنه ، فسار أحمدُ إلى البلاد ، فلم يشعر [محمد [2]] إلا وقد قرب منها ، ففرَّ بنفسه ، ومن خفَّ معه من جماعته ، وضاقت عليه الأرضُ ، ثم راسل نائب الشام في الاستجارة به فأجابه وحلف له ، فأتاه ، فأرسل نائب الشام وهو قانباي الحمزاوي أحد مماليكه ، ومعه عمر بن العَزقي أحدُ أكابر بلاد الزِّبداني (وكانت بينه وبين بعض جماعة محمد ، من بني عَمِّهِ أُخُوَّةٌ من الأم) إلى السلطان فأجاز ذلك ، وضمن نائب الشام ما يأتي من محمد .

وفي أوّل شهر ربيـع الأول في هـذه السنـة ، بلـغ السلطان أن نائـب

---

(١) أزمل : الأرْمَل هو المحتاج والمسكين .

« محيط المحيط » (٣٥٢) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٣٧٤) .

(٢) بياض في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

القدس حسام الدين [1] بن أيوب التُّركماني تمادى في ظُلْمه ، إلى أن امتنع الجالب عن القدس ، فصار لا يوجد فيها لحمٌ أصلاً ، وذكروا له من تقاريع ظلمه أمورًا لا تصدُرُ عن مسلمٍ ، ولا عن ذي سياسة ؛ فعزله ، وأمر بإحضاره في زنجير والاحتياط على أمواله ، واشتدَّ نكيره على المباشرين لا سيما الدويدارية ، لاسيما الكبير ؛ لكونهم يخفون عنهم مثل ذلك من أحوال عماله وولى قانصوه الجُلُبّاني .

وفي نحو العاشر منه وَرَد الخبرُ من نواحي القليوبية وطَنْدِتا[2] ، وما قارب ذلك من البلاد ، أنَّه وقع بها بَرَدٌ كِبارٌ جدًا ، زِنَةُ بعضه نصف رطل برطل مصر ، وذلك اثنان وسبعون دِرهمًا ، الوقية اثنا عشر درهما ، فقتل الطير وبعض البهائم [3] .

وفي هــذا الحدِّ ، قـدم العلاء علي بن [أبي بكر [4] بن إبراهيـم بــن

---

(١) لعله ، الحسن بن يوسف بن أيوب البدر التركماني ، ولي نيابة القدس والرملة ونابلس والكرك غير مرة في أوقات مختلفة ، يقول السخاوي : « ورأيته غير مرة ، منها في القدس ، ومات في جمادى الآخرة سنة ثمانين [وثمانمائة] » .

« الضوء اللامع » (٣/ ١٣١ رقم ٥٠٨) .

(٢) طَنْدِتا : يقول لها العامة (طنطا) ، وهي مدينة كبيرة ، رأس مديرية الغربية ، كثرة شهرتها بعد حلول أحمد البدوي بها ، وكانت عديمة الانتظام ضيقة الحارات غير محكمة البناء ، فكانت كثيرة العفونات والرطوبات ؛ بسبب عدم تمكن الهواء والشمس من الدخول في خلالها ، إلا أنه في الوقت الحاضر وسِّعت حاراتها ، وفتحت فيها شوارع مستقيمة ، وحسن حالها .

« الخطط التوفيقية » (١٣/ ٤٥ ـ ٥١) .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٥٢) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٦) .

(٤) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « الضوء اللامع » (٥/ ١٩٨) .

محمد] بن مفلح (1) قاضي الحنابلة بحلب ، فولي قضاء الحنابلة بدمشق يوم السبت رابع عشره .

وفي نحو (2) العشرين من ربيع الأوّل هذا نُقل الماس دويدار السلطان بحلب إلى دمشق على إمرة طَبَلْخَانَة، فعين شادِبَك الذي كان دويدار جُلُبان نائب الشام لدويدارية السلطان بدمشق عن خُشْكَلدي الكُويزي ، ونقل خُشْكلدي للدويدارية في حلب (3) .

وفي يوم الاثنين ثالث عشري الشهر مات محمد بن موسى بن خطيب قَرَتيَّا (بفتح القاف المهملة وكسر المثناة من فوق ، وتشديد التحتانية قرية من أعمال القدس) ؛ من القطع الذي تقدم ذِكره عن نحو ستين سنة .

وفي أواخر هذا الشهر وصل دويدار الأمير يونس الدويدار من الشام بشفاعة الأمير بُرْدْبَك الدويدار الثاني .

وفيه وصل حسن بن أيوب الذي كان نائب القدس ، فاستعاذ بالأمير بُرْدْبَك الدويدار ، فلم يُعِذْه ، فتوجه إلى الأمير يونُس الدويدار الكبير فأعاذه ، وردّ عنه مِن الأخصام الذين أذاقهم أنواع النكال ما لا يُحصى ، فتوجعت لذلك قلوبُ أهل الخير .

---

(1) هو : علي بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج ، العلاء ، المقدسي الصالحي الحنبلي ، المعروف بابن مفلح ، ولد سنة ٨١٥ هـ ، بصالحية دمشق ونشأ بها ، كان من أهل العلم والرئاسة ، ولي قضاء حلب وباشره مدة طويلة ، ثم قضاء الشام ، وأضيف إليه كتابة السر بها ، ثم أعيد إلى قضاء حلب ، ثم عزل ، واستمر معزولاً إلى أن مات ليلة السبت ١٠ صفر سنة ٨٨٢ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٥/ ١٩٨ رقم ٦٧٢) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٣٣٥) .

(2) في « حوادث الدهور » (٢٥٤) في يوم الخميس ١٩ .

(3) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٥٤) .

وفي يوم الثلاثاء ثاني شهر ربيع الآخر من السنة لبس قاضي الشافعيَّة العَلَم صالح البُلقيني خِلعة استمرار ؛ بسبب أنّه كان يحدِّث بعزله ؛ وذلك أن نائبه الفاضِل البارع أبا البركات [1] الهيثمي ، كان حَكَم لشخصٍ شريف يتيم بأمرٍ ، فَرَشا بعض ورَّاث المحكوم عليه العَلَم المذكور ، فقام معهم ، فأراد نائبه على إنكار حكمه ، أو الرجوع عنه ، فَلَمْ يفعل ، فاستعانوا في ذلك بيونُس الدويدار ، فلم يجد شيئاً ، فوصلت القضية إلى السلطان ، وطلب منه أن يُعقد لذلك مجلسٌ بين يديه بجميع القُضاة والعلماء ، فرسم بذلك ، فاحتال يونس بأنواع الاحتيال [١٢٥] على منْع ذلك ، أو جعْل المجلس في الصالحية ، فلم يُقبل ، وعُقد المجلس بحضور السلطان ، فتبين الحق مع القاضي أبي البركات ، وتبين حط النفس على العَلَم ، فذمّه كلُّ من كان حاضرًا ، وأسمعوه ما يكره ، وأخبره بعضُ أركان الدولة بأنه مشْرِف على العزل ، فبذل مالاً قيل : أنَّه ألفا دينار ، ولبس الخلعة المذكورة أسأل الله له الزَّوال أو إصلاح الحال .

وفي هذا الحد ، حصل من نائب حلب جَانَم أخو الأشرف برَسِبْاي حادثٌ عظيم دلَّ على طيش كبير ، وخِفة زائدة ، وكفران للنعمة ؛ وذلك أنّ في حلب شابًا معتقدًا يقال له : عبد الرحمن بن داود الحنفي ، نشأ على طريقة حسنةٍ مـن الاشتغال بالعِلْم والعمل به ، مع أنَّه لم تعرفَ

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صالح ، المحب أبو البركات بن الزين الهَيْثمي القاهرة الشافعي ، ولد صبيحة الجمعة مستهل ربيع الأوَّل سنة ٨٠٢ هـ بالخانقاه النجمية الدوادارية من الصحراء ظاهر القاهرة ، ونشأ بها ، وكان فقيهًا نحويًا ، مشاركًا في فنون كثيرة ، ناب في الحكم بالديار المصرية أكثر من ثلاثين سنة ، ودرَّس وخطب ، وجاور بمكة غير مرَّة إلى أن مات في يوم الثلاثاء ٨ جمادى الأولى سنة ٨٦٣ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٤) ، و « الضوء اللامع » (٨/ ٥٢ رقم ٦١) .

له صبوة ، فأحبه الناس حبًّا كبيرًا ، وكثر مُعْتَقِدوه ، وشاع ذِكره بالخير ، فقصده الناس في إصلاح ذات بينهم ، فكان لا يأتي إليه متشاحِنان إلاَّ وفَّق الله بينهما لِحُسن نيته ، وجميل طَوِيَّتـه وكـان غالـب إقامتـه في جامـع[1] مَنْكُلي بُغَا ، وكان خُشْقَدَم دويدار قانِبَا الحمزاوي قد بنى له خلوة ملاصقة للجامع يستريح بها إذا أراد .

وكان جانم لما قدم إلى حلب يتردد إليه ، ويظهر التبرك به ، وكان قد كتب قبل وصول جانم إلى حلب على المعروفين بجلب الخمر ما يمنعهم من جلبه ، وأُبطلت الحانة ، فزين المفسدون لجانم إعادة الحانة ، ودار الحشيش ، ونبهوه على ما في ذلك من المال الحاصِل له فرأى أنه لا يصل إلى ذلك إلاّ بعد إخراج هذا الشاب من حلب ، فأرسل إليه يومًا ورقة ، يشفع بها في شخص إلاَّ يعامل إلاَّ بالشرع ، فاشتاط غضبًا ، وأظهر ما عنده من المخبآت ، وقال : لا يمكن أن أقيم ببلدٍ يكون فيها هذا ، إما أن يخرج من حلب ، وإمّا أن أخرج أنا ، شُدُّوا الهُجْنَ ، فخفضه[2] بعض من كان في مجلسه ، فلم يقبل ، فذهب بعض أعوانه إلى الشيخ عبد الرحمن ، وذكروا له ذلك ، فأتاه أمر عظيم بغتةً ، فشرع يفكر فيما يفعل ويقول : ما ذنبي . فسمع الحلبيون فأتى منهم جمع كبير ، وقالوا : لا سمع ولا طاعة ، ولا يخرج الشيخ من هذا الجامع وفينا عين تطرف ، فرأى الشيخ إخماد الشر ، فأراد الخروج فلم يمكنه الناس ، فدخل إلى خَلْوته ، وخـرج مـن باب سرٍّ لها ، وركـب فرسًا ، وذهـب إلى مقـام سيِّدي

---

(١) وهو مُنْكُلي بُغَابن عبد الله الشمس ، أتابك العساكر ، كان نائب السلطنة بمصر ، وولي إمرة دمشق وحلب وصفد وطرابلس ، كان مشكور السيرة ، بنى بحلب جامعًا من أحسن الجوامع ، ومات في سنة ٧٧٤ هـ . له ترجمة في «شذرات الذهب» (٦ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧) .

(٢) خفضه : لعله هنا بمعنى حاول أن يليِّن موقفه .

«لسان العرب» (٩/ ٤) ، و «محيط المحيط» (٢٤٤) .

سعد الأنصاري ، فسمع به الناس ، فلحقه جمعٌ منهم وقالوا : نذهب حيث تذهب ، فلما كان غد ذلك اليوم عَيَّن جَانم مائة مملوك للقبض على من مع الشيخ والدخول بهم إلى حلب مُسَمَّرين على جِمال ، ونفى الشيخ إلى طرابلس ، فسمع أهل البلد ، فلبسوا السِّلاح ، وقالوا : متى خرج إليه أحدٌ قتلناه ، فسمع الشيخ ، فرجع إلى جامع حلب الكبير ، وأرسل إلى القضاة فأتوه ، فقال : انظروا إن كان لي ذنب يوجب خروجي خرجت على رأسي ، فغلق أهلُ البلد أسواقهم وطلعوا إلى المآذن والأماكن العالية ، وصرخوا بالتكبير ، وبأن إخراجه ما يحلّ ، فخاف النائب على نفسه ، فغلق أبواب دار السعادة [1] ، فتردد بينهما الأكابر إلى أن أتوا بالشيخ إليه ، فتعاتبا وتصالحا ، ثم ذهب الشيخ إلى خلوته ، ثم أن النائب أرسل بعد ذلك إليه لابُدَّ من خروجك من حلب ثم خرب [2]] خلوته ، فأخذ له بعض الحلبيين مدرسة بقرب الجامع الكبير خَرِبة ، واستنزلوا له عن نظرها [وعمروها [3]] فأقام بها .

وأرسل مطالعة عظيمة يشكو فيها حاله ، وأرسل النائب يشكو منه ، ويسأل في إخراجه مِن حلب ، وأنهى فيه أمورًا لا يقر عليها أهل الدولة ، فسبق رسول النائب ، فأجيب ، وكتب معه بإخراجه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لكن كُتب في المرسوم ما أنهاه النائب في حق الشيخ عبد الرحمن ، وأنَّ الأجابة بالنفي مرتبة على تلك

---

(١) جاء في « الدارس » (١/ هامش ٣) أنها « درست ، وكانت جنوبي القلعة من الناحية الغربية، أي عند مدخل سوق الحميدية اليوم » .

(٢) ما بين الحاصرتين غير واضح في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) غير واضحة في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

الأوصاف ، ثم بلغنا أنه لما ورد المرسوم على النائب أرسله مع كثير من جماعته إلى الشيخ ، فقالوا : هذا مرسوم السلطان بنفيك من هذا البلد . فقال : اقرأوه على فقرىء . فقال : أنا لا أسأل الحلبيين ، ولكن أسألكم أنتم ، أنا مُتصف بهذه الصفات ؟ فتلعثموا في الجواب ولم يقدر أحد منهم على جوابه ، فقال الشيخ : من كان بهذه الصفات يُنْفى ، وأمّا أنا فأبعد الناس منها ، واستمر مقيماً على حاله ، وكان أمر الله مفعولا .

[١٢٦] وفي يوم الجمعة تاسع عشر شهر ربيع الآخر هذا سافر الأمير بُرْدُبَك الدويدار في البحر إلى مولد النبي ﷺ ، الذي يُعمل بمقام الشيخ أحمد [١] البدوي في قرية طَنْدتا من الغربية ، وسألني في الذهاب معه ، فاشترطت عليه إزالة ما يقدر عليه من المناكر ، فأجاب وتوجهنا في سبع عشرة سفينة ، وكان معه الشرف الأنصاري ، وشاهين الساقي الطواشي ، وجمْع من الفقهاء [والترك [٢]] وغيرهم ، فوصلنا إلى زفتا[٣] يوم الأحد حادي عشري الشهري ، ثم توجهنا على الخيل

---

(١) هو : أبو الفتيان أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر المقدسي الأصل البدوي المعروف بأبي اللّثامَيْن السطوحي ، أصله من بني بري قبيلة من غرب الشام ، ثم سكن والده المغرب ، حيث وُلد له أحمد هذا بفاس سنة ٥٩٦ هـ ، ونشأ بها ، وحج أبوه به وبأخويه سنة ٦٠٦ هـ ، وأقاموا بمكة ، فمات أبوه سنة ٦٢٧ هـ . عُرف بالبدوي للزومه اللثام ، لأنه كان يلبس لثامين لا يفارقهما ، ولم يتزوج قط ، مات في يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ٦٧٥ هـ ، وعمره ٧٩ سنة ، ودفن بطندتا (طنطا) وعظَّم أتباعه قبره وبنوا عليه ، وجعلوه مقامًا يُقصد بالزيارة من كل مكان ، وقد اشتهر أتباع البدوي بالسطوحية .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (٧/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣) ، و « شذرات الذهب » (٥/ ٣٤٥ ـ ٣٤٧) ، و « الخطط التوفيقية » (١٣/ ٤٨ ـ ٥١) .

(٢) غير واضحة في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) زفتا : أو (زفتة) جاء في « الخطط التوفيقية » (١١/ ٩٤) بلدة شهيرة من مديرية الغربية ، موضوعة على الشاطىء الغربي لفرع النيل الشرقي .

فوصلنا إلى قرية نفيا صبح يوم الاثنين ثاني عشريه ، فندب القُرّاء الذين معه ، فقرأوا في مقام الشيخ قمر الدولة كثيرًا من القرآن ، وعمل به مَوْلِدًا ، ثم توجه إلى طندتا صبح الثلاثاء ثالث عشريه ، فإذا هناك من جموع الناس ما لا يحصيه إلا الله وإذا هم يشِدون إليه الرحال ، ويأتون في المحامل [1] ، بل والمحفات [2] ، وذلك أمرٌ عظيم في الدين وفتنة كبيرة ، وإذا هناك من الفساد بالفسق بالنساء والصبيان وغير ذلك من المحرمات أمورٌ عظيمة ، وقد جرت عادتهم السيئة ، أن يتسوق القبائل من العرب بخيولهم ويلعبون برماحهم لعبا يسمونه البرجاس ، فربما قتل منهم الجماعة ، فنادى الأمير حال وصوله بفعل الخيرات ، وترك المنكـرات ، وأن من عُثر عليه بمحرم حل به ما يستوجبه من العقاب ، وأمر بإبطال البرجاس ، وشرع كل يوم ينادي بذلك ، ويعظم النكير على من يفعل منكرًا ، فلم يتجاهر أحد بشيء من ذلك ، وكانت عادتهم أن يأتي النساء إلى خانات هناك ، ويأتي الكاشف بتلك البلاد ، فتدخل جماعته فيفسقون في تلك النساء ، ويجلسون على أبواب تلك الخانات يحمونهن ممن ينكر ، فيصير الفسق جهارا ، فحصل بحلول الأمير رفع ذلك ، ووعد أنه لا يُمَكِّن منه مادام قادرًا على إبطاله ، وكان كل يوم يأخذ القراء الذين معه ، ويذهب إلى المقام ، فيقرأون إلى العصر أو المغرب ، ثم ينصرف والناس يزدادون إلى أن ملأوا الفضاء ، وكانوا عدد الحصا ، وكان جماعة المتفقِّرة الجهلة يأتون ومع كل واحد منهم عصى غليظة جدًّا فيرقصون بها كل يوم وقت العصر ، ويكون لهـم ضجيـج في

---

(١) المحامل : المحمَل ، شقَّان على البعير يُركب فيهما ، أو يُحمل فيهما العديلان .

« محيط المحيط » (١٩٦) .

(٢) المحفّات : جاء في « محيط المحيط » (١٨٠) المحفة مركبٌ للنساء كالهودج إلا أنها لا تُقَبَّبُ كما تقبب الهوادج ، هذا كان قديمًا ، وأما الآن فإنها تُقَبَّب وتُستر ، .. إنما سميت محفّة ؛ لأن الخشب يحيط بالقاعد فيها من جميع جوانبه .

الطرق والمقام تَرْتَجّ منه الأرض ، فلما كان يوم الخميس تكامل جمعهم ، فأتوا من البرية وقد هاجوا بزعمهم ، وتواجدوا ، فمن كان منهم معه عصى فهي معه ومَن لم يكن معه عصى كسر مما مر عليه من الشجر فرعًا عظيمًا فأتى به يحمله حتى يكون صحن المقام كأنه بُستان ، ويكون لهم من الرقص بذلك والضجيج أعظم من كلِّ يوم ، ويوجد في هذه الأيام في الجبَّانة التي هناك موتى على ظهور القبور ممن كان دُفن قبل ذلك على هيئات مختلفة ، يدَّعون أن الأرض نبذتهم ، لكونهم كانوا يُنكِرون على طريقتهم ، وأنهم يغيبون في الأرض بعد انقضاء المولد ، يختدعون بذلك من لا عقل له ، وهم غالب الناس ، وأنا والله لا أشك أنهم هم الذين يخرجونهم ، إلى غير ذلك من المناكير التي تصدر منهم قبحهم الله ، وسدَّد من يسعي في إزالة ذلك ، وقد كنت سعيت في إزالته في سنة إحدى [و (1)] خمسين بعد أن أفتى جميع العلماء بتحريم ذلك ، وشدَّدُوا النكير فيه ، وألزمهم شيخنا ، شيخ الإسلام ابن حَجَر بالكفر ، لأمور يقولونها في حضور المولد من ثواب يرتبونه عليه ، وأمور يختلقونها ، وأبطله الملك الظاهر جقمق ، ثم سعوا فيه بإعانة الدويدار الثاني دُوْلات باي المؤيدي وأعادوه وآذوا كلّ من [١٢٧] من سعى في إبطاله أذىً بالغًا .

وأُخبرنا : أنهم يذهبون يوم الجمعة إلى الجامع قُدَّام شيخهم الذي يسمونه الخليفة بعِصِيِّهم وأسلحتهم فأراحنا الله من ذلك ، ولم نحضره ، وسافرنا قبل الصَّلاة من هذا اليوم ، وهو سادس عشري الشهر إلى زفتا ، ثم [انحدرنا (2)] إلى المنصورة .

---

(١) إضافة اقتضاها السياق .

(٢) في الأصل (انحدنا) والتصحيح حسب مفهوم السياق .

وفي يوم الجمعة هذا مات الأمير زين الدين منصور بن علاء الدين الطبلاوي والي مصر ؛ عن عِلَّة طويلة أدت إلى فالج أبطل أحد شِقَّيْهِ ، عن نحو ستين سنة ، وكان تَوَلَّىَ ولاية[1] القاهرة في وقت ، وكان ظلومًا غشومًا كذَّابًا ، فاستراح منه العباد والبلادُ ، والشجر والدَّواب .

ثم رجعنا ، فوصلنا إلى القاهرة يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى من السنة ، وكان علاء الدين[2] علي بن قاضي عجلون ، الذي كان أبوه موقّع اركماس الدويدار بمصر ، وكان عجبًا في عقوق أبيه وأذى أقاربه والإساءة إلى من له تحت نظره وظيفة ، فكثرت شكاته ، فهرب من دمشق إلى القاهرة ، فأرسل نائب الشام وراءه هجانًا[3] قبل سفرنا لِيُردّ إليه ؛ لينصف منه خصومه ، فلم يجب ، فأرسل مملوكًا له ، فتعصَّب له يونس الدويدار ، وتعصَّب لابن قاضي عجلون ناظرُ الخاص ، وسأل أن يُجاب إلى أن يرسل وكيلاً ، ولا يذهب ، وجرت بينهم في ذلك مجالس ، فرجح جانب يونس ، وأُرسل ابنُ قاضي عجلون مع مملوك النائب .

وفي هذا الحد ، تكلَّم قاضي الشافعية بمصر العَلَم صالح بن البُلْقيني

---

(١) ذكر (ابن تغري بردي) في « حوادث الدهور » (٢٢) أنه عُزل على كره منه من ولاية القاهرة في يوم السبت عاشر ذي القعدة سنة ٨٥٠ هـ .

(٢) هو : علاء الدين علي بن شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، الدمشقي ، الحنفي ، الزرعي ، المعروف بابن قاضي عجلون ، ناب في القضاء، بدمشق ، ثم استقل به في آخر ذي القعدة سنة ٨٦١ هـ ، وعُزل عنه في أول سنة ٨٧٦ هـ ، واستمر حتى مات في يوم السبت ٧ شعبان سنة ٨٨٢ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٥/ ١٦٨ رقم ٥٨٢) ، و « الدارس » (١/ ٦٤٠ ـ ٦٤١)

(٣) هجَّانًا : أي راكب الهجين ، وهو من الإبل البيض ، وكرامها .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٩٧٥) .

في نظر المدرسة (١) الشريفيّة الملاصقة لجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وكان قد أخذ نصف مشيختها من المحب ابن القِمَني (٢) ، فأثبت أن شرط الواقِف كون النَّظر للشيخ على الخطوط ، فطعن في ذلك الشرف الانصاري (٣) وكان النظر باسمه ، بأنّ الشاهد على الخط قال : أنه لا يعرف صاحب الخطِّ ولا خطَّه ، وأنّ الشافعي ألزمه بالشهادة وحلف عليه بالطلاق ، وأن القاضي الذي أثبت ذلك عز الدين بن (٤) الجمال البساطي وهو مطعون عليه ، مشهورٌ بالتهافت ، فبذل البُلْقيني مالاً ، قِيل أنه ألف وخمسمائة دينار ، ومهد الأمر في غيبة الأنصاري . وكان مع الأمير بُرْدُبَك في طنتنا ، ثم كان الرجوع من ذلك السَّفر مستهل شهر جمادى الأولى من سنة ستين المذكورة ، ثم طلع الشافعي للكلام في نظر الشريفيّة ، فولاه السلطان ذلك ، وعزل الأنصاري يوم السبت رابع شهر جمادى الأولى هذا .

---

(١) المدرسة الشريفية : تقع بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة ، وقفها الأمير الكبير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة ، أحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية ، وتمت سنة ٦١٢ هـ ، وكانت من مدارس الفقهاء الشافعية ، واستمرت عامرة إلى أن تخرَّبت فجدَّدها الشيخ علي الشهير بابن العربي الفاسي المصري المعروف بالسقاط المتوفى سنة ١١٨٣ هـ ، فأُطلق عليه اسمه ، وأصبحت تُعرف بزاوية ابن العربي .

« خطط المقريزي » (٢/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) ، و « الخطط التوفيقية » (٣/ ٤١ ـ ٤٢) .

(٢) راجع « هامش ٤ » من (ص٣٤٣) من القسم الأول .

(٣) هو : موسى بن علي بن محمد بن سليمان الشرف التتائي القاهري الشافعي الأنصاري ، ولد سنة ٨٢٠ هـ ، بتتا قرية بالمنوفية ، ونشأ بها ، ثم قدم القاهرة مع إخوته وأبيهم ، واشتغل بالعلم مدة بالجامع الأزهر ، ثم تعاطى التجارة ، وسافر إلى الحجاز ، ثم عاد إلى القاهرة ، ونال حظوة لدى السلطان ، وأعيان الدولة ، وولي عدة وظائف منها : نظر الجوالي والكسوة والبيمارستان والخانقاه السعيدية وجامع عمرو بن العاص ووكالة بيت المال وغيرها ، مات في عشاء ليلة الاثنين ١٧ صفر سنة ٨٨١ هـ ، بمكة المكرمة . له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠/ ١٨٤ رقم ٧٨٠) .

(٤) راجع « هامش ٢ » من (ص ١٧٦) من القسم الأول .

وفي هذا الشهر ، بلغ السلطان عن السراج الحمصي أنّه كثير الاجتماع بنائب الشام قانباي الحمزاوي ، وأنّه زيَّن له الخروج عن الطاعة ، وأثبت في ذهنه أنه منصور وأنه يصير سلطانًا ، فقال السلطان : كذلك كان يقول لـــــي .

وفيه وصل الخبرُ بقدوم [(١)] رسول [(٢)] من عند السلطان محمد بن عثمان ، سلطان الرُّوم بالبشارة بأنّه أخذ من أيدي الكفّار مدينة الكفا[(٣)] وضرب عليها خمسة آلاف دينار ، وأخذ عليهم أن لا يضربوا بناقوس[(٤)] ، ومدينة طرابزون [(٥)] وضرب عليهم أربعة آلاف دينار ، وجزائر المصطكا ، وضرب عليهم ثمانية آلاف دينار ، وأماكن أخر ، ويخبر أنه عزم على ختان أولاده ، وسأل من السلطان أن يسأل له أهل الخير بالدعاء لهم وله ، فإنه قد عزم على التغلغل في بلاد الكفر ،

---

(١) كان وصول الرسول إلى القاهرة ، يوم السبت ١٨ جمادى الأولى .

« حوادث الدهور » (٢٥٦) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٥) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٧) .

(٢) وهو الخواجا جمال الدين عبد الله بن القابوني .

« حوادث الدهور » (٢٥٦) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٤) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٧) .

(٣) كفا : هي كفّة أو كييف وهي مدينة تقع في شبه جزيرة في شمال وسط البحر الأسود ، وهي فيما يبدو مدينة (فيودوسيا) التابعة للاتحاد السوفييتى حاليًا .

راجع « أطلس هازارد » (٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩) .

(٤) ناقوس : جاء في « محيط المحيط » (٩١٢) ، « خشبة أو حديدة طويلة يضربها النصارى إعلامًا للدخول في صلواتهم ، وأخرى قصيرة اسمها الوبيل ، وربما استعملوا الناقوس للجرس » .

(٥) طرابزون : ويُقال لها طرابزندة ، مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من البحر الأسود .

« أطلس هازارد » (٢٣ ، ٢٥) ، و « أطلس تاريخ الإسلام » (خريطة ١٦٤) .

ولا يمر ببلد إلا فتحه ، أو مات دونه ، كتب الله له السلامة والنصر والعز آمين .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر هذا الشهر ، خرج الأمير بُرْدُبَك الدويدار الثاني للقاء المذكور إلى الخانكة ، فقدم إلى القاهرة بكرة السبت ثامن عشره ، والرسول معه ، وهو جمال الدين عبد الله القابوني ، الذي قدم بفتح القسطنطينية ، وأُنزل في بيت قَـرَاجا[1] خَزَنْدار الظاهر ، بالقرب من قِبلة جامع الأزهر[2] .

وفي هذا الشهر كاتب نائب الكرك ، أنَّ نائب القدس تعدَّى على معاملته ، وكان ابن أيوب مقيماً في القاهرة يقيم عليه ما يُزهد فيه ، وبذل مالاً كثيرًا فعُزل وأعيد ابن أيوب فلا قوة إلا بالله .

وفي صبح يوم الاثنين العشرين منه ، عثر الأمير بُرْدُبَك الدويدار صهر السلطان بطرف البساط المفروش بالقصر الكبير ، وكان يزرر طوق جبّته[3] فوقع ؛ فانفكت يده من المرفق فحصل له وهم فأغمى عليه ، فحمل إلى باب القلعة ، ثم أُركب فرسَه وعضَّده مماليكه حتى وصل إلى بيته فردت يده وعاده الناس ، وتردد إليه الأكابر والأعيان ، وكان الدويدار يونس صهر السلطان مريضًا ، وكان السلطان قد رسم بطلوع رسول ابن عثمان يوم الثلاثاء حادي عشري الشهر ، فطلع والدويداران

---

(١) راجع « هامش ١ » من (ص ١٣٩) من القسم الأول .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٥٦) .

(٣) جبّته : الجبّة ، ثوب سابغ ، واسع الكمَّين ، مشقوق المقدَّم ، يلبس فوق الثياب .
« لسان العرب » (١/ ٢٤٢) ، و « القاموس المحيط » (١/ ٤٤ ـ ٤٥) ، و « محيط المحيط » (٩٠) و « المعجم الوسيط » (١/ ١٠٤) .

منقطعان ، فقدَّم هديته [١] ، وكتاب [٢] ابن عثمان ، فإذا هو كتابٌ مسجوعٌ سجعًا أكثر فيه من الجناس حتى صار ثقيلاً ، ركيكًا ، باردًا لا يستحق أكثره أن [١٢٨] يُثبت في تاريخ ، على أن الخبير ببلاد الرُّوم أخبرني : أنه ليس إنشاء المنشي [٣] وإنما هو تلفيق مما كان من كلام غيره، فهو حسنٌ ، فإذا ضمه إلى كلامه اختلَّ في الرَّبط والمعنى ، وحاصله مع إصلاحي لبعض ألفاظه وروابطه بعد حمد الله والصلاة على رسوله ، والترضي عن الصحابـة ، أن قـال : « زَيَّن الله سماء الجلال بكواكب [٤] مواكب المعيني المغيثي (ومر في دعاء للسلطان وثناءٍ عليه) إلى أن قال : يُنهي إلى المقام الشريف والموقف المنيف أنَّه إن استكشف عن أحوال محبّة المخلص وحبه المتخصص ، وعن أوضاع [٥] المجاهدين لارتفاع راية الدين فإننا (ثم وصف نفسه بعظم الرغبة في الجهاد ، على عادة أسلافه) ثم قال : ومن الأحوال الواقعة في حولنا هذا أنّ متملك مملكة لاز المُسمى تبوركي [٦] مـا فتيء يُظهر لنا الصداقة ، ويؤكِّد مع شياطينه العلاقة (ثم وصفه بقوة المكر وعظم الكيد) ثم قال : فلما عاينّاه سدّاً على بني الأصفر عليهم الموتُ الأحمر نبذناه ، وتـوجهنا تلـقاء مدائنهم ليصطاد ليوثُنا في عرائنهم ، ونزلنا ذراهم [٧] ، وسرنا عـلى

---

(١) وتشتمل على ثلاثين مملوكًا ، أو نحوها ، وشيء كثير من الفِرى السمّور والوشـق ، والحرير والصوف من كل صنف في تسعة أقفاص على عادة ملوك المشرق في كون العدَّة تسعة .
« حوادث الدهور » (٢٥٧) .

(٢) نصه بالكامل في « حوادث الدهور » (٢٥٧ ـ ٢٦٣) .

(٣) جاء في « حوادث الدهور » (٢٦٣) « وأظن منشئه غير كاتبه ؛ لأنه أُرتج عليه في كثير من السجع ، فكتبه غير محرَّر ؛ فتعب وأتعب .

(٤) في « حوادث الدهور » (٢٥٧) با واكب مواكب اقبال المعيني المغيثي المثاغري .

(٥) في « حوادث الدهور » (٢٥٩) وعن اوداج .

(٦) في « حوادث الدهور » (٢٦٠) بتوركي .

(٧) في « حوادث الدهور » (٢٦١) دارهم .

قراهم[1] بِبَوْش عظيم ، وهَوْش بريم كرياح مشتدة الهبوب ، ونيران مشتطَّة الألهوب ، تَشْرح [2] ألسنة أسنتهم في جدالة المجادلة متون [3] الطحون ، وتفتح أيدي سيوفهم من عيون الدروع [4] دموع دَماً كالعيون، فتفرَّقوا ثلاث فِرقٍ راكبين طبقًا عن طبق، هربت [5] فرقةٌ برئيسهم إلى أقصى بلاد إبليسهم ، كأنهم حمُرٌ مستنفرة فرت من قسورة ، ورضيت فرقة بأن يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، وتشبثت فِرقة بأذيال شامخات بقاع لا يلين [6] لواحدٍ عريكتها ، وتحصنت بقلل راسخات قِلاع لا ينقاد [7] لقاصِد قَرونتها ، ومن جملتها القلعة المُسمَّاه بنُو بُرْدى التي هي أحصن القِلاع ، وأصعب البقاع ، فهجمنا [8] عليها كقطـع الليـل ودَفْع السيل ، وأمطرنا عليهم حجارة ، وأخذناهم بغتةٍ بالنهب والإغارة، ففتحناها في ثلاثة أيام، ونصبنا عليها أعلام الإسلام، وارتحلنـا منها إلى القلعـة المسماة بتَرْبِجة [9] ، ذات سـور زلّـت عـن [10]

---

(١) في « حوادث الدهور » (٢٦١) قربهم .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٦١) يشرح السُّنَّة لسنتهم .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٦١) مَثوى .

(٤) في « حوادث الدهور » (٢٦١) الذَّروع دمًا كا العيون .

(٥) في « حوادث الدهور » (٢٦١) هُويت فرقة من بينهم إلى أقصى بلاد إبليسهم

(٦) في « حوادث الدهور » (٢٦١) لا تلين .

(٧) في « حوادث الدهور » (٢٦١) لاتنقاد القاصد .

(٨) في « حوادث الدهور » (٢٦١) فهمنا .

(٩) في « حوادث الدهور » (٢٦١) بتربجة .

(١٠) في « حوادث الدهور » (٢٦١) على .

مُوازاتها أجنحة النسور ، علت ببنيان مرصوص على قنن [1] الأخاشب حتى عَرجت عن عروج بروجها أقدام [2] السحائب التي لم يسكنها غير كافر ، ولم يطأه للإسلام خفٌّ ولا حافِر ، ونزلنا بساحتهم وقت الصَّباح فساء صباحُ المنذرين ، وفتحناها قبل طلوع الشمس بعناية رب العالمين وجعلنا عاليها سافلها ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

تجري الجيادُ من القتلى على جبل

ومن دمائهمُ يَدْحضْنَ في وحل

ومن جماجمهمْ يَصْعَدْن في نَشَزِ

ومِنْ ذَوَائِبِهمْ يَقْمُصْنَ في شُكُلِ

ومن القلاع التي فتحناها قلعة أوْمول وسفريجة [3] حصار ، ويهون [4]، وززدين [5] ، استقبل بعض أهاليها بمفاتيح صياصيها[6] ، وبعضهم أحرقوا أوْطانهم بأيديهم وتفرقوا ، وبالجملة ما بقي من الفرقة الثالثة أحدٌ قطعاً إلا دخل تحت حكمنا كرها أو طوعًا ، فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما يَسَّرَ [7] الله

---

(١) في « حوادث الدهور » (٢٦١) قَنن ، وجاء في « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٦٣) ، قُنَّة كل شيء أعلاه .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٦١) عوارم .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٦٢) سفريجة .

(٤) في « حوادث الدهور » (٢٦٢) وبيهور .

(٥) في « حوادث الدهور » (٢٦٢) وبرزدين .

(٦) في « حوادث الدهور » (٢٦٢) بمفاتيح صاحبتها .

(٧) في « حوادث الدهور » (٢٦٢) فلما نشر .

بيُمن همتكم (١) العلية أعلام الحسنات ، وأقرّ عيون آمالنا بأنوار المكرمات خطر في خاطرنا تذييل حلّة فرض الجهاد بسنّة الختان الذي قرّره نبينا على سنة خليل [١٢٩] الرحمن عليهما أفضل الصلاة والسلام ، ملء دار السلام ، والرحمة والرضوان للدَّرّين (٢) الأَزْهَريْن في درج (٣) الوفا والدرّيَّينْ (٤) في برج الصفا ، بايزيد ومصطفى مَتَّع الله المسلمين بطول بقائهما فأردنَا تحليه مسامعكم الكريمة بدرر بشارة الغزوة الكبرى ، وتحلية (٥) صفا صبح (٦) هذه الوليمة بشموس همتكم العُليا ، فبعث لهذا المرام العظيم رسولٌ كريم ، صدر المحافل ، بدر الأفاضل ، المعروف بالأمانة ، المحقوق بالدِّيانة ، الأمير جمال الدين القابوني ، ضاعف الله أجره ، ويسر أمره بهدية يسيرةٍ من الأسارى والغلمان والأقمشة وغيرها ، والمرجو من أكرم الكرام حُسن القبـول والاهتمام والدعاء معاد ، والله الموفِّق للرشاد . في ثاني ذي الحجة سنة تسع وخمسين وثمان مائة » (٧) .

وفي ليلة الجمعة رابع عشري جمادى الأولى هذا ، وهـو من سنة ستـن ، مات فتح الدين [محمد](٨) بن صالح (٩) خطيب المنبر النبوي

---

(١) في « حوادث الدهور » (٢٦٢) همتك .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٦٣) للبدرَيْن .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٦٣) درجة .

(٤) في « حوادث الدهور » (٢٦٣) والدُّرّين الأنورين .

(٥) في « حوادث الدهور » (٢٦٣) وتجلية .

(٦) في « حوادث الدهور » (٢٦٣) صبح منيرة .

(٧) هامش في الجهة اليمنى من الصفحة ، جاء فيه « وفي آخر الكتاب على هامشه مـا صورته تحفة الفلص .

(٨) بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر « هامش ٣ » .

(٩) هو : محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صالح بن إسماعيل ابن إبراهيم بن أحمد بن حسن بن علي بن صالح ، فتح الدين أبو الفتح بن ناصر الدين ، المصري الأصل المدني الشافعي ، وُلد في ليلة =

وإمامه وناظِره ، وكان عين أهل المدينة ، وخلَّف أولادًا منهم ثلاثة رجال، وكان من عقلاء الرجال ودهاتهم ، ثم قدم ولده الأكبر إبراهيم في أوائل جمادى الآخرة ، وسأل أن تكون الوظائف المذكورة لأخيه الأوسط زكي الدين ، وأن يُشاركه عمه أبو عبد الله [1] في الخطابة والإمامة ، ويستقلَّ هو بالنظر ، ويستقل عمُّه بالقضاء ، وقد كان مستقلاً به في أيام أخيه ، فأجيب إلى جميع ذلك بواسطة الجمال يوسف ناظر الخاص ، فلما بلغ عمه ذلك وأهل المدينة الشريفة شق ذلك عليهم ؛ وذلك الزكي المذكور على ما قالوا أمْرد لا يصلح مثله أن يعلو.

وفي أوائل هذا الشهر ، وهو جمادى الآخرة رُسم بقدوم الأمير ناصر الدين بن أبي الفرج ، الذي كان جعل والي قَطْيا يغضب الزين الإستدار عليه فوصل في نحو عاشر الشهر .

وفي هذا الحد سعى كاتِبُ السّرّ المحب بن الأشقر في نفي عز الدين محمد بن [محمد بن [2] محمد بن محمد بن إبراهيم] المنوفي الشافعي

= ١٢ ربيع الأول سنة ٧٩٩ هـ ، بالمدينة ، ونشأ بها ، وقرأ على أبرز علماء عصره في القراءات ، والفقه ، والأصول ، والنحو ، والحديث وغيرها من العلوم ، كما ناب في القضاء والخطابة والإمامة في المدينة عن أبيه ، ثم استقل بذلك بعد موته ، واستمر إلى سنة ٨٤٤ هـ ، فترك القضاء لأخيه ، واقتصر على الخطابة والإمامة مع نظر المسجد النبوي ، حتى مات .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٨/ ٤٣رقم ٩) ، و « التحفة اللطيفة » (٣/ ٦٣١ رقم ٣٩١٤) .

(١) هو : يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن صالح بن إسماعيل المحيوي أبو زكريا بن القاضي ناصر الدين ، ويعرف بابن صالح ، وُلد سنة ٧٧٦ هـ ، بالمدينة ، ونشأ بها ، وناب في القضاء والإمامة والخطابة بالمسجد النبوي عن أخيه أبي الفتح ، يقول (السخاوي) : « وقد رأيت من أرخ وفاته في سنة ثمان وثلاثين [وثمانمائة] ، وهذا غلط ، فقد كتب عنه البقاعي في سنة تسع وأربعين [وثمانمائة] » .

« الضوء اللامع » (١٠/ ٢٣١ رقم ٩٨٠) ، وراجع أيضاً « عنوان الزمان » (مخطوط) (٧٤٤) .

(٢) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « هامش ١ » (ص ٣٨) .

قاضي الخانكة إلى الغرب مع كونه من أكبر أصدقائه ، معروفًا بالانقطاع إليه من صغره ؛ وقيل : أن ذنبه عنده أن شخصًا مات في الخانكة فذكر لقاضي القضاة الشافعي أمره ، فأرسل إلى محتسب الخانكة ابن النَّشَرْتي[1] ليضبط موجوده ، وكان ابن الأشقر ناظر الخانقاه بالخانكة وابنه شيخها مِن مدّة متطاولة ، فصارت الخانكة كأنها مُلْكَه لا يقدر أحدٌ على إبرام أمر ولا نقضه إلاّ بأمره ، ومن مات أخذ تركته ، أو جزءًا منها إلى غير ذلك من الظلم ، فعانه ما كان يرجو من تلك الترِكة ، واتهم العز المذكور بأنه المنبه للشافعي على التركة المذكورة فرسم السلطان بذلك ، وسعى للشمس الونائي الذي كان قاضيًا بالخانكة في حدود سنة خمسين على أيام الظاهر جَقْمَق ، فامتنع العلم البُلقيني قاضي الشافعية من ولايته وانْتَهره وأمر بإخراجه من مجلسه ، فأُخرج وبالغ في إهانته ؛ وذلك أنَّه أشاع أنّه إنما وُلِّي مِن السلطان فروجع الشافعي ، وحلف له أنه لم يكن للولاية من السلطان حقيقة ، وليست الولاية إلا مِنْه ولا المعوَّل إلاّ عليه ، واشتدّ سعي الونائي في ذلك ، وقيل : إنه بذل مالاً فولاَّه الشافعي يوم الخميس نصف الشهر .

وكان الونائي هذا في أيَّام الظاهر يأخذ من الذَّخِيرَة في كل شهر ثلاثة آلاف درهم مصريّة قيمتها نحو عشرة دنانير على القضَاء ، وكان في وقت يتمنع من القضاء ، ويطلب أن يُعفى منه ، وكان أكثر الناس يظن أنه

---

(١) لعله : محمد بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن عبد المغيث بن مصطفى بن فضل بن حمَّاد بن إدريس ، الشمس بن الشهاب النشرتي الأصل ، القاهري الشافعي ، وُلد في ليلة الجمعة ٢٧ رمضان سنة ٨٢١ هـ ، وحفظ القرآن وجوّده ، واشتغل في الميقات والحساب والعربية وغيرها ، وحج وتنزل في صوفية الصلاحية والبيبرسية والجمالية ، وباشر التوقيع في جامع آل ملك وأمَّ به ، مات في ليلة الثلاثاء منتصف رمضان سنة ٨٨١ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٧/ ٨ رقم ١١) .

صادق في ذلك إلى أن ظهر منه في هذه القضية ما ظهر من الرغبة من غير مقابل يحصل له في ذلك ، ومع بذل ما بذل إن كان صَحَّ ذلك نسأل الله العافية من إسْرار ما يُخالف الإعلان .

ثم شفع في العزِّ المنوفي الأميرُ بُردُبَك الدويدار ، فأُعفى من النفي .

وفي يوم الخميس المذكور ، وهو نصف جمادى الآخرة المذكور أَتى[1] الأجلاب لنهب بيت الإسْتَدَّار ؛ لكونه لم يصرف لهم نفقتهم في ذلك اليوم، مع أنَّ العادة جرت أنَّ الشهر إذا كان أوّله الخميس ، كانت النفقة يوم الخميس خامس عشره ، وإذا كان أوَّله الجمعة كانت النفقة يوم الاثنين ثامن عشره ، وهذا الشهر كان أوله الخميس لكن لم يُسَلِّم القضاة على السلطان بالشهر إلا يوم الجمعة ، وما ثبت كونه الخميس إلاَّ بعد ذلك ، فبنى الإسْتَدّار على سلام القضاة ، وظن أن ثبوت أوّله بالخميس يخفى على الأجلاب ،وكان احتاط في أمره، فلم يترك في بيته شيئًا يُنهب ، فلما جاء من تقدم من الأجلاب لنهب بيته ، وهم فرقة يسيرة قاتلهم مماليك الإسْتَدَّار ، ورموا عليهم بالنشَّاب ، فذهبوا وأتوا بما لا طاقة لمماليك الإسْتَدَّار به ، فلما دخلوا بيته فلم يجدوا به شيئًا وكان يسكن بين السُّورين عند المدرسة التي أنشأها هناك تعدَّى نهبهم إلى الجيران يمنة ويسرة إلى قنطرة[2] الموسكي [١٣٠] الشمالي، وإلى قُرْب باب الخرق من

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٠ ـ ٢٧١) .

(٢) قنطرة الموسكي : تقع على الخليج الكبير ، يُتوصل إليها من باب الخوخة ، وباب القنطرة، ويُمرّ فوقها إلى بر الخليج الغربي ، أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المتوفى في دمشق يوم الأربعاء ٢٨ شعبان سنة ٥٨٤ هـ .
« خطط المقريزي » (٢/ ١٤٧) .

الجنوب ، وأفحشوا في ذلك ، فقبض [1] السلطان على الإستدار ، وضربه وَعَيَّن الإسْتَدَّارِيّة لفرج ، الذي كان وزيرًا ، والوَزَر لعلي بن الأَهَنَاسي .

وفي يوم السبت سابع عشر الشهر ، لَبس كلٌّ منهما خِلعة ، بما جُعل إليه [2].

وفي هذا الحد ؛ بلغ الخبر بأن الشهاب أحمد [3] المحلي الشافعي ، الـذي كان قاضي اسكندرية ، مات ليلة الثلاثاء ثالث عشر الشهر ، بين رشيد [4] وأذكو [5] ، ودُفن في قرية أذكو ، وكان قد قدم القاهرة في شهر ربيع الآخر من السنة ليحج ، فقدم مريضًا ، وتمادى به الحال ، فأخذ في الرجـوع إلى اسكنـدرية في أوائـل جمـادى الآخرة في البحر ، فلما وصـل إلى رشيد كـان في حـال التلف ، فأمـرهم بحمله على رقـاب الرِّجـال ، في شـيء يُشبه النعش إلى أذكـو ؛ ليتبرك بقبر الشيخ إبراهيم الأذكـاوي ،

---

(١) خبر القبض على الأستدَّار في « حوادث الدهور » (٢٧١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٥)، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٨) .

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » (٢٧٢) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٦) ، و « بدائع الزهور» (طبعة بولاق) (٢/ ٥٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٨) .

(٣) راجع « هامش ١ » (ص ٣٦٨) من القسم الأول .

(٤) رشيد : بليدة غربي النيل الغربي ، عند مصبه في البحر شرقي الاسكندرية على مرحلة منهـا .
« معجم البلدان » (٣/ ٤٥) ، و « الخطط التوفيقية » (١١/ ٧٥ ـ ٨١).

(٥) أذكو : ويُقال لها (أدكو) قرية كبيرة من مديرية البحيرة بقسم دمنهور ، وتارة تكون تابعة لمحافظة الاسكندرية ، أو محافظة رشيد ، تقع على الشاطىء الغربي لبحيرة أدكو قريبة من البحر المالح على نحو ألف وخمسمائة متر ، ومنها إلى رشيد نحو ساعتين ، وإلى الاسكندية نحو ست ساعات .
« الخطط التوفيقية » (٨/ ٥٠ ـ ٥٤) .

فكانوا يحملونه قليلاً ، ويأمرهم بوضعه ليستريح قليلاً ، إلى أن أدركته الوفاة بقرب نخيل أذكو فمات في التَّاريخ المذكور ، عن نحو ستين سنة ، وكان هذا الرجل نادرة الزمان في قِرَى الضَّيف ، وخِدْمَة السلطان فمن دونه بالخِدَم التي لا تحكى إلاَّ عن البرامكة ونحوهم ، الجامعة لأنواع المآكل الشهية ، والمشارب ، والمخلَّلات ، والمربَّيات ، وغير ذلك ، مع اعطاء النقد أيضًا ، وكنت أقضي العجب من قدرته على ذلك ، وكان مِن المحلّة ثم انتقل إلى اسكندرية للمتجر ، فكان يصحب الجمال ابن الدَّمَامِيني ، ثم إنّه ناب للولي السنباطي لما كان قاضيها سِنُّه في حدود سَنة خمسين ، ثم استقل بقضائها .

نُقل السنباطي إلى قضاء القاهرة سنة ثلاث وخمسين ، واستمر ، وكان مشكور السيرة جدًا ، فلما وَلى الأشرف إينال ، وكان من خواصّ أصحابه، ارتفع أمره ، ووفد عليه مرتين أو ثلاثة ، فوصف في آخر أمره بالتجبر .

وقَدِم في سنة تسع وخمسين جماعةٌ كثيرون من الثَّغْر ، يشكون عليه ، فضربهم السلطان ضربًا كثيرًا ، وأفحش في أمرهم بواسطة ناظر الخاص ، وذُكر أنّه بسعي المحلي في ذلك ، فأخذ أمره من ثم في الاختلال إلى أن مات في هذا الحد ، وذكر لي أنه لم يأخذ في الرجوع إلى الثغر إلاّ مما حصل له من تحقق خيبة الآمال ممن عَلّق رجاءه بهم ، وذلك أنه لما خِيف موته أتاه مِن قبل السلطان من قال له : أَوْص وسَمِّ في وصيتك جزءًا من مالك للسلطان ، فسمى قدرًا ، فقيل له : لا يكفي ذلك ، ولم يزالوا به إلى أن جعل له ثلاثة آلاف دينار ، وسَمَّى لابن السلطان شيئًا ، ولبُرْدُبَك الدويدار شيئًا ، ولناظر الخاص شيئًا ، بحيث كاد يستغرق ذلك تركته ، فبدا له منهم ما لم يكن يحتسب ، وكان قد أعدهم سِهامًا لأعدائه ،

فكانوا في أحشائه ، فذهب مقهورًا ، وكان شكلاً حسنًا ، وخُلقًاجميلاً ، حلو الكلام ، حسن المحاضرة ، حلو النادرة ، يعرف مِن أين تؤكل الكتف ، وخلَّف ولدًا في غاية ما يكون من قبح الشكل ، أسود نحيل بحلاق يغلب عليه البهت ، ويقال : أن طبعه أقبح من شكله بكثير في دينه ودنياه ، ولقبه مع ذلك بدر الدين ، فولاّه السلطان قضاء اسكندرية ، كما كان أبوه ، فوصلها يوم الاثنين سادس عشري جمادى الآخرة هذا .

وفي صبح يوم الأحد خامس عشري هذا الشهر ، سافرت إلى ناحية الغربية ، فكانت فرسي ترقص وتَتَوَثَّب [١٣١] ، وكنت أرجو أن تترك ذلك إذا تَعَبت ، فاستمر ذلك دأبها إلى أن تعالى النهار ، وجاوزنا مدينة قليوب ، بمقدَار كبير ، ونزلنا فتغدينا ، ثم ركبتها فإذا هي على عادتها أو أشد فوصلت إلى أرض وَطِيَة (١) فسقتها إرادة تهذيبها ، وكان لها شهران لم تُنعل (٢) ، وكنت أمرت الغلام بإنعالها ، قبل السفر فلم يفعل ، وكانت إذا طال حافرها تعثر كثيرًا فأنساني الله ذلك ، لأمرٍ أرَادَه ، وكانت سريعة الجري ، بحيث أنها إذا حميت لا أثبت الأرض إثباتًا جيدًا فمرت مقدارًا كبيرًا وكأنها جاوزت تلك الأرض إلى أرض صعبة كثيرة الشقوق وعِرة ، فأرادت الوقوف ، فظننت أنها إلى الآن لم تتهذب ، فضربتها بـا لمهاميز (٣)

---

(١) وَطِيَة : أي لينة وسهلة .

« محيط المحيط » (٩٧٥) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٤١) .

(٢) تُنعل : النَّعل والنَّعْلة ، ما وقيت به القدم من الأرض ، وهي حديد متقوّس يُوقي به حافر الدَّابة ، أو جلدٌ يوقى به الخفُّ .

« لسان العرب » (١٤/ ١٩١) ، و « القاموس المحيط » (٤/ ٥٩) ، و « محيط المحيط » (٩٠٣) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٩٣٥) .

(٣) المهاميز : جمع (مِهْمَاز) ، وهو آلة حديد تكون في رجل الفارس ، فوق كعبه ، فوق الخف ، وما في معناها ، مؤخَّرَهُ إصبع محدّد الرأس ، إذا أصاب جانب الفرس تحرّكت وأسرعت في المشي ، وهو تارة يكون من ذهب محض ، وتارة من فضة ، وتارة من حديد مطلي بالذهب أو الفضة .

« صبح الأعشى » (٢/ ١٣٦) ، و « خطط المقريزي » (٢/ ٢١٧) ، و « الملابس المملوكية » (٦٤) .

وصحت عليها ، وأرخيت لجامها ، وإذا قضى الله أمرًا فلا مرد له ، فبذلت جُهدها إلى أن كانت كالطائر ، ثم عثرت ، فأقمتها باللجام ، ثم عثرت أخرى قويَّة ، أخبرني رفاقي أنها في جورة [1] ؛ فانقلعْت من السرج بقوة عظيمة ، فظننت ، وأنا نازلٌ أن رأسها وصل إلى الأرض ، وأنها تتقلب عليّ ، فيقطع السرج ظهري ، فأوّل ما وصل إلى الأرض رأسي من الجانب الأيمن فانجرحت من لساني إلى أعلى ذلك ، انشق من رأسي عشر جراحات أبلغها في لساني وشفتي العليا وحول عيني ، وانخلع من أسناني ثنيَّة وراضِع ، وأُغمى عليّ ، ووقفَت الفرس بجانبي ، وكانت عربية ، فلم تتحرك واستمر لجامُها في يدي ، وانشق الكمر الأعلى من لبسي نحو ذراع عرضها ، والذي تحته نحو شبر ، وتخرقت رِجل السراويل اليمنى ، وانقطع الخِنجر مع إنَّ سَيْرَه أعرض من إصبعين ، وانشطت قبيعته وهي نحاس ، وأخبرني أصحابي أنهم أدركوني وأنا معتمد على يدي أريد القيام فلا أستطيع ، فأقاموني ، فأفقت بعض الإفاقة ، بحيث كنت في تخيلي كالنائم يحلم ، ثم نحَّوني عن الطريق وأضجعوني حتى رجع إليّ عقلي بعد قليل وقد تيقنت ذهاب سِنِّي فخطر في بالي أني كنت أرجو : يارب أنْ لا تَفُضّ فمي فتنقص فصاحتي إذا قرأتُ حديث رسولك ، ثم أقمتها بلساني ، وغلب على ظنِّي أنّ عيني زالت لما كان عليها من الدماء من الجراحات التي حولها فاجتهدت إلى أن فتحتها فرأيتُ النور ، فكأنه لم تصبني مصيبه ، وزاد شكري لله وثنائي عليه ، بما حَمَل عَنِّي ، ثم أنست من نفسي قُوّة ، فأردت القيام، فلم أستطع ، كأن رأسي لا يحملني ، فأرْجفُ فاضطجعُ ، ولم أزل أفعل ذلك إلى أن أدركت من نفسي الثبوت على الفرس ، فأمرتهم،

---

(١) جورة ، لعلها من جار ، أي رافعة صوتها .

« القاموس المحيط » (٢/ ٣٩٨) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ١٠٣) .

فأركبوني وأرادوا الرجوع بي ، فمنعتهم وكان يومًا شديد الحرِّ ، والهواء الحارّ ، فقالوا : إن هذا الحر والهواء يورم الجراحات ، وربما يتلف ذلك ، فقلت : الموت لابد منه ، ولا يزيد رجوعي في عمري شيئًا ، واسْتَمرَّيْتُ على عزيمتي ، وأنا مسند سنِّي بلساني إلى أن عدَّيت في معدِّيَة [1] دُجْوَه[2]، وأنا راكب ، فلما نزلنا في ذلك الجانب الغربي نزلت عن الفرس، وتوضأت وصليت الظهر والعصر [قصرًا [3]] وجمعًا بالإيماء ، لم أستطع إيصال رأسي إلى الأرض ، كنت أحسّ أنّ رأسي كالبيضة المذِرَه [4] ، وأن مُخّه يتحرّك ، وينزل من أنفي الدَّم ، ثم نمت نومةً حسنة ، حصل لي بها راحةٌ ، ثم ركبت [١٣٢] ، وأنا لا أعرف أين أنزل ، ولا اعتماد لي على غير الله ، فأدركنا المساء عند مدينة مَلِيْج [5] فقال لي بعض من رافقنا في الطريق : انزل هنا . فقلت : عَلى مَنْ ؟ فقال: على شيخ العرب . فقلت : ومن هو ؟ فقال : غيث [6] بن نصير الدين.

---

(١) مُعَدِّيَة : جاء في « المعجم الوسيط » (٢/ ٥٨٩) المركبُ يُعْبر عليه من شاطىء إلى شاطىء .

(٢) دُجْوَة : جاء في «معجم البلدان» (٢/ ٤٤٣) «قرية بمصر على شط النيل الشرقي على بحر رشيد » .

(٣) في الأصل (قصر) .

(٤) المذرة : الفاسدة .

« محيط المحيط » (٨٤٣) ، و « المعجم الوسيط (٢/ ٨٥٩) .

(٥) مَلِيْج : بلدة من مديرية المنوفية ، واقعة على شاطىء بحر شبين من الجهة البحرية ، أبنيتها بالآجر واللبن ، وبها مسجدان جامعان .

« الخطط التوفيقية » (١٥/ ٧٢) .

(٦) هو : غيث بن ندى بن علي بن أبي الوحش ، ويعرف بابن نصير الدين ، شيخ عرب المنوفية ، كان ممن يُذكر بالظلم والشح مع إظهار التدين وانتمائه للشيخ مَديَن ، مات في القاهرة يوم الاثنين ١٠ رجب سنة ٨٦٦ هـ عن نحو سبعين سنة ، ودُفن خارج القاهرة من جهة باب النصر .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧٩٠ ـ ٧٩١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣١٦ ـ ٣١٧) ، و« الضوء اللامع » (٦/ ١٦١ رقم ٥٣٢) .

وكنت أسمع الناس يثنون عليه ، وكان حصل بيني وبينه اجتماع خفيف حين كنا في مولد طنتتا ، فملت إليه ، فتلقاني أحسن تلقي ، وكان عنده فقهاء ، فأخبروه ما سمعوا من ثناء الناس عليّ ، ثم كلموني في العلم ، فتكلمت معهم على عسر الكلام عليّ ، فزاد اعتقاده فيّ ، وزاد في إكرامي، ثم أردت أسافر عنه في اليوم الثاني ، فرأى ما حصل لوجهي من الورم من الشمس والهواء فقال : إن سافرت انتشر الورم ومت ، ثم حلف عليّ أن لا أسافر ، وطلب جرائحيًا ، فألصق على جراحاتي ما يليق بها .

واسْتَمَرَّيْتُ عنده في أحسن عيش عشرة أيام ، إلى أن بَرِيء غالب جراحاتي وأشرف الباقي على البرء وأتحفني وزوّدني ، ثم سافرت إلى شغلي ، وهو في بلاد جميل [1] بن يوسف شيخ عربان السخاوية [2] ونواحي البُرُلّس [3] ، وكان قد سمع بتقطُّري [4] ، فتلَقَّاني أحسن تَلَقِّي

(١) هو : جميل بن أحمد بن عميرة بن يوسف ، جمال الدين ، ويعرف بابن يوسف ، شيخ العرب ببعض إقليم الغربية والسخاوية من الوجه البحري ، مات في جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ عن أزيد من ستين سنة .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧٨٤) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣١١) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٧٨ رقم ٣٠٩) .

(٢) السخاوية : لعله نسبة إلى مدينة (سَخَا) الواقعة في مديرية الغربية ، وكانت تعرف سابقًا بـ (سخو) ، وهي كلمة قبطية ، وكان اسمها عند اليونان واللاتين (اكسويس) كانت من كراسي النصرانية ، وكانت فيها أسقفية ، كان القمح الناتج من أرضها في غاية الجودة ، وتُنتج قدرًا كبيرًا من محصول الكتان ، وفيها حمامات وأسواق ، وكثير من معاصر زيت السلجم ، وهي مسقط رؤوس جماعة من علماء الإسلام .

« الخطط التوفيقية » (١٢/ ١٣) .

(٣) البُرُلّس : ثغر عظيم من ثغور مصر ، يقع الآن في مديرية الغربية ، يشمل عدة قرى متقاربة واقعة في الرمال ، بين بحيرة البرلس ، وشط البحر المالح ، من أشهر قراها ، قلبشوا ، والشهابية ، وبلطيم .

« الخطط التوفيقية » (٩/ ٣٠) .

(٤) تَقَطُّري : قَطَر فَرَسُه ، وأَقْطَرَ ، وتَقَطَّرَ به ، ألقاه على تلك الهيئة ، وتقطَّر هو ، رمى بنفسه من عُلْو .

« لسان العرب » (٦/ ٤١٨) ، و « القاموس المحيط » (٢/ ١٢٣) .

وقضى شغلي على أتم وجه ، وزودني ، ثم رجعت فسبحان من لا يُخيب رجاء من صدق الله في الإلتجاء .

وكان قد خرج في حدود سفري ، وهو خامس عشري الشهر أو قبله بيسير ، أو بعده بيسير [1] نجم مقارن لكوكب الصبح إلى جهة الشمال ، بينه وبينه نحو قيد ثلاثة رماح ، وله شعاع ممتد من فوقه قريب من مقدار رمح منعطف رأسه إلى جهة كوكب الصُّبُح ، واستمر على هذه الحالة أكثر من خمسة عشر يومًا ، ثم اختفى ، وظهر هو أو غيره من جهة الغرب وقت المغرب ، واستمر إلى أواخر الشهر ثم اختفى .

وكان الناس يذهبون في حديثه كل مذهب ، كما جرت به عادةُ أهل الجاهلية ، وأخبر النبي ﷺ ، أنه يستمر في هذه الأمة .

وفي هذا العشر وقع حربٌ بين طائفة خارجة من عربان البحيرة ، وبين كاشفها ومعه طائفة من عربان الطاعة ، قُتل بينهم نحو عشرين قتيلا ، أكثرهم من العصاة وانتصر الكاشف ، وأرسل رؤوسهم إلى السلطان ، وطلب منه جَيشًا فأمر طوخ أمير مجلس بالتجهز لذلك .

ولم تزل أحوال الجند مخبطة من حين نُهب بيتُ الإِسْتَدَّار ، وكانوا يتشاورون على الركوب على السلطان ، فشاع أنهم يركبون في يوم السبت أول رجب ، وأنهم يقولون للناس : إنّا ركبنا غضبًا لما حل بكم من النهب فلم يقع ذلك ، فقالوا : في دوران المحمل ، فدار يوم [2] الاثنين عاشر شهر رجب ، ولم يقع [١٣٣] ولله الحمد الأخير .

ونـادى السلطان للناس بالـزينة ، والأمـان والاطمئنان ، ووصلت أنا

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٢٦٩ ـ ٢٧٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٤ ـ ٥٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٧) أن ذلك ظهر في أثناء شهر جمادى الأولى .

(٢) عن دوران المحمل راجع « حوادث الدهور » (٢٧٣) .

من السفر ليلة الثلاثاء حادي عشر شهر رجب المذكـور ، وكانــت تربة السلطان التي بناها بالصحراء في ناحية تربة برقوق [١] ، ثم حَدَّدَها وحسَّنها القاضي ناظر الخاص الجمال يوسف بن كاتب جَكَم قد تمت وصارت هيئة خانقاه بخلاوي ، واجتهد في تحسينها وأنفق عليها أموالاً جزيلة ، وكان السلطان قد أخذ ربع الكامل الذي تجاه جامع الأقمر [٢] فهدَّه ، وشرع في تجديده من نحو ثلاثة أشهر ، وكان المباشر له على ذلك ناظر الخاص ، فأراد النزول لنظر التربة والربع المذكور ، فأشاعوا أنَّ الرّكوب عليه يكون عند نزوله ، فنزل [٣] صبح يوم الخميس ثالث عشر الشهر من الصحراء ، فنظر التربة ، وأقام بها ساعة ، ثم ركب ، ومَرَّ من قُدَّام جامع الأقمر فرأى ما جُدِّد من الربع ، وكان في موكب عظيم ، تحدث الشيوخ أنهم ما رأوا لأستاذه برقوق مثله ، ولا لأحد بعده ، وكان ناظر الخاص حين وصوله إلى الربع مقارنًا له ، يحدثه عنه ، وجميع الأكابر قدَّامهما ، فلما جاوزا الربع ، تقدم ناظر الخاص ، فاكتنفه الأمير تَنِبَك ، وأمير سلاح خُشْ قَدَم أحدهما عن يمينه والآخر عن شمالـه ، فلم يكن الموكب في الحقيقة إلا له .

---

(١) تربة برقوق : هي التربة التي أنشأها الملك الناصر فرج بن برقوق على قبر أبيه ، خارج باب النصر في القاهرة .

« خطط المقريزي » (٢/ ٤٦٤) .

(٢) جامع الأقمر : يقع على يمين السالك من شارع الأمشاطية بخط بين القصرين يريد باب الفتوح بقرب حارة برجوان ، وجامع السلحدار ، بناه المأمون البطائحي وزير الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ ، وجدَّده الوزير المشير يلبغا السالمي سنة ٧٩٩ هـ ، وفي سنة ٨١٥ هـ ، هدمت مئذنته ؛ من أجل مَيْل حدث بها ، وهو إلى الآن عامر ، لم يتغير اسمه ، وأرضه منخفضة عن أرض الشارع ، وللناس في بئره اعتقاد ، ويستشفون بمائها .

« خطط المقريزي » (٢/ ٢٩٠) ، و « الخطط التوفيقية » (٤/ ٦٠) .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٣) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٧) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٨) .

وأُجلس قاصد الروم في مدرسة[1] برقوق لرؤية ذلك ، وقاصد الغرب في مدرسة [2] الأشرف ، وكان من الأيام المشهورة ، ورجع مُعافَ ، وقد حصل بنزوله ذلك هيبة وعز للمسلمين ، وقمْع للمفسدين ، وألبس السلطان القاضي ناظر الخاص خِلعة عظيمة في طرازها ألف مثقال ذهبًا ، وأركبه فرسًا عظيماً وأكرمه إكرامًا عظيماً .

وفي هذا[3] الحد ، عُزل الشهاب التلمساني قاضي المالكية بدمشق ، وَوُلِّيَ الزين عبد الرحمن السويدي ، وعُزل العلاء بن السابق من كتابة السر بدمشق وأُعيد القطب الخيضري [4] .

ومن أول شهر رجب رتب الأمير بُرْدْبَك قارئًا يقرأ صحيح البخاري في مجلسه ، على كرسي ، وأحضر جماعة من أهل العلم للسماع والبحث ؛ فجدَّد سنة الأمراء التي كانت في أواسط القرن الثامن ، والله تعالى المسؤول في إعزاز الدين ، وإعلاء أئمة المسلمين آمين .

وفي هذا الشهر فقد سنقر [5] قرق شبَق ، وهو دويدار السلطان

---

(١) مدرسة برقوق : أنشأها الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٦ هـ ، وهي عامرة للآن ، وتعرف بجامع البرقوقية .

« الخطط التوفيقية » (٢/ ١٣) .

(٢) راجع « هامش ٥ » من (ص ١٨٣) من القسم الأول .

(٣) جاء في « الدارس » (٢/ ٢١ ـ ٢٢) ، في يوم الثلاثاء ٢ شعبان سنة ٨٦٠ هـ وصل القاضي زين الدين عبد الرحمن السويدي من طرابلس ، وقد أعيد إلى قضاء المالكية بدمشق عوضا عن شهاب الدين التلمساني ، وأُلبس تشريفة بذلك في يوم الخميس ١٩ شعبان المذكور .

(٤) راجع « الدارس » (٢/ ٦٠) .

(٥) يقول عنه (ابن تغري بردي) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٠٤) : « كان من مساوىء الدهر، وعنده طيش وخفّة مع ظلم وجبروت » . =

الثالث غلامًا جميلاً من طبقته ، من مماليك السلطان ، وكان يُقال : أنه يعشقه فغاب عنه يومين أو أكثر فسأل عنه ، فأخبر أنه عند محمد بن أَيْتَمُش الخضري ، وكان محمد هذا ابن أخت زوجة السلطان ، وكان من كبار المفسدين جبَّارًا طاغيًا قل أن رؤى مثله في الجرأة على ما لا يليق شرعًا ولا عُرفًا ، على الأكابر والأصاغر ، حتى ناظر الخاص ، وبُرُدْبَك صهر السلطان ، وكان لا يستطيع أحدٌ شكايته خوفًا من أمِّه ، وإذا أُوصل إلى السلطان خبرٌ ممن لا يُراعي أمه ، توصلت بنفسها وأتباعها إلى تحويل ذلك الخبر إلى وجه غير فاحشٍ ، وكان الناس قد ضجوا منه ؛ ثم دانوا لـه ؛ حين رأوا أنَّه لا يؤثر فيه شيءٌ .

فلما سمع سنقر بذلك أخذ معه ناسًا من أصحابه ، ثم هجم إلى بيت ابن الخضري ، فإذا هو جالسٌ والصَّبي معه ، فقبض على الصبي ، وضرب ابن الخضري إلى أن كاد يُتْلفه وأخذ الصبي إلى بيته ، ففعل به مثل ذلك ، فخاف ابن الخضري غائلةُ ذلك ، فاختفى ، فلما بلغ الخبرُ السلطان لم يتكلم ، ثم قيل له : إنه هرب فهدَّده عند القدرة عليه ، ثم رُقِّقَ عليه فرقّ ، وعَدَّ الناس هذا الأمر من النعم العظيمة .

وفي نصفه أُعيد الشهاب بن رجب ، المشهور بالزُّهري إلى قضاء الشافعية بحلب عن الجلال محمد بن عبد القادر الباعوني .

وفي نحو العشرين من شهر رجب المذكور ، جاء الخبر ، بأن العُربان العصاة بالبحيرة هربوا قبل سفر الأمير طوخ أدام الله إذلالهم .

= أنعم عليه السلطان إينال بإمرة عشرة ، ووظيفة الزَّرَدْكاشية في يوم الجمعة سنة ٨٦١ هـ ، واستمر في وظيفته إلى يوم الاثنين ٧ محرم سنة ٨٦٦ هـ .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٠٦ ، ٢٦٤) .

وفي يوم الأحد ثالث عشري الشهر ، بلغ السلطان أنَّ بعض العرب العصاة [١٣٤] قرب مِن ناحية شبرمنت [١] في برِّ الجيزة ، فأرسل إليهم دويدار الأمير بُرْدُبَك ، في نحو مائتي فارس ، فلم يجد منهم أحدًا ، ورجع يوم الثلاثاء خامس عشري الشهر .

وكان في العشرين [٢] من شهر رجب هذا شاع بين الناس أن السلطان محمد بن عثمان مات ، وقيل : أن ذلك اطُّلع عليه في كتاب وَرَد من بعض الفرنج إلى القنصل [٣] الذي بإسكندرية ، ثم شاع في آخر الشهر أن هذا الخبر كَذِب ، وأنه حيّ ، وقيل أنه أُطلع على ذلك أيضًا من كتاب بعض الفرنج ، فصدَّق غالبُ الناس بورود الكتابين ؛ لورود الخبر الصحيح بسماع ذلك في إسكندرية قبل وصول الخبر في القاهرة ، وبقرائن غير ذلك ، أفادت العلم .

وكذَّب ذلك بعض من له إلمامٌ بأخبار الناس ، وقالوا : إنما سبب الإشاعة الأولى بالموت ، أنه كان مع رسول ابـــن عثمان ، العـلاء القابوني طُوَاشِي مَلِيْح الشكل جدًا ، وكان السلطان الأشرف طلبه منه في السفرة الأولى فـأبى عليه ، ثـم كـرَّر طلـبه في هـذه السَّفْرة فأبـى أيضًا ، فـألـح

---

(١) شبرى منت : قرية من مديرية الجيزة ، على الشاطىء الشرقي للبحر اللبيني ، في شمالي بوصير بنحو ساعة ، بها جامع بمنارة ونخيل كثير ، تقع بجوارها قرية بني سويف ، اختلطت معها علي توالي الأزمان ، وصارتا قرية واحدة ، ويقال لها شبرى منت وبني سويف .

« الخطط التوفيقية » (١٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٧٣) في يوم الجمعة حادي عشريه .

(٣) القنصل : في الاصطلاح السياسي ، النائب عن دولة في دولة أخرى ؛ يحمي حقوقها وتجارتها ، ويدافع عن رعيتها ، ومرتبته دون مرتبة الوزير المفوض ، الذي هو دون مرتبة السفير .

« محيط المحيط » (٧٥٩) ، و « المعجم الوسيط » (٧٦٢) .

في طلبه بناظر الخاص وغيره ، فأصرَّ على الامتناع ؛ فأُشيع موت ابن عثمان ، ثم طلبه منه ناظر الخاص بأن يشتريه ثم يقدمه للسلطان ، وكان لما فَجَأ الرسول هذا الخبرُ العظيم ، حصل منه استكانة كبيرة ، وزهد في أعراض الدنيا ، فقال : إن كان ولابدّ فأنا أهديه للسلطان لأن ذلك أجمل بي ، ثم توقف ليتحقق الخبر ، وكان قد أهدى إليه بعض الأكابر أشياء منها ، أن الأمير بُرْدْبَك كان أهدى إليه كبشًا جبليا من بلاد المشرق ذا قرون طوال ، وهيئة غريبة ، فأرسل إليه عند بلوغ هذا الخبرُ ، فاستعاده منه ، فوقع في نفسه أنَّ الخبر لولا صحّ لم يطلب منه هذا الكبش ، فلما استقرَّ في نفسه أنه مات ، أرسل الطواشي إلى السلطان فقبله ، وأظهر السرور به ، وعندما فعل ذلك شاع الخبر بأن خبر الموت كذب ، وَرُدَّ إليه ذلك الكبش ؛ فظن حينئذ هؤلاء القسم من الناس أن الإشاعة الأولى ما كانت إلا للوصول إلى هذا الطُّواشي واستقبحوا ذلك جدًا .

وفي شهر رجب ، برز المرسومُ الشريف على يد ساعي ، بأن السراج الحمصي ينتقل من دمشق إلى بيت المقدس ، وذلك لما شاع عنه من أنه يزين لنائب الشام الفساد ، فوصل في أواخر الشهر ، فأراد نائب الشام أن يُكاتب السلطان في [إبقائه (١)] بالشام ، فخاف هو عاقبة ذلك ، وبادر إلى التوجه إلى القدس الشريف ، وسُرَّ أهل الشام بذلك .

وفي يوم الاثنين (٢) مستهل شعبان ، سافر الزين الإستدار مَنْفِيّاً إلى مكة المشرفة بعد أن كان رُسم بنفيه إلى غزَّة ، فخاف أن يتمكن أعداؤه

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل بمقدار كلمة ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٧) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٥) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٩) وفيها أن سفره كان إلى المدينة المشرفة .

عند استقراره بها من إشاعات الأخبار الضارة عنه ، فسعى كثيرًا في أن يكون النفي إلى مكة ، حتى أُجيب بعد لأيْ .

وفي هذا اليوم ، سافر الجيش الذي عينه السلطان إلى البحيرة ؛ لأجل مفسدي العربان ، ومن أولئك الأمراء سودون قرقش المؤيدي رأس نوبة الثاني .

وفي يوم السبت [1] سادسه ، سافر العلاء القابوني رسول ابن عثمان ، راجعًا إلى بلاد الروم ، وأعطاه السلطان لنفقته وتوسعته ما يقارب خمسة آلاف دينار عَيْنًا ، غير ما أنعم عليه من الأمتعة والخِلع ، وغير ما أهدى إليه الأمراء والمباشرون ، وسافر معه على هدية السلطان الأمير قانِباي [اليوسفي [2]] [3] ، وكتب جواب السلطان [4] .

[١٣٥] وفي هذا الحد [5] ، وهو أوائل شعبان من سنة ستين وصل

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٧) في يوم الجمعة ٥ شعبان .

(٢) في الأصل : (الوسفي) ، والتصحيح من مصادر « هامش ٣ » .

(٣) هو : قانِباي اليوسفي المِهْمَنْدارِيَّة ، واسمه الأصلي الحاج خليل ، أصله من مماليك قرايوسف التركماني صاحب بغداد ، وهو جاركسي الأصل ، وقدم الديار المصرية في أيام الأشرف برْسْباي ، وكتبه خاصكيًا ، ثم بعد مدة مقدَّم البريدية ، ثم نُكب بعد موته بالحبس والضرب والنفي ، وقدم القاهرة أيام الأشرف إينال وولاه المِهْمَنْدارِيَّة ، ثم حبسه حتى مات في ٢٠ أو ٢٥ شوال سنة ٨٦٢ هـ ، وقدناهز السبعين .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٣١٨) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٤) ، و « الضوء اللامع » (٦/ ١٩٧ رقم ٦٦٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٨) .

(٤) لم يسجل البقاعي جواب السلطان ، بعد أن ترك فراغًا بمقدار عشرة أسطر . ويوجد نص الجواب في « حوادث الدهور » (٢٦٣ ـ ٢٦٩) وهو من إنشاء القاضي معين الدين عبد اللطيف بن العجمي ، نائب كاتب السر بالديار المصرية .

(٥) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٤) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٧) و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٣٩) ، وكان ذلك يوم الجمعة ٥ شعبان .

الخبر ، بأن ابن قرمان أخذ بعض البلاد [1] المجاورة لبلاده مما يتعلق بهذه المملكة ؛ فعين السلطان لذلك نحو ألف من المماليك وجماعة من الامراء، ليتوجهوا لخلاصها مع نواب البلاد الشامية ، ومن ينضم إليهم من العربان والتراكمين .

ثم شرعوا في الجهاز وكانوا قومًا يأكلون بلاد المسلمين وأرزاقهم ، فإذا حَزَب المسلمين أمرٌ لا يوجد [عندهم [2]] جهاز ؛ لأنهم يصرفون الأرزاق في الملاذِّ ، فلا يفضل عنها ما يغني للحرب ، وإن فضل تثاقلوا لصرف هممهم إلى الدعة ، فلما عينهم السلطان شرعوا في شراء الآلات ، فعُرف أنّ أقرب زمنٍ يتيسر سفرهم فيه نصف رمضان ، ثم لا يصلون إلى المقصد إلا في أوائل ذي الحجة ، ثم هجم البرد ، وتلك البلاد شديدة البرد ، فلا يتمكنون من شيء ، فشاور السلطان الأمراء وَذوي الآراء ، فأشاروا بأن يمهل تجهيزهم إلى بعد نزول الخيل من الربيع ، وذلك في ربيع الآخر من سنة أحد وستين ، وأن يرسل إلى نواب الشام أن يكونوا على حذر ، وإذا استغاث بهم نائب حلب ، أسرعوا إجابته من غير مراجعة للسلطان ، وكان هذا الرأي في نصف الشهر ، وهو شعبان من سنة ستين .

ثم وردت مكاتبات نائب [3] حلب ، بما معناه أنه كان لما قدم حلب ولّى مِن المباشرين من كان عند النائب الذي كان قبله ، ومنهم علي بن الرقيق ، وابن الحُصوني وعامَل الرعايا بما يليق ، ثم رفع إليه أنّ ابن

---

(١) مثل : طَرَسُوس ، وأذنه ، وكولَك .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٧) .

(٢) في الأصل : (عنهم) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) وهو جانم الأشرفي ، استقر في نيابة حلب على كره منه في يوم الخميس ٢٥ صفر سنة ٨٥٩هـ « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٨٤ ـ ٨٥) .

الحُصوني ظَلَم الرعية ؛ فسجنه ، فاجتمع جمعٌ كبير وقصدوه في حادي عشري شعبان ، في السجن فخاف السَّجَّان أن يكسروا السجن فيذهب كلُّ مَن به ، فرأى أن يُسلم إليهم ابن الحصوني ، ففعل فقتلوه ، فخاف ابنُ الرَّقيق على نفسه ، ففرَّ إلى زاوية شخص معتقد اسمه عبد الكريم ، فهجم ذلك الجمع عليه بها ، فأخذوه وقتلوه ، ثم ذهبوا به وبابن الحصوني ، ونائبين آخرين من مباشري النائب إلى بعض الأماكن الخربة فأحرقوهم . وقال : إنّ ذلك كسرٌ لناموس المملكة ، وطلب تقوية يده ، نسأل الله إعلاء الحق وخذلان الباطل وأهله آمين . أيظنُّ هو وأمثاله أنَّ الله تعالى يُسَلِّم أولياءه لهم ، وهو سبحانه يقول : من آذى لي وليًا فقد أذَنَني بالحرب (١) .

وفي أوائل الثلث الأخير من ليلة ثاني عشر شعبان المذكور ، مات ولدي أبو اليسر ، عن سنة وأربعة أشهر ونصف شهر ويومين ؛ عن مرضٍ حادّ استمر به نحو خمسة عشر يومًا ، وكان مهما أكله ألقـاه سريعًا من فوق ، ومن أسفل بالقيء والإسهال ثم كان لا يطعم إلا الماء ، وكانت تظهر عليه مخائلُ السعادة والسيادة من الشجاعة والشهامة والتأنيّ ، وحسن التَّأتيّ ، والحفظ العظيم ، والذكاء المفرط ، والكرم مع حَلاوَة الشكل ، وجهارة المنظر ، ولو ذكرت علامات كل ذلك لطال ، لـكن اقتصر على واحـدة ، وهـي أنه لـما منع تناول غير المـاء أشار بيده أن يسقوه ، فوضعت في الإنـاء الذي يشرب فيه ماء بطيخ صيفي ، وقلت

---

(١) حديث أخرجه (أحمد) في « مسنده » (٦/ ٢٥٦) عن عائشة رضى الله عنها بلفظ « قال رسول الله ﷺ : قال الله عز وجل : من أذل لي وليًا فقد استحل محاربتي .... الخ » ، وفي رواية عن عائشة رضى الله عنها « من آذى لي وليا .... إلخ » كما أخرجه (ابن ماجه) في « سننه » (٣٦ كتاب الفتن ـ ١٦ باب من ترجى له السلامة من الفتن) بلفظ « من عادى لله وَليًّا ، فقد بارز الله با لمحاربة ... إلخ » وفي الزوائد في إسناده عبد الله بن لهيعة ، وهو ضعيف .

للجارية اذهبي به إلى الكُوز [١] وأوهميه انك تسكبين منه كما كنت تفعلين ، فلما أتته به شرب شربًا متوسطًا ، ثم دفعه بيده ، وأظهر التبرم به، وأشار إلى الكوز ، فقلت : اذهبي إليه ، وخيِّلي له أيضًا وأتيه بماء البطيخ ، ففعلت فشرب منه قليلاً جدًا ، ثم دفعه وأشار إلى الزير ، وما علمت أنه قط شرب من الزير ، فعلمت أنه إنما أمعن في المرة الأولى لأنه كان خالي الذهن ، سالم الصَّدْر من أن يُمْكر به ، وانضم إلى ذلك أنَّ العادة في فم المريض أن يكون مُرّاً لا يُدرك صاحبه الطعوم إلا بعد تأمّل ، ودلَّت اشارته إلى الزِّير من غير بكاء ولا صياح ، على ذكاء مفرط ، وحسن خلق ، ثم إنَّه استمر في النَّزْع من بكرة يوم الخميس إلى حين مات ، وكان في كل ساعةٍ يشتد به ، وهو مع ذلك قليل التشكي ، لم يقل آه إلا عندما بدأ به النزع ، وكان لا يقولها إلا بعد كل حين ، إلاّ في حين الموت ، فشرع يُوالي ذلك ، فلما سمعته انزعجت ، فقمت وتأملته ، فإذا به قد مات رأسه إلى حنكه الأعلى ، وجمد بصره الذي كان في أوائل النزع يُحَرِّكه حركة سريعة جدًا ، وضاق سواد عينه حتى لا يكاد يبين ، وصار لا يتحرك منه إلا حنكه الأسفل وما تحته ، وصارت نفسه تُقَعْقَع [٢] في صدره ، وصار يُوالي التأوّه ، فحصل لي مِن الوجد ما لا أقدر على التعبير عنه ، ثم خطر لي الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة ، فأمرتُ الجواري بالوضوء ، وأنْ تُصلي كلُّ واحدة ركعتين ، وتسأل الله أن يُهوِّن عليه سكرات الموت ، وتوضأتُ أنا و إحداهُنّ وصليت ركعتين ، فلما كنت في الثانية ، سمعت منهن ما دلني على موته ، فأسرعت وذهبت إليه ، فإذا هو قد قضى إنا لله

---

(١) الكُوز : إناء من فَخَّار له عروة وبلبل ، أو هو أصغر من الإبريق ، يُشرب به الماء ، فارسيّه جمعها كيزان وأكواز وكِوَزة .

« محيط المحيط » (٧٩٧) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٠٤) .

(٢) تُقَعْقِع : أي تُحدث صوتًا شديدًا .

« محيط المحيط » (٧٤٨) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٥٠) .

وإنا إليه راجعون ، الحمد لله ، اللهم أجرني في مصيبتي ، واخلف لي خيرًا منها ، واعقبني منها عُقبى حسنة آمين .

وفي صبيحة يوم السبت ثالث عشر الشهر ، نزل السلطان إلى مدرسته التي أنشأها بالتربة بالصحراء ، ورجع إلى القلعة من بين القصرين ، وخلّف ولده في القلعة على عادة أولاد الملوك وفرح الناس بنزوله .

وبلغنا من القادمين مع جانبك ناظر جدّه ، أنه حصل في هذا الحدّ بالمدينة الشريفة ريح شديدة مع بعض مطر ، قلعت وقصفت من نخيلها نحو النصف ، وحصل سموم [1] أتلف ثمر ما بقى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفي ليلة [2] السَّبت العشرين من الشهر ، مات القاضي ظهير الدين محمد [3] بن قاضي القضاة أمين الدين عبد الوهاب ابن الطرابلسي الحنفي ، وصلى عليه في ضحوة يومها في باب النصر من القاهرة قاضي الشافعية ، العَلَم صالح البُلْقيني في جمع كثيرٍ من الأعيان ، ودُفن بالصحراء ، وكان من أعيان أهل القاهرة ، شَكَالةً وأصالة وسياسة، غير أنه كان ملازمًا للشراب، فكان ذلك يزري به، وكان

---

(١) سموم : ريح حارّة جمعها سمائم ، وقيل : السموم بالنهار ، وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ، وقيل : السموم الحر الشديد النافذ في المسام .

« محيط المحيط » (٤٣٠) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٨١) ، و« الضوء اللامع » (٨/ ١٣٦) يوم الجمعة ٢٦ شعبان.

(٣) هو : محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن أحمد بن أبي بكر ، ظهير الدين أبو الطيب بن الأمين القاهري الحنفي ، ويعرف بابن الطرابلسي ، ولد في جمادى الأولى سنة ٧٩٧ هـ بالقاهرة ، وكان أحد نواب الحكم بمصر ، وقد مات معزولاً بعد مرض طويل .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٣٧٠ ـ ٣٧١) ، و« النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٨١) ، و« الضوء اللامع » (٨/ ١٢٦ رقم ٣١٤) .

ذهنه حسنًا ، وله نظمٌ مقبول ، واختلط قبل موته بمدة ، لعلها تقارب سنة رحمه الله .

[١٣٦] وفي يوم الثلاثاء ثالث عشري الشهر ، حضر قاضي الشافعية، العَلَم البُلقيني مجلس الحديث عند الأمير بُرِدْبَك الدويدار ، فقرأ القارىء حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ « يأتي [١] في آخر الزَّمان قوم حدثاء الأسنان ، سفهاء أحلام » الحديث في الخوارج [٢] ،

---

(١) أخرجه (البخاري) في « صحيحه » (٦١ كتاب المناقب ـ باب ٢٥ علامات النبوة في الإسلام ، ج ٤ ص ١٧٩ ، و ٦٦ كتاب فضائل القرآن ـ باب ٣٦ من رايا بقراءة القرآن أو تأكّل به أو فخربة ، ج ٦ ص ١١٥ ، و ٨٨ كتاب استتابة المرتدين ـ باب ٦ قتل الخوارج والملحدين ، ج ٨ ص ٥٢) .

و (أحمد) في (مسنده) (١/ ٤٠٤ ، و ٥/ ٣٦) بألفاظ مقاربة .

و (ابن ماجة) في (سننه) (١/ ٥٩) (١٢ باب في ذكر الخوارج) بلفظ مقارب .

(٢) الخوارج : كل من خرج على الإمام الحق ، الذي اتفقت الجماعة عليه يُسمَّى خارجياً ، سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان ، والأئمة في كل زمان .

وأول من خرج على أمير المؤمنين علي رضى الله عنه جماعة ممن كان معه في حرب صفين ، وقالوا له: القوم يدعوننا إلى كتاب الله ، وأنت تدعونا إلى السيف ، ثم حملوه على قبول التحكيم ، وكان يريد أن يبعث عبد الله بن عباس ، وحملوه على بعث أبي موسى الأشعري ، ثم خرجوا عليه ، وقالوا :

لمَ حكَّمت الرِّجال ؟ لا حكم إلا لله ، وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهراوان .

وكبار فرقهم : المحكمّة ، والأزارقة ، والنجدات ، والبيهسية ، والعجاردة ، والثعالبة ، والإباضية ، والصفرية .

يجمعهم القول بالتبرىء من عثمان وعلي ، وتكفيرهما ، وتكفير طلحة والزبير ، وعائشة وجيشهما ، وتكفير معاوية وأصحابه بصفين ، وتكفير الحكَمين ، ومن حكّمهما ، أو رضى بحكمهما ، وتكفير كل من ارتكب كبيرة ، ووجوب الخروج على السلطان الجائر وإن كان على رأيهم .

راجع : « كتاب الملل والنحل » (٥٨) ، و « الفَرْق بين الفِرَق » (٥٤ ـ ٥٦) ، و « الملل والنحل » (١/ ١١٤) .

فقـال القاضي في بعض طرقه « لئن أدركتهم لأقتلنهم ، قتل عاد [١] » فقلت وفي بعض طرقه أن سببه أن ذا الخويصرة التميمي أتى النبيَّ ﷺ ، وهو يَقسِّم ، فقال : اعدل . فقال : ويحك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ! فاستأذنه عمر رضى الله عنه فى قتله ، فقال : دعه فإن له أصحابًا يَـحْقِرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم [٢] .

الحديث أخرجه البخاري في علامات النبوة عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، وفي بعض طرقه عن غيره « فأينما لقيتموه فاقتلوهـم [٣] » فقوله ﷺ : « دعه فإن له أصحابًا » ما هذه الفاء فَتَبَيَّنَت عليه الحيرة ، فقلت : أليست سببيَّة . فقال : بلى . فقلت : فحينئذ يكون ما بعدها علّة لما قبلها ، وكيف يُعَلَّل إبقاء مـن استحـق القتل ، بسبـب أنـه يكون لـه هؤلاء الأصحاب . فقال : خشية الفِتنة . فقلت : الفتنة لا تكون إلاَّ من أصحابه وقد أشار في الحديث إلى أنهم غير موجودين ، وعلى تقدير وجودهم ، فقد أخبر أنه يقتلهم قتل عاد ، كما قلتم في الطريق الأخرى . فلم يهتد الجـواب ، ولم يـر لنفسه أن يسكـت ، ولا يقول كما قـال القـدوة الإمام مالك [٤] لا أدري، فشرع يشد المجلس بسَوْق السيرة، وأنّ

---

(١) أخرجه (البخاري) في « صحيحه » (٦٠ كتاب الأنبياء ـ باب ٦ قول الله عز وجل : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، ج ٤ ص ١٠٨) و (مسلم) في« صحيحه » (١٢ كتاب الزكاة ـ باب ٤٧ ذكر الخوارج وصفاتهم ج ٢ ، ص ٧٤٢ ، ٧٤٣) .

(٢) أخرجه (البخاري) في « صحيحه » (٦١ كتاب المناقب ـ باب ٢٥ علامات النبوة في الإسلام ، ج ٤ ص ١٧٩) .

(٣) راجع « هامش ٢ » من (ص ١٩٦) .

(٤) هو : مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن أبى عمرو ، أبو عبد الله المدني ، إمام دار الهجرة في زمانه ، وُلد على الأرجح في سنة ٩٣ هـ ، روى عن غير واحد من التابعين ، وحدَّث عنه خلق من الأئمة ، مات ليلة ١٤ من صفر ، أو من ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ ، وله ٨٥ سنة .

له ترجمة في : « وفيات الأعيان » (٤/ ١٣٥ رقم ٥٥) ، و « الفهرست » (١٥١) ، و « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٤٣ رقم ١٠) ، و « البداية والنهاية » (١٠/ ١٧٤ ـ ١٧٥) ، و « النجوم الزاهرة » (٢/ ٩٦ـ٩٧) .

النبي ﷺ كان مأمورًا أوّلاً بالتحاور ، ثم كذا ثم كذا إلى آخر ما سرد ، فلما فرغ قلت له : وهذا يصلح لأن يكون مبيّنًا لوجه التعليل ، بما ذُكر ، فأراد إعادة شيء من ذلك الكلام ، وكثر اللغط ، فقلت : ينبغي الانتقال إلى فائدة أخرى . فقال : نعم ، انتقلوا حصل في ذلك كفايةٌ .

فَعَلِمَ كلُّ من حضر من أهل الذوق عجزه عن الجواب ، وشاع ذلك ، ثم أن الجواب عن ذلك على ما قال الكرماني [1]: أنّ الفاء لتعقيب الأخبار لا للسَّببية كذا قال، وليس الأمر عندي كذلك ، بل هي للتعليل، وهو من وادي قوله لعمر رضى الله عنه ، عن ابن صيَّاد ، حين وقع الظَّنُّ بأنّه الدَّجَّال ، واستأذن في قتله : إن يَكُنْه فلن يُسلَّط عليه ، وإن لا يَكُنْه فلا خير لك في قتله [2].

والحاصل ، أنه ﷺ ، عَلم أنَّ عِلم الله وقدرته تعلقًا ببقائه إلى الوقت المحدود له ، فلا سبيل لأحدٍ إلى قتله قبل ذلك ، لا رادَّ لأمره ، ولا مُعقِّب لحكمه ، ولم أر هذا لأحد .

فسمع شيخنا ، محقق الزمان ، الشيخ أبو الفضل بن أبي عبد الله المشدّ الي البجائي بالواقعة ، فخطر له هذا الجواب ، ثم سألني : هل

---

(١) لعله : محمد بن يوسف بن علي بن سعيد شمس الدين الكرماني ، محدث ، فقيه ، أصولي ، مفسر ، متكلم ، نحوي ، وُلد في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٧١٧ هـ ، وتوفي بطريق الحج في ١٦ محرم سنة ٧٨٦ هـ ، من مؤلفاته : شرح الفوائد الغياثية في المعاني والبيان ، وسماه تحقيق الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ، والنقود والردود في الأصول ، وشرح لمختصر ابن الحاجب وسماه السبعة السيارة.

راجع « الأعلام » (٨/ ٢٧ ـ ٢٨) ، و « معجم المؤلفين » (١٢/ ١٢٩) .

(٢) أخرجه (البخاري) في « صحيحه » (٢٣ كتاب الجنائز ـ باب ٨٠ إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يُصلي عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام ، ج ٢ ص ٩٦ ـ ٩٧) و (مسلم) في « صحيحه » (٥٢ كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ١٩ ذكر ابن صياد ، ج ٤ ص ٢٢٤٠ ـ ٢٢٤١ ، ٢٢٤٤) وذلك بألفاظ متعددة .

تعلم الجواب عن سؤالك ؟ فقلتُ : نعم ، وذكرت له ما تقدم . فقال : نعم هُوَذا ، ولكن إذا سِيق على وجه يكون له نظرٌ ، يكون الناس به آنس، وإليه أمْيَل ، وذلك قصة موسى والخضر عليهما [السلام [1]] وحاصلها، أنَّ الخضر كان يمشي على ما في نفس الأمر ، وموسى عليه السلام يمشي على ظاهر الشرع ، ونبينا ﷺ كان يمشي تارة على الظاهر ، وتارة على ما في نفس الأمر وهذا منه ، فقلت : ويزيد ذلك حسنًا أنهم قالوا : أنه ليس لنبي من الأنبياء معجزة إلا وقد أتى نبينا ﷺ مثلها ، وهذا الحديث مثالٌ لما أوتيه من معجزة الخضر عليه السلام .

وكان القاضي المذكور مشهورًا بالشؤم ، وأنه ما تولّى قط إلاّ حَصَل في أيامه بلاء كثير ، من طاعون وغيره ، فتعدى شؤمه إلى أنه من سلَّم عليه أو دخل إليه أُزْعج ، فلم يمض ذلك اليوم حتى جاء الخبرُ بأن عرب [١٣٧] بني وائل تجمعوا لإرادة الإيقاع ببني سعد ، ومعظم ذلك بقرية قها ، وهي في إقطاع الأمير بُرُدْبَك ، وكان المفسدون قبل ذلك في نواحي الشرقية قد كثروا ، وتمردوا ، وألقوا جِلْبَاب الخوف من الدولة ، وكذا أهل الفساد في غالب البلاد ، وكان الأمير بُرُدْبَك كثير التحرّق من ذلك ، فطلب من السلطان أن يأذن له في التوجه إلى ذلك ، فأذن له وعَيَّن معه أميرين ، فسأله أن يكون بمفرده ، وألح عليه ، فأجابه ، فركب عشاء الآخرة من ليلة الأربعاء ، رابع عشري الشهر في ثلاثين من مماليكه ، ونحو ثلاثين من مماليك السلطان القدماء ، فوصلوا بكرة النهار إلى قرب قريةٍ يُقال لها دَندنة ، وجاء والي قليوب وهو شخصٌ من الأجناد يُسمى قرقماش [2] .. فقال : إن هذا الأمر لا يحتاج إلى ركوبك بنفسك ، أرسل

(١) إضافة اقتضاه السياق .

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

معي جماعة أكْفِك الأمر ، فأرسل معه نصف من معه ، فكانوا مع جماعة الكاشف دون المائة ، وكان معهم جماعة مشاة من قوّاسة [1] جبل نابُلس، وكان معهم جماعة بني سعد ، فساروا غير بعيد ، فإذا هم بجمع أولئك وهم نحو ثلاثمائة فارس ، كلهم مُتدرِّع [2] ، وكانوا غافلين عن مجيء الأمير بُرْدْبَك ، فلما تواجهوا ضرب الوالي ، فنظر الوئليون إلى أعدائهم ، فظنوا أنَّهم استعاروا طَبْلاً وزمرًا ليرهبوهم ، فقالوا لهم : اثبتوا ، وحمل جماعة من شجعانهم ، فقُتل منهم ثمانية ، وكان منهم شخصٌ قصد أن يقتلع الذي واجهه من سرجه ويذبحه ذبحًا ، وهو شخصٌ من مماليك الأمير ، اسمه شاذِبَك ، فلما احتضنه فعل المملوك كفعله ، وتجاذبا ، فاقتلعه المملوك فأراد أصحابُه قتله ، فنهاهم عنه ، فلما رأى بقيَّتهم ما حَلّ بأصحابهم ، ورأوا رايات غير معتادة للوالي رُعِبوا ، فَوَلَّوا وأكثرهم مجروح ، فقطع الكاشِف رؤوس الستة [3] وأتى بهم إلى الأمير بُرْدْبَك ، فجهَّزهم مع ذلك الأسير إلى السلطان .

فأرجف المبغضون للأمير بُرْدْبَك بأخبار السوء ، وشرعوا يقررون خطأه في سؤاله منع الأمراء من التوجه معه ، وأنهم لو كانوا معه لأعظم النكاية في العرب ، ولم يفلت منهم إلاّ الشَّريد ، وادّعوا أنه كسر بذلك ناموس المملكة ؛ لأنه لم ينل منهم طائلا ، وأنهم اجتمعوا في ألف فارس ، وتعاقدوا على الموت ، وأحاطوا بالأمير ، وحصروه حصرَ الخاتم للخنصر ،

---

(١) قَوَّاسة : جاء في « محيط المحيط » (٧٦٢) « القَوَّاس صاحب القوس وصانعها والرامي بها ، وتوسَّع المولّدون فيه ، حتى أطلقوه على من اعتاد الصيد بالبارودة .

(٢) مُتَدَرِّع : أي لابسين دروعهم ، والدِّرع ، ثوبٌ يُنسج من زَرَد الحديد يُلْبَس في الحرب وقاية من سلاح العدوّ .

« محيط المحيط » (٢٧٧).

(٣) لقد ذكر المؤلف في السطر السابع ، أن عدد القتلى من الوائليين كانوا ثمانية .

إلى غير ذلك من الأراجيف ، فأرسل إليه السلطان أخاه الأمير يونس العلائي ، والأمير برْسِباي البجاسي صِهر الأمير بُردْبَك ، وسُنقر الدويدار الثالث المشهور بقَـرَق شَبَق ، فوصلوا إليه ، فإذا الأمر غير صحيح ، ولم يبق لأولئك جمعٌ ، وخاف بعض بلادهم على أنفسهم أن يُبيَّتوا ، فبثقوا المياهَ بينهم وبين العسكر .

ثم إن الأمير اقتضى رأيُه أن يمسك من بني سعد جماعة ؛ ليكسر الفتنة بذلك ، فيكون القبض عليهم معادِلاً عند الوائليين لمقتل من قُتل منهم ففعل ، وقَدِم في آخر ليلة الأحد ثامِن عشري الشهر ، وحصل بهذه الفعلة وهنٌ عظيمٌ للمفسدين ، ولله الحمدُ على ذلك .

وفي هـذا [١] الحد ، قَدِم رسولٌ من عنـد ابن جهنشاه بن قرايـوسف، ملك بغداد والعراق ، مشى على بلاد أولاد تَمَرْلَنْك [فإلى [٢]] جميع عراق العجم ، وهو إلى أقاصي بلاد أصبهان [٣] ويطلب من السلطان المعونة ، بالدعاء ، وشخصًا من أمراء بلاده اسمه حسن بك الدكري ، أصله من بلادهم ، ويُقال إنه كبيرٌ عندهم .

وفي يوم الجمعة سادس عشري شعبان ، الموافق لسـادس مسرى مـن

---

(١) في « حوادث الدهور » (٢٧٥ ـ ٢٧٦) في يوم الاثنين ٢٩ شعبان طلع إلى القلعة قاصد بير بضع بن جهان شاه بن قرا يوسف متملك بغداد والعراق من قبل أبيه جهان شاه المذكور ، وتمثل بين يدي السلطان فأدّى الرسالة ، وقرىء كتابه ، ولم يتضمن غير التودد والسلام .

(٢) في الأصل غير واضح من رسم الكلمة غير (فا) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) أَصبهان : جاء في « معجم البلدان » (١/ ٢٠٦) أنها مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ، كما يُطلق اسم أصبهان على الإقليم بأسره وهو من نواحي الجبل . تقع حاليًا في وسط إيران تقريبًا ، انظر « أطلس هازارد » (٣٥) .

أشهر القبط ، وَفَى البحرُ [1] [١٣٨] ستةَ عشر ذراعًا ، وزاد خمس أصابع، ففتحوا السدّ وجرى الماءُ في الخلجان على العادة ، وكان مِن خواصّه في هذا العام أنه من حين نُودى عليه لم يتوقف يومًا واحدًا ، وكان أكثر زيادته ثلاثين إصبعًا ، وأقلّها إصبع .

وفي أوائل شهر رمضان من السنة قَدِم دويدار نائب دمشق خُشْقَدَم ؛ بسبب أنَّه كان شاع ، أنَّ نائب حلب نقل عنه أنَّ تحرّك ابن قرمان إلى هذه المملكة كان بمباطنته ، فلما بلغ نائب حلب أنَّ هذا شاع عنه بين الناس ، أرسل إلى نائب الشام كتابًا يعتذر فيه ، ويُبرِّئه ، ويحلف أنه ما قال عنه شَيْئًا ، فأحضر دويدارُ نائب الشام الكتاب معه ، فأوقف عليه السلطان تبرئةً لأستاذه ، فكانت هذه قضيةٌ ربَّانية ، فتَّت في عضد هذين النائبين الجبَّارين ولله الحمد .

وفي أوائل هذا الشهر أيضًا ، جاء الخبرُ من القدس أن أسِنْباى ، مملوك الظاهر جَقْمَق ، الذي كان أخذ الدويدارية الثانية فى أيَّام المنصور مات [2] بالقدس الشريف ، وكان مَنْفِيًا به ، وكان ساكنا بالمدرسة [3] .. التي خلف الباسِطِيَّة .

وقَدِم أيضًا الخبرُ من بلاد الحجاز ، أنَّ الشمس الأنصاري ، أخا الشرف ، وكيل بيت المال ، تنازع مع جانِبَك نائب جُدَّة في تَرِكَة صِهر لـه، فصالحه على شيء ، ثم قيل لجانبك إنه بُخِس في هذا الصلح ، وأن التركة كثيرة جدًّا، فشدَّد عليه حتى أخذ منه مقدارًا زائدًا ، يُقال: أنه

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٤) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٦) ، «بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٠) .

(٢) راجع « هامش ٤ » من (ص ١٦٨) من القسم الأول .

(٣) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

ألفا دينار ؛ فعظمت مشقة ذلك عليه ، حتَّى زال عقله وأقام أيَّامًا ، ومات رحمه الله .

مرض ناظر الخاص

وفي أوائل هذا الشهر أيضًا حصل لناظر الخاص رَمْيَ دَم ؛ انقطع منه عن الرّكوب إلى القلعة ، ثم إنه نزل من باطنه ثُعبانٌ ربما يكون في طول فِتْر وثِخْن إصبع ، فاستراح به مِن وجع كان يجده في جانبه الأيمن ، واستمر مُنقطعًا إلى سابع عشري شوال كما سيأتي .

وفي يوم الخميس سابع عشر الشهر ، قَدِم بَرِيْدِيٌّ على يده مكاتبات من نائب حلب ، أن ابن قرمان حصل في عسكره موتٌ ذريع ، فأرسل إليه يستشفع به عند السلطان في أن يكون تحت نظره ، ويصفوا له ، بشرط أن يُعيد ما أخذه ، وهو قلعة الكرك وطَرَسُوْس، ويعيد ماهدمه من سور طَرَسُوس ، فحصل بذلك سرور .

وفي هذه الأشهر ، كثر فساد الزّعْر في مصر ، وهم فريقان : أهل المدينة ، وأهل الصَّلِيْبَة ، وذلك باعتبار أنه لكل فريق بعض الأتراك ، فكان من عصبة المدنيين خَير بَك والي القاهرة وغيره من الترك ، وعصْبة أهل الصَّلِيْبَة سُنقُر قَرَق شَبَـق الدويدار وغيره ، فكثرت بينهم المزاحفات ، والمواقعات في الأيام المتعددات ، وعظمت القتلى والجراحات ، وكان الأكابر يذهبون للتفرج عليهم ، فتعدى فسادهم إلى الناس ، فنهبوا في هذا الشهر من بعض الأسواق ليلاً ، وخطفوا العمائم من الجوامع وغيرها في صلاة التراويح ، وقتلوا في الأسواق ، وانتشر الخوف منهم في القلوب ، وكان الأمير بُرْدبَك الدويدار ، كلما أنهى إلى السلطان أمرهم ، وسأله في الجد في أمرهم عارضه أهل الأغراض ، فلم يزل يقوم في ذلك ويقعد حتى أُجيب ، وقبض على جماعةٍ من أعيانهم أربعة أو أكثر ، ثم أُحضروا في هذا اليوم وهو سابع عشر الشهر بين يدي السلطان ، فضربهم با لمقارع ، وأمر بهم إلى السجن .

خَتْمي للتفسير في الميعاد سنة ستين

وفي يوم الجمعة ثامن عشره ختمت تفسير القرآن العظيم في جامع الظاهر بالحسينية خارج القاهرة عن نيف وعشرين سنة أعان الله على إكماله مرّة أخرى وأعظم النفع بذلك آمين .

ثم ابتدأت يوم الجمعة سادس عشريه في ختمة أخرى ، فتكلمت على تفسير الفاتحة متبركًا بالختم والابتداء في رمضان ، ولا سيما خامس عشريه ؛ فإن القرآن أُنزل على ما رُوي في الرابع والعشرين منه إلى السماء الدُّنيا ، وكنت أنظر في غالب الأمر الكشَّاف [1] ، وتفسير [2] البيضاوي ، والنهر [3] لأبي حَيَّان ، وأضيف إلى ذلك ما يفتحه الله عليَّ مما أحفظ من الأحاديث والسِّير وغير ذلك ، ثم لما وصلتُ إلى أواخر

---

(١) هو كتاب « الكشاف عن حقائق التنزيل » للإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، فرغ من تأليفه ضحوة يوم الاثنين ٢٣ من شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ ، يقول (حاجي خليفة) : « واعتنى الأئمة المحقِّقون بالكتابة عليه فمن مميز لاعتزال حاد فيه عن صوب الصواب ، ومن مناقش له فيما أتى به من وجوه الإعراب ، ومن محش وضّح ونقّح واستشكل وأجاب ، ومن مخرّج لأحاديثه عزا وأسند وصحح وانتقد ، ومن مختصر لخص وأوجز » .

« كشف الظنون » (٢/ ١٤٧٥ ـ ١٤٨٤) .

(٢) وهو كتاب « أنوار التنزيل ، وأسرار التأويل » للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي ، المتوفى بتبريز سنة ٦٨٥ هـ ، وقيل ٦٩٢ هـ ، يقول عنه (حاجي خليفة) : « وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن ، غني عن البيان ، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان ، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام ، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات ، وضم إليه ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة .. » .

« كشف الظنون » (١/ ١٨٦ ـ ١٩٤) .

(٣) وهو كتاب « النهر المادّ من البحر » في التفسير ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الجياني ، الإمام أبو حيان أثير الدين الأندلسي الشافعي المتوفي بمصر في ٢٨ صفر سنة ٧٤٥ هـ ، اختصره من البحر المحيط .

« كشف الظنون » (٢/ ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤) ، و « هدية العارفين » (١/ ١٥٢ ـ ١٥٣) .

البقرة في الميعاد ، وفي البكرة الثانية في وسط سنة إحدى وستين ، فتح الله تعالى بتفهيم علم المناسبات بين الآيات ، فشرعتُ فيه ، في كتاب غريب سميتُه (نظم الدرر من تناسب الآى والسور)[1] على وجه بديع المثال ، بعيد المنال ، مَن طالعه عَلِم مقداره .

ثم لما وصلت فيه إلى آخر سورة التوبة رأيته قد طال بسَوْق قصص الأقدمين التي تدعو إليها المناسبات من التوراة والإنجيل ، أو كشف معاني بعض الآيات ، وبأشياء من جواهر التفسير ، فشرعتُ في اختصاره في كتاب سميته (دلالة البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم)[2] اقتصر فيه إن شاء الله على المناسبات فقط مع حذف مؤيدات أدلتها من كتب الأقدمين ، والله المسؤول في إتمامهما على أحسن الأحوال وأكمل الخلال .

موت الأُبُّذِي

وفي عصر يوم الثلاثاء ، ثاني عشري[3] شهر رمضان من السنة ، مات الشيخ الفاضل شهاب الدين أحمد[4] الأُبُّذِي (بضم الهمزة والموحّدة المشدَّدة وكسر الذال المعجمة ، بعدها ياء النسب) البجائي المالكي ،

---

(١) راجع « ص ٣٧ » من القسم الأول .

(٢) راجع « ص ٣٥ » من القسم الأول .

(٣) في « الضوء اللامع » (٢/ ١٨١) أنه مات في ٢٠ رمضان .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أحمد الشهاب البجائي الأُبَّدي المغربي المالكي ، نزيل الباسطية ، ويعرف بالأبذي ، له مشاركة في كثير من الفنون ، كالفقه والعربية والصرف والمنطق والعروض .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٢/ ١٨٠ رقم ٥٠٤) .

بسكنه من المدرسة الباسطيّة [1] من القاهرة [١٣٩] المعُزِّية[2] عن أكثر من ستين سنة في ظَنِّي ، وصُلى عليه في باب النصر ، ودُفن بالصحراء ، وكانت جنازته حافِلة ، وعظم تأسف الناس عليه ، فقد كان ملازِمًا لنفع الناس بالأشغال في فنون من العلم ليلاً ونهارًا ، مُدَّة سنين ، وكان قد شاع له بين غالب الناس بذلك ذكر جميل .

وفي يوم الاثنين حادي عشري الشهر كان آخر السنة القبطية ، ويوم الثلاثاء ثاني عشري الشهر كان أول أيَّام النسيم ، وكان أول توت ، وهو أول شهور القِبط الأحد سابع عشريه .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشري رمضان المذكور ، برز المرسوم الشريف بأن يجهر النِّداء بالقاهرة ، أنّ أحدًا من المماليك لا يمشي ليلاً ، ولا يحمل في يده عصى ، ومن فعل ذلك وسّطِ في مكانه ، وأُمر كاتبُ السر بأن يكتب إلى جميع نُوَّاب بلاد الشام بالإحسان إلى الرعية والرفق بهم ، وتنقية بلادهم من الفواحش ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والاجتهاد في ذلك ، ومن لم ترد عنه الأخبار من الرعية بالثناء عليه وحسن معاملته قُوبل وجُرِّئَ عليه العوام وغيرهم [3] .

---

(١) المدرسة الباسطية : لعلها هي التي تعرف بالجامع الباسطي ، وهو يقع في بولاق خارج القاهرة ، ذكر المقريزي المتوفي سنة (٨٤٥ هـ) أنه أدرك موضعه ، وهو مطل على النيل طول السنة ، أنشأه شخصٌ من عرض الفقهاء في سنة ٨١٧ هـ .

راجع « خطط المقريزي » (٢/ ٣٢٧) ، و « الخطط التوفيقية » (٤/ ٦٤) .

(٢) المعزِّيَّة : نسبة للمعز لدين الله أبي تميم معد الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ) ، وهو أول خليفة فاطمي دخل القاهرة وذلك يوم الثلاثاء لسبع خلون من رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، وقد اختطها قائده جوهر في سنة ٣٥٨ هـ .

« خطط المقريزي » (٣٤٨/١)، و « اتعاظ الحنفا » (١/ ١٣٤) ، و « القاهرة تاريخها وآثارها » (١٠) .

(٣) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٨) .

وفي يوم السبت [1] سادس عشري الشهر وصل جانِبَك ، ناظر جُدَّة ، ووصل معه شيخ الإسلام ، الشيخ كمال الدين بن الهمَّام ، وكان مجاورًا بالمدينة المشرَّفة ، ثم بمكة المشرَّفة ، واستبشرت به البلادُ المصرية ، ولاقاهما الأمير بُرْدُبَك الدويدار إلى البركة ، وتمثل بين يدي الشيخ ، وسأله أن يُسلِّم على السلطان فأبى ، وقال : إنما منفعة السلطان بي من جهة الدعاء ، وأنا لا أنساه منه ، فقال بعض الفقهاء ، متابعةً لهوى الأمير : يا سيدي ، يحصل للسلطان بذلك جبْر ، فقال : السلطان مجبورٌ بغير ذلك ، غير محتاج إلى مثل هذا الجبْر ، ثم لما خلا بذلك الفقيه عنَّفه على ذلك ، واشتدت لائمته له .

وفي يوم الاثنين ثامن عشري الشهر ، خُتم البخاري الذي كان يُقرأ عند الأمير بُرْدُبَك الدويدار ، في مقعد سكنه ، قرب مدرسة حسن ، وحضر القضاة : قاضي الشافعية العَلَم البُلقيني ، وقاضي الحنفيَّة السَّعد الدَّيْري ، وقاضي الحنابلة العز الكناني ، وحضر جمع كبيرٌ من الفقهاء ، بحيث مُلِيءَ المقعد على كبره ، ومُدح بعدَّة قصائد ، لكن لم تنشد كلها ، وخلع عِدَّ خِلَع صوف ، أكثرها بِفِرَى سَنْجاب [2] على أكابر مجلسه ، والقارىء ، ومن أنشد من المادحين قصيده ، وأعطى السامعين عطاءً متفاوتًا ، بعضهم ألفًا ، وبعضهم دون ذلك ، وكان في أوّل رمضان فرَّق عليهم صررًا من أربعة آلاف إلى خمسمائة بمعاملة مصر ، يكون الألف ثلاثة دنانير ، وكان ختمًا مشهودًا ، قلَّ أن اتفق مثله .

---

(١) في « حوادث الدهور » (٢٧٦) في يوم الأحد سابع عشريه .

(٢) سَنْجاب : حيوان على حدّ اليربوع ، أكبر من الفأر ، شعره في غاية النعومة ، لونه أزرق رمادي، ومنه اللون السنجابي ، تُتّخذ من جلده الفِراء ، ويُضرب به المثل في خفة الصعود وسرعته . « محيط المحيط » (٤٣٢) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٤٥٣) .

وفي عصر يوم الثلاثاء الثلاثين من رمضان اجتمع جمعٌ من أجلاب السلطان وسألوا الأمير بُرْدبَك الدويدار أنْ يشفع في اثنين منهما ، كان السلطان ضربهما لما نهبوا بيت الإسْتَدَّار ومن حوله ، وسجنهما في برج في القلعة ، فشفع فيهما فغضب السلطان من ذلك غضبًا شديدًا ، وكان قد تكلَّم لهم قبل ذلك في بِغَال ، فقبله السلطان وأعطاهم ، وتكلَّم لهم في غير ذلك وأجابه ، فلما خرج إليهم وأعلمهم بما قال السلطان غضبوا من ذلك ، على أنهم كانوا يُسمعون كلامه للسلطان ، وكلام السلطان له ، فأظهروا الغضب من ذلك ، ونسبوه إلى أنه لم يَنْصَح في الكلام ، وأغلظوا له القول إلى أن أغضبوه ؛ فنزل عازمًا على أنه يلزم بيته ، أو يقصد جامع الأزهر ، فيجلس فيه ، فأتاه الدويدار صُبح يوم الخميس ، يوم العيد ، فحلف عليه حَتّى أطلعه ، فصلى مع السلطان ، ولبس خِلعة ، التي جرت بها العادة ، ونزل فاستمر منقطعًا في بيته إلى يوم الأحد رابع شوال والسلطان يُرْسل إليه ويلحّ في ذلك ، فركب يوم الاثنين قبل الصبح واختفى في بعض بساتينه ، ثم ألحَّ السلطان في الإرسال إليه ، فأتاه يوم الثلاثاء سادِسه خُشْ قَدم أمير سلاح ، ويونُس العلائي أخو السلطان وأحد المقدمين فأخذاه وطلعا به إلى السلطان ، فبالغ في إكرامه ، وتطييب خاطِره بالثناء وغيره .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر أمر السلطان بتوسيط من كان قُبض عليهم في رمضان من الزعران الذين كانوا يفسدون في المدينة ، وكان قد اجتمع منهم عشرة ، فوسِّطوا كلهم عند برْكة[1] الكلاب[2]

(١) بركة : البركة مستنقع الماء ، والبركة شبه حوض يحفر في الأرض .
« خطط المقريزي » (٢/ ١٥٢) .

(٢) جاء في « حوادث الدهور » (٢٧٧) أن هذه البركة تقع خارج سور القاهرة بالقرب من باب المحروق .

وراء السور ، قرب الكيمان [(١)] وسُرَّ بذلك الناسُ ، وخاف المفسدون[(٢)] .

[١٤٠] وفي يوم الاثنين تاسع عشر شوال من سنة ستين وثمانمائة ، خرج المِحْمَل إلى البركة ، والأمير في رَكْبه قانَم [(٣)] التاجر ، وكان أمير الأول عبد العزيز بن محمد الصُّغَيِّر ، الذي كان محتسبًا [(٤)] .

ثم ساروا من البركة في يوم الأربعاء ، الحادي والعشرين منه ، ثم في يوم الخميس الثاني والعشرين .

وفيه دخل ناظر الخاص الحمام من عِلَّته[(٥)] ، وكان قد بلغ فيها أن

---

(١) الكيمان : جاء في « خطط المقريزي » (٢/ ١٦١) ، أن الكيمان ، موضع بركة كانت تسمى (بركة شطا) على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٧) ، وجاء فيه أن عدد من وسّط منهم عشرة نفر ، ما بين عبيد وأحرار .

(٣) هو: قانم من صَفَر خَجَا الجركسي المؤيدي شيخ ، ويعرف بالتاجر ، أصله من مماليك الملك المؤيَّد شيخ وأعتقه ، وصار خاصّكيًا في ولده المظفر أحمد بن شيخ ، ثم تأمر عشرة واستمر على ذلك طيلة أيام الظاهر جَقْمَق ، ثم صار من أمراء الطبلخانات أيام الأشرف إينال ، ثم صار في دولة المؤيد أحمد بن إينال رأس نوبة النُّوَب ، ثم أمير مجلس أيام الظاهر خشقدم ، وعظم في دولة خجْدَاشِه خشقدم ونال السعادة إلى أن مات فجأة ليلة الاثنين ١١ صفر سنة ٨٧١ هـ وسنه نحو السبعين .

له ترجمة في « حوادث الدهور » (٥٩٣ ـ ٥٩٥) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣٥١) ، و « الضوء اللامع » (٦/ ٢٠٠ رقم ٦٩٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٦٨) .

(٤) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٨) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٦) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٠) .

(٥) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٨ ـ ٩٩) .

أشيع موتُه مرَّات ، وكان يومًا مشهودًا تخلّق [١] فيه ناسٌ كثير جدًا بزعفران [٢] ، وسُرَّ به ذووا العقول .

وكان خَيرِ بَك الوالي قد قبض على فَلّاحٍ من قرية أُهُسْطو من عمل البَهَنْسَا [٣] ، وكانت في إقطاع رأس نوبة النُّوبِ قَرْقَماش الجَلَب ، ابن عم الأشرف بَرْسْباي ، واتهُم الفلاَّح بحرام ، فأراد الأمير قرقماش تخليصه ، فأقلّ الوالي أدبه عليه ، فشكاه إلى السلطان ، يوم الجمعة ثالث عشري الشهر ؛ فضرب السلطان الوالي يوم السبت رابع عشريه ضربًا كثيرًا ، قيل : إنه فوق الخمسمائة [٤] ضربة ، وأرسل به إليه ، وبالفلاح مع نقيب الجيش علي بن الفَيْسي ، فخلع على نقيب الجيش خِلعة هائلة ، يقال :

---

(١) تخلّق : أي تطيّبوا بالخلُوق ، وهو ضربٌ من الطيب فيه صُفْرة ؛ لأن أعظم أجزائه من الزعفران .

« محيط المحيط » (٢٥١) ، و « المعجم الوسيط » (١/٢٥٢) .

(٢) الزعفران : بالسريانية (الكركم) ، والفارسية (كركياس) ، كما يُسمى (الجُساد والجادى والرعبل والدلهقان) ، والزعفران كلمة عبرانية معناها (الأصفر) أو (صَفَران) ، وهو منبه للمعدة عطري ، مضاد للتشنج ، يستعمل في الصباغة ، ويُغَشُّ في العطارة بالعصفر .

« الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (١٦٢) ، و « إحياء التذكرة » (٣٣٥) .

(٣) البَهنسا : مدينتان يُطلق عليهما هذا الاسم : احداهما بالواحات ، والأخرى ـ وهي المقصودة هنا ـ البلدة المشهورة بالصعيد الأوسط ، غرب النيل ، بين منية ابن خصيب ، وبني سويف ، وكان يُقال لها بمج أو بمجه ، كان لها شهرة كبيرة قبل الإسلام ، وقد تخربت واندرست آثارها وغطتها الرمال ، وخلفتها في تلولها من الجهة الشرقية القرية الموجودة الآن باسمها ، وهي على الشاطيء الغربي من بحر يوسف من بلاد مديرية المنية بقسم الجرنوس .

« خطط المقريزي » (٢٣٧ ـ ٢٣٨) ، و « الخطط التوفيقية » (١٠/ ٢ ـ ٥) .

(٤) في « حوادث الدهور » (٢٧٧) أزيد من مائتي عصا ، راجع الخبر أيضًا في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/٥٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٠) .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشري شوال المذكور ، ركب[1] ناظر الخاص إلى الخدمة بالقلعة ، وكان يومًا مشهودًا ، عمّ فيه السرور لأغلب الناس ، فإنه خفيف الوطأة على غير مناوئيه ، وسرّ به السلطان ، وخلع عليه خِلعة شريفة ، وزُيِّنت له كثيرٌ من الدكاكين ، لا سيما في حارته بالقرب من البندقانيين ، وقصده الناس للتهنئة ، فكان بيته لا ينشق من الزحام ، وتصدَّق في حال المرض وبعده بصدقات كثيرة ، قيل أنها تزيد على عشرة آلاف دينار ، وعمل في عشية اليوم الذي ركب فيه ، وليلة الذي بعده وقتًا في المدرسة التي بناها وراء بيته من ناحية بين السورين ، قُرِئت فيه ختمات كثيرة ، ربما تزيد على العشرة ، فكان انقطاعه يزيد على شهر ونصف ، فاجتمع ناس كثير من ذوي الحوائج التي إليه الكلام فيها في القاهرة ، وزاد ضررهم بذلك .

وفي يوم ركوبه وسّط السلطان محمد بن أحمد بن خلف ، المشهور بابن قَزَابر المِجْدَلي (بقاف مفتوحة وزَاي وموحدة ثم مهملة) ، وولده عَلِيًا ؛ وذلك لأنه قتل في قرية المِجْدَل قرب عَسْقلان ، سبعة أنفس على ما قيـل ، فخربت البلد ، وهي في إقطاع ابن السلطان ، فطلبه ابن السلطان إلى أن حَصّله ، ثم استأذن أباه في قتله ، فأذن وضربه ، ثم أمر بتوسيطه ، وتوسيط ولده علي بن قزابر .

وفي يوم الجمعة سلخ شوّال ، وهو الموافق لرابع بَابَه من أشهر القبط نادى منادي البحر بالوَداع ، وأنَّ النيل ثبت على اثني عشر إصبعًا من عشرين ذِراعًا ، يعني كان ذلك آخر زيادته التي انتهى إليها .

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٧) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٠) .

وفي أوّل ذي القعدة من السنة ضرب أجلاب السلطان الوزير ابن الأهْنَاسي بغير ذنب ، مع مواصلتهم باللحم ، وماهم في جهته من الكلف ، ثم نزَّلوا الناس عن خيولهم ، وشاع أنهم تعاقدوا على أنْ لا يدعوا أحدًا غيرهم يركب فرسًا ولا بغلاً ، وأن غيرهم لا يلبس زمطا [١] ، لا من أولاد الناس ولا غيرهم ، ثم تعدى أمرهم ، فخطفوا [٢] أشياء الناس ، من العمائم وغيرها من الدكاكين ، وغيرها ، واشتد خطبهم وضربوا من عارضهم ، أو فهموا منه المعارضة الضرب المُهْلك ؛ فاغلق الناس كثيرًا من الأسواق ، وكان الأجلاب يشيعون ـ وصدَّقهم غيرهم ـ أنَّ هذا بإذنٍ من السلطان ، وربما دعموه ، بأنه غضب على الناس لكونهم لم يسمعوا أمره ، في أن يكون الدينار الذهب بثلاثمائة درهم فلوسًا ، وذلك وزن أربعة عشر درهمًا ونصف فضة ، فدعا الناس عليه ، وعليهم فأكثروا ، بحيث انزعج مُحِبُّوا دولته لذلك أكثر ممن ذهبت لهم الأموال .

ثم إنّ العَّلامة القُدوة الشيخ أمين الدين يحيى بن الأقصرائي الحنفي شيخ الأشرفية كتب ورقة يعظه فيها ، وأرسلها إلى شيخ الإسلام قاضي القضاة سعد الدين الدَّيْرِي الحنفي ، وكانا غير مطعون عليهما في عِلْمٍ ولا دِيْن ، فزاد فيها من الوعظ ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، ثم أرسلها إليه مع كاتب السر ، فلما خوطب السلطان بذلك أعظم ذلك وذكر أنه لم يعلم به ، وعتب على الأمراء في كونهم لم يبلِّغوه ولا سيما رأس نوْبَة النُّوب

---

(١) زمطا : عبارة عن قلنسوة حمراء لها خصلات (شراريب) طويلة مسدلة بطول الإصبع ، وملفوف من حوله شاش ، تُلبس على الرأس ، وعرف منذ بداية القرن التاسع الهجري ، أو منتصفه ، كان خاصّاً بالطبقات الدنيا في المجتمع المماليكي ، ثم أصبح طابعًا مميزًا للزي العسكري الشركسي ، كما كان يُلزم بلبسه كل مملوك مغضوب عليه كعقاب له .

« الملابس المملوكية » (٥٨ ـ ٦٠) .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٨) وجاء فيه أن ذلك كان في يوم الخميس ٦ ذي القعدة

ثم طلب مقدَّم المماليك وأغوات الطِّباق وعنَّفهم ، فضربوا كثيرًا ممن تحققوا منه الفساد ، أو منعوا الأجلاب من النزول إلى الأسواق ، فزال بذلك فسادهم ، وفساد من كان يُفسد على اسمهم ، والله المسؤول في إصلاح الأحوال .

ثم إنّ السلطان بحث عن رؤوس الفساد وأمر بالقبض عليهم ، فقبض على ناس منهم ، فضربهم ضربًا متلفًا ، بحيث زاد عن ألفي ضربة لبعضهم ، ونفاهم ، فهرب الباقون ، واشتد تخفِّيهم فنقَّب عنهم ، وكان يُؤتَى بهم إليه شيئًا فشيئًا ، فلا يُؤتَى بأحد منهم إلاّ نكَّل به وجعله عِظة ، وكان يُضرب الإنسان منهم على لحمه ، ويذكرُ له بعد مائة ضربة خُصلة من خصاله التي كان يفعلها بالناس ، من خطْف امرأة من حمام ، أو صبيٍّ من سوق ، أو قماش ، أو غير ذلك من أنواع الظلم ، ويُظهر الغضب من ذلك ، ويأمر الضّرّابين بإفراغ القوى في الضرب ، ونفاهم إلى كل جهة [1] حتى أنه نفى بعضهم إلى الحبشة ، فاشتد روع الأتراك من ذلك جدًا ، وقالوا ما سُمع قطُّ بنفي تركي إلى الحبشة ثم اخُتلف في المنفيين إلى الحبشة ، فقيل : نُفوا إليها حقيقةً .

[١٤١] وقيل إنما ذكر ذلك ؛ ليخفي أمرهم ، وأغرقوا في البحر ، فعظم الجزء من المفسدين ، وأُمر باستخلاص ما نهبوه وتعليقه في باب زُوَيْلَة [2]، ليعرفه أصحابُه ، فاستخلصوا بعضه وعلَّقوه ، وذل الجند ،

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٢٧٨) أنه في يوم الأربعاء ١٢ ذي القعدة نفى السلطان واحدًا من المماليك خارجًا عن الحد إلى طَرَطُوس ، ثم فعل ذلك مع آخرين من المماليك البطَّالين .

(٢) باب زُوَيْلة : نسبة إلى زُوَيْلَة ، قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر الصّقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي من المغرب ، وقد كان هذا الباب عندما أخذ جوهر في بناء القاهرة بابين =

وصاروا في غاية الرقة مع أحقر الناس ، واجترأت عليهم الرَّعيَّة ، فذكر أن بعضهم أراد بعدما شاع من فعل السلطان ، خطْف شيء من بعض الفلاحين ، فعاركه الفلاَّح إلى أن خلَّص دَبُّوسَه ، وضربه فرماه عن الفرس، وركب فرس ذلك الجندي، وساقه فخرج به من المدينة ، وتوجه به إلى حال سبيله ، وأتى رِفاق ذلك الجندي إليه فوجدوه صريعا فحمله بعضهم وراءه وهو على حال التّلَف ، واشتد دعاء الناس للسلطان ، وتحققوا أن ذلك الكلام الذي كان يُشاع عنه ، من الترخيص في الفساد كذب ، وأن سكوته عن المفسدين ، إنما كان لعدم تمكنه ، والله المسؤول أن يصلحه وأن يصلح به ، ويعم بصلاحه جميع الرعية آمين .

وفي هذا الحد ، ألحوا على السلطان في الشفاعة في تَمُرْبُغا ، مملوك الظاهر ، المسجون في قلعة الصُّبَيْبَة ، أن يُطلق إلى القدس كإخوته ، فرسم أن [يُطلق[1]] .

وفيه انحلَّت في طرابلس إمْرِيَّة[2] ، فرسم السلطان بها لتِمْراز الأشرفي الذي كان دويدارا ، فلما ورد عليه الأمر بذلك ، لم يُجب إليه ، بل قال : أنا لا أبغي بالقدس بدلا ، فرد إخوانه من الأشرفية الخبر ، بأنَّه يسأل في الإعفاء من السفر حتى ينقضي الشتاء ، ثم إنه سافر إليها بعد ذلك .

= متلاصقين، بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح ، فعندما دخل المعز القاهرة دخل من الباب الملاصق للمسجد ويعرف بباب القوس ، فتيامن الناس به ، وهجروا الباب المجاور له ، فرُفِض وَسُدّ ، فلما كان في سنة ٤٨٥ هـ ، بني أميرُ الجيوش بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي باب زُوَيْلَة الكبير ، الذي هو باق إلى الآن .

« صبح الأعشى » (٣/٣٤٨ـ٣٤٩) ، و « خطط المقريزي » (١/ ٣٨٠ـ٣٨١) .

(١) ما بين الحاصرتين كلمة غير واضحة الرسم في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) إمْرِيّة : يبدو أن المقصود بها وظيفة من الوظائف الهامة .

وكان قد قدم إلى هذه البلاد ، وهي بلاد مصر في آخر دولة الظاهر جَقْمَق، مغربيٌّ ، شيخ طويل، مكشوف الرَّأس، يسمَّى عيسى ، يُقال : أنه من نواحي تِلِمْسَان [1] أو الجزائر [2] وكان في بلاده حائِكا [3] ثم ترك الحياكة، وعاشـر المغنِّين وعَرف من فنونهم كثيرًا ، وانطبع في مجونهم، وزاد تهتكه ، حتى ضُربت به الأمثال في تلك البلاد ، وعاشر المشبعذين الذين يخيِّلون على عـقول الناس ، بإمـور لا حقائق لهـا ، وتعـلَّم بعــض التنجـيم والسِّحر الذي يتعاناه عجائز النِّساء ، وضرب في كل فنٍّ يرضـاه إبليـس بما يعجبـه ، وعاشر آخرًا بعض زنادقـة الـوفية ، في نواحي بِجَاية [4]، فلما تمَّم مـا يُريده منه إبليس خرج في تلك

(١) تِلِمْسان : ويُقال لها (تِنِمْسَان) ، مدينتان متجاورتان مسوَّرتان ، بينهما رَمْية حجر ، إحداهما قديمة والأخرى حديثة ، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب ، واسمها نافرزت ، فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان ، وأصناف الناس ، واسم الثانية أقادير ، يسكنها الرعيّة ، فهما كالفُسطاط والقاهرة من أرض مصر .

وتعتبر (تِلِمْسَان) قاعدة المغرب الأوسط ، وتقع في الوقت الحاضر في أقصى الشمال الغربي للجزائر ، قرب حدودها مع المغرب .

« معجم البلادان » (٢/ ٤٤) ، و « كتاب الروض المعطار » (١٣٥) ، و « أطلس هازارد » (٣٣)

(٢) الجزائر : قال عنها (ياقوت) في « معجم البلدان » (٢/ ١٣٢) « جمع جزيرة ، اسم لمدينة على ضفَّة البحر ، بين إفريقية والمغرب . . كانت من خواص بلاد بني حمَّاد بن زيري بن مناد الصنهاجي ، وتعرف بجزائر (بني مزغنَّاي ، وربما قيل لها جزيرة (بني مزغنّاي) ، والجزائر اليوم هي عاصمة الجمهورية الجزائرية .

(٣) حائك : أي ينسج الثياب .

(٤) بِجَاية : قاعدة المغرب الأوسط ، وهي مدينة عظيمة على ضفة البحر ، أول من اختطها الناصر بن عِلْناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بُلُكين في حدود سنة ٤٥٧ هـ ، بينها وبين جزيرة بني مَزْغَنَّاي (الجزائر) أربعة أيام ، وتقع بجاية اليوم في وسط شمال الجزائر على ساحل البحر المتوسط .

« معجم البـلدان » (١/ ٣٣٩) ، و « كتـاب الـروض المعطـار » (٨٠ ـ ٨٢) ، و « أطلـس هـازارد » (٣٣) .

الفتـن ، فسُجن في تِلِمْسَان ؛ على ما حكاه لي هو بأنه كان يتزيَّـا بزيِّ النساء ، ويفعل أمورًا غريبة ؛ حتى كان إذا مشى يتبعه كثيرٌ من الناس ، ثم أُطلـق ، ثم قدم إلى تونس ، فسجن أيضًا ؛ وذلك أنه [تَزَيَّا] [1] أيضًا بزيّ النساء ، فتبعه بعض العوام ، فعثر عليه يومًا القاضي ابن عُقاب [2]، فأزال ذلك الذي عنه ، ومنعه منه ، وتهدَّده إن أعاده ، فكان يذكر لبعض من اغْترَّ به أنه لابُد أن يفعل في القاضي المذكور والسلطان فاقِره ، فاتَّفق أن قصد السلطان بعض البلاد الذين يعرفون السحر فآذاهم ، فلما رجع إلى تونس صار بيته يُرْجم ، فَظُنَّ أنَّه بعض الآدميين المسَلَّطين من أعداء السلطان ، فقُتل من ظُن فيه ذلك ، ثم زاد الأمر إلى أن تحُقق أنه ليس يفعل من يُرى ، فقال عيسى : إنه هو فاعلُ ذلك ، فزاد اغترارُ من تبعـه به ، فسمع السلطان بأنه يدَّعِي ذلك فسجنه ، ثم شُفع فيه فأُطلق ، ثم عرف أنه من أولئك السحرة .

ثم لما قدم القاهرة ، انضم إليه ابن إِيْنَال بن اسْتَاد الملك الظاهر فقدَّمه واشتهر عند بعض الناس ، ثم توجه إلى مكة المشرفة ، ليحج على ما زعم ، فجاور بها ، وهناك الأمير جَانَم أخـــو الأشرف ، وجَكَم خـــال العزيز ، فاجتمع بهم وكلَّمهم في الفرج عنهم بما صادف إمَّا اتِّفاقًا ، وإمَّا لأنه يعرف (كما حدثني به الشيخ العلاّمة محقق الزمان أبو الفضل البجائي) شيئًا يعمله بعض عجائز أهل الغرب يُسمى التَّسْمِيْعة ، وهي أن يلبس الإنسان ثيابًا دَنِسَة ذات رائحة كريهة في بيت ذي رائحة كريهة ، ويمكث جُنُبًا بغير صلاة ولا ذِكْر لله ، ويذكر عَزَائم محفوظة عندهم بغير

---

(1) في الأصل ، تزاي .

(2) راجع « هامش ٢ » من « ص ٢٣٩ » من القسم الأول .

اللسان العربي ، ويستمر على ذلك أيَّامًا ، فيرى ذلك الذي يُريد على الهيئة التي يصير إليها من خير أو شر ، فلما وافق ما قاله الواقع ارتبطوا عليه ، ولما مات الظاهر ، وسُجن ابنه المنصور عثمان ، وولي الأشرف إينـال ، استقدم أكابر الأشرفية المُفرَّقين في البلاد ، فعظموا هذا الرجل تعظيمًا زائدًا ، حتى رأيته يدخل على نساء بعضهم في غيبته ، فانتشر تعظيمه عند غيرهم ، فَعَظَّمه الأمير بُرْدْبَك الدويدار ، وشرع كلما امتدَّ الزمان زاد في تعظيمه ، ويقال أنه كان يتقرب إليه بنقل أخبار من يعاشره من الرؤساء ، ويخبره بدقائق أمورهم ، وكذا كان يفعل مع كلّ واحدٍ منهـم ، ثم عظّمه ناظر الخاص ، ثم وصل أمره إلى السلطان وابنه ، ولم يبق رئيس إلا وله عنده منزلة ، وسافر مع الأمير بُرْدْبَك إلى القدس لما توجه إليها ، ثم إلى دمشق وحلب ، واشتد ارتباطه عليه واغتباطه به وكان [١٤٢] الأمير يحب المزح ، وكان المذكور كما تقدم مُقَدّماً فيه ، بل هو أعظم صنائعه ، فكان يقول للأمير : أنت بُهْلُول [١] . فكان الأمير يضحك من ذلك ، فلما علم أن ذلك لا يغيظه سمَّاه البُهْلُول ، بحيث أنه كان لا يسميه إلا البُهْلُول ، عند الكبير والصغير ، حتى عند السلـطان .

واعتكف سنة في شهر رمضان في بيت ناظر الخاص في مكان بُني له هنـاك وأمرهم يُطَيِّنوه عليه الشهر كُلّه ، فلما مضـى عليه نحـو نصـف الشهـر ، فتح عليه القاضي ؛ خيفة من أن يكون مات ، فإذا هو على هيئته ، فازداد إعجاب الناس بذلك ، ثم وقع بينه ، وبين بعض من كـان

---

(١) بُهْلُول : البهلول هو الرجل الضحَّاك ، والسيِّد الجامع لكل خير ، وفي المتعارف الأبْله والمعتوه ومن لا يميّز .

« محيط المحيط » (٥٩) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٤) .

يخدمه من المغاربة ، فذكر عنه كثيرًا من فضائحه ، وذكر أنه يتناول للصَّبر عن الأكل شحومًا وأكبادًا يعملها على هيئة أظنها مذكورة في كتاب [1] كشف الأسرار ، وهتك الأستار للجَوْبَري [2] ، غير أن ذلك لم يصل إلى الأكابر فاستمر محفوظ الجانب عندهم ، بحيث أنه كان يجلس في مراتبهم ، ويتكىء على مخادهم ومدوَّراتهم ، ويكون هو الرأس ، وصاحب البيت دونه حتى عمل به ذلك مجلس [3] البخاري ، الذي قُرِىء عند الأمير بُرْدُبَك بحضرة الفضلاء .

ولما صارت له هذه المنزلة ورأى نفسه صدر المجالس ، وماله عند الخاص والعام من المنزلة ، شرع يُطلق لسانه بما يهواه إبليس من الدَّواهي ، فشاع أنه يقول : العلماء قُساة القلوب ، والشريعة تُقَسِّي القلب ، والقرآن يُقسِّي القلب ، وحضرتي حضرة الرَّب . فإن أَنكر عليه مُنكر قال : إن الشريعة تأمر بالقصاص والحدود ، ولا يكون ذلك إلاَّ مع شدة القلب وغلظته ، وأمَّا صاحب الحقيقة فلا يأمر إلا بالعفو والصَّفح واللين ، فحضرته تُلين القلب ، ويقول : أنا أُحيي وأُميت . فإن أُنكر عليه ، قال : أحيي الليل بالقيام ، وأميت النهار بالصِّيام ، ويقول أنا قتلت فلانًا ، وأَحْيَيَت فلانًا لناسٍ يُسَمِّيهم ، منهم الشيخ أبو القاسم النويري ، قال إنه قتله لكونه كان يُنكر عليه ، ولما مات الشهاب المحليّ قاضي

---

(١) جاء في « هدية العارفين » (١/ ٥٢٤) المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار ، فرغ من تأليفه سنة ٦٦٣ هـ .

راجع أيضًا « معجم المؤلفين » (٥/ ١٦٠) .

(٢) هو : عبد الرحمن بن أبي بكر عمر الجوبري زين الدين الدمشقي الشافعي ، عالم روحاني .

« هدية العارفين » (١/ ٥٢٤) .

(٣) راجع « ص ١٨٧ » .

إسكندرية ، قال : إنه هو الذي قتله ، لقضيَّةٍ وقعت له مع ولده ، وكان يتحامى في الكلام بحضرتي في نحو ذلك ، فلما طال الزمان وأَلِفَ من الناس السُّكوت اشتدت جُرأته ، فأول ما سمعته منه من ذلك أن قال : ونحن سائرون [1] إلى طندتا في أواخر شهر ربيع الآخر من سنة ستين هذه ، وقد قصّ قصَّة الخِضْر مع موسى عليه الصلاة ، فقال : موسى ماله مقام الصبر ، فظننت إنكاري عليه ربما لا يُفيد إلا بعد تمهيد الأمر مع الأمير [2] ، فلما ذهبت كلمت الأمير في ذلك ، فقال : والله لقد ساءني ذلك ، ثم توجهنا إلى مدينة المنصورة ، فذُكر تنزيه الله عز اسمه وتعالى جدُّه فقال : الله لا يُنَزَّه . فقال له الشيخ تقي الدين القرقشندي : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : هذا تنزيه الله لنفسه بنفسه فما تقول فيه ؟ فسكت عيسى ، وكان قَلَّ أن يدع أحدًا من شرِّه . يقول للواحد : أنت كبش ، وللآخر : أنت تيس ، وللآخر : أنت دجاجة ، ونحو ذلك ، ويفسر ذلك بما يريد ، ويقول لواحدٍ : أنت جَوْزة ، ولآخر : أنت ريحانة ، ولآخر : أنت مُثَلَّث ، ولآخر : أنت مربّع ، ويفسر كل ذلك بما الموت عند ذي المروءة أحب إليه منه ، فاستذل الناس ، وملأ قلوبهم شحناءَ غير أنه ليس في أهل مصر من يُعدّ للهَيْج [3] ، ولا يذكر عند المبارزة .

فلما كان يوم الاثنين سابع عشري ذي القعدة من هذا العام ، ذمّ

---

(١) راجع « ص ١٦٤ » .

(٢) أي الأمير بُرذُبَك .

(٣) الهَيْج : الحرب .

« لسان العرب » (٣/ ٢١٨ـ ٢١٩) ، و « القاموس المحيط » (١/ ٢٢١) ، و « محيط المحيط » (٩٥٠) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٠٢) .

بحضرتي في بيت الأمير بُرْدَبَك الإمامَ شهابَ الدّين بن عرب [١] شاه الدمشقي ، وكتابه البديع الذي صنفه في سيرة [٢] تُمَرْلَنْك ، وغض من شخصٍ كان مَدَحه ، وذمّ المدح مطلقًا ثم قال : إن الناس عنده مثل القش والذباب . فعلمت أنه قرر له بذلك شريعة هي أنه يـذم ولا يمـدح ، ثم ذكر أن له سبعة عشر شيخًا ، وأن أحدهم هجر الناس ، فَلِيْم في ذلك ، فقال : لم أر لأحدٍ منهم دِينًا ؛ لأنه لم يُهْد إليَّ أحدٌ منهم يومًا عيبًا من عيوبي ، وتكلَّم بعد ذلك كلامًا ، فلما سكت ، قلت له : أنا أهدي إليك عيبًا من عيوبك ، وهو أنك تُطلق لسانك في ذم الناس الأحياء والأموات ، الحاضرين والغائبين ، وهو أمرٌ حرَّمه الله ورسوله ، فارجع عنه ، فاحْمَرَّ وجهه وآذانه وتنكرت حالته ؛ لأنه ما [ظَنَّ] [٣] أنَّ أحدًا

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي محمد بن عرب شاه بن أبي بكر ، الشهاب أبو محمد أو أبو العباس بن الشمس الدمشقي الأصل الرومي الحنفي ، ويعرف بالعجمي وبابن عرب شاه ، وهو الأكثر ، ولد ليلة الجمعة منتصف ذي القعدة ، أو ٢٥ منه سنة ٧٩١ هـ بدمشق ونشأ بها ، ثم رحل في سنة ٨٠٣ هـ إلى سمرقند ثم بلاد الخطا ، وأقام ببلاد ما وراء النهر وأخذ عن أبرز علمائها ، ثم رحل إلى الروم ، ثم قدم دمشق ، وتردد إلى القاهرة إلى أن مات في القاهرة بخانقاه سعيد السعداء يوم الاثنين ١٥ رجب سنة ٨٥٤ هـ .

له ترجمة في : « المنهل الصافي » (٢/ ١٣١ رقم ٢٨٤) ، و « الدليل الشافي » (١/ ٨٠ رقم ٢٨٢) ، و « حوادث الدهور » (٨٨) ، و « النجوم الزاهرة » (١٥/ ٥٤٩) ، و « الضوء اللامع » (٢/ ١٢٦ رقم ٣٧٩) ، و « التبر المسبوك » (٣٢٥ ـ ٣٢٦) ، و « الدارس » (٢/ ١٤٣) ، و « نظم العقيان » (٦٣) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٢٨٠ ـ ٢٨٣) .

(٢) وهو كتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ألفه عندما قدم القاهرة في سنة ٨٤٠ هـ ، وهو مطبوع .

« الضوء اللامع » (٢/ ١٢٩) ، و « كشف الظنون » (٢/ ١١٢٨) .

(٣) في الأصل (أظن) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

يُواجهه بشيء من ذلك ، فقلت للحاضرين : انظروا هيئة الشيخ الذي يحبُّ من يهدي إليه عيوبه ، فقال : أنا نقلت ذلك عن شيخي ، فقلت : فأنت تأدّبْت بآداب [١٤٣] شيخك أم لا ؟! فبُهت شيئًا ، ثم قال : نعم ، فقلت : فالكلام معك كالكلام معه . فقال : أنت ! ما أنت في مقام من يرشدني ! فقلت : أنت قُلت عن شيخك : أنه قال : أحدٌ ، فلو أنه قيَّده بقيد يخرجني ما قلت لك شيئًا ، ولكنه أطلق فشمل العال والدنيء ، فافرض أنِّي أقلّ الناس ، فأنا أحدٌ ، وقد أهديت إليك هذا العيب . فقال : أنت ! ما أنت قاضي حتى تذكر لي ذلك ! فقلت : فمدار أمرك حينئذٍ على الجاه . ولما وصل إلى هذا الحد من الانقطاع والمكابرة ، قلت : ما الذي يحملك على أن تُنزل نفسك هذه المنزلة التي ما أنت من أربابها ؟ ولِمَ لا تعمل صنعتك في بلادك (المسخرة وتان رتل تـان) ؟ ذلك أسلم لك عاقِبة ، أنت لا تعرف تغسلُ ثُقبك فبأي لسان تتكلَّم في العلماء ؟! أنت تظن أنَّ رأسك على جسدك لا ، حرِّك رأسك تعرف أنه قد فارقك من مُدَد متطاولةٍ . أشهد عليك أنا والأمير ، وتقي الدين القرقشندي أنك وقعت في موسى عليه السلام ، وأنَّك قلت أنَّ الله لا يُنزه ، ثم إنه شاع عنك أنَّك تقول كذا ، وتقول كذا ، من أنت حتى تقول ذلك ؟! أنت تريد بذلك محو الشريعة ، أنت أقـل من ذلك وأحقـر ، الشريعة تمحوك ولا تمحوها . فقال : من قال أني قلت ذلك ؟ فقلت : عليك شهودٌ يفوتون الحصر ، أنت ترى الناس ساكتين ، فتظن أنهم يرضون كلامك .

حَدثني الشريف علي الكردي الذي كان رسول السلطان إلى سلطان تونس بالهدية ، أنه لما وصل إلى تونس أنه ملّ سمعه من كثرة ما يقول له المغاربة : عيسى الغندور ، صار عندكم شيئًا ولا يعرفونك في المغرب بغير الغندور . فقال : يا جماعة الحمد لله ما قالوا أنني يهودي ، اشهدوا أني غندور ، وأبي غندور ، وجدي غندور . فقلت : وتظن أنِّي لا أعرف

معنى الغندور عند المغاربة ، الغندور النَّحْس الذي ليس له شغل ، إلا النُّحس . فقال : اشهدوا أني نحس . فقلت : إذا رضيت لنفسك أن تُوصف بالنحس ، فما الذي تركت لعرضك ؟ ثم أحسّ الجماعة أن الأمير جاي ، فقاموا لينصرفوا ، فشرع يسألهم أن لا يذكروا هذا الأمر ، وقال : لا تظنوا أنه تغيَّر ما بيني وبينه ، هذا صاحبي وحبيبي ، ثم شرع يتألَّفني فأظهرت له قبول ذلك ، ثم جاء الأمير ، فشرع يذكر لي عن السلطان ما يقتضي تعظيمي وأطال في ذلك ، فقام عيسى فذهب ، فعلمت أن الله تعالى ، قد أذِن في الانتقام منه ، فقلت للأمير : قد حدث اليوم أمرٌ لابد من إطلاعك عليه ، وهو أن عيسى وقع منه كيت وكيت إلى إن قلت : إنِّي ذكرت له عيْبَه ، ثم قلت : فتكلم بكلام يصلح ، وأنت تعرف حالي إذا كلمني أحدٌ بما لا يصلح ، وأجملت عليه الباقي ، فسكت ، ثم بلغني أنه سأل عن القصة ، فسآءه ذلك ومدحني في غيبتي كثيرًا وذم عيسى ، وقال : إن ادّعى عليه لا أنصره وما باله وبال الفقهاء ، أنا أخاف والله من الفقهاء ، فلما بلغ ذلك عيسى فتَّ في عضُده وخلع من قلبه ، ثم تناقل الناس الحكاية ، وتمادحوني ، ووضعه الله [١٤٤] بين الناس ، حتى كأنه نادى منادي من السماء أن ضعوا عيسى ، فإن الله قد وضعه ، وضربه بذلٍّ في نفسه حتى كان يُشاهده من لم يسمع الحكاية فيسأل فيُخبر ، وكان أعظم الناس رجوعًا عنه ، وتصغيرًا له ناظر الخاص ، أعرض عنه حتى كأنه لا يعرفه ، وكان شخص ممن اختص به من أصحابي ، وافتتن به لغرض دنيوي ، وهو شرف (١) الدين يحيى بن الشيخ محب الدين

(١) هو : يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن سليمان بن يوسف ، الشرف بن المحب البكري القاهري الشافعي ، المعروف بيحيى البكري ، ولد بالقاهرة ونشأ بها ، يقول عنه (السخاوي) في «الضوء اللامع » (١٠/ ٢٥٧ رقم ١٠٣٤) : « وبالجملة فلم يكن من الموسومين بالعلم ولكنه كان خبيرًا بدنياه ، يتعانى التجارة مع سكون وجمود » مات ليلة الأربعاء منتصف جمادى الآخرة سنة ٨٧٤ هـ .

البكري ، قد أخبرني قبل وقوع هذه القضية بنحو ثلاثة أيام ، أنه رأى في نحو عاشر ذي القعدة هذا ، أنه دخل إليَّ في مسجدي فإذا أنا أخنق إنسانًا ، وقد أشرف على التلف ، فلما وصل إليَّ أمرته أن يخنقه معي ، قـــال : فقلت لك : حتى أعرف ما أمره . قال : فأغلظت لي فما وسعني إلَّا موافقتك ، فشرعت أخنقه ، قال : ثم أنّك أنت شرعت تقطع أعضاءه بموسى ، فقطعتها حتى لم يبق له إلاّ رجل واحدة . قال : ثم أنّك حملته بين يديك وقد مات ، أو قال : صار في حكم الأموات ، وأردت أن تخرجه من باب سر المسجد . قال : فشق عليّ ؛ خيفة أن يراه الناس إذا أخرجته فينكروا . قال : ثم جاء شخصٌ من باب المسجد الكبير ليدخل فخفت اطّلاعه على ذلك ، فبادرت إليه وشغلته بالكلام حتى رددته ، ثم غبت عنك وجئتك في اليوم الثاني فوجدتك جالسًا في المسجد تُدَرِّس ناسًا من الطلبة في بعض العلوم ، وما عندك باعث من ذلك . قال : فقلت لك : ما الذى اتفق في تلك القضية . قال : فقلت لي : راح الذي راح ، فكان تأويل ذلك قصة هذا المنافق ، وأن رجله شرف الدين موسى الأنصاري لم يبق له منزلة عند أحدٍ سواه ، ولا يبعد أن يكون هو مُوساه الذي قُطع به ، فإنه لولا هو كان سافر من مصر ، واستراح وأراح .

فَسُعي في الإصلاح بيني وبينه ، فسألني الأمير في ذلك ، فقلت : ليس بيني وبينه دنيا تنازعنا عليها ، وما خلافي له إلاّ على الدين ، وصُلحي معه أن يعظم العلم والعلماء ، ويتقيد بالشرع ، فلا يقول كلمة تخالفه ، ولا يَجْبَه أحدًا بما يسوءه ، إنِّي لأغار عليك أن يكون في مجلسك من يؤذي الناس فيفسد عليك كل ما تصنعه في استجلاب خواطرهم ، والتقرب إليهم ، ثم سقت له بالسَّند عمَّن يعرفه ، أنه قال في مجلس بعض الأكابر : أن الأمير اشترى مني ناظر الخاص ، يعني في تلك المرضة بألف دينار فعافيته ، فإن وَفَى لي بالثمن فذاك وإلا فسيرى ما أصنع فيه ، فلما سمع الناس ذلك ، قالوا : إن صح هذا أوجب قدحًا في

عقل الأمير أو دينه ، ثم أحضره إليَّ ليصالحني ، فقلت : ذكرت له الشرط ؟ فقال : نعم ، فقلت : لا يكون مِنِّي إذًا إليه إلا الخير ، ثم لم أثق بقبوله ذلك الشرط ، فحرَّكته ببعض الكلام ، فتكلم بما لا يليق ، فقلت : اسمع هذا الافتتاح ، فقال له : ما هذا يا شيخ عيسى ؟ مالك بالفقهاء ، الفقهاء سِباع احذرهم ، هؤلاء لهم طريق ، ولكم طريق ، (يشير إلى طريق التصوف التي ادعاها عندهم) ، فقلت : لا يا أمير الطريقان واحدة ما ثم إلاّ طريق واحدة . فقال الأمير : واحدة ؟! فقلت : وتلك الطريق الواحدة لا يخرج عنها أحدٌ ، ومن خرج عنها وقع الكلام معه كائنًا من كان ، فقال : نعم .

ثم لم يزل الله وله الحمدُ يُظهر لي التأييد ، وله الخذلان ، من ذلك أنه كان يربط ضعفاء العقول ، بأنه يقدر على أذى من يريد بالحال ، ولا سيما مع ثبوت رجم بيت سلطان تونس عندما سجنه ، فقلت لبعضهم : ها أنا فعلتُ معه ما لم يظن أنّ أحدًا كان يفعله معه ، فليجتهد في ما يقدر عليه من أذاي ، قولوا له ذلك عني ، فقالوه له ، فقبض يده وقال : أما تنظرونه ؟ قالوا : لا . قال : ها هو في قبضتي ، وسترون ما أفعل . فلما مضت مدّة أخبرني العلاَّمة محقق الزمان ، الشيخ أبو الفضل أنه قال لبعضهم [١٤٥] : قل له : أنت كنت تقول : من شممتم منه رائحة الانتقاد عليَّ فأخبروني عنه ، وانظروا ماذا يحل به ، وهذا واجهك بما قد واجهك به ، وقد مضت مدَّةٌ يمكن فيها أخذ بعض القلاع ، ولم نره أصيب . فقال له ذلك ، فقال : لم أعزم فيه على شيء لأني لم أسكت له وقت كلامه لي ، فيكفيه ما خاطبته به ، فأقرَّ على نفسه بالعجز ، ولم يظهروا الانحلال عنه ، مع علمهم بمخالفتهم لكافَّة الناس ، فسبحان الهادي المضل .

ولم يزل يرميه الله بعـد ذلك بالقوارع ، ويتحاكى النـاس عنه مـا يرونه من مخالفته للشرع مع حضوره الحانات ، واجتماعه ببنات الخطاء ونحو ذلك .

ومن جملة التأييدات أن رؤيت لي منامات صالحة ، منها أن الله تعالى قال لي : أنا أحبك ، ومنها أنى جزت أجري على الصراط ، مثل الطائر من الحمام ، رؤى هذا المنام مرَّاتٍ ، ومنها من بعض أخبار عيسى أنِّي لابس درعًا تحت ثيابي ، ومنها أن معي ثلاثة سيوف ، اثنان صَلْتا [(١)] في كل يد واحدٍ والثالث في قرابهِ [(٢)] ، وأنا مُتَقَلِّده ، ومنها أني استسلمت بعض النصارى وغير ذلك ، نسأل الله الزِّيادة من فضله .

وكان الأمير بُرْدْبَك الدويدار قد عقد لابنه محمد عَلَى بنت دُولات باي المؤيـدي ، فأخذ في أهبة دخوله هذا الشهر ، وابتداء من ليلة الجمعة حادي عشريه يعمل في بيته الأسمطة والملاعيب ، ويجمع الناس فيـه ، [يومًا] [(٣)] للقراء والفقهاء ، ويومًا للأمراء ، وليلة للمسمِّعين من المنشدين ، وذوي الآلات ، وليلة لأرباب الخيال [(٤)] ، وليلة لأهل النفط ،

---

(١) صَلْتا : أي مجردًا من غمده .

« محيط المحيط » (٥١٤) .

(٢) قِرابه : القِرَاب الغمد ، أو جفن الغمد ، أو هو وعاء يكون فيه السيف بغَمده وحمّالته ، جمع قُرُب وأقربه .

« محيط المحيط » (٧٣٣) .

(٣) في الأصل (ما) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٤) أصحاب الخيال : أيّ الذين يلبِّسون ويُشَبِّهون على الناس بالسحر أو غيره .

راجع « محيط المحيط » (٣٦٤) ، و « المعجم الوسيط (١/ ٢٦٦) .

وليلة للفقراء الرِّفاعية (١) ، وليلة للسطوحيّة (٢) ، وليلة للأدهمية (٣) ، وعُمِل في ذلك من النُّفوط والملاعيب ما لم يُعْهَد مثله في هذه الأزمنة .

ومن جملة ما كان في ذلك من الغرائب ركوب مماليكه النَّعام ، ولعبهم على ظهورها بالرماح ، وأنه سأل السلطان أن (٤) ..

فحصل له بذلك من الشهامة والضخامة أمرٌ عظيم على أن ما كان يعمل في بيته زيادة على ما كان يُعمل بالقلعة ، فإنَّ جَدَّه السلطـان التزم

---

(١) هم أتباع أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رفاعة المعروف بابن الرفاعي المغربي البطائحي ، وُلد في المحرم سنة ٥٠٠ هـ ، قدم أبوه العراق وسكن البطائح - وهي عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة - في قرية يُقال لها : أم عبيـدة ، وكان رجلاً صالحًا شافعيًا ، انضم إليه خلق من الفقراء وأحسنوا الاعتقاد به وتبعوه ، وهم المعروفون بالرفاعية والأحمدية والبطائحية ، ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حيّة ، والنزول في التنانير وهي تَتَضَرَّمُ بالنار .. وقد مات الرفاعي يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ بأم عبيدة وهو في عشر السبعين .

له ترجمة في : « وفيات الأعيان » (١/ ١٧١ رقم ٧٠) ، و« كتاب الوافي بالوفيات » (٧/ ٢١٩ رقم ٣١٧٧) ، و « شذرات الذهب » (٤/ ٢٥٩ - ٢٦١) ، و « دائرة المعارف الإسلامية » (١٠/ ١٤٧ - ١٤٩).

(٢) اسم يطلق على أتباع السيد أحمد البدوي .

راجع « هامش ١ » من (ص ١٦٤) .

(٣) هم أتباع إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر أبو اسحاق العجلي ، وقيل التميمـي ، وقيل النخعي ، الخراساني البلخي ، مولده في حدود المائة ، أصله من بلخ ثم سكن الشام ، ودخل دمشق ، روى عن جماعة من التابعين ، واشتغل بالزهد عن الرواية ، أخباره مشهورة في مبدأ تزهُّده وطريقته مذكورة معلومة ، قال النسائي : إبراهيم أحد الزهاد مأمون ثقة ، وقال الدارقطني : ثقة ، مات سنة ١٦١ ، أو ١٦٢ ، أو ١٦٣ هـ .

له ترجمة في : « وفيات الأعيان » (١/ ٣١ رقم ٦) ، و « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٣٨٧ رقم ١٤٢) ، و « الوافي بالوفيات » (٥/ ٣١٨ رقم ٢٣٩٠) ، و « البداية والنهاية » (١٠/ ١٣٥ - ١٤٥) ، و«تهذ... التهذيب » (١/ ١٠٢ رقم ١٧٦) .

(٤) قرابة سطر غير واضح الرسم في الأصل ، ولم نجزم بتصحيحه .

أن يعمل العرس هو . وكان دخوله عليها وبناؤه بها ليلة الجمعة ثامن عشريه (١) .

وفي أثناء (٢) ذي الحجة ، وصل رسل جهنشاه بن قرايوسف ، فاجتمعوا بالسلطان ، ومعهم كتابٌ من صاحبهم ، يخبر فيه أنَّه استولى على أكثر بلاد أولاد تُمُرْلَنك ، ويطلب من السلطان أن يرسل له الأمير حسن بك (٣) الذكري ، نائب الصلت (٤) وعجلون (٥) وحسبان ونواحيها ، لأنه من بلاده ، وهو من بيت كبير هناك ، ولم يُجب السلطان إلى ذلك ، وكان قدوم هؤلاء الرسل من البرية إلى دمشق ، لم يدخلوا مدينة من هذه المملكة قبلها (٦) .

وفي أوائل ذي الحجة هذا عمل القاضي ناظر الخاص رئاسة حسنة ، وذلك أنه كما تقدَّم لما طال مرضه ، كثر أصحاب الأشغال المتعلقة به ، ثم لما ركب كان يخاف على نفسه النَّكْسة ، فكان لا يركب في الجمعة إلا مرتين أو ثلاثة ، فزادت كثرتهم وطالت إقامتهم ، فرأى مِن جبرهم أن

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٨) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٢٧٩) في يوم الخميس ١٩ .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٧٩) حسن بك بن سالم الدوكاري .

(٤) الصلت : ويُقال لها (السلط) ، مدينة تقع في الأردن حاليًا إلى الشمال الغربي منها على نهر وادي شعيب .

« أطلس العالم » (١٩) ، و « أطلس تاريخ الإسلام » (خريطة ١٣٢) .

(٥) عجلون : مدينة في أقصى الشمال الشرقي من الأردن حاليًا .

« أطلس العالم » (١٩) ، و « أطلس تاريخ الإسلام » (خريطة ١٣٢) .

(٦) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٧٩ ـ ٢٨٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤١) .

يفرِّق عليهم ضحايا ، فكانت رسله تختلف إلى الخانات [1] ، يسألون عنهم، ويُعطون كلاً ما يليق به ، الذي معه جماعة يعطونه شاة ، أو بقرة على حسب قَدْرِه ، والذي هو بمفرده يعطونه ثمن شاة ؛ فحصل بهذا من الدعاء والثناء أمرٌ عظيم ، نسأل الله توفيقه وحُسن عاقبته .

وفي أيام عيد الأضحى هذا وصل الشيخ عبد الرحمن بن داود الحلبي الحنفي ، الذي كان [2] جرى بينه وبين نائب حلب جَانَم تلك الكوائن ، وأرسل يطلب الإذن له في الحضور إلى القاهرة ، ليستريح من شرٍّ إن فعله أهل حلب ، نُسب إليه ، فأُذن له فلما قدم أنزلته عندي ، فأتاه الأمير بُرْدْبَك دويدار السلطان الثاني وصهره فسلِّم عليه ، وأحسن تلقِّيه ، ثم أخبر به السلطان ، وأخذه فسلَّم عليه ، فأحسن تلقِّيه ورتب له في الجوالي بحلب في كل يوم عشرة دراهم ، ووصله الأمير بُرْدْبَك بنحو خمسين ألف درهم مصرية تقارب مائة وخمسين دينارًا .

وفي يوم الاثنين ثالث عشري ذي الحجة هذا ، نزل السلطان الملك الأشرف إينال إلى المطعم [3] من ناحية التُّرَب ، ثم رجع من باب

---

(١) الخانات : جمع خان وهو هنا ، الحانوت أو صاحبه ، أو الفندق ، أو المتجر ، وخان التجار منزلهم للتجارة ، وخان المسافرين محل نزولهم ، وكل ذلك فارسي الأصل ومعناه (بيت) .

« القاموس المحيط » (٤/ ٢٢٢) ، و « محيط المحيط » (٢٦١) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٢٦٣) .

(٢) راجع « ص ١٦١ » .

(٣) وهو مطعم الطير بقبة النصر خارج القاهرة ، ونزل على المسطبة ، وأُطعمت طيور الصيد بحضرته على العادة ، ومدّ السماط وأكل الناس .

« حوادث الدهور » (٢٨٠) .

النصر [١] ، ودخل إلى عمارته التي عند جامع الأقْمُر ، ثم رجع إلى القلعة من بين القصرين ، ومدح الناس موكبه ، وقالوا : أنه لم يتقدم له موكب مثله .

سنة إحدى وستين

وفي هذا اليوم وصل بشير الحاجّ [٢] ، وأخبر عنهم بالرّخاء وحسن الحال .

وفي يوم الأحد [٣] سابع مُحرَّم سنة إحدى وستين ، برزت المناداة عن السلطان ، أن الدِّينار الأشرفي [٤] باثنى عشر درهمًا فضة وزنًا ، يكون عن ذلك ثلاثمائة [٥] درهم فلوسًا [٦] ، وأنَّ الدراهم على حالها ، الدرهم بأربعة وعشرين درهمًا فلوسًا ، وذلك أنّ الناس كانوا ضجُّوا من كثرة الزَّيف في الدراهم ؛ لكثرة النحاس فيها ، فضرب السلطان دراهم أحسن عيارها ، وعزم أن يُرَخص التي شكا الناس منها ، فشقَّ ذلك على من معه دراهم ؛ لما يلزم من ذلك من خسارته فيما معه ، فتوقف الناس في قبض الدراهم ، فوقف حالهم ؛ فشكا سكّان القَيْسَارِيَّة التي بُنيت له من ذلك .

---

(١) في « حوادث الدهور » (٢٨٠) وعاد في موكب هائل من باب النصر ثم من باب زويلة .

(٢) وهو الحاج جانِبَك الأبلق .

« حوادث الدهور » (٢٨٠) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٩١) في يوم الخميس رابع المحرم ، وفي « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٩) في يوم السبت سادس المحرم .

(٤) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٩) الذي هو وزن درهم وقيراطين .

(٥) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٩) ثلاثمائة درهم نقرة .

(٦) في « حوادث الدهور » (٢٩١) بعد أن كان انتهى إلى ثلاثمائة وخمسة وسبعين ، وفي « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٩) وكان بلغ صرفه قبل ذلك ثلاثمائة وسبعين نقرة ، وكذلك في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٢) .

وفي يوم الاثنين (١) ثامنه ، عَزَل (٢) السلطان خَيرِ بَك الوالي ، من شرطة القاهرة وولَّى ذلك لعلي بن الفَيْسي الذي كان نقيب الجيش ، وأعاد ناصر الدين ابن أبي الفرج إلى نقابة الجيش جعل الله عاقبة ذلك خيرًا .

وفي يوم عاشوراء وهو يوم الأربعاء ، مات الإمام العلاَّمة تقي الدين (٣) بن قندس البَعْلَبَكِّي الحنبلي نزيل صالحيَّة دمشق عن نحو خمسين سنة ، وكان إمامًا عالمًا مُفننًا زاهِدًا مُتَقَلِّلاً من الدُّنيا ، يرتزق من صنعة الحياكة وكان فصيحًا متألِّفًا لجماعة الحنابلة وكانوا أحبَّ شيء فيه وأغبطه به ، وكان قد ورد إلى القاهرة في حدود سنة خمس وأربعين ، فاغتبط به قاضي الحنابلة البدر بن البغدادي ، ثم أغرى به من أهانه في مجلسه كعادته في فضلاء أهل مذهبه ، وكان موته بصالحية دمشق ولم يترك في المملكة المصرية حنبليًا مثله في مجموع ما كان فيه .

وفي يوم السبت ثالث عشره ، أضاف السلطان رُسل جهنشاه ومَدَّ لهم في القلعة المصرية مدَّة عظيمة .

وفي هذا اليوم أو ليلته مات الأمير شِرباش (٤) خاشوق ، الذي كان

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٩) في يوم السبت ٦ محرم .

(٢) بعد أن ضربه وسجنه بالبرج على حمل عشرة آلاف دينار ، ودام في البرج إلى أن أُطلق في يوم عاشر المحرم .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٩٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٢) .

(٣) هو : أبو بكر بن إبراهيم بن يوسف التقي البعلي ثم الصالحي الدمشقي الحنبلي ، المعروف بابن قُندُس ، ولد ببعلبك سنة ٨٠٩ هـ تقريبًا ، ونشأ بها ، وتعانى الحياكة كأبيه ، قدم إلى دمشق واستوطنها وأخذ عن علمائها ، ثم قدم مصر فعظّمه الأكابر

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١١/ ١٣ رقم ٣٧) .

(٤) راجع « هامش ١ » من (ص ٤٠٣) من القسم الأول .

الظَّاهر جَقْمَق متزوجًا بنته ، وكان هذا أمير سِلاحه ، ودُفن في هذا اليوم ، وصُلِّي عليه في باب النصر ، وحضر جنازته ابن السلطان والأمراء والمباشرون والكبراء .

[١٤٦] وفي يوم الاثنين خامس عشر محرَّم المذكور وصل رأس الأمير ، الذي كان ابن قرمان أمَّرَه على طرطوس ، قتله ابنُ رمضان التركماني ، وطيف به في القاهرة (١) .

وفي يوم الأحد حادى [عشري (٢)] محرم المذكور ، وصل الرَّكبُ الأوّل من الحجاج إلى البركة ، وأميرهم عبد العزيز بن محمد الصُّغَيِّر .

وفي يوم الاثنين ثاني عشريه ، وصل المحمل ، ثم دخل إلى القاهرة يوم الثلاثاء ثالث عشريه (٣)، وشاع أنَّ الحجاج كانوا في رخاءٍ ، وأنهم رجعوا في مطرٍ عظيم .

وفي يوم السبت سابع عشريه ، أراد بعضُ الأجلاب أذى المباشرين على مالهم من النفقة ، فَرُدُّوا من دون القلعة ، ومُنع الأجلاب من الخروج إليهم ، وسألوا التأخّر بنفقتهم إلى أواخر الشهر الثاني ، فأنفق السلطان على من لم تصل إليه نفقته من عنده .

وفي يوم السبت هذا ضرب قاضي القضاة ، شيخُ الإسلام السَّعْدُ الدَّيْري الحنفيُّ أحمدَ المغربل المشهور بالمدني ضربًا شديدًا ، وطوَّفه في القاهــرة يــُنادى عليــه ؛ هــذا جــزاء مــن يريد أن يدخل في النسب

---

(١) الخبر مفصلاً في « حوادث الدهور » (٢٩٢) ، كما ورد الخبر أيضًا في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٧) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٢) .

(٢) في الأصل (عشر) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٩٢) .

الشريف النبوي بغير حق ؛ وسبب ذلك ، أنَّ المذكور أراد أن يُثبت أنَّه شريف ، وكذا غيره من الفَجَرة بواسطته ، وذلك أنَّه اتفق مع بعض شهود الزور ، وادعى أنَّه من قرية الجعفرية [1] ، وأن أهلها من أولاد جعفر [2] الصادق ، فما كفاه كِذبه لنفسه ، حتى أراد أن يُثبت الشرف لجميع أهل القرية ، ولم نزل نسمع أنّ المذكور من أولاد نصارى بعض قرى دِمْيَاط ، وأنه كان يحترف بالغَرْبلة [3] في بولاق .

وفي يوم الثلاثاء سلخ محرَّم هذا ، هرب الوزير علي بن الأَهْنَاسي ، وأبوه، فأصبح الأجلاب يوم الأربعاء مستهل صفر بغير لحم ، فلما كان يوم [4] الخميس ثانية صبر الأجلابُ حتى طلع المباشرون من التُّرك وغيرهم إلى الخِدْمة ، فمنعوهم من النزول ، ومنعوا أحدًا بعدهم أن يطلع إلى القلعة حتى يعلموا مصلحتهم ، ورجموا من خالفهم بالحجارة ، واستمروا كذلك إلى الليل ، وخرج السلطان في أثناء النهار مع بعض الأمراء يُشيّعه ؛ لئلا يعترض له الأجلاب ، فوصل إلى باب القلعة ، وهرب

---

(١) الجعفرية : قرية هي رأس قسم من مديرية الغربية على الشاطىء الغربي لبحر شبين وفي جنوب ، ناحية سحيم بنحو ألف متر ، وشرقي ناحية نطاي (طيه) بنحو مائتين وخمسين مترًا .

« الخطط التوفيقية » (١٠/ ٦٦) .

(٢) هو : أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم ، كانت ولادته في سنة ٨٠ هـ وقيل يوم الثلاثاء ٨ رمضان سنة ٨٣ هـ ، وهو أحد الأئمة الاثنى عشرية على مذهب الإمامية ، وكان من سادات أهل البيت ، ولقّب بالصادق ؛ لصدقه في مقالته ، وتوفي في شوال سنة ١٤٨ هـ بالمدينة .

له ترجمة في « وفيات الأعيان » (١/ ٣٢٧ رقم ١٣١) ، و « تهذيب التهذيب » (٢/ ١٠٣ رقم ١٥٦) .

(٣) الغَرْبلة : غربل فلان الحَبَّ نَقَّاه بالغِرْبَال من الشوائب ، والمغربل من صناعته الغربلة .

« محيط المحيط » (٦٥٥) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٦٤٨) .

(٤) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٠٠) في يوم الخميس ثالث صفر .

من كان في تلك النَّاحية من الأجلاب ، فلما رجع السلطان ، ظفر بناس منهم فقبض عليهم، وتكلم بما يقتضي الأمر بقتلهم ، فرجمه أهل الطبقة (١) التي على باب الجامع الغربي ، ومن كان منهم فوق سطح الجامع ، وكرَّ بعض من كان أسفل فخلَّصوا رفاقهم وأُصيب بعض من كان مع السلطان ، ووضع بعضهم التِّرْس على رأسه هو ، فلم يخلص إلاَّ بالجهد ، ومَرَّ المحتسب على الأجلاب ، فضربوه ضربًا كثيرًا ، ومزَّقُوا عمامته فلم يُبقوا منها مِصْحًا ، وضربوا محمد بن بنت السلطان من بُرِدْبَك .

وَسُئلُوا عن مرادهم، فقالوا : نريد أن يكون بُرِدْبَك استداراً، وناظر الخاص وزيرًا ، فإنهما قد احتاطا على الدُّنيا ، فعُلم أن ذلك بتعليم بعض حسدتهما.

ولما طلع الأمراء إلى صلاة الجمعة ، ورجعوا من الصلاة لينزلوا من باب السر منعهم الأجلاب ، فكلمهم خُشْ قَدَم أمير سلاح ، فأجاد في كلامهم ، عنَّفهم وخوَّفهم عواقب ما هم فيه ، ثم سألوهم عن مرادهم ، فذكروا أمورًا في الجامكية الشهرية ، والضحيَّة والكسوة ، فلم يجبهم السلطان إلا في الضحية ، فكان لكلِّ منهم رأسان فزاده رأسًا ، والكسوة كان لكل ألفان في كل سنة ، فزاد لكل ألفًا ، فرضوا وانصرف الأمراء ، وسكتوا عن أمر ناظر الخاص ، وبُرِدْبَك ، فإنهم خافوا من الرَّجم كثيرًا ، ولم يُعهد مثل ما فعلوه قط ، نسأل الله صلاح الحال .

وفي يوم الأحد خامس الشهر ، عملت مصلحة الوزير بغنم أُعطيه ، قيل أنها ألفا رأس ، فحضر وأُلبس خِلعة ، ونزل إلى بيته ، واستمرَّ ناظر الخاص منقطعًا في بيته إلى يوم الاثنين ، فطلع إلى الخدمة واستمر بُرِدْبَك في بيته ، لا يجتمع بأحدٍ من الترك ولا غيرهم إلى يوم الجمعة [سابع] (٢)

---

(١) عن الطِّباق راجع « هامش ٤ » من (ص ٣٦٥) من القسم الأول .

(٢) غير واضحة في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

عشر الشهر ، [فبلغه] (1) أنّ ابن السلطان يريد أن ينزل إليه ، فخشى أن يقال أنه إنما انقطع من باب الدَّلال ، لينزل إليه ابن استاذه ، فطلع إلى السلطان بعد المغرب ماشِيًا ، فاجتمع به ، وقام في طبقته ، ولما أصبح أتى إلى ولده ومشى في خدمته إلى عند السلطان ، فألبسه خِلعة كان أمر ناظر الخاص أن يعملها للسلطان ، فقال الناس إنهم لم يروا مثلها ونـــزل مكرَّمًا (2) .

وفي يوم الاثنين هذا وهو سادس صفر المذكور مات الشيخ محمد الكُوَيِّس (مُصَغَّرًا مثقلاً) بالخانكة [147] عن نحو سبعين سنة ، وكان هذا الرجل على طريقة الذين يُسميهم أهلُ مصر مجاذيب ، يخبط في كلامه وأفعاله في أكثر أوقاته ، وهو يحفظ القرآن ، فيقرأ في جامع الأشرف الذي بالخانكة على طريق أهل مصر مع القُرَّاء المرَبِّين هناك ، ويُصلي فيه إماما بغير وضوء ، ويصلي وراءه الناس ، من يعلم حاله ، ومن لا يعلمه ، حتى أهل العلم ، والكل مُطْبقون على أنه وَلِيٌّ يقصده الأكابر منهم من القاهرة للزيارة ، وليس له دليل في حسن الظن به إلا أمور يخبر بها في قليل من الأوقات ، قبل كونها ، فتصادف ما يمكن حمل كلامه عليه .

ومات في هذا اليوم القاضي جمال الدين عبد الله (3) بن الرومي ، أحـدُ

---

(1) غير واضحة في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(2) الخبر مفصلاً في « النجوم الزاهرة » (16/ 99 ـ 102) ، كما ورد في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (2/ 57) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (42 ـ 43) .

(3) هو : عبد الله بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن داود ، الجمال أبو محمد بن الشمس القاهري الحسيني الحنفي المعروف بابن الرومي ، وُلد قبيل التسعين وسبعمائة بالقاهرة ، ونشأ بها ، واشتغل بالفقه والعربية والفرائض وغيرها ، ناب في القضاء ثم أعرض عنه .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (5/ 44 رقم 165) .

نوَّاب الحنفية بالقاهرة ، وكان فاضلاً غير أنه كان منسوبًا إلى التساهل في القضاء ، عفى الله عنه .

موت أبي السعادات ابن ظهيرة

وبلغنا أنَّ الشيخ الإمام العلاَّمة أبا السَّعادات [1] محمد بن أبي البركات محمد بن ظهيرة المخزومي الشافعي ، قاضي مكة ، وعالم الحجاز في زمانه ، مات بها ، في يوم الخميس تاسع صفر هذا ، وكان فقيهًا نحويًا أصوليًا مُحدِّثًا ، ضرب في غالب الفنون بنصيب وافر ، غير أنه كان إذا بُحِثَ معه فأُلجِيء إلى شيء ، تخلّص [بمجازفة] [2] في النَّقل ، وولي قضاء مكة قديمًا ، وكان سيء السيرة [3] جدًا ، حتى نُفي على ذلك ، وكان يتكلم فيه أيضًا في غير أمر القضاء ، إلاّ أنَّا لم نسمع عنه شيئًا من ذلك قبل موته بمدة ، فلعله تاب رحمه الله وعفى عنه ، وتكلم [4] في القضاء لابنه [5] محب الدين عند بلوغ الخبر إلى مصر في آخر شهر ربيع الأوّل من السنة .

---

(١) هو : محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن علي بن أحمد بن عطية بن ظهيرة ، الجلال أبو السعادات ، المكي المخزومي الشافعي ، ولد في سلخ ربيع الأول سنة ٧٩٥ هـ بمكة ونشأ بها ، وقرأ القرآن وأخذ عن عدد من علمائها ، وتولى عدَّة وظائف في مكة سواء بالنيابة أو استقلالاً .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (٢/ ٧٠٢ رقم ٢٣٩٨) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٨٦) ، و« الضوء اللامع » (٩/ ٢١٤ رقم ٥٢٧) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٣ ـ ٤٤) .

(٢) مطموسة الرسم في الأصل ، والتصحيح حسب مفهوم السياق .

(٣) ذكر (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٩/ ٢١٥) ، أن البقاعي لقيه في المدينة ولم يتمكن ابن ظهيرة حينئذ من برّه ، فما سلم من أذاه .

(٤) أشار (ابن تغري بردي) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٨٦) أنه تولى القضاء في مكة بعد وفاة أبيه .

(٥) جاء في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٨٦) أنه محب الدين محمد كان مولده في سلخ ربيع الأول سنة ٧٩٥ هـ بمكة ، ونشأ بها وتفقه بعلماء عصره إلى أن برع في عدة علوم ، وشارك في عدة فنون ، ونُعت بعالم الحجاز ، وتولى قضاء مكة غير مرة .

وفي يوم السبت حادي عشر صفرٍ هذا وهو سنة ٨٦١ ، أَلبس السلطان مملوكه بُرْدُبَك الدويدار كامِليَّةً عظيمة ، كان أمر ناظر الخاص أن يُفصلها لنفسه حِرصًا منه على أن يتباهى فيها ، ونزل إلى بيته على عادتة وفقه الله .

وفي هذا اليوم ، وردت الأخبار من حلب ، بأن ابن قرمان مشى على هذه البلاد ، فاستعاد طرسوس ، وأخذ اياس والمصِّيْصَة [١] ، وكثير من بلاد سِيْس ، ونزل أذَنَه [٢] ، وأن نائب حلب تجهز إلى أنطاكية ، وأرسل من يحفظ درب الملك ، وهو مكان ضيق جدًا لا مجال فيه للخيل ، فاهتم السلطان في عرض الجند واختيارهم ، للإرسال إليه .

وفي ليلة هذا اليوم رأت جارتي حُلْوة جرادًا كثيرًا ، أقبل إلى مكانٍ خَضِرٍ ، فأفسد قليلاً ، ثم انقضَّت عليه الحدأُ فاختطفته ، فأوَّلته بأن عسكر هذه البلاد يهزمون جنده ، ويقتلون كثيرًا منهم ، والله أعلم .

وفي أواخر العشر الأوسط من صفر ، أرسل السلطان إلى نائب حلــب ، ألاَّ يرجع إلى حلب ، إلى أن ترد عليه المراسيم بما يفعل .

وفي أوائل هذا الشهر ، وقع بين الشرف الأنصاري ، وخَوَنْد بنـت طَطَر ، زوجة الأشرف بَرْسْباي كائنة عظيمة ؛ وذلك أنه كان مشتهرًا معها

---

(١) المَصِّيصَة : مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام ، بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس ، وكانت من مشهور ثغور الإسلام ، قد رابط بها الصالحون قديمًا ، كما كان يُعمل بها الفِراء يُحمل إلى الآفاق .

« معجم البلدان » (٥/ ١٤٤ ـ ١٤٥) .

(٢) أَذَنَة : بلد بالشام ، بينها وبين المصيصة اثنا عشر ميلاً ، بناها هارون الرشيد ، وأتمها الأمين ، وبها كانت منازل ولاة الثغور لسعتها ، وهي على نهر جيحان ، أهلها أخلاط من موالي الخلفاء وغيرهــم ، ومنها إلى طرسوس اثنا عشر ميلاً ، وهي مدينة جليلة عامرة ذات أسواق وصناعات وصادر ووارد .

« معجم البلدان » (١/ ١٣٢) ، و « الروض المعطار » (٢٠) .

بفساد ، وكأنها كانت تميل إليه أكثر من ميله إليها ، فمكنته من أرزاقٍ كانت بيدها ، عقارات وغيرها كثيرة جدًا ، ثم إنه شهر بمثل ذلك مع بنتَ شرباش ، زوجة الظاهر جَقْمَق ، وكأنه مال إليها ، وصار يتصَنَّع لبنت طَطَر ، فصبرت على ذلك إلى هذه الأيام ، فقيل أنها سمعت أنه يريد أن يتزوج بنت شرباش سرًا ، فطلعت إلى خوند ، وقالت لها : أرسلني الأنصاري أسألك أن تُكلمي له السلطان في أن يزوِّجه بنت شرباش ، ويخدم السلطان بعشرين ألف دينار ، ويخدمك بعشرة ، وولدك بخمسة ، وصهرك بُرْدُبَك بخمسة ، فكلَّمه ابن السلطان في ذلك ، فظهر منه الميل إليه ، فأعْلَم السلطان فتغير من ذلك ، ووقع الأنصاري فيما لم يكن له في حساب ، وبَذَل في ذلك مالاً كثيرًا ، وسأل أن يُصالح بينه وبين بنت ططر ، فأمر السلطان كاتب السر فدخل بينهم ، وذهب إلى بيتها ومعه الأنصاري ، وبعض القضاة ، فرد عليها ما كان أخذ منها وأرضاها ، فسكنت عنه النائرة (١) قليلاً ، وصار السلطان يقول : أما في الأشرفية والظاهرية من له غيرة ، يضرب عنق هذا ؟! ولسانُ العقل يقول له : اعتدّ لمثلها في عيالك إن عاش بعد موتك ، فإنه قد صار وقفًا على نساء الملوك قَبَّحهم الله من نساء في صُوَرِ الرِّجال .

وفي هذا الحد ، ورَد من الشيخ شمس الدين البلاطُنسي كتابٌ عظيمٌ على الأمير بُرْدُبَك ، هذا نصُّه ، بعد البسملة : « السَّيفي بُرْدُبَك ، العبد محمد البلاطُنُسي الشافعي يبتهل إلى الله تعالى بأن ينعم على الأمير بسعادة الآخرة ولا يجعل حظّه الدُّنيا ، فإنها زائلة ، تزول لذاتها ، وتبقى تبعاتُها يشاهدُ الخارج منها [أَهوالاً (٢)] لا يظن السلامة من شدتها ، وكثرة

---

(١) النائرة : العداوة والشحناء .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٩٦٢) .
(٢) في الأصل أهولاً .

الهالكين بها ، فحينئذ يطلبُ كلُّ أحدٍ السلامة ، بزيادة حسنة تُرجح مِيزَانَه ، فيتعلق إذا كان مظلومًا بظالِمِه ، حتى يُطالب في الآخرة من رآه على منكر فلم ينهه عنه : إنَّك رأيتني على منكر ولم تنهني . وذلك يومٌ مشهود ، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين ، يوم تشهد الألسنة ، والأيدي ، والأرجل بالأعمال ، فالسَّعيد من تنبه لهذا اليوم ، واتخذ عند الرحمن عهدا ، وقدَّم لنفسه أعمالاً صالحة ، من صومٍ ، وصلاةٍ ، وذكرٍ ، وحجٍّ ، وعُمرةٍ ، ونُصْرةِ مظلوم ، وإعانة ضعيف ، ونَهْيٍ عن مُنكر ، وأمرٍ بمعروف ، إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة .

وقد اتصل بالمسامع الكريمة والشريفة ما البلاد فيه من غلاء الأسعار ، وضيق الحال ، وحاجة المساكين ؛ وذلك بسبب كثرة الظلم ، وقيام المنكر وعدم إنكاره ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** (١) ﴾ وإنكار الظلم والمنكر واجب على من له قدرة عليه ؛ ليدفع الله بذلك الفساد ، وينشر رحمته على العباد ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ** (٢) ﴾ ، ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم** (٣) ﴾ . فالمخدوم لا ينسى حظه من ذلك ، ويقوم بما يقدر عليه ويوصِل إلى السلطان أيَّده الله ما يسمعه ويتيقن أن الدَّاعي إلى الخير منصور ، وأنَّ العاصي مكسور ، وكلمة السلطان في الدنيا نافِذة ، فلو أمر أمرًا نُفِّذ أمره وترك العاصي معصيته ، والظالِم ظلمه ، وكان في ذلك الثواب الجزيل وحفظه في أولاده من بعده ومكَّن له ، قال الله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ أَمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**

---

(١) الأعراف / ١٣٠ .

(٢) البقرة / ٢٥١ .

(٣) محمد / ٧ .

كَمَا ٱسْتَخلفَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ ، وَلَيُمكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ٱرتَضىٰ لَهُمْ وَلَيبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا [1] ﴾ والله لا يخلف الميعاد ، فليبشر عامِل الخير بهذه الأمور العظيمة ، والنعم الجسيمة ، والخير الكثير ، والنعمة في الدنيا والآخرة .

ومُلخص الأمر أنه قد خربت البلاد ، وتضرر العباد ، واستطال على المسلمين من لا يُفكر في العاقبة [١٤٨] ولا يعرف الآخرة ، فتسلط على المسلمين في الشام اسْتَدَّارٌ هو وأبوه من النُصَيْرِيّة [2] ، الذي لا يعتقدون البعث، وينكرون الآخرة، وإذا ذكر لهم المسلم أمر الآخرة قالوا: من جاء وأخبر بما تقولون؟ومن قولهم لعنهم الله : أرض تبلع وأرحام تدفع [3]، وتسلط عليهم سوقي كان خانّيًا مرة ، وحمَّامِيًّا أخرى ، ودلالاً أخرى ، وأُخذ من الدلالة ، فحكم في الناس ، فلا يفكر في العاقبة ولا ينظر إلى الآخرة ، فأســاء السِّيرة ولم يحفظـوا حق المسلمين ، ولم يعرفوا حقوق الدِّيـن .

---

(١) النور / ٥٥ .

(٢) النُّصَيْرية : من غلاة الشيعة ، أتباع نُصَير غُلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنــه ، يقولون بألوهِيَّة علي ، وأن السحاب مسكنه ، والرعد صوته ، والبرق ضحكه ، وسلمان الفارسي رسوله ، ويحبّون ابن مُلْجَم ؛ لأنه خلَّص اللاهوت من النَّاسوت ، يقولون بالإباحية ، ويعظمون النور كالمجوس .

راجع « الملل والنحل » (١/ ١٨٨ ـ ١٨٩) ، و «منهاج السنة » (١/ ١٠ ، ٢/ ٥١١ ، ٥١٢) ، و « التعريف » (١٩٧ ـ ١٩٨) ، و « صبح الأعشى » (١٣/ ٣٤٩) .

(٣) هذه المعتقدات أكثر بروزًا عند (الدُّرْزِيّة) أتباع أبي محمد الدُّرزي ، القائلون بألوهية الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٧ ـ ٤١١) ، وأنه يغيب ويظهر بمشيئته .

راجع « صبح الأعشى » (١٣/ ٢٤٨) .

والسلطان نصره الله ، شوكته قوية ، وعصابته منصورة ، وأمرُه مُطاع ، فإذا أمر بعزل الاثنين عن المسلمين وطلبهما ، درت البركاتُ ، وخاف الظالمون ، وحصل الخير له في نفسه وأولاده من بعده ، والمسؤول من صدقات المخدوم عرض هذا الأمر على المقام الشريف ، لعلّ هذا الظلم ينمحي عن المسلمين ، ويُنشر العدل على الناس أجمعين ، وأسأل الله أن يجري على يديكم الخيرات آمين » .

فقُرىء على السلطان ، فقال : إنّ ذلك شديد المشقَّة عليه ، وكذا أمثاله ، ولكن له عذر في السكوت ، وهو كثرة المفسدين المحوجة إلى استجلاب قلوب الجند ، لا سيما أكابرهم ، فلا قوة إلا بالله .

وفي يوم الجمعة رابع عشري صفر هذا ، مات عبد اللطيف [(١)] العثماني الطّواشي الأبيض عن أكثر من ثمانين سنة فيما أظن ، وكان رجلاً ديِّنًا ، خَيِّرًا ، عاقلاً ، وله معروف كثير ، منه البرج الذي على فم البحر الملح في دمياط على شاطىء النيل الغربي ، ورتب به سلاحًا وجندًا ، وجعل لهم رزقًا رحمه الله .

وكان في ليلة الخميس تاسع صفر هذا قد أُطّلع على أبي بكر بن [(٢)] علي الفاوي الجوهري بفاحشة مع صبي في الزقاق الذي أنا ساكن به ، وكان المذكور مشهورًا بالفساد ، فأعلمني النجم عمر بن [(٣)] الشهاب

---

(١) راجع « هامش ١ » من (ص ١٢٧) من القسم الأول .

(٢) هو : أبو بكر بن علي بن التقي أبي بكر القاهري الجوهري ، المعروف بابن الفاوي ، أتلف ما خلّفه له أبوه وأقام بمكة دهرًا ، وزار المدينة وأقام بها شهرًا ، وكان يتردد على القاهرة بين فترة وأخرى ، وأخذ عن عددٍ من علمائها ، مات بمكة في ذي الحجة سنة ٩٠١ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١١/ ٥١ رقم ١٣٦) .

(٣) هو : عمر بن أحمد بن عمر بن يوسف بن علي ، النجم بن الشهاب بن الزين =

أحمد بن زين الدين الحلبي الشافعي ، مُوَقِّع الأمير بُرْدَبَك الدويدار وقبض على الصبي فأقر بأنَّه أخذه للفساد ، فأحضر من أعوان الوالي جماعة فهرب أبو بكر ، ونزل أبوه من بيته وجلس على بعض الدَّكاكين المواجهة لمدرسة جمال الدين ، وشرع يخوض في عرضي ، وكنت أنا والنجم في مسجدي فلم نسمع كلامه ، ثم أُعلمت بذلك ، فسألت بعض من حضره ، فشهدوا عليه بما سمعوه من كلامه ، فإذا بعضه استخفاف بي يلزم منه الكفر ، وبعضه استخفافٌ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوجب ضرب العنق عند المالكية ، والتعزير الشديد عند غيرهم ، وبعضه استخفاف بنفس الدين ، فاسْتُفْتي الحنفية فيما وقع به فيّ ، فأفتوا بالتعزير الشديد ، من الضرب والإشهار ، والسجن ، ليرتدع أمثاله عن التكلم في أهل العلم ؛ لتعلوا كلمة الله باحترام حملة الدين وعلماء المسلمين ، فَطُلب إلى قاضي الحنفية بالدِّيار المصرية سعد الدين سعد بن الدَّيْري الحنفي ، وكان خيرة القضاة إذ ذاك وأشيخهم وأعلمهم ، فادُّعي عليه بذلك بين يديه ، في منزله ، في المدرسة المؤيديه بباب زُويلة ، وأُقيمت البيّنة ، فأرسل المذكور إلى عزيز مصر ناظر الخاص الجمال يوسف بن كاتب جَكَم ، فاسغاث به ، فأرسل نحو عشرين من أعوانه واحدًا بعد واحد ، ما بين طُواشي ، ودويدار ، وبُرْدَدَار ، وغير ذلك ، يطلب من القاضي إرسالنا إليه ، فقال القاضي : حصلت الدعوى ، وأُقيمت البينة ، وصار الحقُّ للمدَّعي ، لا يسعني أن أسلمه ، ولا آمره ، فإن أرضيتموه توجَّه معكم غير مشقوق عليه ، فشرعوا في التلطف بي وفي أمر علي

= الحلبي الشافعي الموقِّع ، نزيل القاهرة ، المعروف بنجم الدين الحلبي الموقِّع ، وُلد سنة بضع وعشرين وثمانمائة بحلب ونشأ بها ، وقدم القاهرة وسمع بها ، وكتب التوقيع بباب الدوادار الثاني بُرْدبَك الأشرفي وغيره ، مات بحلب في ربيع الأول سنة ٨٨٠ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦ / ٧٠ رقم ٢٣٨) .

الفاوي بتقبيل يديَّ ورأسي ، ففعل ذلك غير مرة ، وطالت شفاعتهم فيـه ، فقلت : أمَا وهو ساكنٌ عندنا ، فلا ، فَأمَره جميعُ من حضر بالنقلة فامتثل وأُمهل خمسة عشر يومًا ، ثم ذهبنا إلى بيت ناظر الخاص ، فلما كنت بباب المدرسة قال الفاوي لمن أوصل إلى قاضي القضاة : أنه إن ذهب قبل بتّ الصُّلح بيني وبينه إلى ناظر الخاص ، لا يكفيه منه أقلّ من ألف دينار ، فسألت في الرجوع إلى قاضي القضاة ، فرجعت ، واجتهدوا في أن انحلّ عما قمنا عليه ، فلم أفعل ، ثم ذهبنا إلى ناظر الخاص ، فأعلمناه بالأمر ، فلامه على ما وقع منه ، وأعان الله بأن اعترف عنده ببعض شتمه لي ، واستحسن نقلته وأكّدها ، فباتوا ينقلون أمتعتهم تلك الليلة والتي تليها ، ثم شاع في اليوم الثالث أنهم رشوا ناظر الخاص بألف دينار ، ثم جاءت رسالةٌ من السلطان إليّ مع علي [مِهْتار] (١) الطَّشْدَارِيَّة (٢) يأمرني بالكفّ عن الفاوي ، أو النقلة من تلك الحارَة ، فأعلمت الأمير بُرْدبك بذلك ، فأشار بطلوعي إلى السلطان ، فطلعت إليه ظانًا أن الرسول كاذب ، فلما اجتمعت بالسلطان علمت أن الرسول صادق ، وصار يحاولني على نقلتي ، فدار بيني وبينه كلامٌ طويلٌ في ذلـك ، وفتحت له [١٤٩] ذلك من وجوه ، منها قِدَم صحبتي ، وتحدُّث الناس بأنه مال على صاحبه القديم ، ومنها بأنه أخرج عالمًا بجاهل ، ومنها بأنه أخرج مصلحًا لمفسد ، فانحلَّ في آخر المجلس ، وشرع يتكلم بكلام ليِّن وهو يبتسم ، وكان آخر ما فارقته عليه أنّ المفسد يخرج .

---

(١) في الأصل (متهار) ، وتعريف (المهتار) في « هامش ١ » من (ص ٤٤١) من القسم الأول.

(٢) الطَّشْدَاريّة : الطَّشْدَار ، أو الطَّشْتَ دَار ، لقب على بعض كبار رجال (الطَّشْت خاناه) ، وهو مركب من لفظين أحدهما (طَشْت) وهو الذي يُغسل فيه ، ويقال له (طُسٌّ) ، والثاني (دار) ومعناه ممسك ، فيكون معناه (مُمْسِك الطَّسْت) .

« صبح الأعشى » (٥/ ٤٦٩) .

ثم جاءني في اليوم الثاني وهو يوم الأحد سادس عشري الشهر رسولٌ يدعوني إلى بيت الأمير بُرْدُبَك ، فذهبت فإذا الفاوي هناك وعلي بن[1] خصبك صهر السلطان ، وإذا هو والأمير يشفعان عندي في الفاوي أن أسكت عن نقلته ، فقلت : اشتهي أن من حضر هذا المجلس لا يتكلم بكلمة حتى يستحضر أنه واقف بين يدي الله تعالى ويتأمل كلامه ، فإن عَلِم أنه يمشي في ذلك المقام قاله ، وإلاّ سكت ، قال الأمير بُرْدُبَك : فتكلم أنت . فقلت : الحقّ ليس لي حتى أتركه ، الحق لله ، فإن هذا مُفْسِد لا تحلُّ الشفاعة فيه ما لم يتب ، ويجب على كل منكم أن يُساعد على ذلك ، فقد قال النبي ﷺ : لتأمُرُنّ بالمعروف ، ولتَنْهَوُنّ عن المنكر أو ليعمِّنكم الله بعذاب من عنده تدعونه ، فلا يستجيب لكم[2] . وقال ﷺ : لتأمُرُنّ بالمعروف ، ولتَنْهَوُنّ عن المنكر أو ليبعثن الله عليكم قومًا ، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم[3] . وقال الله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[4] . وما منكم أحدٌ إلاّ وله ذرية أو عيال ، فإن هوّن في عيال الناس سلَّط الله عليه في عياله وذريته . فقال ابن خصبك : هل ثبت عندك قضيته مع هذا الصبي . فقلت : نرفع قضية الصَّبي كأنها لم تكن ،

---

(١) لعله : العلاء علي بن العالم البدر محمد الحنفي بن خصبك .
« الضوء اللامع » (١٢/ ٤٤) .

(٢) أخرجه (أحمد) في « مسنده » (٥/ ٣٨٨) بلفظ مقارب ، و (الترمذي) في « سننه » (٩ باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ج ٤ ص ٤٦٨ ، رقم الحديث ٢١٦٩) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٣) أخرجه (أحمد) في « مسنده » (٥/ ٣٩١) .

(٤) النساء/ ٩ .

ونسألك عنه ، ناشدتك الله هل تعلم أنه مُفْسِد أم لا ؟ فقال : أعلم أنَّه كان مُفْسِدًا عظيم الفساد ، ثم كف الآن عنه . فقلت : الشق الأوّل من كلامك مُثبت فهو مقبول ، والثاني نافٍ وشهادة النفي في مثله مردودة . فقال : تاب . فقلت : الذي يقبل التوبة في الحال هو الله تعالى ؛ لأنه يعلم ما تكن الضمائر ، وأما العباد فلا يقبلونها إلاّ بعد الاستبراء ، فقالوا : الشَّاب ينتقل ، والمشفوع فيه أبوه ، فقلت : أنتم تشفعون أمْ تأمرون ، فقال الأمير بُرِدْبَك : بل نشفع ، فقلت : أن كنتم تشفعون فإني لا أقبل ، وإن كنتم تأمرون فسمعًا وطاعة ، فإن طاعة الأمير من الله ، وقد أمر النبي ﷺ بطاعة الأمير ، وإن جلَد الظهر وأخَذ المال . فقال : بل نشفع نيابة عن السلطان ، وهذا أمرٌ لابُدّ منه . فقلت : هذا حينئذ أمرٌ في صورة شفاعة ، فالسمع والطاعة ، وأقل الأمور أن تكتبوا على ابنه التزامًا أنّه لا يدخل ذلك الزقاق . فقالوا : بل نُلزمه من غير كتابة ، فحاولتهم على الكتابة فعجزت . فقلت : افعلوا حينئذ ما شئتم ، فطلبوا الفاوي ، فحضر ، فأمروه أن يُقَبّل يدي ، ففعل وكرَّر ذلك ، وقال الأمير ، وابن خصبك : نحن الذين أذنبنا ، ونسأل فضلك أن تهبنا هذا الذنب ، فلم أزد على السكوت وإيهام الرِّضى .

فلما رآني لا أُقبل عليه ، ولا أفعل شيئًا مما يسرُّه قال لهم : سلوه هل صفا قلبه ؟ فقلت : إن كان المراد بالصفا عدم الأذى ، فوالله ما أُوذي مسلمًا ولا غيره بغير حق ، وإن كان المقصود به الميل القلبي أو عدم الوجْد ، فهذا ليس إليّ ، ولا يقدر عليه إلا الله ، ثم انفصلنا على ذلك ، وقد كان يتفتت قلبُ من حضر هناك من أهل العلم ، وأطلق الناس ألسنتهم بالذَّم للسلطان ؛ لكونه لم يرع الصُّحْبَة ، ولا الحق ، فترك الدِّين والمروءة لعرضٍ من الدنيا أُرضيت به زوجته ، وقد كان قادرًا أن يفعل الحق ، بالتمكين من شخصه على قصَّة الأنبياء ، ويأخذ أكثر مما أخذ ، وكنت في الميعاد في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ

فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (1) الآيات [والله (2)] وليُّ التوفيق ، وهو المستعان .

[١٥٠] وفي يوم الاثنين سابع عشري الشهر ، قبض الأمير بُرْدُبَك على القاضي نور الدين الشِّشِيني (3) الحنبلي ، وأرسله إلى نقيب الجيش ، ليطلع يوم الثلاثاء إلى السلطان ، فيضربه وينكل به بالسجن وغيره ؛ وذلك أن الشِّشِيني المذكور كان لما مات (4) البدر بن البغدادي قاضي الحنابلة بمصر سعى فيما كان بيده من تدريس الفقه المنسوب إلى أم (5) الصالح في قبة المنصور (6) ، فأجابه الأمير ، وكان قد أخذ ما كــان بيــد

(1) البقرة/ ١٢٤ .

(2) إضافة اقتضاها السياق .

(3) هو : علي بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن وجيه بن مخلوف بن صالح بن جبريل بن عبد الله ، نور الدين بن الشهاب بن القطب أبي البركات الششيني ـ نسبة لششين الكوم من قرى المحلة ـ المحلي الأصل القاهري الشافعي الحنبلي ، المعروف بابن قطب وبالششيني ، وُلد في مستهل رمضان سنة ٨٠٧ هـ بالقاهرة ونشأ بها ، وأخذ عن أبرز علماء عصره في القاهرة ومكة والشام وحماة ، واستقر في تدريس الحنابلة بالصالح بعد موت شيخه ابن الرزاز ، ثم انتزع منه ذلك ، مات فجأة في صفر سنة ٨٧٠ هـ .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣٤٤) ، و « الضوء اللامع » (٥/ ١٨٧ رقم ٦٣٨) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٥٧) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٣١٠) .

(4) راجع « هامش ٢ » من (ص ٦٩) من القسم الأول .

(5) ذكر (المقريزي) في « الخطط » (٢/ ٣٨٠) ، أثناء حديثه عن القبة المنصورية ، أنه تدرس فيها دروس الفقهاء على المذاهب الأربعة ، وتعرف هذه الدروس بدروس وقف الصالح ، وكان الملك الصالح إسماعيل بن محمد قلاوون قد قرر في حياته إنشاء مدرسته ، ولكنه مات قبل أن يحقق ذلك ، فقام الأمير أرغون العلائي زوج أمّه في وقف قريَة تُعرف بدهمشا الحمام من الأعمال الشرقية عن أم الصالح ورتب ما كان الملك الصالح قرره في حياته ، وجعل ذلك مرتبًا لمن يقوم بالتدريس في القبة المنصورية ، وهو وقف جليل يُتَحصل منه نحو أربعة آلاف دينار ذهبًا في كل سنة .

(6) قبة المنصور : جاء في « خطط المقريزي » (٢/ ٣٨٠) أنها تجاه المدرسة المنصورية ، داخل باب المارستان المنصوري ، وهي من أعظم المباني الملوكية ، بها قاعة جليلة ، مفروشة بالرّخام الملون معدَّة لإقامة الخدَّام الملوكية المعروفين بالطُّواشيَّة ، وفيها تُقام دروس على المذاهب الأربعة تُعرف بدروس وقف الصالح ، كما أن فيها خزانة للكتب جليلة ، وكذلك خزانة أخرى بها ثياب المقبورين فيها .

المذكور من الأنظار ، ثم قيل إنّ جاريته حامل ، فأخذ القاضي ناظر الخاص التدريس بحملها إن كان ذكرًا بيكتب من السلطان ، وجعل القاضي نور [(١)] الدين بن الرّزاز المتبولي نائبًا عنه إلى حين تبينه وكان المتبولي أسنّ حنابلة القاهرة ، وأفقههم ، فتبين أن الحمل بنت ، فلم يجسر الششيني أن ينازع المتبولي ، فاستمرَّ يباشر الدَّرْس المذكور ويأخذ مَعْلُومَـة [(٢)] إلى أن كان محرَّم هذه السنة ، فأحس من نفسه ضعفًا فانقطع منه في بيته ، فنزل لإبنَي ابنه عن نصف التدريس ، وللعز أحمد [(٣)] بن نصر الله قاضي الحنابلة عن النصف الآخر ، فاجتمع الششيني بالأمير بُرْدَبَك برسالة القاضي ناظر الخاص ، قبل إمضاء النزول ، وأعْلَمه بالأمر وبما كان تقدَّم له من الولاية منه ، وبأن ابنَي الابن ليس أحد منهما بأهل ، فولاه النصف المسمَّى لهما ، وخدمه على ذلك بمال ، فسمع العزُّ ، فشقَّ ذلك عليه ، فساعد ابني الابن ، وتعصَّب معه بعضُ من له وظائف وولد لا يصلح لها ، يريدون سدَّ الذَّريعة في أخذ أحدٍ وظيفة صارت إلى ولدٍ من والد ، ولو كان جاهلاً فقوي أمرهما ، وطُلب الششيني إلى القضاة وأوذي بالكلام والتَّضييق عند الشافعي ، ثم نقل إلى المالكي ، فأثبت أهلية أكبر الولدين ، فطلب من الششيني أن يُعطهم مستنده ، وكان قـد

---

(١) هو : علي بن محمد بن محمد بن محمد بن عيسى ، نور الدين أبو الحسن بن الشمس بن الشرف المتبولي القاهري الحنبلي المعروف بابن الرزاز ، وُلد في القاهرة ونشأ بها أخذ عن أبرز علماء عصره في مصر في الفقه والنحو وغيرهما ، وناب في القضاء عن المجد سالم ، ودرس الفقه بالمنصورية ، وجاور غير مرة ، مات ليلة الخميس ٢٢ ربيع الأول سنة ٨٦١ هـ .

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٦/ ١٥ رقم ٣٥)

(٢) مَعْلُومه : جاء في « محيط المحيط » (٦٣٩) المعلوم عند المولَّدين ما يُعطاه الكاهن وغيره من أجرة معيَّنة جمع معاليم .

(٣) تولى قضاء الحنابلة في يوم السبت ٩ جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٦٧) .

حكم له الحنفي بصحة ولايته ، فامتنع ، فرُفع إلى الأمير ، فشدَّد عليه ، فحضره بعض الفقهاء فردَّه عنه بأن فتح له الدخول في ذلك ، وأشار عليه بأن يردُّهم إلى القضاء ، فإن عملوا معه قبيحًا لم يكن على الأمير منه شيء ، وإن كان غير ذلك كان مشكورًا عليه ، فقبل ، ثم أغراه بعض المتعصبين لأولئك من وسائط السوء ، حتى أقدم على أذاه ، فلما قبض عليه ، وصار في بيت نقيب الجيش ، شقّ ذلك على الناس ورقّوا له رقة شديدة .

فاجتمع كاتبُ السر المحب بن الأشقر بالأمير بُرْدُبَك ، وشفع فيه ، وأرسل ناظر الخاص رسالته فأطلقه ، وذمّه الناس على ذلك ولا قوة إلاَّ بالله .

وفي أواخر شهر صفر هذا ورد الخبر من حلب أنّ القتْل وقع بين أهلها ، فأهل بانَقُوسا يقتلون من الحَوارنة [١] ، وكذا أهلُ باب المقام [٢] وأهل باحَسِيتًّا [٣] ، وبالعكس ، وكلما قُتل قتيل أكل النائب من القاتلين ما يُرضيه ، ولم يُنَفِّذ فيهم حكما ، فيقتل أهل القتيل من أولئك ، فيفعل النائب كذلك ، فخربت البلد لذلك ، ولم يبق لأحدٍ ثقة بماله ، ولا دَمِه .

وورد الخبر أيضًا أن ابن قرمان أخذ أذَنَةَ ، بعد الحصار وأفسد فيها فسادًا كبيرًا ، وأن أهل تلك البلاد جلت منها إلى حلب فصارت حلب لا تنشق من كثرة الناس ، ولكن حفّهم اللطف بكثرة الأمطار ، فرخصت الأسعار ، فكان

---

(١) لعل المقصود بهم أهل (حَوْران) .

(٢) باب المقام : يُفهم مما جاء في « الدارس » (١/ ٥٨) أنه من أبواب مدينة حلب .

(٣) باحَسِيتًّا : محلّة كبيرة من محالّ حلب في شمالها .

« معجم البلدان » (١/ ٣١٦) .

المكوك [1] ثمانين بمائتي درهم وعشرين درهما ، وهو نحو إرْدَبَّين ، وكذا في دمشق نزلت الغرَارة من خمسمائة إلى مائتين وخمسين ، وهي ثلاثة أرادب ، وكذا بقية الأشياء رخصت والحمد لله وهو المسؤول أن يجعل التَّمام بخير ، ويدرّ البركات .

وأرسل نائبُ حلب يستحثُّ في إرسال الجند ، وأرسل نائب الشام يستأذن في أخذ مقدمي البلاد ورجالهم ، ويتوجه بمن يقدر عليه .

وفي أواخر هذا الشهر سار ركب الحجَّاج المغاربة من القاهرة راجعين إلى بلادهم ، وذهب معهم ابن أبي قصيبة ، الذي [١٥١] نسب نفسه إلى الإمام الغزالي ، ومعه أخوه ، فطلب مِنِّي الشَّريف علي القصيري ، الذي كان توجَّه في العام الماضي على هَدِيَّة السلطان إلى سلطان المغرب ، أنْ أكتب على لسانه إليه أعَرِّفه بحالهما ، فكتبت بعد البسملة « إلى مولانا أمير المؤمنين أدام الله تأييده ، ونصره ، وتسديده ، من العبد الشريف أعظم المحبين وأكبر الداعين ، سلامٌ عليك ورحمة الله وبركاته ، أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأُصلي وأسلِّم على نبيِّه محمد وعلى آله وصحبه وبعد : فإن العبد والله مقيم على ما يُعهد منه ، من عظيم المودَّة ، وصافي المحبَّة ، وطِيَب الثناء ، وصالح الدعاء والاعتراف بالرقّ لمولانا والولاء ، وكيف لا ! والعبد منغمس في إحسانه ، مغمور بصدقاته وعظيم امتنانه ، أثقل كاهِله بأفضاله ، وطوّقه أيادي يعجز عن شكرها في بُكره وآصاله ، والله ما نَسَّمت ريح ، ولاركــدت إلاّ وذكرك في سري وإعلاني ،

---

(١) المكُوك : مكيالٌ يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه ، قيل : يسع صاعًا ونصفًا ، أو نصف رطْل إلى ثمان أواق ، أو نصف الويْبَة ، والويْبَة اثنان وعشرون أو أربع وعشرون مدّاً بمدِّ النبي ﷺ .

« محيط المحيط » (٨٥٩) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٨١) .

هذا وإنّ من أعظم الموجبات لتسطير هذه العبودية ، النصيحة لمولانا أمير المؤمنين أعظم الله ملكه في الدنيا ، وجعله موصولاً بعزّ الآخرة ، إذ كان يجب علي كل مسلم النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فكيف إذا كان المسلم يتقلّب في إحسان الإمام على مَرِّ الأيام ، وقد رأى منه من الإكرام ما زاد على المرام ، وتلك النصيحة هي أن شخصين من المارقين من أهل مصر من قرية تسمى سَنْباط [1] ، يقال لهما ابنا أبي قصيبة ، وقد كان أحدهما وقع في حق رسول الله ﷺ ، بما أقلّ جزائه ضرب العنق ، فسجن في سجن الشرع نحو سنة ، ثم أُطلق ، فاشتدت اللائمة على القاضي الذي كانت الدعوى عنده ، وهو الشيخ شمس الدين البساطي ، بسبب إطلاقه ، فهرب المذكور فغابا مُدَّة في ناحية البلاد الشمالية ، ثم رَجَعا إلى حلب ، فجعل أكبرهما على وجهة بُرْقعاً [2] ، وادّعى أنه الشيخ عبد الدائم ، ثم يشير إلى شخص من كبار المعْتَقدين في بلاد الصعيد ، فصدَّقه بعض مشائخ حلب تحسينًا للظن به، وشرع يتولى خدمته بنفسه ، ثم أنكروا بعض أحواله ، فقال شخصٌ من السَّفَّارة ، أرونيه ، فلما رآه عرفه ، فأقبل عليه يشتمه ، وشرع هو يقول : السِّتْر السِّتْر ، ثم رحل من حلب إلى دمشق ، فبرقع وجهه أيضًا وادّعى أنه سِبط الإمام ، حجة الإسلام الغزالي ، وكان معه بعض الكتب الغريبة ، أظُنُّه للإمام العَّلامة شاطبي الزمان ، شمس الدين بن الجزري ، نزيل بلاد الروم ، ثم العجم ، فادّعاه لنفسه ، وهو مشتمل

---

(١) سنباط : قرية من مديرية الغربية بمركز زفتا في غربي الساحل ترعة الساحل وفي جنوب العجيزية بنحو ربع ساعة ، أغلب أبنيتها من الآجر ، تكسُّب أهلها من الزراعة .

« الخطط التوفيقية » (١٢/ ٥٢) .

(٢) البُرْقُع : أو (البُرْقَع) خُرَيْقَةٌ تُثقب للعينين ، تلبسها الدوابُّ ونساءُ الأعراب ، فتستر الوجه فقط ، أو الوجه ومقدم الجسم إلى الأرض ، جمع براقع .

« محيط المحيط » (٣٧) .

على بعض فضيلةٍ يُروجها بكثرة كلامه ، وذلاقة [1] لسانه ، فصدقه بعض الرؤساء في دمشق ، فمشى عنده سُوقَهُ مدة ، ثم بان عُوَارُه ، ووقف حمـاره ، فقدم إلى مصر وقد نسيه غالب الناس ؛ بطول غيبته ، وتغيرُّ هيئته ، وتبدُّل اسمه ، ثم لم يقنع بالكذب في النِّسْبَةِ إلى الغزالي حتى أثبت على بعض متهافتي القضاة أنه من الذّرّيّة الطاهرة ، وذلك من أفْرى الفِرى ، وأعظم الزّور والبهتان كما وقع لذلك الشاذلي [2] الذي قدم من الغرب ، قيل سنة أربعين ، وكتب بكذبـه مولانـــا أمـير المؤمنين أبـو فـارس [3] سقى الله ثراه ، وجعل جنة الخلد مثواه ، ونفعنا ببركاتـِهِ ، وجمعنا به في أَعْلَى جَنَّاتِهِ ، هذا ما اطّلع عليـه العَبْدُ مِن حالِهِ ،

---

(١) ذلاقة : الذّلِق من اللسان الذَّرِب الفصيح الطّلق .

« لسان العرب » (١١/ ٣٩٩) ، و « القاموس المحيط » (٣/ ٢٤٢) ، و « محيط المحيط » (٣١٠) و « المعجم الوسيط » (١/ ٣١٤) .

(٢) نسبة لشيخ الطائفة الشاذلية أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز المغربي الضرير ، وُلد في غمارة على مقربة من سَبْته حوالي سنة ٥٩٣ هـ ، أو ٥٩١ هـ ، وقيل : وُلد في شاذلة ، وهي موضع بجبل زعفران في بلاد تونس ، ولذا لقّب بالشاذلي ، تفقه وتصوف في تونس ، ثم رحل إلى بلاد المشرق ، فحج ودخل العراق ، ثم سكن الإسكندرية ، ومات في حميثرى في صحراء عَيْذَاب من صعيد مصر وهو في طريقه للحج من عام ٦٥٦هـ .

له ترجمة في « الخطط التوفيقية » (١٤/ ٥٧) ، و « الأعلام » (٥/ ١٢٠) ، و « معجم المؤلفين » (٧/ ١٣٧) ، و « دائرة المعارف الإسلامية » (١٣/ ٥٦ ـ ٥٧) .

(٣) هو : عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن عمر بن يحيى أبو فارس بن أبي العباس الهِنْتَاتي الحَفَصْي ملك المغرب وصاحب تونس كان لا ينام من الليل إلا قليلاً ؛ لانشغاله بأمور رعيته ، وكان يؤذن بنفسه ، ويؤم الناس فى الجماعة ، أبطل كثيراً من المفاسد والمكوس ، وكان مهتماً بعمارة طريق الحج كثير الصدقات إلى الحرمين الشريفين مات فى ١٤ أو ٢٤ من ذي الحجة سنة ٨٣٧هـ عن ست وسبعين سنة .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٥/ ١٩٢) ، و « الضوء اللامع » (٤/ ٢١٤ رقم ٥٤٧) .

وما خَفِي أعظم ، ولمّا لَمْ يَنْفُق سوقُه ، ولم ينجح طريقه عَزَم على القدوم عَلَى مَوْلانا أمير المؤمنين ، أعْظَم الله شأنه ، وأَعَزَّ سلطانه ، فرأى العَبْدُ مِن الواجِبِ عَلَيْهِ في الدِّين والمروءة إعْلام مَوْلانا بحاله ؛ لِئلاّ يَمْشِي عليه شيءٌ مِن محالِهِ ، كما مشى على بَعْضِ الرّؤساء المِصْريين حالُ عيسى الغندور ، فوصله بغالب الرؤساء ، حَتّى السُّلْطان ، ثم كَشَف زيْفَه بَعْضُ صُلحاء العُلَماء ، حَتّى ظهر خَلَلُه وبان حَوَلُه إلاّ على أكْمَةٍ [1] لا يبصر القَمَرَا ، فوضعه ذلك ، غير أنّ لزوم الغَلَطِ مِمّن كانوا يُعَظِّمونه لم يُمَكِّن مِن معاملته بجميع ما يستحق ، والله تعالى مَتَوَلِّي السّرائر ، ومُظْهِر خَفِيّات الضمائر ، وهو المسؤول أنْ يُصْلِح بِمَنِّهِ بمولانا الْبِلاَدَ والعِباد ، ويمحق بسطْوَتِهِ أَهْلَ الفساد ، ويجعل سلْطانَه باقِياً على مَرِّ الآباد آمين » .

وفي أوّل شهر ربيع الأوّل، وَرَد الخَبَرُ بِأَنّ السراج [2] الحمصي مات بالقدس الشريف ، يوم الثلاثاء حادِي عَشْري صفر عن نَيّف وثمانين سَنَة ، وكان فاضِلاً في الفقه ، مشاركاً في غَيْرِه ، غيْرَ أنه كان كَذّاباً في العلم ، وكلام الناس ، شديد التهافت ، ساقِط المروءة ، لا مسْكة له ، وَوَلِي قضاء عِدّة بلدان ، منها طرابُلُس ، وحلب ، ودِمشق ، وتدر يس صلاحِيَّة القدس ، وغير ذلك مِن الوظائف الجليلة ، وكان مذموم السيرة في عمل ذلك ، والله تعالى يَعْفوا عَنْه آمين .

---

(١) أكْمَه : كمة يكمَه كَمَهَا ، عَمِيَ وصار أعشى ، وبصرهُ اعترته ظلمة تطمس عليه . «محيط المحيط»(٧٩٣)«والمعجم الوسيط»(٧٩٩) .

(٢) راجع « هامش٦ » من (ص١١٥) من القسم الأول .

[١٥٢] وفي أوّل شهر ربيع هذا شاع أنّ السلطان ، يُبْطل الدرهم الموجود بين النّاس ، ويُظْهر لهم دراهِماً جدداً ضَرَبها ؛ وذلك أنّ الدَّراهم الّتي ضُرِبت في أيَّامه ، في جميع بِلاد الشّام كثر فيها النحاس جِدًّاً ، بحيث أن المائة إذا سُبِكت يخرج مِنْها خمسةً وأربعون نحاساً ، وكان الدّينار يُباع بستين منها ، ثم صار يباع بسبعين ثم وصل في حلب إلى مائة ، فأرسل السلطان إلى دِمشق أَنْ تُضْرب دَرَاهِم ، يكون في مائتها خمسة دراهِمْ فقط نحاساً ، والخالِص منها خمسة وتسعون ، يكون القطعة منها وَزْن نصف درهم ووزن ربع درهم ، وأنْ يبطل ما عداها ، ويكون ثمن الدّينار منها خمسين دِرهماً ، فَفُعِل ذلك ، وتضرّر الناس مِنه ، وغلت الأسعار ، لما سمعوا أنّ الدّراهِم التى بين أيدِيهم تبطل ، ثم أخرجوا لهم الدّراهِم الجدد ، ونادوا أنّ الدِّينار بخمسين منها ، وأنَّ المائة مِن العِتْق [١] بستين ، وصُمِّم على ذلك ، فمَشَى حالُ النّاس .

فَلَمَّا شاع هذا الخَبَرُ بين النّاس حصل ما حصل في دِمشق أَوّل الأمر مِن غُلُو الأسعار ، وَتَوَقُّفِ الأحوال ، حتى لَقَد هرب أصحابُ الدِّيون مِمْن لهم عليهم الحقوق ؛ لِئَلاّ يُوَفّوهم مِن الدّراهِم العتق .

وبات ليلة الأَحَدِ والاثنين ثالث الشهر ورابعه كثير من الناس بلا عشاء، لعدم وجدان مايشترونه . ثم في يوم الاثنين رابع شهر ربيع الأوّل طلع القضاة والتُّجّار والمباشرون ، إلى القلعة إلا ناظر الخاص ، فإنّه خاف مِن النّاس أن يرجموه ؛ لِأنّه كان سبب فساد المعاملة أوّلاً ، وسبب هذا النّداء آخِراً ، فلما اجتمعوا سبكوا بحضرة السّلطان مِن الدّراهم الّتي عُمِلت في أَيَّامِه ،

---

(١) العِتْق : أي الدراهم النقية الخالصة من الغش .

راجع معاني العتق في « محيط المحيط » (٥٧٤) .

فكان خالِص المائة منها خمسة وأربعين ، وبعضها لم يبلغ خالِصُه إلاّ بِضْعَاً وثلاثين ، ثم سُبِك بعد ذلك منها ما جاء خمسة وعشرين . وسَبَكوا مما قبل أيَّامِهِ ، فكان خالِصها خمسة وتسعين ونحوها ؛ فرسم أَنْ يبطل ما ضُرِب في أيَّامِهِ ، ويستمر ما كان قبل ذلك على حاله .

فنادى المُنادِي بذلك ، فصار للنّاس في ذلك مِنْ الكلام ما لا يُحَدّ، أمَّا العاقِلُ فقال : لم يُبْطل ضَرْبُه إلاّ مِن عَدْلِه وَخيْرِهِ ، وأمّا الجاهِل ، وهم أَكْثَرُ النّاس فلا تسأل عن هَذَيانهم ، مِن قائلٍ : إِيْنَال بطّال ، وجَقْمَق عال ، ومِن قائِل : إِيْنال من [عَكْسِه] [1] بطل نُصُّه . ومَن قائل : إن كان عندك قصب مُصَّه إِيْنال بطل نُصُّه . وقائل : إن كان مَعَك إِيْنالي لا توقِف حالِي . وقائِل : إن كان مَعَك إِيْنالي لا تَقِف على دكّانِي . وقائل : إِيْنال إرتَدّ . وقائل : إِيْنَال في النَّار يُشير إلى السَّبْك بحضرتـه ، ونحو ذلك .

فبلغت تلك الأقاويل خَوَند ، فلامته على ما فعل ، فسقط في يده ، وَحَار في أَمْرِه ، لا يسرُّه أَنْ يكون اسمه على الدّراهِم المغشوشةِ دون الملوك الذين تَقَدّموه ، ولا يسرُّه أَنّ يتكلَّم النّاس فيه بمثل هذا الكلام ، فشجّعه على ذلك صهره ودويداره الثاني بُرْدْ بَك ، فقال : يا مَوْلانا ، الذي أبطلته أنت هو الدّرهم المغشوش ، وهذه عبارة لا غبار عليها .

واستمر الحالُ في اضطراب إلى يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الأوّل هذا ، فعمل السلطانُ مَوْلِد النّبيّ صلّى الله عليه وسلم ، على العادَة ،

---

(١) في الأصل (عسكه) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

فلما اجتمع القضاة والأمراء بعد عصره ، كلّمهم في ذلك فاختلفوا عليه ، فأصرّ على إبطال ذلك ، وأَمَرَ أن يكون وزن الدّرهم مِن المغشوش بِسَبْعة عشر دِرْهماً فلوساً ، وبقيّة الدّراهم بأرْبعة وعشرين ، فسأله بَعْضُ مَن حَضَر أن يكون ثمانية عَشَر ، يكون وزْن ذلك نصف رِطْل مِن الفلوس بأرْطال مِصْر ، ورِطْلهم وزن مائة درهم وأربعة وأربعين درهماً ، فأجاب ، فقال الدّويدار الكبير يُونُس : دَعُو الأمْر على ما كان شَهْرين ، فلم يُجَب، فقال : كاتب السّرّ : لا يَحْسن أن تكون المعاملة معاملتين ، فسكت السلطان ، ونزلوا ، والحال على اضطرابِهِ (١) .

قصة ابن أمير أسد

واستمر النّاس يدعون على السلطان ، وعلى كلّ مَن كان سبباً في ذلك ، وكان مِمّن حضر المولِد شخص يُقال له : ناصر الدين بن أمير أسَد ، ويُقال له : أبو طَبَق ؛ لِأن عمامته على هَيْئَةِ الطَّبق ، وكان يُتّهم بالأُبْنَة (٢) ، وكان يَنْتَمِي إلى قاضِي الشافِعِيَّة العلم صالِح وناداه في هذا المجلس ، وسارَّه بكلامٍ طويل ، ثم ذهب والأرضُ لا تسعه مِن الرّقـاعَةِ لـذلـك ، وفـارَق المجـلس إلـى سَكَنِــه بالزّاوِيَة الحَـلاَوِية (٣) فـي

---

(١) الخبر مفصلاً في « حوادث الدهور » (٢٠٤ـ٢٠٧) كما ورد مختصـراً في « النجوم الـزاهرة » (١٦/ ١٠٢ـ١٠٣) .

(٢) الأُبْنَة : أبَنَ الرجل يَأْبُنُه ويأبِنَه أَبْناً ، اتّهمه وعابَه ، فهو مَأبون بخير أو شر ، فإن أطْلَقْتَ فقلت : مَأبونٌ فهو للشر ، وأبَنَه وأبَّنَهُ تأبيناً عابَه في وجهه ، والأُبْنَةُ العيب .

راجع « لسان العرب » (١٦/ ١٣٩ـ ١٤٠) ، و « القاموس المحيط » (٤/ ١٩٦) ، و « محيط المحيط »(٢) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٣) .

(٣) الزاوية الحَلاَوِيّة : تُعرف هذه الزاوية حالياً بزاوية الحَلْوَجي ، وهي بين الجامع الأزهر والمشهد الحسيني بخط السبع خُوَخ ، التي كانت طريق سر للخلفاء الفاطميين من القصر إلى الجامع الأزهر ، وكان هذا الطريق يُعرف بخط الأبارين ، ويعرف الآن بخط الحَلْوَجي ، وقد أنشأ هذه الزاوية الشيخ مبارك الهندي السعودي الحَلاَوِي أحد الفقراء مِن أصحاب الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر الباريني الواسطي سنة ٦٨٨ هـ .

«خطط المقريزى» (٢/ ٤٣٢)، و«الخطط التوفيقية» (٦/ ٢٥ـ٢٦ ، ٢/ ٨٦) .

الأبارين (١) قُرْب جامع الأزهر ، وكان قد أعطاه نظرها ، وكان إمامها شَخْصاً مِن مجاوِري الجامِع ، فدعاه إلى بيته بها ، فأجابه ، فطلب أن يفعل به الإمامُ ما يَقْبح التَّصْرِيح به ، فأبى ، فعالجه عَلَى ذلِك حَتّى يئِس مِنْه ، فقابضه ، واشتدّ الأمْرُ بينهما ، فسأله النّاسُ عن السّبب ، فقال : إنه هَجَم على بيتي وبه امْرأتِي فاجتمع عليهم [١٥٣] جَمْعٌ مِن أهل الجامِع وغيرهم ، فشهدوا في إمام الزَّاوِيَة بالْخَير ، فطلبه ابن أمير اسد إلى الوالِي علي بن امرأة الفَيْسِي ، فذهب معهما جمعٌ مِن أَهْلِ الجامِع ، فدفعهم الوالِي عَنْه ، فطلبه أبو طَبَق غريمُه إلى نقيب الجيش ناصِر الدّين بن أبي الفَرَج ، فَضَرب الإمام ضَرْباً كثيراً ، و بيّته في السِّجْن ، ثم طُلِع به يوم الجمعة خامِس عشر الشّهْرِ إلى السلطان ، فأَنْهوا إليْهِ أنه هجم على بيت ابن أمير اسد ، فضربه السلطان ، وشهّره في البلد وسجنه .

فقام أَهْلُ جامِع الأزهر ، فاجتمعوا ، وداروا على أَرْكان الدَّوْلَةِ ، ثم اجتمعوا بنقيب الجيش وشَتَمُوه على ما فَعَل ، ثم أصبحوا بُكْرَة يوم السّبت سادِس عشر الشّهْرِ ، فأركبوا صاحِبَهم حِماراً ، وطلعوا به إلى القلعة ، فأدخلوه راكِباً بعِلّةِ الضّرْب إلى الحَوْش ، ثم وقفوا للسلطان ، فَسَأل عنهم ، فأخْبَرَه مَن اجتمعوا به مِن أركان الدَّوْلَةِ بسيرة ذلك الخبيث ، وكان ممقوتاً بين النّاسِ ، مشهوراً بينهم بالفواحِش ، حَتَّى أَنّ النّاس كانوا قد تجَمَّعوا في الأسْواقِ ينتظرون أَنْ ينزل مِن القلعة مضروباً

---

(١) الأبارين : هو المعروف أيضاً بخط السبع خُوَخ العتيق ، فيما بين خط اصطبل الطارمة ، وخط الزراكشة العتيق ، كان قديماً أيام الخلفاء الفاطميين سبع خُوَخ يُتوصل منها إلى الجامع الأزهر ، فلما انقضت أيامهم أختط مساكن وسوقاً يُباع فيه الإبَر التي يُخاط بها وغير ذلك فسمي بالأبارين . .

« خطط المقريزى » (٢/ ٣٥) ، و « الخطط التوفيقية » (٢/ ٨٦) .

مضروباً على حِمارٍ ، وهم يذكرون أكْلَه لِأوْقاف الزّاوِية ، وتَضْييعِهِ لحقوقها ، وإماتته لشعائِرها ، ويتحدَّثون من قبائِحِهِ ما يُسْتَحى مِن ذِكْرِه ، وكان مع ما هو فيه مِن الدَّنائة ، مِقْراصاً لِلأعْراض ، شديد الإجتراء على العظائم ، بتقريب القاضي الشّافِعي وأمثالِهِ ، فضربه السلطان ، فلما قام رسم بإشْهارِه ، فَضَربه بَعْضُ أهل الجامع بحضرة السلطان ، فقيل له : إنّه إنْ شَهَّرَه قتلوه ، فرجع عَنْ ذلك ، وعُوِّق في القلعة ، فتأسَّفَ النَّاسُ على عَدَمِ إشْهارِه ، وسجنه كثيراً .

وحصل لِنقيب الجيش مِن الخزي ، والذل بحضرة السلطان ، وغير حَضْرته ما لا يوصف .

وفي يوم الأحد سابع عَشْرِهِ ، نودِي عِن السلطان ، أنّ كلّ وَزن درهم مِن الدّراهم المغشوشة بثمانية عشر دِرهماً فلوساً وَزْن نصف رِطْل ، وكلّ دِرهم مِن الخالِص بثلثي رِطْل مِن الفلوس ، فَشَقَّ ذلك عَلَى أكْثر النّاسِ ، مع أنهم كانوا يتمنّوْنه [1] .

فلما أصْبَح صباح الاثنين ، ثامِن عَشْرِهِ ، ألْبَس السلطانُ ابنه خِلْعَة بإمْرَةِ الحاج في هذا العام ، فنزل إلى بيته الذي في المدينة ، وهو مُلاصِق لِسَكَنِ أبيهِ ، لما كان أتابك العساكِر ، وهو بالكَبْش مِن الصَّلِيبَة ، فنزل المباشِرون يُشيِّعونه [2] ، وتخلَّف ناظِرُ الخاصّ في القَلْعَةِ لبعض شُغْلِهِ ، فلما وَصَل إلى أَوَاخِر الرُّمَيْلَة مِن نحو الصَّلِيْبَة ، صاحَ به النّاسُ، وَشَتموه ، فَرَدّ إليهم بَعْضُ مماليكه ليردَّهم فخشن لهم ، فَرَجَموه ، فَرَجَع ، فَوَاصَلُوا الرَّجْم وساقُوه قدَّامهم .

---

(١) الخبر في «النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٠٤).

(٢) الخبر في «النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٠٤).

واجتمع بالصَّلِيْبَةِ مِن العامَّة ما لا يُحْصَى فدخل إلى بيت ابن السلطان سابِقاً بفرسه ، فلم يَكَد يُفلت ، وأُسْمِع مِن الشَّتْمِ بالنِّسبة إلى أنّه نَصْرَانِي ، وأنّ أمّه كذلك ، وغَيْرَ ذلك مِن الظُّلم والطُّغيان والخيانة للمسلمين ما لا يُوصَف ، فلم يمرّ عليه يومٌ مثله ، وقِيْلَ : إنْ كانوا يريدون الحَقّ فلينادوا بانَّ مَنْ كانَ عِنْدَه من المغشوشة شيء أَتى به إلى ناظِر الخاصّ وأَخَذَ وزْنه من الخالِص ؛ لأنَّه هو الذي أفْسَدَ المعاملة ، وأَذِن في ضَرْبها على الغِشّ في جميع البِلاد ، حَتَّى أنَّ البدر الأذرَعي [(١)] الملقّب بضفدع ، وهو أحد مَنْ وَلَّاه ناظِر الخاصّ ، النّظَر عَلَى دار الضَّرْبِ بِدِمَشق ، أَخْبَرَ عن أحمد بن رَيْحَانَةَ ، أَحَدُ المعلِّمين الذين أقامهم ناظِرُ الخاصّ بها ، أَنَّه أضاف إلى الفِضَّةِ في دولة هذا السلطان ثمانية عَشَر قِنْطاراً شامِيَّةً نحاساً ، كل ذلك بمواطأة ناظِر الخاص ، وقَدْ أَتى إليه كتاب الشَّيْخ [(٢)] شمس الدين بن الشماع ، شيخ الصوفية ، والعلماء

---

(١) أشار له (السخاوي) في «الضوء اللامع» (١١/ ١٨٣_١٨٤) وذكر أن الاذرعي نسبه لأذرعات ناحية بالشام ، ومنها حسين بن علي بن محمد بن عبد الرحمن وله بدر الدين محمد الملقب ضفدع ، إلا أنه لم يذكر أي معلومات تفصيلية عنه .

(٢) هو : محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن أحمد بن علي بن إبراهيم ، الشمس المجاهدي الأيوبي الحموي ثم الحلبي الشافعي الصوفي ، المعروف بابن الشماع ، ولد في مستهل سنة ٧٩١ هـ بحماة ، وانتقل منها مع أبيه وهو صغير إلى مصر ، وأخذ عن أبرز علمائها في الفقه ، والأصول ، وفي سنة ٨٣٠ هـ استوطن حلب وأخذ عنه جماعة ، وصارت له فيها وجاهة وجلالة ورياسة ، كما جاور بمكة بعد سنة ٨٣٠ هـ ، ودخل الهند ، ورابط ببعض الثغور ، ولم يزل على وجهاته إلى أن وقع في حلب فناء عظيم توفي فيه غالب من عنده من ولد وأهل وخدم ، فتوجه إلى مكة عازماً على المجاورة ولكنه غيرَّ رأيه واتجه للمجاورة في المدينة ، ومات بها يوم دخوله لها ، يوم الثلاثاء ٢٠ ذي القعدة سنة ٨٦٣هـ ودُفن بالبقيع .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢٠٧) ، و « الضوء اللامع » (٩/ ١٤٢ رقم ٣٥٨) ، و«بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٧) .

والرؤساء بحلب ، علي يد الشيخ محمد النَّقّاش ، أَحَد رجال دار الضَّرْب بحلب ، يشكوا إليه ما اطَّلَعوا عليه وتحقَّقوه مِن الغِشِّ ممن [١٥٤] إليه أمْرُ دار الضّرْب بحلب ، واستمرْ مقيماً بالقاهِرَة شهوراً ، يَشْكو إليه ذلك، فلم يلتفت إليه ، ولا أعاد لابن الشَّمَّاع جَوَاباً ، فَعُرِف أنْ ذلك كلّه منه .

وَلَمّا شاع أمْرُ ابن رَيْحَانَة عُزِل ، فَقَدِم إلى القاهِرة ، فاستمرّ شهوراً يسعى ، فلم يُجَب ، وكان ناظِر الخاصّ أكبر القائمين عليه فيما يظهر ، ثم أُمرَ الأَميرُ بُرْدْ بَك الدويدار الثاني مِن جهة خَوَند أن يرسل إلى ناظِر الخاص يخبره بشفاعتها في ابن رَيْحَانَة ، فأحضره وأراد أنْ يُرسل معه إليه ، فقال : أنا أذهب بنفسي ، فذهب بنفسه ، فأجابَه ، فعلمَ كلُّ أحَدٍ أنها من دسائس ناظِر الخاص ؛ فإن ابن رَيْحَانَة ، لا يجْسِرُ على أن يكون فيما يتعلق به وهو كارِه ، ولو أنّ ذلك مِن عند خَوَند ولا مدخل فيه ، لأرسلت إليه امرأة ، أو أحضرت أُمه فأمرتها أن تأمره بذلك ، وما جَعَلت الدويدار واسطة إلاّ ليكون الأمْر أشيع فيتخلَّص ناظر الخاصّ وتنتفي عَنْه التهمة ، فأُبْلِغ ناظرُ الخاص أن الناس تكلَّموا بذلك ، فحلف أنه لا مدخل له فيـه ، والعلم عند الله تعالى .

ولما وقع هذا الأمْرُ أُحضْر القاضِي ناظِرُ الخاصّ في بيت ابن السلطان ، فكانت هذه القضيّة غايَة في قِلّة الحُرْمَة ، وقد كان الصواب غير ذلك ، وهو أنه يَتْرك ناظِرَ الخاص في بيت ابنه ، ويطلب القضاة ، ويقول لهم أنتم أفتيتموني ، بأنّ نقاء هذه الدَّراهم المغشوشة مفسدة وتغييرها مصلحة ، فهل تجب طاعتي في الأمر بابطالها ؟ فإذا قالوا : نعم ، قال : فماذا يجب على مَن خالف أَمْري فيها ، فضلاً عمن رجم جماعتي ، فإذا قالوا : يجب التنكيل به وزجره بما يليق به . قال : احكموا بذلك ، فإذا حكموا ، أمرهم بالنزول ؛ لينادي مناديه بحضرتهم أنّه قد برزت الأوامرُ

الشَريفةُ المنفذة لِأحكام الشرع المحمّدي بإبطال هذه الدّراهم المغشوشة ، وأنّ مَن خالف ذلك استحق النكال ، ولو بالقتال ، فمن كان مُطيعاً لذلك ، فلْيَذهب إلى سبيله ، ومَن كان عاصِياً فليقف ، ومن وقف وضعوا فيه السِّلاح بمن عيّن معهم ، وهو أمير من أعيان الأمراء . وخمسون جندياً متسلِّحين ، وأُقْسِم بالله لو أنه فعل ذلك لعلت كَلِمتُه ، ونفذ أَمْرُه ، وزادَت هيبته ، وخَافَه كل مُفْسِد ، وكانوا يستمرون با لمناداة إلى بيت ابن السلطان ، فيأخذون ناظِرَ الخاص معهم ، والمنادِي يُنادِي إلى أن يُوصِلوه إلى بيته ، ثم يستوعِبون جميع البلد ، ولكنهم لمّا لم يُسندِوا أمورَهم إلى الشَّرْع ، هانوا وهانَت أمورُهم ولم تَنْفَذْ لهم كلمة .

فَرُسِم بأنْ ينادى ، أن الدّراهِم كلَّها على ما كانت عليه ، الطَّيِّب منها كا لمغشوش ، فكان العامَة يمشون مع الوالي في الأسواق ويقولون له : نادِ في هذا المكان فيفعل ، وربما قالوا له . غَيِّر العِبارَة من كذا إلى كذا فيفعل، فكانوا هم الآمرين النّاهِين ، فرأى الناسُ يوماً ما رأوا مِثْله في غلْب الرُّعاع على الأكابِر فَنُفِّس عَنْ ناظِر الخاص حتى وصل إلى بيته ، بعد أن لم يكد يصل .

قيل للعامّة يُنادي لكم بما تريدونه . فقالوا : هذا الوقت . فطلع الأمير نكار وعبد العزيز بن محمد الصُّغَيِّر إلى السّلطان فأعْلموه ، والله المسؤول أَن يُوفّقهم لمرضاته ويُنَفِّذ أمورهم مؤيّدة بطاعته .

ولما عَزَم ابنُ السُّلطان وأمّه على الحَجّ فعين معهما جماعة ، منهم ابن أَخيها على ابن خليل بن خَصْبك ، وكاتِب السر ، وامْرأة بن مزهر ، ثم نُدب ابن خصبك لشراء الجمال ، فأَخَذ كلما استحسنه من جمال النّاس بما يريد مِن الثَّمن ، أرَاد صَاحِبُه البيع أو أبى ، واشترى بالذّهب ،

وأقبض مِنْ الدَّراهم التي أُبطلت، فكثر الدّعاء عليهم . ولا قُوّةَ إلاّ بالله .

وفي هذا الحدّ وصل سُنْقُر قَرَق شَبَق الدويدار الثالث ، الذي كان توجه لتحرير قضِيّة ابن قَرَمان، وأَثارَ الشرور في أمْرِه، بَعْد أن كانت فتنته سكنت بقتل ذاك الذي كان ولاّه طرسوس، وإرسال رأسه إلى مصر ، وأحضر معه نحو عشرة أنْفُس في الحديد ، ادّعى أنهم مِن جند ابن قَرَمان، والناس يقولون : أنهم مِن رعاءِ التركمان ، الذين في ناحية حلب أراد يأخذ بهم لنفسه عند السُّلْطانُ يَدَاً ، وحصل على مراده ، فإن السلطان أعطاه إقطاعاً عظيماً[1] .

وفي يوم الخميس حادِي عشري شهر ربيع الأوّل هذا ، مات القاضِي نور الدين[2] علي المتبولي الحنبلي الشّهير بابن الرزاز ، أحد نوّاب الحنابِلة بمصر ، وكان فَقِهاً فاضلاً معمّراً ، ودرس في قبة المنصور ، في وقف أم صالِح ، بعد القاضِي بدر الدّين بن البغدادِي ، ثم نزل عنه عِند مرضه لِوَلَدَيْ ابنه ولقاضي الحنابِلة القاضي عز الدِّين .

وفي يوم السبت ، مستهل شهر ربيع الآخر[3] من السَّنَة ، طلع كثير مِن التجّار الشّامِيين إلى القلعة ، فوقفوا للسلطان ، وشكوا إليه وقوف حال الناس ؛ بسبب الدّراهِم المغشوشة ، وأنها في دمشق بسعر ، وفي غيرها بسعر آخر ، فإذا قبضت في البلد الذي هي فيه غالِيَة ، خَسِر التّاجر في البلد الأخرى، إلى غير ذلك من الفساد النّاشىء عن ذلك، مما يُعَطِّل معايش النّاس، فقال: أنتم الظّالِمون ؛ نادَيت لكم فلم تسمعوا ، وأَغْراه بعض مَنْ له غَرَضٌ في نقائها على ضَرْبهم فتنمرّ عليهم ، فقالوا : الذي أقام السِّنان ناس قليلٌ حَرَافيش لا يبلغون مائة نفس ، فلا تؤاخِذ

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٠٣) .

(٢) راجع « هامش ١ » من (ص ٢٤٦) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٩٩) في يوم السبت ١٤ جمادي الأولى .

النّاس بهم ، فلم يسمع ، وقال : أنتم غلقتم الدَّكاكِين . فقالوا : نحن ناسٌ شامِيّون ، ليس لنا دكاكين ولا ذنْب ، فَلَمْ يؤثر ذلك ، وما كادوا ينفلتون بخير ، ثم طَيَّب خواطِرهم دويداره الثاني بُرْدْ بَك .

وفي أوائل هذا الشّهر ، أوْ أَوَاخِر الذي قَبْله ، سافَرَ الشيخ عبد الرّحمن بن داود الحلبي ، وقد خلع عليه السلطانُ ورتّب له على جوالِي حلب عشرة دراهِم كلّ يوم ، وأعطاه النَّظَر على بعض الزَّوايا بحلب ، وأعطاه ناظِرُ الخاصّ [من] (١) صحيح البخاري نسخة قديمة عظيمة صحيحة ، رواية بَعْضِ رواة الصحيح القُدماء الَّذين انقطعت رواياتهم ، وهي مِن تركة ابن حَجَر ، وأعطاه نحو ثلاثين ديناراً ، ووصله الأمير بُرْدْ بَك بها تَقَدَّم ، وَرُدّ مجبور الخاطِر ، وكُتبت له مراسيم إلى نائب حلب بالوصِيَّة به ، وإعلامِهِ أنه لم نذكره إلا بخير ، والله يوفقه .

وفي يوم الخميس سادِسه (٢) إبتدأ السُّلْطانُ النَّفَقَةَ على الجند للتجّهز إلى قتال ابن قَرَمان ، فامتنع مِن يوم الأحد نحو تسعين واحِدَاً ممن كان السلطان عينهم لذلك ، فأمر السلطان كاتِب المماليك ، فكتب له أسماءهم ، وراده شخص مِن المؤيّدية ممن عُيِّن لذلك في شيء ، فضربه وسجنه ، ثم أَطْلَقه ، وكثرت قالات الناسُ في ذلك .

---

(١) إضافة اقتضاها السياق .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٠٤) « في يوم السبت أول شهر ربيع الآخر نودي في المماليك السلطانية المعينين إلى تجريدة البلاد الشامية لقتال ابن قَرَمان بأن النفقة فيهم في يوم الخميس الآتي ، فلما كان يوم الخميس سادس ربيع الآخر المذكور جلس السلطان بالحوش السلطاني ، وشرع في تفرقة النَّفقة على المماليك المذكورين ، لكل واحد منهم مائة دينار » .

وفي هذه الحدود ، وصل الخَبَرُ بأنّ نائب حلب ، نادى على الدِّينار أن يكون بثمانين درهماً ، وكان قد زاد عِنْدَهم على المائة ، فاضطرب النّاس لذلك ؛ فقل الخبز ، فرجم العامَّةُ النائب فلم يكد [١٥٥] يصل إلى دار السّعادة ، ولما وصل فتح لهم شَوْنَه [١] وباع فيهم قمحاً كثيراً ، ونادى لهم بما يريدون .

ولمَا بلغ هذا السلطان ، رسم بأن يُكتب مرسوم إلى كل واقف عليه ، من التّجّار وجميع أهل حلب ، بأنه قد اتّصل به ما فعلوه مع نائبهم مَرَّة بَعْدَ مَرّة ، وأنه كان الصواب أنْ يرفعوا أمر من يظلمهم إلى النائب ، فإن لم يَشْكِهم فيه رفعوا أمْرَهم إلى السلطان ، فإن لم يأخذ بأيديهم فعلوا بعد ذلك ما أرادوا ، فكان هذا المرسوم أَيْضَاً غاية في العجب ؛ فإنه ما سُمع قط بأنّ مَلِكاً كاتب العامّة ، ومرسوم آخر إلى أمراء حلب ، أنه قد اتّصل بالمسامِع الشّريفة ما فعله أَهْلُ البلد مع النائب مَرَّة بعد مَرّة ، فيكونوا في خِدْمَتِهِ ومعاضدته ، وهو سلطانهم الحاضر ، ونحو هذا ، ومرسوم آخر إلى النائب ، أنّه قد شقّ علينا ما وقع مِن العَوَامّ مَرَّة بعد مَرَّة ، فإذا وقع للمقرّ أمْرٌ ، فلْيَجْمَع القضاةَ والأمراءَ ويشاوِرهم في ذلك ، ويفعل ما يجتمع عليه رأيهم ، وما أشكل عليهم راجعونا فيه .

وفي يوم الخميس العشرين مِن شهر ربيع الأخر هذا وُلّى خَيرِبَك [٢] ولاية القاهِرة عَنْ العلاء بن الفَيْسي [٣] .

---

(١) شَوْنَه : مخزن الغلال .

« محيط المحيط » (٤٩٠) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٥٠١) .

(٢) خَيرِ بَك القصروي .

راجع « هامش١ » من (ص ٣٢٧) من القسم الأول .

(٣) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٠٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٤)

ثم وَصَل الخَبَرُ في هذا الحدّ أَنَّ الدَّراهِم الجدد ضُرِبت في حَلَب ، بَعْد أن حُفِظَت دارُ الضَّرب وضُبطَت ، وجُعل الشيخ شمس الدين [(١)] بن السلاَّمي الشافِعي أميناً على أَهلها ، وأن الدَّراهِم المغشوشة بطلت ، وأنّ أهلَ حلب حَصَل لهم بذلك مِن السرور ما يقصر عنه الوَصْفُ ، وأنّ جميع أسعارِهم انحطّت ؛ بسبب جَوْدَةِ الدَّراهم .

ووَصلت الأخبار ، وتواترت بكثرة الأمْطار في جميع بلاد الشام ؛ فرخصت غالب الأسعار ، نزلت الغرَارة القمح في دمشق بعد سبعمائة إلى ثلاثمائة ، وتبع القمح غالب الأشياء ولله الحمد .

وفي هذا الحد ، وصل الخبرُ ، بأنَّ جماعة مِن الطَّواشِيّة وغيرهم في المدينة الشَّريفة دخلوا إلى الحجرة النّبوية وسرقوا بعض قنادِيل الذَّهب التى هناك ، وأَنّ الزّين الإسْتَدَّار قام في تحصيل الغرماء ، وتَلطّف في ذلك غاية ، فَحصِّلوا وقُبض عليهم إلاَّ اثنين منهم فَفَرُّوا ، فلما[جاء الهجّان] [(٢)] بهذا الخبر ، نُقِل أَنَّ أحدهم في تُرب الصحراء من القاهرة ، فأُرسِل إليه فَجِيء به وأودِع البرج بالقلعة ، ثم تبين أنّ الذي تولى كِبَر ذلك شخْصٌ مِن الرَّافضة ، يُقال له برغوث [(٣)] ، كان يَنْظَمّ

---

(١) لعله ، محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن يونس ، الشمس أبو عبد الله السلاّمي البيري الأصل الحلبي الشافعي ، ولد تقريباً سنة ٨١١ هـ بالبيرة ثم قدم حلب ، وتفقه على علمائها ، ناب في القضا بالبيرة ، ثم بحلب وتصدى للإقراء ، وحج وزار بيت المقدس ، وقدم القاهرة فأقام بها مات في ربيع الأول سنة ٨٧٩هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ٢٧٥ رقم ٩٢٤) .

(٢) ما بين الحاصرتين مطموس الرسم في الأصل ، والتصحيح بمقتضى السياق .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٩٧) من بني حسين يسمّى الشريف برغوث راجع أيضاً « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٤) .

إلى شيخ [(١)] الحرم ، سرور [(٢)] الطربيهي ، وكان ساكِناً إلى جانب الحرم ، وأنّه صار يطلع مع الفرّاشين إلى سطح المسجد ، وأن الفراشين قالوا لشيخ الحرم : أن ذلك أمرٌ لم يجرْبه عادَةٌ ، وأنه يُخشى من غائِلته ، وأنّ الحَزْم منعه مِن مخالطتهم ، فلم يفعل؛ فعرف العَوْرات، وتوصل من بيته إلى سطح الحرم، ثم نزل إلى السَّقْفِ الأدْنى ، وَرَفع القنادِيل من كُوى [(٣)] هي معلَّقة فيها ، ثم أُطّلع عليه فقبض عليه أميرُ المدينة فأرْضاه ، فتَغفَّل عنه إلى أن هَرَب ، ثم أظهر أنّه انزعج مِن هَرِبه ، وأُرْسِل فيه إلى الينبع فقُبض عليه بَعْد مُدَّةٍ وسُجِنَ ، فدخلت امرأته إلى عنده مِراراً لتخدِمَه إلى أَنْ استؤنِس إليها ، ثم أدْخلت مِبْرَداً [(٤)] وكَلْبَتين [(٥)] في طعام أحضرته إليه وَدَخلَت إليه ثمّ بَرَدَ القَيْدَ إلى أن قطعه ، ثم هرب ، فلما أصبحوا قصُّوا أثَره إلى بعض أحياء العرَب التي في وادِي يَنْبُع من ناحِيَة

---

(١) في « الضوء اللامع » (٣ / ٢٤٦) ، و « التحفة اللطيفة » (٢ / ١٢١) ، شيخ الخدَّام بالحرم النبوي .

(٢) هو : سرور الطرباي الحبشي ، عمل جَمَداراً في سنة ٨٥٢ هـ ، وترقّى حتى ولي بعد صرف فارس الأشرفي سنة ٨٥٤هـ ظناً مشيخة الخدَّام بالحرم النبوي ، إلى أن مات في صفر سنة ٨٧٣هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٣/ ٢٤٦رقم ٩٢٣) ، و « التحفة اللطيفة » (٢/ ١٢١ رقم ١٤٤٠) .

(٣) كُوَى : جمع (كَوٌّ) أو (كوَّة) والكَوُّ الخرق الكبير في الحائط ، والكَوَّة الخرق الصغير .

« محيط المحيط » (٧٩٩) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٠٦) .

(٤) مِبْرَد : أداة بها سطوح خَشِنة ، تستعمل لتسوية الأشياء ، أو تشكيلها بالتآكل أو السَّحل .

« محيط المحيط » (٣٤) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٤٨) .

(٥) كَلْبَتين : أداة يأخذ بها الحَدّادُ الحديد المُحْمَى ، أو أداة تخلع الأسنان .

« محيط المحيط » (٧٨٧) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٩٤) .

خَيْبَر [١] إلى جانِب رَضْوى [٢]، فَفَتَّشُوا فيه ، فلم يجدوه ، وكانت بذلك الحيّ امرأةٌ تَصِيْح : يا قريب الفَرَجِ ، كعادَة من يضربها المخاضُ مِن النساء ، فقال ابن هجَّان [٣] أمير ينبع : وَحَقِّ راس هَجَّان لتفتّشنّ هذه المرأة ؛ إنّ صوتها صوتٌ عن غير وَجَع ، فَفَتَّشوها ، فإذا بها قد سَدَلت عليها ثِياباً كثيرةوأوسعتها ، وحولها نِساء [وهو] [٤] داخِل تلك الثياب ، فَقُبض عليه ، ثم هرب وقُصّ إلى أَنْ وَصَل إلى بعض أعداء أمير ينبع ، فرجع عنهم ، وأرسل إلى المدينة الشريفة يُعْلِمهم بذلك .

فمع وصول قاصِده كان قَدْ وَصَل هو في تلك السَّاعَةِ ، وكان له أخْتٌ مِن جارِيَةٍ ، وكان قد نفاها ؛ لِأنّ أَشْرَاف المدينة يَسْتَنْكِفون [٥] من أولادِ الأماء ، فكانت تُبْغِضُه ، فاطَّلعت على وصوله ، فأتت إلى الزّين الإسْتَدَّار فأعلمتـه بذلك وبمكانه ، فتوجـَّه في ذلك الوقـت ، وإذا أمير

---

(١) خَيْبَر : هي الموضع المذكور في غزاة النبي (ﷺ) ، وهي ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام ، كما يطلق هذا الاسم على الولاية ، وتشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير ، ويُقال لها خيابر ، فتحها النبي (ﷺ) سنة سبع للهجرة ، وقيل ثمان .

«معجم البلدان» (٢/ ٤٠٩ـ ٤١٠) .

(٢) رَضْوَى : جبل مِن ينبع على مسيرة يوم ، ومن المدينة على سبع مراحل ، ميامنة طريق مكـة ، على ليلتين من البحر ، قفاه حجارة وبطنه غور يضربه الساحل ، وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية ، وهو الجبل الذي يزعم الكيسانية أن محمد بن الحنفية مقيم به حي يرزق «معجم البلدان» (٣/ ٥١) .

(٣) راجع « هامش ٣» من (ص ١٢٩) من القسم الأول .

(٤) في الأصل (وهي) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٥) يَسْتَنْكِفون : اسْتَنْكَف من الشيء وعنه ، أَنِفَ وامتنع ، ويُقال : استنكف عن العمل ، امتنع مستكبراً .

« القاموس المحيط »(٣/ ٢٠٩) ، و « محيط المحيط » (٩١)و«المعجم الوسيط» (٢/ ٩٥٣) .

المدينة لمّا أتاه قاصِد ، صاحب ينبع توجّه مِن وقْتِهِ ، فتوافَيا عند ذلك البيت ، الذي قيل أنه فيه فقُبِض عليه [1] .

وَوَصل [2] خَبَرٌ ، بأنّ الفَرَنج عمروا سفناً كثيرة [3] جِدّا ؛ فتخوّف أَهْل السّواحِلِ لا سِيّما إسكندرية ، ثم وَرَد عليهم منهم سفنٌ أرسوا في الميناء ، واشتروا ماءً ، وزاداً ، ولم ينزلوا إلى البَرّ ، ولم يُدْرَ مَا هُمْ ، فزاد خوفُ أهل إسكندرِيَّة ، بحيث أنّه لولا النائب أوقف ناساً على الأبواب يمنعونهم مِن الخروج كان غالِبهم رحل .

فسألوا السلطان في تَقْوِيتهم ، فَرَسم لهم بمائة مِن الجند ، ولِدِمْيَاط بمائة ، وشرعوا في ترميم السّور وَحَفْرِ خَنْدَقه ، والله المسؤول في إنزال الأمان على بِلادِ الإيمان ، وخذلان الكفّار وإلزامهم البوار .

ثم وَصَل الخَبَرُ ، بأنّه حصلت عِنْدهم زلازل أَخْرَبَت دُوْراً كَثِيْرةً ، وقتلت ناساً كثيراً ، فَشَغلتهم أَنْفُسُهم ، حقّق الله ذلك وَزَادَه ، وسيأتي قدوم كتاب بذلك في شهر شعبان مِن هذه السَّنة .

وفي يوم الاثنين ، رَابع عَشْري الشّهْر ضُرب خام [4] الأمراء في الرَّيْدَانِية [5] للخروج إلى بلاد ابن قَرَمان .

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٢٩٧ ـ ٢٩٨) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٥٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر (٤٤) .

(٢) في «حوادث الدهور» (٢٩٨) في ١١ ربيع الآخر .

(٣) في « حوادث الدهور » (٢٩٨ ـ ٢٩٩) نحو ثلاثمائة مركب ؛ لغزو سائر سواحل الإسلام من الروم إلى الإسكندرية ودمياط ، مكافأة لأخذ السلطان محمد بن عثمان اسطنبول من الفرنج .

(٤) خام : خَيَّم القوم تخييماً ، دخلوا في الخيمة ، أو نصبوا خياماً ، وخيَّموا بالمكان أقاموا ، وأخام الخيمة إخامة وأخيمها إخياماً بناها ونصبها «محيط المحيط»(٢٦٥)، و«المعجم الوسيط»(١/ ٢٦٧) .

(٥) الرَّيْدَانِيَّة : كان بستاناً لريدان الصقلبي ، أحد خدّام العزيز بالله نزار ابن المعز (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ) ، وكان يحمل المظلة على رأس الخليفة ، ثم اختص بالحاكم (٣٨٧ ـ ٤١١ هـ) ، الذي قتله يوم الثلاثاء ٢٠ ذي الحجة سنة ٣٩٣ هـ . =

وفي يوم الخميس ، خامِس جمادي الأولى من السَّنَة ، خرج الأمراء ، وَتَوفّرت دواعِي النّاس على رؤيتهم ، فلم يبق بالقاهِرَة كبير أحَدٍ إلاّ ذهب إلى ذلك ، فوقفوا مِن الرُّمَيْلَةِ إلى المخيَّم ، وخَرَجوا بزينةٍ ، عَظيمة ورُؤوسِهم أربعَة : قَرْقَماش الجَلَب رأس نَوْبَة النُوَب ، وجانِبَك القَرَماني حاجب الحجّاب ، ويونُس العلائي خُشْدَاش [1] السلطان ، وخُشْ قَدم أمير سِلاح ، وهو أميرهم ، حَتّى يصل إلى عسكر الشام ، فيكون أمير الجماعة نائب الشّام قانِبَاى الحمزاوي ، وعيِّن مِن الأمراء الطبَلْخانات والعشراوات عِدّة ، ومِن مماليك السلطان خمسمائة .

[١٥٦] وفي يوم الأحد ثامِن جمادي الأولى المذكور ، نادى مشاعلي في أقطار القاهِرة بالسَّفر ، وأنّ مَن تخلّف حصل عليه ما لا خَيْر فيه .

وفي يوم الاثنين تاسِعه سافر الأمراء مِن الرَّيْدَانِيَّةِ ، وبعد سفرهم بثلاثة أيّام أو نحوها جاء مُتَسَفِّرٌ نائب الشّام، أنَّ المراسيم الشريفة كانت برزت له ، بأن تكون زَرَدْخَانَة السلطان تحت يده ، فتضاعف شكره للسلطان على ما جبر به خاطِرَه ، وعلم أنّه لا يَقْدر على رِضى العسكر

= وهذا البستان يقع في حدود الصحراء الواقعة في شمال القاهرة ، وانتهى إليه العَمَار ، وأُطلق اسم الريدانية على البستان وعلى ما يجاوره من الأراضي الرملية الفضاء ، والريدانية تشتمل اليوم : الوايلي الصغرى والعباسية ، وثكنات الجيش الواقعة على جانبي شارع الخليفة المأمون ومنشية البكري ومصر الجديدة .

« خطط المقريزي » (٢ / ١٣٩) ، و « النجوم الزاهرة » (١٢ / ٢هامش ٢) .

(١) خُشْدَاش : « زميل فى الخدمة ، والخشداشية هي رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشأوا مماليك عند أستاذ أو سيد واحد » .

« العصر المماليكي » (٤١٣) .

في ذلك ، وسأل السلطان أنْ يرسل زَرَدْ كاشه ، ليباشر ذلك ، فيكون أعظم للحرمة ، وَأَقْيَمَ للناموس ، فأمُر الأميرُ نُوكار الزَّرَدْكاش بلحوق الأمراء ، فأخذ يتجَهّزُ ، ثم سافرَ في أواخِره ، أو أوائل جمادي الآخرة [1] ، فمات[2] في غَزَّة [3] .

وفي هذا الحدّ ، أَرْسل شَخْصٌ مِن أصحابِنا الشاميين إلى بعض أصحابنا المصريين علبةً صغيرةً جِدّاً فيها قلب لوز وجوز وفستق وزبيب وقصب [4] وأجّاص ، مجموع ذلك نحو أوقِيّتين بالشامِي وقصد بذلك مُمَا جَنَة[5] ، وأرسل معها كِتاباً يقول فيه : أنّه إنما أرسلها ، لِأنّه عَجِز عن محمل في الْبَرّ والْبَحْر ، فاستشارَني فيما يكافِئه به مِن تحف مصر ، وفيما يكتب إليه ، فأنْشيت له ما صورته : « وبَعْدُ ، فإنّ العبْدَ باقٍ على ما تعهده الخواطِر اللئيمة ، والأخلاق الذَّميمة من كاذِب المحبَّة ، ومكدِّر المودَّة التي ما فيها طبّه ، ولا سَيّما لمَّا وصَلَت تلك الهديّة السَّنية في تلك العلبة العظيمة الكبيرة الجسيمة ، التي عجزت عن حملها بغالُ الجنادِب ، وجمال الأَرانب ، وأفيال العناكِب الشّديدة المناكِب ، في المـواكب ،

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٠٦) في يوم الخميس ٢٦ جمادي الأولى .

(٢) راجع « هامش٢ » من (ص ٣٢٣) من القسم الأول .

(٣) ورد الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٠٦) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٥) .

(٤) إِجَّاص : هو البرقوق ، وليس الخوخ ، كما يُطلق على الكمثرى ، وشجرة البرقوق متوسطة الحجم متساقطة الأوراق ، لونها ما بين أبيض ووردي خفيف ، يجود في التربة الخالية من الأملاح والرطوبة .

(إحياء التذكرة » (٧٦) .

(٥) مُـمَا جَنَة : ممازحة ، وخلط الجد بالهزل .

« محيط المحيط » (٨٤٠) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ٨٥٥) .

الممتلئة الخواصِر والجوانب ، فإن العبد تلقَّاها بغير قبول ، وَوَضعها إلى جانِب الفول المبلول ، حيث يَخْرَى ويبول ، ثم أحضر كِبار الكلاب مع كثير مِن الأقواب [(١)] ، فَجَرَّها وَبَطَحها ، ثم نصبها وفتحها ، فلا تسأل عما جَرَى مِن هَزّ الرّأس ، وتحرّق الأنياب في تحرّك الأضراس ، وتحقق العَبْدُ الهلاس [(٢)] مِن السيد المخدوم ، لا مِن النّاس ، ثم شرع بضحك وَيُكَرْكِر ، وبقى مُدَّة يتأمّل ويُفَكِّرُ فيما يُقابل هذه التّحف ، ويشاكِل تلك الطّرف ، وشاوَر في ذلك معظم الأصحاب ، وناظر جملة مِن ذوي الألباب ، فوقع الإتّفاقُ على أنَّ ذلك أمْرٌ شاق يا واق واق ، ولا سيما لمّا عَزّت الجمال وسِمان البغال ، وسائرالدّواب ، حتى سود الكِلاب ، والجواري الشّواب ، من أجل التَّجْرِيدة إلى تلك البلاد البعيدة يا سِتّي سعيدة ، وأمّا الفُلْك [(٣)] في هذا المُلْك ، فإنها هُيّئت لِغزو البحر ، أذاق الله أعداءها النَّحْر ، وأمّا العَجَل [(٤)] ، فإنّ العبد في وَجَل مِن أنْ يخسف بها بعض طوب مِن جسر يعقوب ، فلما تعذّر من غير شَرٍّ ما يليق بالحمل في البحر والبر أدَّاهُ النظرُ إلى إرسال هذه الدّرر الّتي لم يُبْقِ بها ولم يَذَرْ، وليس كالمعاينة الخَبر ، ففيها مِن شَرِّ العَرَب ما يقتضي العطب ،

---

(١) الأقواب : جمع (قُوْب) البيض أو الفرْخ .

« محيط المحيط » (٧٦١) ، و « معجم الوسيط » (٢/ ٧٦٥) .

(٢) الهلاس : الهَلْس ، من الكلام غير الواضح ، أو الذي لا طائل تحته ، وهو من كلام العوام .

« محيط المحيط » (٩٤١) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٩٩١) .

(٣) الفُلْك : السفينة ، للمذكر والمؤنث ، والواحد والجمع .

« محيط المحيط » (٧٠١) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٧٠١) .

(٤) العَجَل : جمع (عَجَلة) وهي الآلة التي يجرُّها الثور محمولاً عليها الأثقال .

« محيط المحيط » (٥٧٨) .

ومِن فلافِل السّودان ما يُضعف الأبْدَان ، ومن حَبّ العزيز [١] ما يفتح الطِّيْز ، ومِن الجُرمة ما يعلو كل جُرْمة ، ومِن صابون الغْرب ما يسوّد ثياب الشرب [٢] ، وحُقٌ مِن النيده ما يلذ والمخدومة شهيدة ،وإيَّاك أنْ تَغْلَط في الحُقَّين ، فَتَحِرُق الشِّدْقَين وتَخْرق الشَّقْين يا شيخ دُفين ، ومِن الملوحة المصبّرة ما ينقل الصحيحة إلى المقبرة ، ومن الليمون ما هو أكبر جُرماً مِن الكمّون ، وأصغر حجماً مِن عمامة ابن سلمون ، ومِن تمر الصَّعيد ما ينفع العبيد في يوم العيد ، لا سِيّما الأخ سعيد ، ولولا عدم الجير ، لأهديناه على وَرَق الخُبَّيْز [٣] ، ولو وُجِدت أم الخلول لأتحفناك منها من الحمول ما يقتضي الخمول ويكون مردوداً غير مقبول ، بعد السلام الناقِص عليك قصاقص ، ومهما كان لك مِن المهمات فالعبد يراها

---

(١) حب العزيز : ويسمى حب الزلم ، أو السعد ، وقد سُميَ بحب العزيز ؛ لِأنّ العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ ـ٣٨٦ هـ) كان مولعاً به ، فأخذ يستورده بكثرة ، وهي حبوب غذائية سكرية ، يُسمى الصغير منها حب السمنة ؛ لأنها مُسَمِّنة توصف للمرضعات ، يُشرب كاللبن ، أو كالخروب والعرقسوس ، طعمه يشبه شراب اللوز ؛ لذلك يُسمّى أحياناً لوز الأرض ، ويُسمى في صعيد مصر (سُقِّيط) .

« إحياء التذكرة » (٢٣٧) .

(٢) حُقّ : الحُقُّ ، وعاءٌ صغير ذو غطاء يُتَّخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما ، يُستخدم للطيب وغيره .

« محيط المحيط » (١٨٢) ، و« المعجم الوسيط » (١٨٨) .

(٣) الخُبَّيْز : جاء في « إحياء التذكرة » (٢٧٠) ، أنها شجرة تنمو في المروج والغابات وعلى جوانب الطرق ، أزهارها مفيدة للنزلات الصدرية وأوراقها مفيدة للجلد .

كما جاء في « محيط المحيط » (٢١٥) ، « الخَبَّازَي ، وتُخفَّف ، والخُبَّاز والخُبَّازة ، والخُبَّيز ، بقلةٌ مستديرة الورق فيها لعابيَّة ، ولها زهرٌ أبيض مشوبٌ بحمرة ، تؤكل مطبوخة ، ويُتَداوَى بها ، لما فيها من البرد واللزوجة والعامة تسميها (الخُبَّيْزَة) ومنها صنفٍ يقولون له الخُبَّيْزَة الإفرنجية يقوم على ساق طويل ، وتتفرع منه شعب كثيرة حتى يصير شجرة ويعيش زماناً طويلاً .

مِن المهملات ، فليس له إليها أصلاً التفات ، وكُتب في السادس والسَّبعين من شهر جمادي الخامِس المخالف للسابع والأربعين مِن أيلول الثامِن عشر من أشهر الهند الساكنين في أقصى الدشت ، المعروفين بهندست من سند من تلك السنين يا سيدي قِنّيْن ، والحمد لله رب العالمين» .

وفي بكرة يوم الجمعة العشرين مِن الشّهْر ، أمر السّلطانُ الأميرَ بُرْدْبَك ، وسُودُون قرقش رأس نَوْبَة ثاني ، بالتّجهز لناسٍ مِن العَرَب أفسدوا في ناحِيْة الجيزة ، ويُقال : أنَّهم أخذوا بعض خيول لإبن السلطان ؛ فَتَجَهّزَا مِن يومهما ذلك ، ولم يبت إلاّ في برِّ الجيزة ، ثم ضَرَب في ناحِيَة البَهْنَسا حتى وصل إلى الفَيُّوم [1] ، فانزعجت له جميع العرْبان ، وظن كلٌ أنّه يُريده ، فأجْفَل [2] الجميعُ ، ثم رجع في الحاجِر [3] ، إلى [أن] [4] وصل ، إلى نواحِي . الجِيزَة ، فلم يظفر بأحدٍ منهم ، وَدُلّ على ناسٍ مفسدين مِن غيرهم ، فقبض على جماعة منهم ، ثم قيل له : إن الذين

---

(١) الفَيُّوم : كورة في ديار مصر في الجنوب الغربي من الفسطاط على مسيرة نحو ثلاثة أيّام ، واقعة في وَهْدَة ، سِيْق إليها نهر من النيل نُسب إلى يوسف عليه السلام ، والفيوم عند قدماء اليونان بمعنى البحر لاشتمالها على بحيرة عظيمة في جهتها الغربية ، وقيل : أنها من بناء يوسف عليه السلام ، «خطط المقريزي» (١/ ٢٤١ـ٢٤٧) ، و «الخطط التوفيقية» (١٤/ ٨٤ـ٨٧) .

(٢) أَجْفَل : الجُفُول ، سرعة الذهاب ، وأجفل القوم ، هربوا مسرعين ورجلٌ جَفِيل ، نفورٌ جبان يهرب من كل شيء فَرَقاً ،وقيل : هو الجبان من كل شيء ، وأجفل القوم ، انقلعوا كلهم فمضوا .

«لسان العرب» (١٣/ ١٢٠) ، و «القاموس المحيط» (٣/ ٣٦٠) «محيط المحيط» (١١٤) ، و «المعجم الوسيط» (١٢٧) .

(٣) الحاجر : الأرض المرتفعة ووسطها منخفض .

«لسان العرب» (٥/ ٢٤١) ، و «القاموس المحيط» (٢/ ٥) ، و «محيط المحيط» (١٤٩) ، و «المعجم الوسيط» (١/ ١٥٧) .

(٤) إضافة اقتضاها السياق .

يطلبهم في ناحِيَة البحيرة ، فضرب في تلك الناحِية حَتّى أمْعَن ، ثم رَجَع ولم يجد أَحَدَاً ، فلما وَصَل إلى ناحِية الجيزة قيل له : أنّهم كانوا بها في ذِهابه وَإِيَابِهِ ، وأنّ جماعة منهم ذهبوا وبقي بعضهم فقصدهم فأخذهم ، ورجع فوصل إلى القاهِرة أوّل ليلة السَّبت ثامِن عشري الشهر ، وَقَد اجتمع معه منهم ومِن غيرهم نحو عشرة رجال ، فضربهم السلطان بكرة يوم السّبت بالمقارع ، وأمرهم إلى المَقْشَرة .

وفي يوم السبت خامِس شهر جمادي الآخرة من السّنَةِ ، دار بالقاهِرَة ناسٌ مِن الفقراء السّطوحِيّة المتلمذين للشيخ إبراهيم المتبولي نحو خمسة عشر رجلاً في أسواق القاهِرة عليهم فِرا مقلّبة صوفها إلى خارِجٍ ، وعلى رؤوسهم طراطِير [١] ، بعضها لبّاد [٢] ، وبعضها فَـرْو مقلوبٌ ، فكانوا على هيئة القَلَنْدَرِيّة [٣] ، وصار واحِدٌ منهم يقول شِعْرَاً مما أحدثه متأخّرِو المتصوِّفَة ، يذكرون فيه العُقَار [٤] ، وشربها ، والحان [٥] والدَّنّ [٦] ، وغـير ذلك مِن شـعار الفسقة ، ويتَغنَّى بهـا ويـتـابعـه الباقون على هيئـة العجـم ، ويَجْبُـون مِـن الدّكاكين ما تيسّر ، وانْضَـمَّ إليهـم خَـلْـقٌ على

---

(١) طَرَاطِير : جمع طُرْطُور ، قلنسوة طويلة دقيقة الرأس .

« الملابس المملوكية » (١٢٧) ، و « محيط المحيط » (٥٨٤) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ٥٥٥) .

(٢) لُبّاد : هو الشعر أو الصوف المتلبد بعضه فوق بعض .

« محيط المحيط » (٨٠٥ ـ ٨٠٦) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ٨١٢) .

(٣) القَلَنْدَرِيّة : جاء في « محيط المحيط » (٧٥٤) أنهم فرقة من الصوفية .

(٤) العُقَار : الخمر ؛ لمعا قرتها أي ملازمتها الدنّ ، أو لعقرها شاربها عن المشي ؛ لأنها عاقرت العقل«محيط المحيط»(٦١٩) ، و«المعجم الوسيط» (٢/ ٦١٥) .

(٥) الحان : دكّان الخمّار ، أي مكان بيع الخمر .

« محيط المحيط » (٢١٠) .

(٦) الدَّنّ : وعاء ضخم للخمر ونحوها .

« المعجم الوسيط » (١ / ٢٩٩) .

غير هيئتهم في اللباس كثيرٌ جِدّاً ، منهم قاضٍ ، ومنهم أَجناد ، وافتتن النَّاس بهم ، واختلفت فيهم أقاويلهم ، فمنهم من قال : أن بعضهم رأى النَّبِيَّ ﷺ وأمره بما يقتضي ذلك أو نحو هذا ، ومنهم مَنْ يقول : بل هم مِنْ أعيان الشهود والقضاة ، طلبوا أنْ يأخذ عليهم الشيخ إبراهيم العَهْدَ ، فأمرهم بذلك كَسْراً للنفس ، ومنهم من قال غير ذلك ، ثم أسفرت عاقبتهم عَنْ أنّ شخصاً يُقال له سليمان بن والي مِن أكابر المفسدين ، من بني وائل (١) ، من أهْلِ الشرقِيّة ، كان السلطان الملك الأشرف إيْنال حبسه في أثر ما تولَّى السلطنة سنة سبع وخمسين ، ثم كثرت فيه شفاعةُ الشافعين ، فلم تجد ؛ لأنه كان من فلاّحيه ، لمَّا كان أتابِك العساكِر ، فكان جيِّد المعرفة له ، فلما أعيى [١٥٧] النّاس ذلك ، كان أهله قصدوا الشّيخ إبراهيم ، فأمر تلاميذه بهذه الفِعْلَةِ ، وأَنْ يأتوا الأمير بُردْ بَك الدويدار وغيره على هذه الهيئة ، فيشفعوا فيه ، ففعلوا . فأمّا بُردْبَك فإنّه خشَّن لهم في العبارة ، ثم رأى أَنْ يتلافاهم ، فقال : اقرأوا الفاتِحة وادْعوا أنّ الله تعالى يُرَقّق عليه السلطان ، وأمر لهم بخمسمائة دِرهم فلوساً ، تكون ديناراً وربعاً .

ثم إنَّهم دارُوا يوم الأحَدِ سادِسة على تلك الحالة في الأَسْواق وغيرها ، وشاهدت معهم جنديّاً راكِباً ، معه عصى طويلة يحوز عنهم من يزاحمهم ، ورأيتهم جازوا على مجلس بعض القضاه فاستدعوهم ، حتي قالوا مايتغنون به عنده ، ثم ذهبوا فلا حَوْل ولا قُوَّة إلاّ بالله ، بدأ الدّين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد النّاس .

---

(١) بني وائل : وهم بنو وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، يقول القلقشندي : « منهم طائفة ببلاد الشرقية من الديار المصرية بجوار بني سعد ، من جذام . « قلائد الجمان » (١٣٠) .

وفي هذا الشهر جاء الخبر ، بأنّ غَنّاما [١] أمير عرب نَعِير قُتِل ، وكان رجلاً خَيِّراً ديّناً سيُوسا ، حسن السِّيرَة جداً ، أبطل كثيراً مِن المظالِم التي كان أحدَثها الأمراء قبله ، وكان سبب قتله أنّ قَوْماً مِن أقارِبه البعداء قصدوه ، فحاربهم فظفر بهم ، فتبعهم ، واستمر يطردهم مَدَاً بعْيداً ، ربما يكونُ نحو بريدين [٢] ، فأشار عليه بعض جماعته بالرّجوع ، وقالوا : إنّ هزيمتهم قد تحقّقت ، وخيلنا قد تعبت ، وبعضنا مجروح ، وقد قرب المساء ولا نأمن أن تكون لهم عطفة ، فلم يقبل ، فاستمروا مستطرِدِين لـه ، وانقطع مِن رماتهم جماعة ، فَتَخَبّوا وراء تلعة ، فلما حاذاهم وهو لا يشعر ، رموا الجَمَلَ الذي عليه الرّاية فقتلوه ، فلما وقع شاع بين جماعته أنه انهزم ؛ فاختلّ نظـامهم ، ثم خرج عليه الرُّماه ، فأراد لقاءهم ، فعثرت فرسُه بالجَمَل ، فعقروها وقبضوا عليه ، فرجع إليه رأس القَوْم فطعنه فقتله ، ثم نهبوا ما كان له ، ومِن ذلك قَوَدٌ كان جَمَعه للسلطان .

فجاء الوشاقي الذي كان عنده إلى نائب حماة ، فأعلمه بذلك ، فأراد التّوجه إليهم لاستخلاص القَوَد ، فنهاه جماعته وخوّفوه ، فأرسل دويداره مع الوشاقي ، فقال له قاتِله : إنما أنا الآن واحِدٌ مِن العَرَب ، وَقَدْ تَقَسَّمُوا القَوَد ، فهم لا يُطيعونني في [ردّه] [٣] ، فإن أمرني السلطانُ رددته وزدت مِن عندي ما أقْدِر عليه .

ثم إنه حضر جماعة من أقارِب غنّام القرباء ، وقدم عسَّاف [٤] الذي كان أميـراً قَبْله وهو من البعداء ، وجُرِّب في الإمْرَة ، فَوُجِد غير

---

(١) ذكر (ابن تغري بردي) في «حوادث الدهور» (٧٠، ٧٥) أنه تولّى إمْرَة آل فضل مكان ابن عمّه محمد بن توقان بن نعير في يوم السبت ١١ ربيع الآخر سنة ٨٥٤ ، ثم ذكر عزله بابن عمه المذكور في يوم الثلاثاء ٦ جمادى الأولى من نفس السنة ، يقول ابن تغري بردي : «كل ذلك قبل وصول الخبر إلى غنّام بولايته فوُلّي وعُزل وهو لا يدري » .

(٢) بريدين : البريد ، أربعة فراسخ ، واثنا عشر ميلاً . « محيط المحيط » (٣٤) .

(٣) في الأصل (ده) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٤) أشار له (ابن تغري بردي) ، في « حوادث الدهور » (٢٠٨) في أحداث سنة ٨٥٨ هـ وذكر أنه في يوم الاثنين ٢٨ جمادي الأولى عُزل عن إمْرة عرب الشام بابن عمّه حديثة بن عدار بن عجل بن نعير .

صـالح ، فَوَعَدَ بَعْضَ الأمـراء ببعض إقطـاعه ؛ فسعى لـه حتى وُلِّيَ الإمْرَة وتُرِكَ أقاربُ غَنَّام القرباء الصلحاء ، فلا قُوَّة إلاّ بالله العليّ العظيم .

وفي هذا الشهر ، عُقِد مجلسُ بقضاة القُضاة ، وبعض المشائخ في الصَّالِحيّة ، بسبب وقف على الشَّيْخة . . [1] أم بدر الدين بن نبهان ، وقريبتها باي خاتون [2] ، وكان القاضي جلال [3] الدين البكْرِي أحـدُ نُوَّاب الشافعيّة ، قـد حكم لِأُم ابن نبهان ، بأنها أقـرب إلى الواقِف (أيّ نَسَباً) ونفذ له مُسْتَنِيبُه قاضِي الشّافِعِيّةِ العَلَم صالِح بن شيخ الإسْلام السراج البُلْقِيني ، ونَفَّذَ له أيْضاً قاضي الحنفيّة السّعد بنالدِّيْرِي ، وحكم لباي خـاتون ، البذْر بن القطان [١٥٨] أحد نوّاب الشّـافعـي، وكان

---

(١) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات لم نجد ما يصححه في المصادر المتوفرة .

(٢) لعلها ، باي خاتون ابنة علي بن محمد بن عبد البر بن يحيى بن علي بن تمام ، أم عبد الرحمن ابنة العلاء الأنصاري الخزرجي السبكي الأصل الدمشقية ثم القاهرية ، ولدت في حدود سنة ٧٧٥هـ ظناً ، وحدَّثت بالشام ومصر ، وكان مسكنها بالشام بقرب دار الطعم ، ثم نقلها الظاهر جَقْمَق إلى القاهرة ، وسكنت بحكر المرسينة من قناطر السباع ، ماتت في جماد الثانية سنة ٨٦٤هـ .

لها ترجمة في « الضوء اللامع » (١٢/ ١١ رقم ٥٨) .

(٣) هو : محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ، الجلال أبو البقاء بن العز أبي الفضل ، البكري الديروطي ثم المصري ثم القاهري الشافعي ، المعروف بالجلال البكري ، ولـد في ٢ صفر سنة ٨٠٧ هـ بديروط ونشأ بها ، درس الحديث ، والفقه والنحو والأصول وغيرها من العلوم على أبرز علماء عصره ، وأخذ عنه الناس طبقة بعد أخرى ، وانقطع للعلم إلى أن مات في يوم الخميس منتصف ربيع الثاني سنة ٨٩١هـ بالقاهرة .

له ترجمة في : « الضوء اللامـع » (٧/ ٢٨٤ رقم ٧٣٤) ، و « بـدائع الزهـور » (طبعـة بـولاق) (٢/ ٢٣٦) .

قد حكم لها قبله عبد العزيز [١] البغدادِي المشهور بالقدسي قاضي الحنابِلة بدمشق ، ثم اسْتفتى عن المسألة مشائخَ العلماء بمصر : الجلال المحلّي، والشرف يحيى المناوي الشافِعِيَّين، والسعد بن الدَّيْرِي ، والأمين الأقصرائي الحنفِيَّين ، فَأَفتوا بِأنّ الحق لباي خاتون ، فإنّ عبارَة الواقِف : لأقرب الطَّبقات والمميز درجة لا نَسَبا ، وَرَجع الدّيْرِي عن تنفيذه .

فلما اجتمعوا بالصالِحيّة، دار الكلامُ بينهم، فأساء الجلال المحلّي في عباراته لكل من نازَعه ، وأمّا الشيخ أمين الدين الأقصرائي ، فسلك في البحث سبيل الإنصاف وسأل الجلال البكري عن حكم الحَنْبلي السابِق لحكمه ، هل نقضته ؟ فقال : لا . فقال : فكيف تحكم بما يناقضه ولا يكون حكمك ناقِضاً له ؟! فإنْ نقضْته فهو حكم بأحد المُحْتَمَلَيْن ، ولا يُنْقضُ الاحتمالُ بالاحتمال ، وإن لم ينقضه لم يصح حكمك .

فلما كادت الحجّة تلزمهم قام الشافِعي مِن المجلِسْ مُغْضباً من كلام المحلّي ، ثم أخبر المحبُ بن الأشْقَر ، كاتب السرّ ، السلطانَ أنَّ المحلّي أساء ، وأنَّه كان بمجالِس الشتم أشْبه منه بمجالِس العلم ، فأظهر السلطان كراهة ذلك ، فلما بلغ الشافِعي طلع من صبح غد ذلك اليوم ، فشكا على المحلّي إلى السلطان ، فلولا الأمير بُرْدْ بَك أُهِيْن المحلي ، ولكنه دافع عَنْه ، وَحَلّ الأمْرُ على أن ينزل كاتبُ السرّ إليه ويأمره على لسان السلطان بأنّه لا يعود إذا اجتمع معه إلى مثل ذلك . ففعل .

---

(١) هو : عبد العزيز بن علي بن أبي العز بن عبد العزيز بن عبد المحمود ، العز البكري التيمي القرشي البغدادي القدسي الحنبلي ، المعروف بالعز القدسي البغدادي ، ولد ببغداد سنة ٧٧٠ هـ أو قُبيلها ونشأ بها ، ثم قدم دمشق ، وأخذ عن علمائها ، وأفتى وصنَّف ، تولى منصب قاضي قضاة الحنابلة في مصر ، ثم في دمشق ، ومات بها في مستهل ذي الحجة سنة ٨٤٦هـ .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (١ / ٤١٦ رقم ١٤٣٤)، و « النجوم الزاهرة » (١٥ / ٤٩٣)، و « الضوء اللامع » (٤ / ٢٢٢ رقم ٥٧٠) ، و « شذرات الذهب » (٧ / ٢٥٩) .

ثم أمعنوا في مطالعة كتاب الوَقْف الذي بيد أمّ ابن نبهان ، فإذا فيه حكم لابن الكشك [1] الحنفي لها بالاستحقاق، كما حكم البكري، وهو سابق على حكم الحنبلي الذي مع باي خاتون ، وقد نَفّذ لابن الكشك جميعُ قُضاةِ مصر لما نزل الأشرف بَرْسْبَاي إلى أَمَد [2] شيخنا أبى الفضل ابن حَجَر قاضي الشافعية ، والبدر العيني قاضِي الحنفية ، والشمس البساطي قاضي المالكية ، والمحب البغدادِي قاضي الحنابِلَة ، فانقلب الأمْرُ ، وصار كلّما كان يُقال للشافِعي في نقض حكم الحنبلي ، يقال لهم في حكم ابن الكشك، ثم أَمَر السلطان ، بأنْ يُصَالِح بين المرأتين ففعـل .

وفي يوم الخميس السَّابع عشر من هذا الشهر ، شُرِع في عُرْسِ بنت الأمير بُرِدْبَك على بَرْسْبِاي البَجَاسي ، وكانَ حُسّاد الأمير بُرِدْ بَك قد سَعَوْا أنْ السلطان لا يعمل الأطْعِمَة في القلعة ، كما عمل في عرس وَلَد الأمير بُرِدْ بَك فأجاب ، فتقبّل الأميرُ بُرِدْ بَك ذلك بغاية التّقبّل ، وسأل السلطان : أَن يأمر الأمراء أن لا يهدوا للأمير بُرِدْ بَك شيئاً .

---

(١) هو : أحمد بن محمود بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن أبي العز ، الشهاب بن محيي الدين المعروف بابن الكشك ، ولد في ليلة الجمعة ١٧ رمضان سنة ٧٨٠ هـ بدمشق ونشأ بها ، واشتغل بالرئاسة ، وولي قضاء القضاة الحنفية بدمشق مراراً عديدة ، وجمع في بعض الأحيان بين القضاء وبين نظر جيش دمشق ، وقدم القاهرة غير مرة ، وعيِّن لكتابة سر مصر في دولة الأشرف بَرْسْباي فامتنع ، مات ليلة الخميس ٧ ربيع الأول سنة ٨٣٧هـ .

لـه ترجمة في : « أنبـاء الغمر » (٨ / ٣٠٨) ، و « المنهـل الصـافي » (٢ / ٢١٤ رقم ٣١٢) ، و « الدليل الشافي » (١ / ٨٩ رقم ٣١٠) ، و « النجوم الزاهرة » (١٥ / ١٨٥) ، و « الضـوء اللامـع » (٢ / ٢٢٠ رقم ٦١٩) ، و « شذرات الذهب » (٧ / ٢١٩) .

(٢) أَمَد : إي إلى ما انتهى إليه .

« محيط المحيط » (١٥) و « المعجم الوسيط » (١ / ٢٥) .

ثم أخذ في فعل ما يليق بدلك وكان [١٥٩] واسع العَقْل ، حَسَن التدبير لما يُوَجّه إليه همتَه ، ويريد قَطْع الملامات عنه ، فَنَدِم السلطان على الإجابَة إلى صرفه عن القلعة ، ثم أرسل للأمير بُرْدبَك معونة جَيِّدَة ، فأرسل إليه الأميرُ بُرْدْ بَك يوم السبت تاسع عشر الشهر في الأطعِمة ، وإلى خَوَند ، وإلى ابن السلطان ما أعْلَمُ بعلوِّ هِمّتِه ، فكَبت ذلك أَعادِيه وحيَّرهم ، ويوم الاثنين حادي عشريّة أَضاف الأمراءَ .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشريه كان للفقهاء ، فحضر غالِبُ أعيان فقهاء القاهِرة وفقرائها ، وعُمل تلك الليلة سماعٌ بالفقراء والمطربين ، فكان به مِن ذلك وما يتصل به مِن الرّقص على اختلاف فنونه والنفوط ، الرقص بها على هيئة العفاريت وغير ذلك ما لم يُفْعل في عرسٍ مِن الأعْراس منذ أزمان .

وفي ليلة الجمعة خامِس عَشْرِيّه جُلِيَت [1] في سكن أبيها في بيت تَمُرْ بُغا المجاوِر لمدرسة السلطان حسن على زوجها بَرْسْبَاي البَجَاسي ، فحضر مِن نِساء الأكابر وَغيرهم ما يفوت الحصْر ، ولم يُفْرَغ مِن جَلاَئِها إلاّ بَعْدَ التسبيح ، ثم أُركِبت في مِحَفَّةٍ ومعها مائتا امْرأة على حمر المكاريه ، وعشرة مشاعِل ، وعشرون فانوساً كِباراً ، وغير ذلك مِن الصِّغار ، وَخَلْفهن خمسون مملوكاً مِن مماليك أبيها معهم ما يحتاجون إليه مِن السّلاح خَوْفاً مِن حاسِدٍ أو طــارِقٍ ، فأذّن عليها الصُّبْح عند مدرسة [2]

(١) جُلِيَت : أي عُرِضت عليه مَجْلُوّة .

« محيط المحيط » (١١٩) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ١١٣) .

(٢) مدرسة شَيْخُو : هذه المدرسة تقع في شارع الصّليبة ، تجاه جامع شيخو ، أنشأها شيخو العمري سنة ٧٥٦هـ ، وهي عامرة إلى الآن وتعرف بجامع شيخو .

« خطط المقريزي » (٢/ ٣١٣) ، و « الخطط التوفيقية » (١/ ١١٦ ، و ٥/ ٣٤ ، و ٦/ ٨) .

شَيخو [١] من أوّل الصَّلِيْبَة ، فوصَلَت إلى بيت زوجها في نهار الجمعة المذكور .

وفي هذا الشّهر ، وَصَل الدّينار الذّهب الأشْرَفي إلى أربعمائة درهم وثلاثين درهماً فلوساً ، وذلك وزن سبعة عشر درهما إلاّ قِيْرَاطين ، وذلك بالدّراهِم الأَيْنَالِيّة ، وأما بالدَّراهم التي قَبْل ذلك مِن ضرب الظّاهِر ، ومَنْ قَبْله فَبِأربعمائة فقط .

وفيه أيْضاً في يوم الخميس سابع عشرة سافر الشيخُ أبو الفَضْل علاّمة الزّمان في البحر إلى ثغر رشيد أو إسكندريّة ، بَعْدَ أن نزل عن وظيفة تدريس التّفسير في قبّة المنصورية للعَّلامة سيف الدين .. [٢] الحنفي ولم يتفق ظهور أمر النزول إلاّ يوم سفره ، فظن بعضُ القاصِرين في العقول والهِمَم ـ وهم أكثر النّاس ـ أنّه سافر إلى الغرب لِعِلَلٍ ذكروها ، وظن الطّوْخي أنه إذا تحرَّكَ للمنازعةِ فيها لا يردّه أحدٌ ؛ بِناءً منه على أنّ طبْع أهل بلده اقتضى أنّ أَحَدَاً لا يغضب لِأحد ، وأنَّ أَحَدَاً لا يساعِد أَحَداً إلاّ في حضوره ، وعلى أنّ تواريخ أمره الوظيفية نُسيت ، فأظْهر مستندَه بها ، فإذا هو قِصَّة عليها خطٌّ أبي الخَيْرِ النّحّاس ، والسلطان إيْنال العلائي ،

---

(١) شَـيْخُو : أو شَيْخُون بن عبد الله العمري الناصري اللالا مدبِّر الممالك الإسلامية بالديار المصرية ، كان أصله من كتابية الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان تُركي الأصل ، جلبه خواجا عمر من بلاده ، وباعه للملك الناصر ، وترقّى بعد الناصر ، حتّى أصبح أول من سُمِّي بالأمير الكبير ، مات متأثراً من جراحِه ، من ضربة بالسيف ضربه بها قُطْلُوخَجَا السِّلاَح دَار وكانت وفاته في ليلة الجمعة ٢٦ ذي القعدة ، أو ١٦ منه ، أو ٧ ذي الحجَّة سنة ٨٥٨هـ .

له ترجمة في : « خطط المقريزي » (٢ / ٣١٣ ـ ٣١٤) و « الدليل الشافي » (١ / ٣٤٦ رقم ١١٨٩) ، و « النجوم الزاهرة » (١٠/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) .

(٢) بياض في الأصل بمقدار ثلاث كلمات ، لم نجد ما يصححه في المصادر الأخرى .

إذْ كان أتابك العساكِر في ذلك الزّمان ، وهو رجب سنة ثلاثة وخمسين وثمانمائة ، وأُرسل إلى سيف الدين مَنْ أعلمه بذلك ، وأنَّ الوظيفة له لا حقّ فيها للشيخ أبي الفضل ، فجاءه أمرٌ هو به جاهِل فَخَارت قُوَاه وحارت فكْرتُه ، فاجتمع بالشيخ أمين الدين بن الأقصرائي الحنفي ، ورمى عليه حملته ، فاجتمع الشيخُ بناظِر الخاص ، وكاتب السرّ ، واجتمع الطّوخي بالدويدار الكبير ، وكان كثير التردد إليه ، وسأله أنْ يسأل السلطان إِذْنَه للقاضِي الشافِعي في إثبات مُسْتَنَده والدَّعْوى به ، فبادَر بعضُ أصحاب الشيخ أبي الفضل إلى إعْلام الأمير بُرْدْ بَك ، بأن أصل القصّة ، أَنّ الشيخ أبا الفضل وَلِي الوظيفة عقب موت ابن حَجَر ، إما في آخر ذي الحجّة سنة اثنين وخمسين ، أو أوّل المحرّم سنة ثلاث وخمسين ، وأنّ الطُّوخِي دفع لأبي الخير النّحاس ، وكان ذلك الوقت ناظر المَرَسْتان مع الأمير الكبير رِشْوَة في ذلك ، فطاول الشيخ أَبا الفَضْلِ إلى أنْ حَضَر مِن السَّفَرِ مِن القدس في تلك السّنة ، ثم قَرَّر له في الجوالي خمسين دِرهماً [١٦٠] فلوساً في كلّ يوم ، ثم أرسل إلى الشيخ أبي الفضل مَنْ يسأله في السَّمَاح بالسّكوت عن التدريس المذكور ، فلم يزد الشيخ أبو الفضل على السّكوت ، فَقُرِّرَ أبو الخير الطُّوْخِيّ في ذلك الوقت ، وهو رَجب المذكور ، وكان الأَمير الكبير مسافِراً في البحيرة ، فكأنهم زوّروا خَطّه ، وأخْبَرني الشيخ أمين الدّين ، أنه رأى الخطّ المنسوب إليه في القِصَّةِ ، وأنّه أنكره ؛ لإن القُوَّة ظاهِرة عليه ، والمُشَاهَد المعْلُوم لكل أحَدٍ أنّ خطّه في غايـة الضَّعْف ، ثـم لمـا وَقَـع ذلك باشـرها الطوخـي أوّل ذي القعدة مِن تلك السَّنَة ، ودَرَّس في قصّة قوم لوط في الأعْراف[١] بِنـاءً

(١) الآيات من ٨٠ إلى ٨٤ .

على ما وقف عليه ابنُ حَجَر ، وخاض النّاسُ في عَرْضِه ، بسبب ذلك ؛ لِأنّه يُنْسب إلى فِعْلِهم ، واستمرّ إلى أنْ نُكب أبو الخَيْر النحاس في [تاسع [1] عشري جمادي الأولى] مِن سنة أربع وخمسين ، فادُّعِيَ على الطوخِي بإمور ، منها عِشْرة الأحْدَاث [2] وحُكِمَ بفسقه ، وأُخْرِجت وظائِفُه ، وأُعيدت هذه الوظيفة إلى الشّيخ أبي الفضل ، فأُعلم السلطانُ بذلك ، فكثر ذمُّه للطوخِي وتهدَّدَه بالضرب والنَّفْيِ إن لم يسكت ، وَوَقعت في ذلك قَلْقَلة كبيرة في القاهِرة ، وأطبق الناسُ على ذَمّه إلاّ من عكسه الله ، وهم أقلّ من القليل ، وكان أكْبرُ الدّلائل على صِدْق هذا التاريخ ، تاريخ مستنده الذي ظهر برجب سنة ثلاث وخمسين ، الذي بَيْنه وبين موت [3] ابن حَجَر ستّة أشهر ، فقطع ذووا العقول ، بأنّ مثل هذه الوظيفة لا تمكث نصف سنة شاغِرة .

واستمرّ ينازِع إلى أنْ أشْرَف على الهُلْكَةِ ، فأُشهد عليه بعدم الدَّافِع والمطعن في نزول الشيخ أبي الفضل في يوم الأربعاء مستهل شهر رجب سنة إحدى وستين هذه ، وكان مِن جملة تعكيساتِهِ المُدَمِّرَة له في هذا الأمر ، أنّه أثبت بشاهدي زور (هو طَعَن في أحدهم مِن قريب) أنَّ القاضِي شمس الدين بن خيرة الشافعي رجع عن الحكم بفسقه ، ظَنّاً أنّ ذلك ينفعه ، فما زادَه إلاّ دَمَاراً ، وما أفادَه إلاّ إثبات الحكم بفسقه ، فلما آيس منها سعى في الجوالِي التي بيد الشَّيْخِ أبي الفضل ؛ لكونها كانت

---

(١) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من« النجوم الزاهرة »(١٥/ ٤١٤) .

(٢) الأحداث : صغار السِّنِّ .

« المعجم الوسيط »(١/ ١٦٠) .

(٣) كان ذلك في ليلة السبت ٢٨ ذي الحجة سنة ٨٥٢هـ .

راجع « هامش ٢ » من (ص ٦٣) من القسم الأول .

كالْعِوَض عنها ، فانتقل إلى أشنع مما كان فيه ، وشاع ذمُّه ، ثم تَرَكَ ذلك كلّه ، وسكت عاجِزاً مَدْحوراً ، نسأل الله العافِيَة .

وفي أواخِر هذا الشهر ، وَرَد الخَبَرُ بموت الأمير نوكار [1] الزَّرَدْكاش في مدينة غَزَّة ذاهِباً إلى العَسْكَرِ المتوّجِهِ إلى ابن قَرَمان ، وأنَّ زوجته ماتت بمكّةَ المشرَّفة ، فكان ذلك مِن عجائب الاتّفاق ، فَوُلِّيَ مكانه سُنْقُر قَرَق شَبَق الدويدار الثالث .

وفي أوائل شهر رَجب ، أو أواخِر جمادى الأولى ، مات الشيخ المعتقد محمد بن الشيخ أبي بكر الطُّريني بالمحِلَّة ، وكان معتقداً مسموع الكلمة عِند الخاصّ والعام .

وفي هذا الحدّ ، مات الشيخ الإمام العلاَّمة الصالِح أبو العبّاس الحنَفي عن أكثر مِن سبعين سـنة ، وكان تتلمذ للشـيخ محمـد الحنفي ، وكان أفضـل مِنـه على التحقيـق وعِنْدِي أنّه كان أصـلح منه أيضـاً وانتفع به أهـلُ سويقة السـباغين ، ولا سيما أهـل زاوِية الحنفي عِلْماً وَعَمَـلاً .

وفي يوم الجمعة ثالِث شهر رجب من هذه السَّنَةِ ، سافر الأمير بُرْدْبَك الدويدار إلى بَعْضِ إقطاعه بالشَّرْقِيَّة والغربية .

موت المالكي قاضي سنباط

وكان قاضي المالكية وَلِي الّدين محمد بن محمـد الشّهِيْرِ بقـاضي سنباط ، قد مَرِض ، فطال مرضُه ربما زاد على السَّنة ، وصار في آخِر أمْرِه

---

(١) راجع « هامش٢ » من (ص ٣٢٣) من القسم الأول .

لا يَعِي إلاّ قليلاً ، فَعُيِّن الشريف حسام الدين بن حُرَيْز [(١)] قاضي منفلوط لقضاء المالِكِيّة [١٦١] بالقاهِرة ، وعُزِم على إلْباسِهِ الخِلْعة بذلك ومشافهته بالولاية يَوْم الاثنين سادس شهر رجب هذا ، ثم قيل للسلطان : إنّ المالكي في مَرَضٍ شديد ، فربما يشتدّ به الأمْرُ إذا بلغه العَزْل ؛ فَيَموت ، فَيُنْسَب إلى السلطان التَّسَبُّبُ في ذلك ، وقد صبرتم عليه الكثير، فالرّأي التأخير إلى أنْ يموت ، فأجاب السلطان إلى ذلك .

فمات المالِكي ليلة الجمعة ، أو صبح يومها ، عاشر شهر رجب من سنة إحدى وستين المذكورة عن بضع وسبعين سنة [(٢)] ، وكان يقال : أنه يحفظ الموطّأ [(٣)] ، رواية يحيى بن يحيى [(٤)]، وكان قريباً مِن التوسّط

---

(١) هو : محمد بن أبي بكر بن محمد بن حُرَيْز ، ويُدعى محرز بن أبي القاسم بن عبد العزيز بن يوسف بن حسام الدين ، أبو عبد الله الحسيني ، المغربي الأصل الطهطاوي المنفلوطي المالكي ، المعروف بابن حُرَيز ، ولد في العشر الأخير من رمضان سنة ٨٠٤ هـ بمنفلوط ، وانتقل منها وهو صغير مع أبيه إلى القاهرة ، وتلا بالسّبع ، وتفقه وشارك في الفضائل ، وولي قضاء المالكية بعد الولي السنباطي ، كما درس المالكية بالشيخونية ، مات ليلة الاثنين مستهل سنة ٨٧٣ هـ ، أو مستهل شعبان من سنة ٨٧٣هـ .

له ترجمة في : « إنباء الهَصْر » (٩٧ ـ ١٠١) ، و « الضوء اللامع » (٧ / ١٩١ رقم ٤٥٤) ، و«الذيل على رفع الإصر » (٢٥٨ ـ ٢٦٣) ، و « نظم العقيان » (١٤٢ رقم ١٣٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ١٠٦) .

(٢) راجع « هامش١ » من (ص ٦٩) من القسم الأول .

(٣) المُوَطّأ ، في الحديث ، للإمام مالك بن أنس الحميري الأصبحي المدني إمام دار الهجرة المتوفي سنة ١٧٩ هـ ، يقول عنه (حاجي خليفة) في « كشف الظنون » (٢ / ١٩٠٧) : « وهو كتاب قديم مبارك قصد فيه جمع الصحيح ، لكن إنما جمع الصحيح عنده لا على اصطلاح أهل الحديث ؛ لأنه يرسل المراسيل والبلاغات صحيحة » .

(٤) هو : يحيى بن يحيى بن كثير بن وِسْلاس بن شَمْلَل ، أبو محمد الليثي الأندلسي القرطبي ، البربري المصمودي ، ولد سنة ١٥٢ هـ ، ورحل إلى المشرق ، وهو ابن ٢٨ سنة ، وقدم المدينة فسمع من مالك الموطّأ ، غير ثلاثة أبواب من الاعتكاف ؛ شك في سماعه فيها ، كما سمع من سفيان بن عيينة في مكة ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم بمصر ، =

في الفضل في الفقه والنحو ، وربما شارك في الأصول ، وكان يُظْهِر التنسك بالصّلاة والخشوع والتواضع فيمشي ذلك على أكثر الناس ، ثم أنه في أواخر دولة الظاهِر جَقْمَق ، كان قد ادّعِيَ عِنده على شخص مِن أهل سنباط في حقّ للنبي ﷺ، بما يوجب ضرب العنق، فشُهِد عِنده بأنّه مجنون ، وكان ذلك شائعاً عن أحوالِهِ وأقواله ، ثم إنه قيل للظاهِر : أنَّه تهاوَنَ في قَتْله ، وكان الظاهر يتشدَّد في مثل ذلك ، يُظْهِر به التنسك ، فأراد ابن التَّنْسي على قتله فأبى ، وأحال على قاضي سنباط ؛ لِأنّ أول الأمْر كان عنده ، إذْ كان نائِبه ، فطُلب لذلك ، وكان قاضي المالكية بإسكندرية ، فحضر فسَلَّم عليه أصْحَابُه بالقدوم ، وتعمَّموا له ، فكان يقول لغالِب من يأتي إليه : إنه ثبت عِنْدي أن هذا المُدَّعى عليه مجنون ، ولا يمكنني قَتْله ولا أُطاوِع على ذلك أَبَداً ، وأكثر ما عِنْدهم لي النَّفْي ، وأنا مِمّن سمع هذا الكلام منه ، ونُقِل إليَّ عن جَمْعٍ ، منهم الإمام كمال الدين بن الهمام الحنفي ، أنهم سمعوا منه نحو ذلك .

فلما اجتمع بالسلطان وزمجر عليه ، لم تحمل قواه ذلك ، ونزل إلى الصالِحيّة ، فَحكَم بقتله ، فكان ذلك أوّل ما أسْقطَه مِن العيون ، ثم لَمّا وَلِي القضاء بالقاهِرة عُرِف مِنه القيام لحظِّ النَّفْس ، وحَدَّثني من أثق بعقله ودينه ، ممن لـه خِبْرَة تامَّة به عن نفسه ، وعن أبيه ، الملازم له من

= يسميه مالك عاقل الأندلس ، وعندما عاد إلى الأندلس انتهت إليه الرئاسة فيها ، وبه انتشر مذهب مالك في تلك البلاد ، وأشهر روايات الموطأ وأحسنها هي رواية يحيى ، مات سنة ٢٣٣ ، أو ٢٣٤ ، أو في رجب سنة ٢٣٤ .

له ترجمة في : « تاريخ علماء الأندلس » (جـ ١ ، ق ٢ / ١٧٩ رقم ١٥٥٦) ، و « جذوة المقتبس » (٣٨٢ رقم ٩٠٩) ، و « بغية الملتمس » (٥١٠ رقم ١٤٩٨) ، و « وفيات الأعيان » (٦ / ١٤٣ رقم ٧٩٢) ، و « سير أعلام النبلاء » (١٠ / ٥١٩ رقم ١٦٨) .

أكثر من ثلاثين سَنَة ، أن الدّعوى عنده لمن سَبَق ، إذا قَرَّر له أمْراً لا يكاد يخرج مِن ذِهنه ، كائنًا ما كان ، وكان يخرج مِن بيته إلى مسجد قريب منه يُصَلِّي به الضُّحى ، فعيب ذلك عليه ؛ بأن البيت في مثل ذلك أفضل ، وسمع ذلك ولم ينْته عنه ، وكان أوْلادُه وأَصْهارُه ، أولاد ابن العجمي على غاية مِن الفساد قلَّ أن سُمِع بمثلها ، في أكل أَمْوال الناس ، وإفساد نِسائهم وأبنائهم ، والمجاهَرَةِ بالظّلم ، والأحكام التي قلَّ أن توجد في بيوت الحجّاب .

وكانت نُوَّاب المالكية في الغالِب لا تبلغ العشرة ، فولَّى هو في أَوَاخِر سنة ستين ، وهو في غَمْرَة المَرَض نحو عشرة أَنْفُس زِيَادَة على مَنْ كان ، لَيْس منهم أحَدٌ جاوَز الثلاثين ، بل وأَكثرهم ما قارَبها ، ومِنهم مَن لا يُحْسن الوضوء كابن الشيخ يحيى العجيسي وغَيْره ، وكان غالِب ما يُعاب عليه يُنسب إلى زوجته والله الموفِّق .

[١٦٢] (١) [وفي يوم الخميس تاسع رجب المذكور وقعت حادثة غريبة ، وهي أن جماعة من العربان قُطَّاع الطريق جاءوا من جهة الشرقية حتى] وصلوا إلى باب الوزير (٢) ، وذلك قبل المغرب (٣) ، فأفسدوا بالضَّرْب والنَّهْبِ ، وقالوا لبعض من أخذوا متاعه : قولوا للسلطان : إنّا

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط بين نهاية (ص ١٦١) ، وبداية (ص ١٦٢) ، والتصحيح من «النجوم الزاهرة» (١٦/ ١٠٦ـ١٠٧) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٠٧) قرب باب الوزير .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٠٧) وكان الوقت بعد آذان العصر بدرجات ، وقت حضور الخَوانِق .

أخذنا من تحت قلعته [1]، وكان السُّلْطان عَاجِزاً عن تحصيل المفسدين مِن العَرَب ؛ بسبب أن كل أمير متمكِّن يحمي بلاده على الكاشف وأمراء العـرب، فيُفْسد المُفْسِد منهم، فإذا قُصِـد تَوَجَّـه إلى بَلَدٍ مِن البلاد المحْمِيَّة، فإذا وصلها رَجع قاصِدُه ، فكانت الكلمة مجتمعة على الفساد، فلما قَدِم الأمير بُرْدُبَك ، كان أشد الناس غيرة لذلك ، وفحص عنهم ، فإذا بعضهم قدْ آوَى إلى قرية يُقال لها : قَهَا وهي وقف الحسنيّة، وهي تحت نظره ، فلم يزل يحتال حتى قبض على هذا ، وبقي مِن رؤوسهم شخصٌ يُقال له سَعْران (بالسين والعين المهملين) أيّ أنّه كالكلب ، الكلب في الإهلاك لمن يقصده .

وفي يوم الاثنين هذا [2] ، وهو الموافِق لسادِس عَشْري بؤونة ، مِن أشهر القِبط ، دار بالقاهِرة بشير البحر ، وأخْبَرَ أن القاعِدَة سَبْعة أذرع وثمانِية عشر إصبعاً .

وفي يوم الثلاثاء ثامِن [عشري] [3] شهر رجب ، وسابع عشري بونة نادى ، أن زيادة البحر خمس أصابع .

وفي يوم الثلاثاء ثامِن عشري شهر رجب هذا ، مات اثنان من المسجونين بسجن الرَّحْبَة على جريمة ، أحدهما أَبْيَض ، والآخـر أسود ،

---

(١) الخبر في « النجوم الزاهـرة » (١٦ / ١٠٦ ـ ١٠٧) ، و « بدائـع الزهـور » (صفحات لم تنشر) (٤٥) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣٠٠) في يوم الاثنين سابع عشريه .

(٣) في الأصل (عشر) ، والتصحيح من « حوادث الدهور » (٣٠٠) ، حيث جاء فيه أن الاثنين ٢٧ رجب يوافق ٢٦ بؤونة .

وكذلك مما جاء في السياق ، حيث أشار البقاعي أن الثلاثاء يوافق سابع عشري بونة ، كما أشار في الفقرة التالية أن الثلاثاء هو ٢٨ رجب .

فأمّا الأبيض فَدُفِن ، وأمّا الأسود فَغُسِّل وكُفِّنَ وصُلِّي عليه ، فإذا صدره يَخْتَلِج ، فكُشِف عنه ، فإذا الرّوح فيه ، فنُقل إلى المَرْسْتان ، واستمرّ أيّاماً لا ينطق ، ولا يزيد على اختلاج الصَّدْرِ وهم يَسْقونه شراباً ، ثم تراجَع إلى أن عُوفي .

وفي هذا الشّهْر ، شكا نصارى دِمْيَاط شَخْصاً مِن الفقراء بها إلى السلطان ؛ بأنّه أخْرَب كنيسَتَهم عِدْواناً ، فسأله السّلْطان عن ذلك ، فأفْحَشَ في الجواب ، ولم يُحْتَجّ عليه بحجّة شَرْعِيّة ، فضُرب بحضرة السلطان على إساءة أدبه بالكلام ، ثم أرسَلَه إلى القاضي الشافعي العَلَم البُلْقِيني ليحرّر أمْرَه ، وكان متهافتاً ، فكن النصارى أرْضوه ، ففتح عليه مِن أبواب الأذى ما كرهه أهلُ السياسة ، وكُتِب عليه في بَيْتِهِ إشْهَاداتٌ تُسَمّى قسائم [1] ، بأنّه لا يعود إلى ما صدر منه ، ولا يسكن دِمْياط إلى غير ذلك مِن الأَشْياء التي لا تُكْتب إلاّ في بيوت حكام الظَّلَمَة ، مثل : الوالي والحجَّاب ، وكان مُسْتَنده في الواقع ، أنهم جَدَّدُوا في الكنيسة بُنْياناً ، وأنّه أُفْتِيَ بجواز هَدْمِهِ ، وأُعْطِيَ بَعْضُ القسائم التي كُتِبَت عَلَيه للنصارَى ، فلما شاع ذلك قام فيه أنصار الله ، فتكلّموا في ذلك حَتَّى أُخِذت القسائم ، وأُبْطل حُكْمُها ، وكثر ذمّ قاضِي الشّافِعِيَّة مِن الناس والسلطان ؛ بسبب أنّه [2] لو أراد أذى الفقير لما أرسله إليه ، ولم يُرِد بإرساله إليه إلاّ تحرير الأَمْرِ على وَجْه الشّرْع .

---

(١) قسائم : جاء في « المعجم الوسيط » (٢ / ٧٣٥) أن القَسِيْمَة ، وثيقةٌ لها في التعامل أكثر من نسخة (مُحْدَثة) .

(٢) أي السلطان .

وفي هذا الحَدّ زادَت الإشاعاتُ عن قاضِي الشافِعّية بحلب الشهاب بن الزهري بالشَّناعات ، ووردت فيه شكاية من اسْتَدّار نائب حَلَب ، فَعُزِل ، فَأرْ شِدوا إلى الشيخ شمس الدين بن السّلامي، أحد نوّاب الشّافِعِيَّة بحلب ، فقدموا عليه . . [1]ابن الكركي للدنيا ، وهو أفْحَش من الزّهري فلا قُوَّة إلا بالله .

وفي يوم الاثنين رابع شَعْبان مِن السَّنَة ، ورد كتاب خُشْ قَدَم أمير سلاح على يد هَجّانه ، بأن العسكر ورد بلاد ابن قَرَمان ، فنزل أكثرهم على قلعة دَوَالي [2] في أثناء شهر رجب ، فحاصروها فافتتحوها يوم الخميس سادِس عشر شهر رجب المذكور ، وأخبر الهجّانُ ، أنّ ابن قَرَمان هَـرَب إلى أَعَالي جبـال بلادِه ، ولم يقـابلهم ، ولما طلـع الهجّـان إلى السـلطان أكْـرَمه ، وخلـع عليـه يوم الثـلاثاء خـامِس شـعبان المذكور[3] .

وفي يوم الثلاثاء خامسه مات الأديب شهاب الدين أحمد الشّهير بابن الشاب النائب القرافي الشافعي ، عن نَيِّف وثلاثين سنة ، وكان أديباً مُحْسِناً .

وفي هذا الشّهْرِ ، ورَد كتابٌ إلى القاضِي ناظر الخاصّ ، بأنّ بلاد الفرنج التي في ناحِيَة الغرب خُسِف بنحو ألْفَي قَرْيَةٍ مِنها ، وأنّه خرجـت

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

(٢) قلعة دَوَالي ، هي دو لو أو دوه لو ، وهي مدينة وسط تقوم عند لحف جبل (ارجاست) ، جدّد بناء أسوارها السلطان علاء الدين السلجوقي .

«بلدان الخلافة الشرقية» (١٨٣) .

(٣) الخبر في : « النجـوم الزاهـرة » (١٦ / ١٠٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعـة بولاق) (٢/ ٥٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٦) .

عندهم دابَّةٌ صغيرةٌ تُهْلِك كلَّ حيوانٍ قابَلَتْه ، واجتهدوا في قَتْلها ، فلم يقدروا حَتّى با لمدافِع فالله أعلم بصحة ذلك من سقمه .

وفي يوم الرابع عشر مِن شعبان ، مِن السّنَة ، وهو في أيَّام الحصاد فى تَمّوز مِن أشهر السّرْيان ، وقع ـ كما بلغنا مِن وجوه تقرب مِن التَّواتر ـ على الجبل الذي بين الزَّبَدَاني والبِقاع مطرٌ عظيمٌ ، كان نزوله مِن مِثل الميازيب ، وأفواه القِرَب ، لا عَلَى وَجْهِ التقاطُرِ ، بل على وَجْهِ الاتصال ، واستمر أَقَلّ مِن نصف النّهار ، وكان نزوله على أقل مِن مسافة بريد طولاً وعَرْضاً ، في ناحِيَة كُوثَا ، وتفحتا ، وعطيب ، ثم سال بعضه إلى بلاد البقاع ، فأخذ مِن جبل الزَّبَدَاني قبل وصوله إلى أرض البِقاع نَحْوَ عشرين رأس بقر ، وانْتَشَط [1] في ذلك الوِطَاء الواسِع [2] ، فأفْسد قليلاً مِن الغلال ووجّه إلى جهة حَيَّيْنِ مِن العرب كانوا نزولاً هناك ، فركب شخصٌ فَرَساً وركَض إليهم ، فأعلمهم ، فرحلوا مِن قدَّامه ، فَسَلِموا ، ونزل بعضه ولعله [٦١٣] أكثره إلى بلادِ الزَّبَدَاني ، فَفَعل فيها أَفاعيل عظيمة فَإنّ وطاها ضيّق ، فكان مُجْتَمِعاً ، فكان دَفْعُه في غاية القُوَّة ، فأخذ نحو أربع عشرة امْرَأة ، وغِلالاً كثيرة ، وأشْجاراً هائِلة ، ولولا أنّ ناساً رَكِبوا الخَيْل وداروا في سهلها ، فَحَذَّروا النَّاس لما أبقى من الحصَّادِين أَحداً ، وحفر مكاناً هائِلاً كشف فيه عن حَمَّام روماني ،

---

(١) انْتَشَط : الشيء جذبه ونزعه ، وانتشط القوم نشيطة أخذوها وساقوها .

« محيط المحيط » (٨٩٤) ، و « المعجم الوسيط » (٢/٩٢٢) .

(٢) الوِطَاء : ما انخفض من الأرض ، بين النِّشاز والأشْراف .

« لسان العرب » (١ / ١٩٣) ، و « القاموس المحيط » (١ / ٣٤) ، و « محيط المحيط » (٩٧٥) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ١٠٤١) .

وأخبرت أنّه أدْرك رجلاً فلم [يقدر] [1] على الوصول إلى الموضِع العالي مِن الجَبَل ، فطلع في شَجَرَة قريبة مِنْه ، فكان السَّيْل يصدمها بدفعاته ، فَيَهزّها فتضطرب كما يضطرب الرّمح الرُّدَيْنِي [2] ، ورمى كلّ شجرة كانت بالقرب منها ، وسَلِمَتْ هي لعمر ذلك الرّجل ، فسبحان القادِر على كلّ شي .

وفي نحو العشرين مِن شهر شعبان سنة إحدى وستين هذه ، وَرَد كِتابٌ مِن صاحِب العلايا [3] ، المدينة التي بين بلاد ابن قَرَمان ، وابن عثمان ، يخبر أنّ قَرَمان وأهل بلادِه رُعِبوا مِن العسْكر المصري رعباً كثيراً ، وأَجْلَوا مِن قدّامهم ، وأنّ ابن قَرَمان اشتدّ ندمُه ، وقال لكثير مِن أهل بِلادِه : اذهبوا إلى حيث شِئتم ، فَإنِّي لا أُقاتِل ؛ فلاموه على ما ابتـدأ به ، فقال : ذلك أَمْرٌ قَدَّرَهُ الله .

---

(١) غير واضحة في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) الرمح الرُّدَيْنِي : نسبـة إلى رُدَيْنـة ، وهـي امـرأةٌ في خطّ هَجَر ، كانت هـي وزوجهـا سمهر يقوِّمان الرِّمـاح ؛ فنسبت إليهـا ، يقـال : رمحٌ رُدَيْنِي وسمهريٌّ ، ثم غلبت الصفـة ، حتى صـارت اسمـاً .

« محيط المحيط » (٣٣١) ، و « المعجم الوسيط » (١ / ٣٤٠) .

(٣) العلايا : مدينة على سـاحل بحـر الروم من مـدن أميرتكة ، يصفها ابن « بطـوطـة » وقـد نزلها ، فيقـول : « ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على سـاحل البحر ، يسكنها التركمان ، وينزلها تجّـار مصر وإسكندرية والشـام ، وهى كثيرة الخشب ، ومنها يحمـل إلى اسكندرية ودِمْيـاط ، ويُحمل منها إلى سائر بلاد مـصر ، ولها قلعـة بأعلاها عجيبة منيعـة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومـي » .

(الرحلة) (٢٨٤) ، وراجع أيضاً « بلدان الخلافة الشرقية » (١٧٥ ، ١٨٣) .

وجاء الخَبَرُ ، أن العسكر نازَل بَلَداً مِن بلاده ، يُقَال لها : قَرَا حصَار [١] ، فأخذوها ، ثم انتقلوا إلى قُوْنِيَة [٢] ، وَعَزْمِهم أن يرجعوا على قَيْسَارِيَّة [٣] محل سكنة ، فإنْ قَدِروا عَلَيْها ، وإلاّ رَجَعوا ، وقد أنْكَوا [٤] في أكثر بلاده .

وفي هذا الشهْرِ ، قَدِم سَعْدُ الله [٥] البريدي ، الذي كان تَوَجّه إلى جَهَنْشاه ابن قرا يوسف ، بكتاب السلطان وعلى يده كتابٌ مِن جهنشاه ، مضمونه : « الله هو المستعان لقد طَلَعت تباشِيرُ الآمال مِن مشارِق العِزّ والجلال ، ومطالع النصرِ والأقبال بورود الطاهر القدسي عَن معَشّش المكرمة والإجلال ، أعني الكتاب السّامِي الشّري ، والخِطاب النّامِي المُنيف الوارِدِ مِن حَضْرَة مَنْ خَصّه الله تعالى بالسلطنة العظمى ،

---

(١) قَرَا حِصَار : أو قَرَه حِصَار ، ومعناه الحصان الأسود ، يذكر (ياقوت) أنه اسم لأماكن كثيرة ، ومدن جليلة غالبها ببلاد الروم ، كما أشار (لِسترنج) إلى قلعة (قَرَة حِصار) وذكر أنها تابعة لقونية لا تبعد كثيراً عنها من الناحية الشرقية ، بناها بهرام شاه .

راجع « معجم البلدان » (٤ / ٣١٥) ، و « بلدان الخلافة الشرقية » (١٨١ ، ١٨٢ ـ ١٨٣) .

(٢) قُوْنِيَة : من أعظم مدن الإسلام بالروم ، وبأقْصَرَى سُكْنَى ملوكها ، إلاّ أن شأنها تضاءل في عهد أمراء قَرَمان ، وأصبحت مدينة في المرتبة الثانية .

« معجم البلدان » (٤ / ٤١٥) ، و « بلدان الخلافة الشرقية » (١٨١) .

(٣) قَيْسَارِيَة : يقول عنها (ياقوت) : « مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم ، وهي كرسيّ مُلك بني سلجوق ، ملوك الروم أولاد قليج أرسلان » « معجم البلدان » (٤/ ٤٢١) .

كما جاء في « بلدان الخلافة الشرقية » (١٧٨) ، أنها تُسمى « قيصرية » وهي من أعظم المدن في شرق حدود قَرَمان ، وقد كانت في زمن بني سلجوق ثانية مدن الروم ، تقع في لحف جبل « ارجاست » الذي لا يفارق الثلج قمته ، حيث تنحدر منه أنهار كثيرة .

(٤) أَنْكَوا : أي قتلوا وأثخنوا وجرحوا .

« محيط المحيط » (٩١٥) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ٩٥٠) .

(٥) جاء في « حوادث الدهور » (٢٩٢) أنه سعد الله البريدي التتري ، وكان قد خُلِع عليه بتوجهه إلى جهان شاه بن قرا يوسف في ١٥ محرم من سنة ٨٦١ هـ .

والشَّوكة العُليا ، وهو السلطان الأعظم ، الخاقان الأعْدَل الأكرم ، مالِك رقاب الأمم ، أشرف سلاطِين العَرَب والعجم ، معين الملهوفين ، ناصِر المظلومين ، مُمَهِّد قواعِد السلطنة ، بعلّو الهِمم ، مُشَيِّد بناء المملكة بِأحاسِن الشّيَم ، القاصِر عن ذكر مناقبِهِ لِسانُ القلم ، حافِظ بلاد الله بلطفه العميم ، ناظِم أحْوَال عِباد الله بخلقه الكريم ، حادّ سِرادِقاتِ الأمْنِ والأمان ، باسِط أجنحة النَّصِيحَةِ والامتنان . ناشر أنوار العدْلِ والإحسان .

خليفـةٌ ملَكَ الآفـاقَ سطـوتُه　　　مُمَلَّكـاً لِعـلوِّ القـدْر والهِـمَم

لا زال أركان خلافته ممهدة على مهجات الأيام مبسوطة ، وأطناب خلافته على صحائف الليالي مشيَّدة ممدودة ، نصر الله رياضَ عظَمَته وسلطانه ، ونَصَر خُلّص أنصارِه وأعوانِه ، كِتَاباً أنيق الألفـاظ والعبـارات ، رشيق المعاني والاعتبارات مشتملاً على وفور المحبَّة الجنابية من جانِب السلطان الأخوي ، هازّاً لغصن الوداد والاتحاد ، ناضّاً لموارِدِ الخلوص والاعتقاد .

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بخير كتابٍ جاء مِنْ خير مُرْسَلٍ .

فاقْتبسنا مِن طوالِع أنْوَارِه ، واطّلعنا على دقائق أسْرَارِه ، متفكّر في بدائِع أذكارِه .

أكِتابٌ أم شمس الضُّحَى أم حكْمـة اللاهـوت [1] أَمْ نسخـة منقـولة عــن عـالم [الملكُـوت] [2].

---

(١) اللاهوت : الخالق ، وربما تُطلق على الروح ، أو العَالَمَ العلوي « محيط المحيط » (٨٢٧) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٤١) .

(٢) في الأصل (المكوت) والتصحيح من مفهوم السياق ، والملكوت كما جاء في « محيط المحيط(٦٣) تعنى عند الصوفية عالم الغيب المختص بالأرواح والأنفس

فأقبلنا عليه بما يوجب تعظيم شأنِهِ ، وتوجَّهْنا إليه بها يستلزم رِفْعة مكانه ، وابتهجنا بالوقوف على مكنونات رموزه ، والاطّلاع على خَبِيَّات كنوزه ، وقابلناه بعيون المدحة والثناء ، وصنوف الإخلاص والوفاء ، وَوَظائف التّسليمات اللائقة ، ولطائف التَّحِيّات الفائِقَة ، وأصناف الدّعوات المنيفة ، وأجْناس المدحات الشريفة ، وقد صَحَبَنَا حامل الصحيفة المرقومة ، مِن حضرة الخاقانيّة الأشْرَفِيّة ، وهو الأميرُ الأعْظَمُ نور [١٦٤] الملوكِ والسّلاطِين ، مؤتمن أعاظم الخواقِين (١) ، زائر بيت الله الحرام ، ملتثم الكعبة والمقام ، المرسل إلينا بحكم خليفة الله الأمير سعد الدين سعد الله ، يَسَّرَ الله الوصول إلى فِنَاء بابكم ، وسهّل الله عليه طُرُقِ اللحوق إلى خِدْمة جنابكِم ، والمتوقّع مِن الجناب العالِي الأَخوي أنْ يُلاحَظ كتابنا بعين القبول والانبساط ، وينظر إلى خِطَابنا بنظر التّودد والنشاط ، ولا يزال يشرفنا بأخيار أخبار سلامَةِ ذاتِهِ العالي ولا زال عالياً على الأقران وحالياً بمزايا سمو القدر مِن بين الإخوان ، والمأمول مِن حضرة الإله الصَّمَد ، والمسؤول مِن البارِي الفرد الأحَد ، أنْ يُحَصِّل مآربكم حسب المُبْتَغى والمُرَام ، وَيُيَسِّرَ مطالِبكم على وُفْقِ القَصْد بالكمال والتَّمام ، وَلمَّا كان تعاقد الإخلاصِ والمحبَّةِ متقنة مبرمة ، وقواعِد الاختصاص والمودَّة مؤكَّدَةٌ محكمة ، صَرَمْنَا عنان التعيين عن التطويل في الكلام ، وَقَصَرْنا لسان القَلَم على الدّعـاء . والاختتـام . الله يُخَلِّد ظـلاله

---

(١) الخواقِين : جمع (خاقان) ، وهي كلمة تترية بمعنى الملك ، وهي عند العرب علمُ جنس الملوك التتر والترك والصين ، ومنه يُقال (خَقَّنوا) فلاناً أي جعلوه خاقاناً .

« محيط المحيط » (٢٤٦) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٢٤٨) .

على مفـارِق الأيَّام إلى يـوم القيام ، ويـوتَّد [١] أطناب [٢] دَوْلَتِهِ وِتَاد الخلود والدَّوام بحق محمد عليه الصلاة والسّلام». وقد رقمت صحيحة المحبَّة هذه في عَشْر خلون من ثانِية جمادي سنة إحدى وستين وثمانمائة ، وافتتاح الكتاب وهو « الله المستعان » ، والاسم المكتوب على الحاشِية كلُّه مكتوب بالذَّهب، وإنّما أثْبَتّ هذا الكتابَ كُلَّه ؛ ليُعرف ما صارت إليه تلك البلاد .

وكُتب جوابُ هـذا الكتاب عن السلطان الملك الأشْرف إينال بما نصـّه . . . [٣] [١٦٥] وفي هذا الحدّ ، وَرَد عَلَى الشيخ شهاب الدّين الكوراني بالقدس الشريف كِتابٌ مِن تلميده السلطان محمد بن السلطان مراد بن عثمان ، بالرِّضى عَنْه وَتَطْييب خاطِر ه ، وسؤالِهِ في القدوم عليه ، وأرسل إليه مالاً لنفسه يَتَجّهزُ به ، ومالاً يُفَرّقه على المستحقّين ؛ فبادر إلى تجهيز أكثر عياله إلى بلاد الرّوم ، وتجهز بمن بقى للحجّ ، فلقى الحجاج بالعَقَبَةِ ، فانْضَمّ إلى أمير الرّكْب الأوّل ، وكان قد أرسل إلى ناظِر الخاصّ يسأله في أنْ يُوَصِّيه به ، ففعل ، فَحَجّ وقدم إلى القاهِرة يوم دخول الرّكب الأوّل كما يأتِي .

موت الكريمي

وورد عليه أَيْضا أنّ الشيخ العلاَّمة محمد العجمي [٤] المشهور بالكَرِيمي الحنفي ، مات عن نحـو ثمانين سنة فيما أظـنّ ، المذكور مـن

---

(١) يوتّد : يثبّت .

« محيط المحيط » (٩٥٥) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ١٠٠٩) .

(٢) أطْنَاب : جمع (طُنب) ، وهو حبْلٌ يُشَدُّ به الخباء والسّرادق والوتد .

« محيط المحيط » (٥٥٧) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٥٦٧) .

(٣) لم يُثْبت البِقاعي نصَّ الجواب ، ويبدو أنَّه لم يتمكن من الوقوف عليه .

(٤) هو : محمد بن فضل الله بن المجد أحمد ، الشمس الكَرِيمي ـ نسبة لبعض مشايخ خُوارزم ، وقيل : بل لأبيه كَرِيم الدين ـ الخُوَارزمي المولد ، البخاري المنشأ ، السمرقندي المسكن ، الحنفي ، المعروف في بلاده بالخطيبي ، وبين المصريين بالكَرِيمي ، ولـد في حـدود سنة ٧٧٣هـ بخـوارزم ، =

تلامِذَةِ الشريف الجرجانِي ، وَوَرد إلى القاهِرة في حدود سنة خمسين ، فلم يحصل له بها نُصْفَةٌ ، مع أنّه كان علاَّمةً حافِظاً للمعقولات مُتَبَحِّراً فيها ، وكان رجلاً ديِّناً ، ثم سافر إلى بلاد الروم في أواخِر دولة الظّاهِر جَقْمَق ، أَوْ أوائل دولة الأشرف إِيْنال .

وفي أوّل [1] شهر رمضان سنة إحدى وستين وثمانمائة هذه ، جَهّز السلطانُ ، الملكُ الأشرفُ إيْنال ، ملك مِصْر جيشاً في البَحْرِ في ثلاثين مركبا ؛ لقطع خشبٍ مِن بلاد الجون [2] ، وإرهاب أهل الكفر ، والملوك المجاورين بأنّه لم يشغله تجهيز عَسْكرٍ في البرِّ إلى ابن قَرَمان عَنْ عسكر آخر في البَحْر من غير عدوّ معيّن لهم [3] .

= ثم انتقل به أبوه إلى بخارى ، فقرأ فيها القرآن ، وأخذ عن علمائها النحو ، ثم انتقل إلى سَمَرْقند وأخذ عن علمائها المعاني والبيان ، والأصول ، والمنطق ، وقدم القاهرة في جمادي الآخرة سنة ٨٥٢ هـ ، وانتفع به جماعة ، كما دخل دمشق ، ثم سافر إلى ابن عثمان ببلاد الروم عندما طلبه بعد وفاة بعض علمائهم ، مات بأدرنة في ذي الحجة سنة ٨٦١ هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (٦٣١ ـ ٦٣٢) ، و « الضوء اللامع » (٨/ ٢٧٩ رقم ٧٦٦ ، و « نظم العقيان » (١٥٨ رقم ١٦٣) .

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٠٩) في يوم السبت .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٠٩) (الجورن) ، وجاء في « صبح الأعشى » (٥ / ٣٥٥) الجورون ، قلعة خراب عند فَمِ الخليج القسطنطيني من الجهة الشمالية مقابل القسطنطينية ، وفي « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٥٩) (اللجون) وجاء في « معجم البلدان » (٥ / ١٣) اللَّجُون ، بلد بالأردن ، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً ، وإلى الرملة بفلسطين أربعون ميلاً ، واللَّجُون أيضاً مرج طوله ستة أميال كثير الوصل صيفاً وشتاءً .

(٣) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٠٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٥٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٦) .

وفي رمضان هذا قلّ البَطِّيخُ الصَّيْفِيُّ جِدَّاً ؛ بسبب أنَّه كان في قُوَّة الحَرِّ ، فشرع الأجلاب يأخذون ما يَلْقون منه مع الجلاَّبَة ، بدون ثمن المِثْل ، فَقَلّ الجالِبُ ، فصاروا يذهبون إلى المقاثي ، فيَأخذون ما أرادوا ، وربما قتلوا ، وتَشَبَّه بهم غيرهم ، فَعظُم الخطْب ، واضطرب النّاس مِن ذلك ، وكثر الكلامُ بسببه على السُّلطان مِن الجند وغيرهم ، فبلغ السّلطان ذلك ، فقبض على جماعة منهم وجوّد في ضربهم ، فانتهى غيرهم ، وحصل الرّفق ، وكثر البطّيْخ .

وفي هذا الشهر ، في يوم الجمعة سابعه ، مات الشّيْخُ الإمام العَلاّمة القدوة كمال الدين [1] محمد بن الهمام عبد الواحِد بن عبد الحميد السّيواسِي الأصل السَّكَنْدَري المولد المصري الحنفي ، شيخ الأشرفِيّة الجديدة، ثم الشّيْخونِيَّة، وكان موته والنّاس في صلاة الجمعة، بعد عِلَّة طويلة كانَت ابتدأت به في مكّة المشرَّفة ، وذلك أنّه كان حَجَّ سنة ست وخمسين، جَهّزَه السلطان، الملك الظّاهِر بنحو خمسة آلاف دِيْنَار، فَطَلع بجميع عيالِه ، وبعض أصْحَابِه بعِزٍّ عظيم ، وجاور بالمدينة الشّريفة ، ثم بمكَّة المشرَّفة ، فَحَصلت له العِلَّةُ المذكورة ، وأطالَت به ، حَتَّى صار كالفَرْخ ، فرأى أن يَقْدم القاهِرة ؛ لعدم تمكّنه مما يريده مِن العِبادَة التي معظمها الطَّوَاف ، وشدّة تضرّره بالحَرّ ، فَرجع مع جانِبَك ناظر جدّة ، وكان قدومهم في أوَاخِر شهر رمضان سنة ستين ، فتراجع قَلِيلاً ، فَرَكِب وأَقْرَأ في كتابِ الذي صنّفَه في الأصول [2] الفِقْهيَّةِ على

موت ابن الكمال

(١) راجع « هامش٣ » من (ص ١١٨) من القسم الأول .

(٢) وهو كتاب « التحرير في أصول الفقه » في مجلد واحد ، رتّب على مقدمة وثلاث مقالات ، =

طريقة مختصر [١] ابن الحاجب ، واجتمع إليه كثيرٌ مِن الفضلاء ، ثم عاوده المرض ؛ ثم تراجَعَ ، ثم عاوَدَه ، فانتقل إلى عِند إحْدى ابنتيه ، وكانت متزوِّجة بِشَخْصٍ مِن بني أصيل ، وكان سكنه بالقرب من مدرسة [٢] عبد الباسط ، فأقام به ، فاسْتَبَلَّ [٣] مِن مَرَضِه ، ودرّس في المدرسة الكامِليّة قَليلاً ، ثم انحطّ في المرض واستَمرّ إلى أن مات ، وكان إماماً عالِماً عامِلاً ، مُجْمَعاً عَلَى عِلْمِهِ وَدِيْنِهِ وَفَصَاحَتِهِ ، تقريراً وكتابَةً ، قلّ أن يكون في العصر أحسن عِبارة مِنه ، لا سِيّما إذا كتب وكان فهمه ثاقِباً ، وحفظه وافِراً ، وشكله حَسَناً ، وكلامه عذْباً ، وشممه لا سيّما على الجبابرة ضَخْماً ، وكان كريماً تَجَرَّد مِن طريقة الفقهاء كَثِيْراً ، وانقطع

= بالغ في إيجازه ، فصعب فهمه ، شرحه تلميذه الفاضل محمد بن محمد بن أمير الحاج الحلبي الحنفي المتوفي سنة ٨٧٩هـ ، وسماه « التقرير والتحبير » وفرغ منه في رمضان سنة ٨٧١هـ ، ثم شرحه المحقق محمد أمين المعروف بأمير بادشاه البخاري ، وسماه « تيسير التحرير » ، واختصره الشيخ زين العابدين بن نجيم المصري الحنفي المتوفي سنة ٩٧٠ هـ وسماه « لب الأصول » ، وكان فراغه منه في أواخر جمادي الثانية سنة ٩٥١هـ ، ثم شرح هذا المختصر الشيخ جمال الدين بن القاضي .

« كشف الظنون » (١/ ٣٥٨) ، و « هدية العارفين » (٢/ ٢٠١) .

(١) هو كتاب « منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل » المشهور بـ « مختصر المنتهى » و « مختصر ابن الحاجب » للشيخ الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر ، المعروف بابن الحاجب المالكي المتوفي سنة ٦٤٦ هـ ، صنفه أولاً ثم اختصره قال فيه : « لما رأيت قصور الهمم عن الإكثار ، وميلها إلى الإيجاز والاختصار ، صنَّفت مختصراً في أصول الفقه ، ثم اختصرته على وجه بديع ، وينحصر في المبادىء والأدلة السمعية ، والاجتهاد والترجيح » تعرّض لعدة شروح ، بسطها (حاجي خليفة) في « كشف الظنون » (٢ / ١٨٥٣ ـ ١٨٥٧) ، راجع أيضاً « هدية العارفين » (١ / ٦٥٤ـ٦٥٥) .

(٢) راجع « هامش ٣ » من (ص ٢٠٦) .

(٣) استَبَلّ : بَرَأ أو صَحّ من مرضه « لسان العرب » (١٣ / ٦٨) .

في طرَّة [1] وغيرها ، وجاور مَرَّاتٍ ، ونظم الشّعْرَ المقبول ، وفيه الجَيِّد ، وصنف في الفقه والأصلين وغيرها ، وعظمت حظوته لا سيما عند الظاهر [١٦٦] جَقْمَق ، واستمرّ مكرَّماً إلى أنْ مات ، وأُخِذ في جهازِه من حين مات ، وكان أوصى أنْ يُدْفَن عند قبر الإمام تقي الدِّين بن دقيق العيد [2] ، وقبره في آخر القرافَة ، وليس عِنْده بناءٌ ، فقيـل له : أَوَ يكون عنـد ابن عطـا [3] ؛ فإن ابن دقيق العيد ليس عنده بناء ؟ فقال : أَوَ ذلك .

---

(١) طرَّة : ويقال لها : (طرا) وهي قرية مشهورة في مديرية الجيزة على الشاطىء الشرقي للنيل ، قبلي معادي الخبيري .

« الخطط التوفيقية » (١٣/ ٢٩ـ ٣١) .

(٢) هو : قاضي القضاة ، تقي الدين محمد بن مجد الدين علي بن وهب بن مُطيع ابن أبي الطاعة القُشَيْريّ المنفلوطي ، المالكي ثم الشافعي ، المعروف بابن دقيق العيد ، ولد يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٢٥ هـ في ساحل مدينة ينبع من أرض الحجاز ، سمع بمصر من أشهر علماء عصره ، ثم رحل إلى دمشـق وسـمع من علمائـها ، وصـنف عـدة تصانيف منهـا : « الإلـمام في أحاديث الأحكـام » ، و « الاقتراح » في علوم الحديث ، وجمع « كتاب الإمام » في ٢٠ مجلداً ، مات في يوم الجمعة ١١ صفر سنة ٧٠٢ هـ .

له ترجمـة في : « الوافي بالوفيـات » (٤ / ١٩٣ ـ ٢٠٩ رقـم ١٧٤١) ، و « طبقـات السبكي » ، (٩/ ٢٠٧ رقم ١٣٢٦ ، و « طبقات الأسنوي » (٢ / ٢٢٧ رقم ٨٥٠) ، و « البداية والنهاية » (١٤/ ٢٧) ، و « النجوم الزاهرة » (٨ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧) ، و « الدليل الشافي » (٢ / ٦٥٨ رقم ٢٢٦٤ » ، و « حسن المحـاضرة » (١ / ٣١٧ رقم ٧٢ و ٢ / ١٦٨ ـ ١٧١) ، و « البـدر الطـالع » (٢ / ٢٢٩ رقم ٤٨٧) .

(٣) هو : أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاءَ الله السَّكَنْدَري الصوفي ، تاج الدين أبو الفضل الشافعي ، وقيل المالكي ، المتكلم على الطريقة الشاذلية ، كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه ، وصحب في التصوف الشيخ أبا العباس المرسي ، وكان لوعظه تأثير في القلوب ، له عدة تصانيف منها : التنوير في إسقاط التدبير ، والمرقى إلى القدس الأبقى ، ومختصر تهذيب المدوّنة للبرادعي في الفقه ، مات بالمدرسة المنصورية من القاهرة في ١٣ جمادي الآخرة سنة ٧٠٩ ، ودفن بالقرافة .

له ترجمة في : « الوافي بالوفيات » (٨ / ٥٧ رقم ٣٤٧١) ، و « طبقات السبكي » (٩ / ٢٣ رقم ١٢٩٧) ، و « النجوم الزاهرة » (٨ / ٢٨٠) ، و « حسن المحاضرة » (١ / ٤٢٤) ، و شذرات الذهب » (٥ / ١٩ ـ ٢٠) ، و « البدر الطالع (١ / ١٠٧ رقم ٦٥) .

فَجُهِّز مِن يومه ، واجتمع له بشرٌ كثير ، وَصُلِّيَ عليه في وقت العصر ، في سبيل المؤمني تقدم صهره ، زوج إحدى ابنتيه ، الشرف المناوي ، الذي كان قاضِي الشافعيَّة للصلاةبالناس ، فَجَذَبَه البدر بن عبيد الله ، وقال له : أَقَلّ ما لِقاضي مذهبه شيخ الإسلام من الحق أن يصلي عليه ، فتقدَّم قاضي الحنفيَّة السّعد بن الدَّيْرِي فصلى عليه إماماً ، وحضر أمْرُه الأمير بُرْدُبَك ، صهر السلطان ودويداره الثّاني ، لاقى الجِنازة من بيته الذي عند مدرسة السلطان حسن ، ومشى مِن هناك إلى أنْ صلَّى عليه ، ثم إلى التّربَة ، وكان يوماً حارّاً ، فكثر شاكِروه لذلك ، ورجعنا قرب المغرب ، وعظم تأسف النّاس عليه ودعاؤهم له ، وهو جديرٌ بجميع ذلك رحمه الله ، ونفعنا ببركته آمين .

وفي يوم الاثنين عاشر شهر رَمَضان هذا ، وَرَدَت رسلٌ من عند نائب الشام وَمَن معه مِن الأمراء الذين تَوَجَّهوا إلى قِتال ابن قَرَمان ، فأخبروا أنّهم خَرَّبوا ما قَدِروا عليه مِن بلادِه ، مدناً وقِلاعاً ، وأنّه هو فرّ من بين أيديهم بعد أن أخرب سور محلّ إقامته قَيْسَارِيّة ، وأَذِن لِأَهْل بلده في الجلاء ، فبعضهم قَصَد ما جاوَرَهم مِن مملكة مصر ، وبعضهم توجَّه إلى بلاد الرّوم ، فلم يَلْقوا قدَّا مهم أحداً ، ووجدوا فيما هناك مِن المغائر ما ثَقُل مِن الأمتعة التي عجزوا عَن حملها فأخذوها ، ونهبوا غلالهم ، وخرَّبوا جهدهم ، فلا قوة إلّا بالله ، ولا جزاه الله عن المسلمين خيراً ؛ كان كالشيطان أثار الفتنة ، فلما أحيط بالضعفاء تخلّى عنهم [1] .

---

(١) راجع الخبر في : «حوادث الدهور» (٣٠١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٠٩ ـ ١١٠) ، و«بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٥٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٧) .

فخلع عليهم السلطان ، وَأَخْبروا أَنّ الأمراء رجعوا إلى حلب ، فأجابهم السلطان بتحسين ما فَعَلوا ، وأمرهم بأن يكون كل واحد منهم على أهبة السفر ولا يدع من جهازه شيئاً بحيث إذا أمرهم بالتَّوَجُّه لا يبيتون إلاّ على ظهرها ؛ فإنه عازِمٌ على استئصاله ، وإراحة الإسْلام منه ، لما شهر به مِن الأذَى للمسلمين مِن الرُّوم ، وهذه البلاد ، ومِن مُظاهرة الكافِرين ، خَذَله الله آمين .

وفي يوم الجمعة (١) رابع عشر شهر رمضان نودِي ، بأنّ زيادة البحر ثمانِية أصابع ، وكان قد بقى عن الوفاء أرْبَعَة ، فكملت في بقيّة النهار ، وزاد عن الوفاء بإصبعين ، فَفُتِح السّدُّ يوم السَّبْت منتصف الشّهر ، وهو موافِق لثالث عشر مسري من أشهر القِبط ، ومِن حين زاد إلى أَنْ وَفَى لم يقف غير ثلاثة أيَّام كانت . وأنهى زيادَته عشرون إصبعا (٢) ، وأقلّها إصبعا(٣) .

وهو سنة ٨٦١

وفي يوم الخميس ، بعد صلاة العصْر بنحو عشرين درجة ، وهو العشرون مِن شهر رمضان الموافِق لثامِن عشر مسري آخر شهور سنة القِبْط وُلِد [١٦٧] ولدِي أبو اليُسْر محمد ، مِن أَمَتِي حلوة الحَبَشِيَّة الزيتية ، أسألُ الله لي وله العافِية في الدين والدُّنيا والآخِرة ، وأخبرتني أمّه أنها [أحَسَّت] (٤) بالحمـل به قبل ظهر يـوم الخميس وهـو تاسـع عشر

ولدي محمد ابن حلـوة

---

(١) في « حوادث الدهور » (٣٠١) في يوم السبت ١٥ رمضان الموافق ١٣ مسرى .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣٠١) أن وفاءه بلغ ١٦ ذرعاً .

(٣) الخبر في : « حـوادث الدهـور » (٣٠١ـ٣٠٢) ، و « بـدائـع الـزهـور » (طبعـة بـولاق) (٢ / ٥٩) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٧) .

(٤) ما بين الحاصرتين غير واضح في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

ذي الحجّة سنة ستين ، فإن صَحّ ذلك ، فهو أمْرٌ غريب ، فإنّها تسعة أشهر سواء لا تزيد يوماً إلاّ يوم توجعها به والله الموفّق ، وحُلِق رأسه بَعْد عَصْر يوم الأربعاء سادس عشري شهر رمضان المذكور ، فلم يبك ، ولم يَظْهر منه قلق ، وتُصدِّق بوزنه فضّة ، فكان وزنه نحو درهم ونصف ، وعُملت عقيقته ليلة الخميس السابع والعشرين منه ، فحضرها جَمْعٌ صالِحٌ ، ربما يزيدون عن المائة ، مِن الفقراء ، أو المحاويج مِن أهْل مكّة والمدينة المشرَّفتين وغيرهم ، وَفُرِّق على جميع الجيران ، وكثيرٍ مِن غَيْرِهم ، وفَضَل طعامٌ كثيرٌ فُرِّق منه عَلَى أهل حَبْسِ الرّحبة حتى اكتفوا ، ثم أُعِيدت التَّفْرقة مِن الباقِي على الجيران وغيرهم حتّى فرغ بعد عِشاءِ الآخِرَة بنحو عشر مِن دَرَجه ، وكثر الشكر والثناء الصّالح مِن النّاس على ذلك ، حتى اشتدّ تعجب بعض من حضره مما حصل فيه مِن البركة والنمو ، وأُخْبِر أن غيري عمل أكثر مِن ذلك فلم يُمَدّ هذا المدّ ، ولا قريب منه ، واحتاج بعض من حَضَر إلى تكملة عشائِه مِن السوق ، فلله الحمد على ذلك كثِيْراً ، لَمْ أذكرُه إلاّ سروراً بنعمة الله وتذكِيْراً بها ، ليكون ذلك داعِياً إلى الشكر .

ومِن عجائب ذلك أنَّ الشيْخ شهاب الدين بن صالِح أَخْبَرني : أنه كان رأى بَيْتَين لشخص حجازي في حبشي وهما :

وكّــلْت شخصــاً في شــرا أسـمرٍ مِن وَلَـدِ الحَبْـشِ نقـيّ العــذار [1]

وقـلت بالله اسْتَحِـذْشَــرْطــَه [2] فابتــاع لي عَبْـداً بشـرط الخبــار [3]

---

(١) أي لا عَيْب فيه .

راجع معني (العِذار) في « لسان العرب » (٦ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥) ، و « القاموس المحيط » (٨٩/٨) ، و « محيط المحيط » (٥٨٤) .

(٢) جاء في « كتاب التعريفات » (١٣١) ، « الشرط ، تعليق شيء بشيء ، بحيث إذا وُجِدَ الأول وُجِدَ الثاني ، وقيل الشرط ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً عن ماهيَّة ، ولا يكون مؤثراً في وجوده ، وقيل الشرط ما يتوقف ثبوت الحكم عليه » .

(٣) الخَبَار : التراب المجتمع بأصول الشجر ، ومن الأرض ما لان واسترخى ، وساخت فيه قوائم الدواب =

فوقع في خاطِره أن ينظم في حبشية معنى قول النّاس ، بشرط البراءة من كل عيب فقال :

بروحيْ مـن الحِبْـش حُـلوُ الحُـلا ... وخـلْوٌ عن العيب من غـير رَيْب

خـَلا شـــرطُـه لِيَ فـابتعتُـــه ... بشـــرطِ البـراءةِ مِـن كـل عيبِ

فبعد فراغه من ذلك أتاه رسولي يسأله في المساعَدَةِ في بعض احتياج العقيقة ، فسأله ممن هو ؟ فأخبره أنّه مِن الحَبَشية وزدته أنا أنّ اسمها حُلوة ، فكان ذلك أعجب .

وفي يوم الخميس المذكور خَتَنَته ، فحصل في ذلك لطف كبير ، وبرأ في نحو خمسة أيّام ، أدام الله عليه لطفه آمين .

وفي هذا الشهْر ، حكم القاضِي محب الدين أبو البركات الهَيْثمِي بانفرادالذكور مِن أولاد المَحَرّقي بنظر وقف عليهم ، وكانت امرأة منهم قد حكم لها بعض قضاة الحنفيّة، بأنها ناظِرةٌ بحكم أنّها أرشد الموجودِين وأغْدَر لها بعضُ من حكم له الهَيْثمِي ، ومِمَّن نَفَّذ ذلك الحكم الهَيْثمِي ، وكانت المرأة مزوّجَة ببعض جماعةِ الشرفِ الأنصاري، فقام الأنصارِيُّ في ذلك وقعد ، وكان الذكور عصبة مِن الطُّوَاشِيَّة والجند ، وأقام الأنصارِي عصبـة ، وكـان مـآل النظر إلى قاضِـي الحَنَفِيّة ، فعَضبَ [1] الأنصـارِيُّ

= « لسان العرب » (٥/ ٣٠٩) ، و « القاموس المحيط » (٢/ ١٧) ، و « محيط المحيط » (٢١٤) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٢١٥) .

(١) عَضَب : أي تآزروا معه وناصروه .

راجع معنى (عضب) في « لسان العرب » (٢/ ١٠٠) .

بعضُ الحنفية والمالكية والحنابلة ، ثم سعى أنْ يُعقد لذلك مجلس في قاضِي الحنفية السّعد بن الدّيْرِي في المؤيدية ، فسعى الهَيْثَمي أنْ يكون ذلك عِند السلطان ، فأجيب ، ثم سعى الأنْصارِي ، حتى جعل ذلك في الصَّالِحيَّة ، فحضر لـذلك في نحو العشرين مِن الشّهْرِ ، وقد صارَ القضاة الثلاثة في ذلك أَلْباً [1] واحداً على الهَيْثَمي ، فسألوه عن ذلك ، فاحتجّ بظهور شرط الوَاقِف ، بِخلاف ما حكَم به نائب الحنفي ، فاحتجوا بتنفيذه [١٦٨] لذلك ، فاحْتَجّ بأنه لم يكن رأى شرط الواقِف ، وحصلت أمورٌ كثيرة ، عجزوا عِن إبطال حكمه بشيء منها ، فرأوا أن يُصْلِحوا بين الفريقين ، الذكور والإناث ، ففعلوا ، وَحكَم بذلك نائبُ الحنفي ، فأَبلغ الأنصاريُّ السلطان أنّه وقَّع الصّلْحَ وقال : لو كان حكمه صحيحاً لم يُجب إلى الصلح ، وأوْهمه أنَّ الهَيْثمِي هو الذي حَكَم بالصّلح ، وساعدته عصبته ، فعزله السلطان ، فبلَّغته عصْبَةُ الهيْثمِي جَلِيَّة الأمْر ، فعزل نائبَ الحنفي ، وهو شخصٌ من كبار الجَهَلَة يُقال له على الميموني ، فلما لم يقعوا على طائل عثروا على أنّ أبا البركات حَقَن دَمَ يهودِيّ وقع في حق النبيّ ﷺ ، بما لا يتديَّنون به ، فقاموا في ذلك ، وتعصَّب المالكِيَّة وغيْرهم ، حتّى بعضُ الشافِعِيَّة في ذلك ، فأرسل السلطانُ نقيبَ الجيش إلى أبي البركات يَوم الثلاثاء خامِس عشري الشَّهْرِ فأخذه إلى بيته ، وَرَسم عليه ، ثم أَمر القضاة فطلعوا يوم خَتْمِ البُخارِي ، يوم الأرْبعاء سادِس عشـريه ، آذان الظّهْرِ للكلام في القضِيَّة ، ففعلوا ،

(١) ألْباً : الأَلْبُ ، القوم يجتمعون على عداوة إنسان ، يُقال : هم عليه أَلْبٌ واحدٌ . « المعجم الوسيط » (١/ ٢٣) .

فأخَذَ الشافِعيُّ العَلَمُ صالِحُ البُلْقِيني يتكلَّم بما يؤدِّي إلى حقن دَمِ اليهودِي ، مِن تلك الواقِعة ، فاحْتَدَّ عليه السّلْطان ، وأسمعه هو وغيره مِن رفقته وغيرهم ما لم يكن يُظَنُ أنّه يحصل لقاضِي الشافِعِيّة ، لكن سوءَ السّيرَة يوجب ذلك فلا قُوّة إلاّ بالله .

حُكِيَ لِي أَنَّه أَخَذ حكمَ أبي البركات لِيَقْرَأه ، فأخذ يقرأ القِصّةَ التي سأل اليهودي فيها سماع الدّعْوى عليه بذلك ، فتَلكَّأَ في قِراءتها ، فقال الأنْصارِي : إذا كان سيدنا قاضي القضاة لا يُحْسِن قِرَاءة القِصَّة ، فكيف كتب عليها ، فقال له الشافِعي : اسكت يا عامِّي . فقال الأنْصارِي : العامِيّ الذي يحكم الأحكامَ الباطِلة . وقال غيره نحو ذلك وأسمعوه مِن التَّلْويح المقارِب للتّصريح ، بأنَّه يأكل الرُّشا ما يصلح لأفعاله الخَبيثة . وقال السُّلْطانُ : أنَّ اليهودِي أرسل إليَّ خمسمائة دينار ، فَلَمْ أَقْبَلَها . فقال: أبو البركات : أنا ما حكمت له في هذه الواقِعة بشيء ، انظروا الحكم هذا أنْهى أنّ جماعةً مِن المسلمين يَسِبُّوه ، إلى أنه قال هذه المقالة القبيحة وهو سكْران ، فسألْتُه عن دَفْعِ قولهِم ، فقال : إنّه عاجِزٌ عَنْ ذلك، فرأى الحاكِم أَنّ هذا يقرب مِن الإقْرار ، فسألَه هل قُلْت ذلك ؟ فقال : لا . فاسْتَحْلَفَه ، فَحَلف ، فَرَأى أن يُعزِّرَه على ما رآه يُقَارِب الإقْرار ، فضربه وسجنه ، ثم حكم بأنّه باقٍ على ما كان عليه مِن العهد ، وَحَقْنِ الدَّمِ ؛ لكونِهِ لم يُقِر ، ولم تَقُمْ عَلَيْهِ بيِّنة .

فَسَكن الأمْرُ ، وَسُلِّم اليهودِي إلى المالكِي ، وهو الحسام بن حُرَيز الشريف لِيضرب رَقَبَتَه إذا أُقيمت عليه البيِّنة ، ورسم السلطان أنّه لا يَسْتَوْفِي الحدود [١٦٩] والتّعازِيْرَ إلاّ المالِكِي ، وفرج عن القاضِي أبي البركات .

واعْتَقَل المالكيُّ ذلك اليهودي في المقْشَرة في قَيْدٍ ثقيل وغُلّ ، فأَسْلَمَ وادَّعى أنّه رأى النّبيّ ﷺ ، وأخبر شخصٌ من المسلمين أيْضاً أنّه رأى له مناماً حسَناً ، وكان المالِكيُّ قد قال : أنه يقتله وإن أَسْلَم على وجْهٍ ضعيف عندهم ، واستأذن السلطان في ذلك ، وأشْهد عليه في الإذْنِ ، فلَمّا اجتمع القُضاة ليلة الأحد سَلْخ رمضان للتّرائِي ، سأل الحنبليُّ المالِكيَّ عنه ، فقال : نقتله . فقال له : فكيف تَصْنَع بِلا إلٰه إلاّ الله ؟ (كما قال النّبيُّ ﷺ لِأُسامَة بن زيد رضي الله عنه) [1] فلم يدر ما يُجيبه ، وكان قليل البِضَاعَة في العِلم ، فأغلظ له الحنبليُّ .

ثم استمر مسجوناً ، وأرسل المالِكي إلى نابُلُس وإلى القدس يبحث عن القضِيَّة والشهود ؛ لأن القَضِيَّة كانت في نابُلُس ، فلم يعثروا على شهود بذلك ، ولم يزل الأمر مُتمادِياً حتى مات الرجل في الحبس ليلة السبت خامِس عشري ذي القعدة مِن السَّنة .

---

(١) روى (مسلم) في « صحيحه » (١/ ٩٧ ـ ٩٨) (١ ـ كتاب الإيمان ـ باب ١٦٠ من قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله) أَنَّ جُنْدبَ بن عبد الله البجليّ بعث إلى عَسْعَس بن سَلاَمَة ، زمن فتنة ابن الزبير ، فقال : اجْمَعْ لِي نَفَراً مِن إخْوانِك حَتّى أُحدِّثهم . فبعث رسولاً إليهم ، فلما اجتمعوا جاء جُنْدب وعليه بُرْنُسٌ أصفر . فقال : تحدَّثوا بما كنتم تحَدَّثون به ، حتّى دار الحديث ، فلما دار الحديث إليه حَسَر البُرنُس عن رأسه فقال : إنِّي أتيتُكُمْ ولا أريد أن أُخبركم عن نبيِّكم . إنّ رسول الله ﷺ بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وإنهم التقوا فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قَصَد له فقَتَله ، وإنَّ رجلاً من المسلمين قصد غَفْلَته . قال : وكُنَّا نُحَدِّث أنه أُسامة ابن زيد . فلما رفع عليه السيف قال : لا إلٰه إلا الله ، فقتله ، فجاء البشير إلى النبي ﷺ ، فسأله فأخبره. حَتّى أخبره خَبَر الرّجل كيف صنع ، فدعاه . فسأله . فقال : لِمَ قتلته ؟ قال : يا رسول الله أَوْجَع في المسلمين ، وقتل فُلاناً وفُلاناً . وسَمَّى له نفراً . وإنِّي حملتُ عليه . فلما رأى السيف قال : لا إلٰه إلا الله ، قال رسول الله ﷺ : أَقَتَلته ؟ قال : نعم . قال : فكيف تصنع بلا إلٰه إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال : يا رسول الله ! استغفر لي . قال : وكيف تصنع بلا إلٰه إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ قال : فجعل لا يزيده على أن يقول : كيف تصنع بلا إلٰه إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ .

وفي آخِر يوم الأَحَدِ الثلاثين مِـن شـهر رمضـان هـذا قَـدِم الشيخ أبو الفضل البجائي مِن إسكندرِيّة وأخبر أنّه خرج منها ضَحْوَة يوم الخميس سابع عشريه ، بعد أَنْ جَهَّز معه نائبها جانِبَك النَّيْروزي خمسة عشر جنديّاً يوصِلونه إلى رشيد ؛ وذلك لِأن عَرب ابن سعدان [١] أحد شيوخ العَرَب بتلك الناحِيَة يقطعون الطرِيقَ بين إسكندريّة ورشيد لِأنّ سُودُون قرقش ، قبض على شيْخِهِم ابن سعدان المذكور ، وقدِم به إلى السّلطان فاعتقله ، فوصل الشيخ أبو الفضل إلى رشيد آخِر يوم الخميس المذكور ، ثم رَكِب البحر فكان سَيره فِيه مِن رشيد إلى القاهِرة نحو يومين وليلة ، وهذا قلّ أن اتفق لِأحد .

وأَخْبَرني أَنّه أتى في مدّة إقامته بإسْكندرية مركب مِن البنادِقة ، وإذا آخر مِن الكَيَتلان يطرده ، فسبقه البندقيُّ إلى الميناء ، فأقام ذلك أيَّاماً ، ثم رأى مركِباً آتِياً فلاقاه ، فإذا هو مِن نواحِي الرُّوم ، فقاتلوه ، وكان قد أَخذ ريحهم فأطلق جميع قلوعِهِ ، وكان كبيراً جِدّاً ، ونطح مركبهم وَوَثب منه تسعةٌ مِن شجعانهم إليهم ، فقوي الرِّيْحُ فداس مركب التركمان ، فأغْرَقه ، فلم يطلع أَحَدٌ سوى اثنين ، الفرنج وجاريتين ؛ تعلّقوا بخشبة واستمرّوا عليهـا إلى أنْ أخرجتهم إلى ناحِيَـة أبي قير [٢] ، بعـد يومين أو

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٧١٣) و « إنباء الهصر » (٧٥) أن السلطان الأشرف قايتباي سلخه بالبحيرة ، وقتل معه جماعة من أعوانه في ذي الحجة من سنة ٨٧٣ هـ ، عندما قبض عليه بمدينة فوّه قبل شهر من تاريخه .

(٢) أبي قير : أو بُوقير ، قرية صغيرة من مديرية البحيرة تبعد ٢٣ كيلو متراً شرقي الإسكندرية على طريق رشيد ، وهي من ضواحي الإسكندرية وتابعة لها من الناحية الإدارية ، بها قلعة منيعة ، وبقربها السد المشهور بسد بو قير اشتهرت عقب المعركة المسماء باسمها والتى نشبت في خليج بوقير في أول أغسطس سنة ١٧٩٨ م (١٢١٢ هـ) عندما دمَّر الانجليز فيها بقيادة (نلسن) الأسطول الفرنسي الذي كان يحمي حملة (نابليون بونابرت) على مصر ، وبعد =

أكْثر ، فلما طلعوا ذبحواالمرأتين ، وذهب منهم اثْنان ، فأَبْعَدوا عن الطريق شيئاً وجلسوا ، فرآهما المسافِرون فاستنكروهم ، فقبضوا عليهما وأتوا بهما إلى إسكندريّة فأسْلَماهما للنائِب ، فسألهما عن حالِهِما فقصَّا عليه القصّة ، ثم خَرَج منهم ثلاثة إلى تلك النّاحِيَة [فذهبوا] [1] إلى كوم الأفراح [2] ، فأكلوا مِن البلح ، وشربوا مِن النيل ، ثم رجعوا إلى إسكندرية ، وكانوا يكمنون النّهار ، ويسيرون الليل ، فقدموها ليلاً ، وذهبوا مِن وراءالسور ؛ يقصدون التوصّل إلى مركب هناك من جنسهم ، فَعُثِر عليهم ، فهرب منهم اثْنان في البحر عَوْماً ، وقُبض على واحِد ، فقصَّ عَلَى النّاس قِصّة نَفْسه ، ورِفْقَته ، ثم عُثر ليلاً على اثنين ـ يشبه أن يكونا منهم ـ خارِج باب البَحْر ، فَقُصدا فنزلا في البحر ، فلم يُظْفر بهما فلا قوّة إلاّ بالله .

[١٧٠] وفي شهر رمضان هذا عَثر ناظِرُ الخاص الجمال يوسف بن كاتب شكم على خيانَة مِن خَزَنْدارهالثّاني، وهو مملوك له يُسَمّى جَانَم في ثياب حَرير وغيرها مِن حاصِله ، كأَنّه أَخذَها لمَّا مَرِض وأشفى على الموت ، كما مضى في العام الماضي [3] ، فتَتَبَّعها فإذا هي تزيد على خَمْسَة عشر ألف دينار ، وجد منها عند بعض من أودَع عنده شَيْئاً يسيراً ، فأراد عقوبته لتحصيل الباقِي ، فأتاه ناسٌ مِن الأجْلاب فتهدّدوه بالقتل متى وضع عليه وَلَو عُودَ ريْحان ، فلم يقدر على الوصول إليه ،فسبحان القادِر على كلّ شيء .

= عام من ذلك التاريخ وبالقرب من بو قير هذه انتصر نابليون بونابرت على الأتراك ، كما استطاعت الحملة الإنجليزية التي نزلت بالقرب من بُوقير ٨ مارس عام ١٨٠١ م أن تقضي على حكم الفرنسيين نهائياً لمصر .

راجع : « عجائب الآثار » (٢/ ١٧٩ وما بعدها) ، و « الخطط التوفيقية » (١٠/ ١٢ـ١٦) ، و « دائرة المعارف الإسلامية »(١/ ٣٩١ـ٣٩٣) .

(١) في الأصل (فذهبا) .

(٢) جاء في « الخطط التوفيقية » (١٥/ ١٢) أن الكوم يُطلق على عدة قرى صغيرة بمصر .

(٣) راجع (ص٢٠٣) .

آخر السنة القبطيـــة

وكان آخِر السَّنَة القِبْطِيَّة يوم الثلاثاء ثاني شوال ، وأوّل أيّام النَّسيم الأربعاء ثالثِه ، وأول توت وهو يوم النيروز يوم الاثنين ثامِنه ، ولم يُفتح في هذا اليوم قناطِر بني منجا وهو السّدّ الّذي مِن دون سد الأميريَّة ، وقد كانت العادَة جارِيَة بفتحه يوم النَّيروز فاختل ذلك بتواري الإسْتَدَّار ، وفي ذلك ضرَرٌ عظيم عليه ، بفوات المنافِع التي يجري إليها الماء ، واستمر ذلك إلى يوم السبت سادِس توت ، أو الأحد [سابعه] (١) .

وفي آخِر يوم الأربعاء عاشِر شوال هذا وَرَد الخبرُ أنَّ العسكر الرّاجع مِن بلاد ابن قَرَمان حصلت لهم مَشَقّةٌ في ما بين غَزَّة وبلاد مِصْر ، فمات كَثيرٌ من مواشِيهم ، ومنهم في ذلك الرّمل ، ومنهم مَنْ تَعَجَّلَ فمات قريباً منهم حاجب الحجاب جانِبَك (٢) القَرَماني أحد رؤساء العسْكر ، قيل : إنه مات في الخطارة (٣) ، وحمل إلى منزله بالقاهِرة مَيّتاً (٤) ، وعُيِّنت وظيفةُ حجابة الحجَّاب للأمير بَرْسْباي صِهْر الأمير بُرْدْبَك على ابنته .

وفي آخر يوم الأحَد (٥) رابع عشر الشهر ، وصل بقيّة أمراء الجيش ، فنزل خُشْ قَدم أمير سِلاح ، وقَرْقَماش رأس نَوْبَة النُّوب في التُّرَب ، وذهب يونُسُ العلائي إلى بيته ؛ لِأنّه كان مريضاً .

وفي صبيحة يوم الاثنين خامِس عشرة ، طلعوا إلى السُّلْطان ، فأحسن تَلَقّيهم وخلع عليهم ما جرَت به عادَةُ كلٍّ منهم (٦) .

---

(١) في الأصل (ثامنه) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢)راجع « هامش٢ » من (ص ٢٩١) من القسم الأول .

(٣) في : « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٠) و«الضوء اللامع» (٣/ ٥٩) بالقرب من منزلة الصالحية .

(٤) في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٠) أنَّ رِمَّته وصلت إلى القاهرة في يوم الجمعة ١٢ شوال .

(٥) في « حوادث الدهور » (٣٠٢) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١١) في يوم الاثنين ١٥ شوال .

(٦) راجع الخبر في : « حوادث الدهور » (٣٠٢ـ ٣٠٣) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٠ـ ١١١) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٥٩ ـ ٦٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٧ـ ٤٨) .

وفي يوم الخميس ثامِن عشرِ الشّهر خُلع على الناصري محمد بن السلطان بإمْرَة الحاجّ وكان قيل لِأَبِيِهِ : أنّه لم تجر عادةٌ بِأنّ ابن السّلطان يكون أمير الحاجّ ، فقال : قد عرفت ذلك ، وأنا أعملُ هذا عادةً ، وخلع أيضاً على أخيه أحمد ، وخرجوا بالمِحْمَل إلى بركة الحاجّ ، وكان النّاس يظنون أنه يخرج معه إلى الحجّ أكثر مِن كلّ سنة ، فإذا هم قد خافوا مِن الزّحام وَظُلْم الأتباع ، ولا سيما وقد شاع أنّه لم يبق في مصر أحدٌ مِن اللصوص الذين يُقال لَهم النَّفَر إلاّ استعملهم جَمَّالته ، وكذا الزَّغَلية ، وهم الذين يُفسدون الدّرهم والدينار إلى غير ذلك مِن المفسدين ،كالبَزادرة وهم أرباب الطيور وأنظارِهم . فَتوفَّرَت دَوَاعِي النَّاس على التَّرْكِ لِأجل ذلك ، وَذَهَب غالب من قصد الحجّ مع ركب الأتراك الذين يذهبون كلّ سنة لحفظ مكّة المشرفة والإقامة بها إلى الموسم ، فرحلوا مِن البركة ليلة السَّبْت العشرين منه ، وذَهَب كثيرٌ مِن الناس أيضاً مع أمير الرّكب الأوّل ، وهو يَشْبُك (١) المشهور بالباش (٢)، أحَدُ جماعة الأشرفيّة ، فرحل بهم ليلة الأحد العشرين مِنه ، وكان في ركْبه الشيخ كمال الدين (٣)

---

(١) في « حوادث الدهور » (٤٠٥)، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١١) ، يَشْبُك الأشقر الأشرفي .

(٢) جاء في « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٧٥ رقم ١٠٨٢) يشبك باش قلق (ومعناه ثلاثة آذان) المؤيد شيخ ، صار بعده خاصكيّاً ، ثم تأمّر على دمشق أيام الأشرف بَرْسْباي ، مات بعد عوده من تجريدة سوار سنة ٨٧٢هـ ، وقد بلغ السبعين .

(٣) هو : محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن علي يوسف بن منصور ، الكمال القاهري الشافعي إمام الكاملية هو وأبوه وجده وجد أبيه ، ويُعرف بابن إمام الكاملية ، ولد في صبيحة يوم الخميس ١٨ شوال سنة ٨٠٨ هـ بالقاهرة ، ونشأ بها ، وسمع فيها من أبرز علماء عصره ، وصنّف عدة مصنّفات ، منها : مختصر تفسير البيضاوي ، ومختصر شرح البخاري للبرهان الحلبي ، وشرح مختصر ابن الحاجب . مات يوم الجمعة ٢٥ شوال سنة ٨٦٤هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط)(٦٥٧ـ ٦٥٨)، و « الضوء اللامع » (٩/ ٩٣رقم ٢٥٩)، و« نظم العقيان »(١٦٣رقم ١٧٢) .

ابن إمام الكامِليّة ، وأبوالعبّاس [1] بن الشيخ شمس الدين الغَمريّ [2] .

وفي ضحى يوم الأَحَدِ [3] هذا ، وَصَل الأمير جانِبَك ، ناظِرُ جُدّة ، ومعه زين الدّين يحيى الإِسْتدّار، فارتجت له البركة ، وسُـرّ النّاس بقدومه .

وفي ليلة الاثنين ثاني عشري الشهر أُحْرِق بين يَدَي ابن السّلْطان مِن النَّفط شيء عظيم ، قلّ أن رؤى مثله ، ثم رحل في أواخِر هذه الليلة بنحو ألف عليقة له . وخمسائة لِأمّه [4] وأختيه امرأة الدُّوَيْدارين [5]، يَونُس ، وبُرْدْ بَك وأتباعهن ، وأنفق ناظِر الخاص عليهم قبل ذهابهم من البِرْكة ، نحو أربعين ألف دينار [6]

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن عمر ، الشهاب أبو العباس بن الشمس أبي عبد الله الغَمري الأصل المحلي الشافعي ، المعروف بأبي العباس الغَمري ، مات والده وهو صغير ، وسمع من علماء مصر ومكة ، جدّد عدة جوامع في المحلّة ، ومات في ٣ صفر سنة ٩٠٥ هـ ودفن بجامعه الذي أنشأه بالقرب من مرجوش ، وباب القوس .

له ترجمة في : « الضـوء اللامـع » (٢ / ١٦١ رقم ٤٦٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٣٦٢) .

(٢) خبر إمرة الناصري بن السلطان للحج وما صاحبه من أحداث في : « حوادث الدهور » (٣٠٣ـ ٣٠٥) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١١) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٨) .

(٣) في « حوادث الدهور » (٣٠٥) في يوم الاثنين ٢٢ ، وفي « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٢) في يوم الثلاثاء ٢٣ .

(٤) وهي خَوَند الكبرى زينب بنت البدري حسن بن خاص بك .

« حوادث الدهور » (٣٠٤) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١١) .

(٥) الصغرى زوجة يونس ، والكبرى زوجة بُرْدْ بَك .

« حوادث الدهور » (٣٠٤) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١١) .

(٦) راجع « حوادث الدهور » (٣٠٣ـ ٣٠٤) .

وكان في ركبه مِن الأعيان [١٧١] المحب بن الأشقر ، كاتب السرّ ، ومعه بعض أولاده وعيالِهِ ، والتّقِيّ أبو بكر بن مزهر ، ومعه أُمُّهُ وأمّها ، والعَلَم شاكر بن الجيعان ، وعلي بن خليـل بن خَصْبَك بن خال بن السلطان ، ومحمد ابن أَيْتَمُش الخِضْري بن خالته ، وقاضي المِحمْل إمام ابن السلطانِ ، أبو الفتح بن الشيخ شمس الدين الحجازي المشهور بالمكتب وليس عِنده أهلِيّة لإمامَة ولا قضاءٍ ، والله الهادي ، وسافَرَ الأميرُ بُرْدُ بَك لوداعهم .

وكان ابن السّلطان قبل شهر رمضان قد أَرْسل الشرف موسى الأنصاري بفولٍ كثيرٍ جِدّاً ، يُقال : أَنّه نحو أرْبعة آلاف إردّب إلى القُلْزُم التي تُسمى الآن السُّوَيس [١] (بمهملين مصغّر) أوسقه له في مَرْكبٍ ، هو للشَّرَفِ المذكور كبيرٌ جداً ، وفيه لناسٍ غيْر ابن السلطان ، منهم صاحِب المركب ، ومنهم صاحبه ، بل شيخه عيسى المغربي ، ذلك اللّعِين المتقدِّم ذِكْرُه ، له فيها مائة وثلاثون حملاً ما بين قَمْحٍ وَدَقِيق ، وكان ضَمِن لهم أَنها تَصِلُ بالسَّلاَمَةِ على عَادَةِ مجازفاته في دعاويه للمغيَّبَات ، كما أخبرني الثقة أنه سمع ذلك مِنه غَيْرَ مَرَّة ، فبلغهم قبل الرّحيل مِن البِرْكة أنّ المركب غَرِق بمن فيه وما فيه ، وبيّن الله كذبه ، وأَخْسَرَ تِجارته الدنيوية مع الأخروية ، ولكنهم لا يعقلون ، وكان هذا افتتاح سفرهم .

---

(١) السُّويْس : مدينة على الجانب الغربي لخليج السويس المسمى بالبحر الأحمر ، وهي ثغر من ثغور مصر ، وفرضة هامة لتجارات جزيرة العرب والهند والسودان ، واقعة شرقي القاهرة بنحو ١٣٥ كم ، مكان المدينة المعروف بالقُلْزُم ، ولا يُعرف متى سُميت بالسويس أو سبب تسميتها بذلك .

« خطط المقريزي » (١ / ٢١٣) ، و « الخطط التوفيقية » (١٢ / ٦٩ ـ ٧٠) .

وبلغني أنه لمّا بلغه ذلك قال : قد علمتُ أنّها تغرق ، وبعت ما لي فيها لِشرف الدّين ، ولو أنّ عِند شرف الدِّين ذكاءٌ كان عَلِمَ أنِّي ما بعته إلاّ لِعِلْمي أنها تغرق ، فانظر إلى المباغتاتِ كيف يفتضح فيها المُكْرَه أنفُ مَنْ نِسْبَته إلى الجهل بالغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله ، أو مَن يختصّهُ من خُلّص عبادِه ، فنفاه عنه ، ونسب نَفْسه إلى الغش وهو حرام مُطْلَقاً ، وأمّا غِش الصاحِب وإيثار النَّفْسِ عليه فلا يرضاهُ ذو مروءة وإن كان كافِراً .

موت قاسم البلقينى

وفي يوم الأحَدِ حادِي عشريه ، مات القاضي أبو العَدْل قاسم [1] بن قاضى القضاة جلال الدين عبد الرّحمن بن شيخ الإسلام السّراج البُلْقِيني ، عن نحو سبعين سنة ، وكان له اشتغال بالفقه ، وعِنده فيه فَضْلٌ يسير ، وكان يريد إقامة سوقه بالكرم ، فكان في كلّ سَنَةٍ يقسِّم كِتاباً مِن مختصرات فقه الشافِعِيَّةِ ويفضل بمالِه على مَن يقرأ عليه أوْ يحضر عِنْدَه ، فكان يحضر عنده كثيرٌ مِن الفضلاء ، فيخلع على غالبهم يوم الخَتْمِ مِن الصّوف وغَيْرِه ما يليق بكل منهم ، ويُعْطِي بَعْضَهم صُرَراً ، وبعضهم طعاماً ، على قَدْر منازِلهم ، ثم طال عليه الأمر ، فترك في آخر أمْرِه ، وكان يتَّجر في الجلود ، فكان يتردّد إلى المدابغ ، لِأجل ذلك ، وكان مفرطاً في اعتقاده الصلاح في كلّ مدَّع ، حتى أنه كان يذهب كل جمعة إلى الخانكاه ، يزور الشيخ محمد الكوَيّس ، وله مع غيره مِمّن هـو في سلكه

(١) هو : قاسم بن عبد الرحمن بن عمر بن رسلان بن نَصير بن صالح ، الزين أبو العدل بن الجلال أبي الفضل بن السراج ، البُلْقيني الأصل القاهري الشافعي ، ولد في جمادى الأولى سنة ٧٩٥هـ بالقاهرة ونشأ بها في كنف والده ، وناب في الحكم سنين ، وتولى نظر الجوالي ، وكان فيه كرم أفقره في آخر عمره .

له ترجمة في « الدليل الشافي » (٢ / ٥٢٧) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١٨٨ ـ ١٨٩) ، و« الضوء اللامع » (٦ / ١٨١ رقم ٦٢٠) .

ويُحكى عنهم أشياء خوارِق ، يَغْلب على الظّنّ مجازفته فيها ، وكان يُتكلَّم في دينه ومروءته ، عفى الله عنه ، ووثب الناس ، وأوّلهم أقارِبُه على ابنه فأخذوا غالب وظائفه ، وأجلّها .

وفي ليلة الاثنين ثاني عَشْري شَوّال هذا سافَرَ الشيخ الإمام محقّق الزَّمان أبو الفضل البجائي المغربي ، مِن القاهِرة مع العرب ؛ لضِيق الحال به في القاهِرَة فوا أسفى .

سفر الشيخ أبي الفضل

[١٧٢] وقلت ليلة الجمعة سادس عشرِي الشّهر أنْدب فِراقَه أعقبنا الله منه عُقْبَى حَسنةً .

أأحبَــابَنــا أوصيــت من لــكُمُ أَلْفَــى
يَحّييــكُمُ مهمــار أى وجهــكُمْ الْفَــا

ألا إننــي مــا خُنــتُ والله عهــدَكُــمْ
وكيــفَ ومثــلي يــا خليــلِي مَــنْ وَفَّى

أبـا الفضــل إنَّ الفضــلَ سـار بسـيرِكمْ
وأورثَ شـمـسَ العِــلْم بينكم الكسْفَــا

وعــادَ ظــلاماً أُفــقُ مِصْــرٍ وأوحَشَــتْ
محــاسِنُــه يا لهــفَ نفــسيَ يـا لَهْفَــا

برغمِــيَ واللهِ العظيــمِ رحيــلــكُــمْ
ومــا مــلّ جَفني الـدمعَ فيك ومــا جَفَّا

رعــى اللهُ أيّـامــاً تقضَّــتْ بقُــربـكُــمْ
فــلم تُبْــقِ لي إلاّ التــذكُرَ والوَصْفَــا

رتعــتُ بفهمــي في ريــاض دُروسِــكم
زمــانــاً فأنْسَتْــني المؤانِسَ والإلفَــا

أُشَبِّهُهَا البحْرَ الخِضَمَّ فبعضُنا

تُغَرِّقه والبَعضُ تُوْسِعهُ لُطْفَا [1]

وكالدّر تَلْقَى عند قوم قلائداً

وتصْدَفُ عن قَوْمٍ بجُملتها صَدْفا

تُصِمّ معانِيْها مسامِعَ مَعْشَرٍ

وتُضْحِي لِأَسْماعٍ جواهِرُها شَنْفَا

فكم زَهْرُ علم قد نشَقْتُ عبيَرَهُ

بها وثِمار قد أَجَدْتُ لها قَطْفا

وكم سَرَّحَتْ أفكارنا في تنائف [2]

مهامِهِ [3] فيْحٍ تورث الخوف والضَعْفا

فجالت بها ألبابُنا وتآنَسَت

بأفكارِكُمْ حتّى غدَت تَسْبقُ الطّرْفا

وما دقّ معنىً أو أَلَمّت مُلّمةٌ

وإنْ أعضَلت إلاّ كشَفْتها كشْفا

---

(١) لطفا : رفقا .

« محيط المحيط » (٨١٦) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ٨٢٦) .

(٢) تنائِف : التنائف ، جمع تنُوفَة ، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس ، أو المفازة والأرض الواسعة البعيدة الأطراف .

« لسان العرب » (١٠ / ٣٦١) ، و « القاموس المحيط » (٣ / ١٢٥) ، و « محيط المحيط » (٧٤) ، و « المعجم الوسيط » (١ / ٨٩) .

(٣) راجع « هامش٢ » من (ص١٢٥) .

أفضـــتُ على تلك الــدْروس ســحائِبـاً

من الدَّمْع ما حاكى السحابُ لها وَكْفَا [1]

لقــد عَــزَبَت عنّــا المعَــارِفُ إثْرَكُــمْ

وأَنكــرتِ الأفْكَــارُ بعـــدَكمُ العُــرْفَـا

عـلى أم دَفْـــرٍ [2] غَضْبَـــةُ الله إنَّهـــا

مقَطِّعـــة حبـلَ التـواصُــلِ والــزُّلْـفَــى

وقفْــتُ على تلـك المـعَــاهِـدَ بَعْـدَكـم

أُســائِلُـها عنــكم فمــا نطقَـتْ حَـرْفـا

بلى نطــق الحــالُ الــذي هَــدّ خـاطِري

وشــبّ بقـلبي لاعِجـاً [3] جلَّ أن يُطْفى

(١) وكْفَا : وكَفَ الماء والدمع يكِف وَكْفا ووُكُوفاً وَوَكِيْفاً وتَوْكافاً ، قطر وسال قليلاً قليلاً ، وكذا البيت إذا تقاطر سَقْفُه بالمطر ، والعين بالدمع أسالته ، ويقال : وكفت العين بالدمع .

« لسان العرب » (١١ / ٢٧٩) ، و « القاموس المحيط » (٣ / ٢١٢) ، و « محيط المحيط » (٩٨٣) ، و « المعجم الوسيط » (٢ / ١٠٥٤) .

(٢) أم دَفْر : أشار المؤلف في الحاشية اليمنى للصفحة أنها هي الدّنيا تُكنّى بهذا .

(٣) لاعجاً : اللاعِجُ ، هو الهوى المُحْرق ، ويُقال : همٌّ لاعج ؛ لحرْقة الفؤاد من الحبّ ، ويقال : به لاعِج الشوق و لواعجه .

«لسان العرب» (٣ / ١٨١) ، و«القاموس المحيط» (١ / ٢١٣) ، و«محيط المحيط» (٨١٧) ، و«المعجم الوسيط» (٢ / ٨٢٨) .

فقال قضَى ريبُ الزّمانِ بِبُعدهمْ

وأسقاكَ صَرْفُ الدّهرِ[1] بَيْنَهُم[2] صِرْفا[3]

فعدت ولم أملك سوابِقَ عَبْرَةٍ

تفِيضُ وزفراتٍ أبى داؤها يُشْفَى

بلى إنَّني أُشفى بطيبِ لِقاكُمُ

وهل تلحَقُ الأدواءُ مَنْ دُرّعَ اللُّطْفَا

ألاَ أيّها البَيْنُ المشتّتُ شملَنا

إلى كم تُعادِينا تسير بنا عَسْفَا

وتُبلِغُ أقواماً أقاصِي مُرادِهمُ

وهمْ كالحمير الطّالبات لها وُكْفَا

إلى الله أشكو فَهْوَ يفْصِلُ بيننا

فتُبْلى بما أُبلى ومن وصَبِي[4] أُعفى

---

(١) صَرْفُ الدهر : نوائبه وحدَثانه .

« محيط المحيط » (٥٠٦) ، و« المعجم الوسيط » (١ / ٥١٣) .

(٢) بَيْنَهُمْ : أشار المؤلف في الحاشية اليسرى للصفحة ، أن المراد بالبين هنا الفِراق .

(٣) صِرْفا : أي محضٌ خالصٌ .

« محيط المحيط » (٥٠٧) ، و« المعجم الوسيط » (١ / ٥١٣) .

(٤) وصَبِي : الوَصَب ، التعب والفتور في البدن ، والوَصَب ، المرض والوجع ، ودوامها ولزومها .

« لسان العرب » (٢ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧) ، و« القاموس المحيط » (١ / ١٤٢) ، و« محيط المحيط » (٩٧١ـ٩٧٢) .

ثم وصل الخبر أنه وصل إلى الطُّورِ [١] ، ثم خبرٌ آخر أنه وَصَل إلى جُدّة ، ثم لم يلبث أن شرع النّاسُ في قال وقيل بسببه ، فبعضٌ يقول رؤى في مُنُوْف [٢] متنكّراً ، وآخر في فُوّه [٣] ، وآخر في دِمْيَاط ، وآخر في الصّعيد في بلاد ابن عمر ، واختلفوا في الأسْباب ، فكنت أكذِّب جميع ذلك ، لكِنّي أنكِرُ حقاً الخَبر من جهة مكّة ، فلا يأتي قادِمٌ منها إلاّ سألْنَاه ، فيقول : لا عِلْم لي بِهِ ، ثم أتاني خَبَرٌ صحيح ، أنه كان في الخَانْكَةِ في شوّال سنة اثنين وستين ، بعد ذهاب الحاج بيسير ، فاكترى إلى الطُّور ، وركِب البَحْرَ ، ثم جاء الخَبَرُ مع الحجّاج أنه لقيهم في يَنْبُع ، فاكْتَرى معهم وحجّ ، وأرسل كِتاباً مع بشير الحاجّ كما سيأتي ، وَذَكر فيه اختلافَهم في الوقْفَة ، ثم أتى كتابُه يقول ما نصّه : « أما بعد ، فإنّي كتبته إليكم من مِنَى ، وقَدْ منّ الله تعالى بلوغ المنا ، بحضور المشاعِرِ لِأداء المناسِك ، والمَرْجُو مِن الله تعالى القبول ، ولولا جُمل اعتراضِيّة عاقَت فيما مضى عن التَّعهد بموالاة الرّسائل ما أبطأَتِ المكاتَبَة عنكم إلى هذا الحِيْن ، ولكنَّه كان ماجَرَا أنّي لما فَصَلْت مِن القاهِرة المحروسة في السنة الحالِيَّة ، أعني

---

(١) الطُّور : هو طُورُ سيناء ، اسم جبل بقرب أَيْلَة (العقبة) وعنده بُليد فُتح في زمن النبي (ﷺ) سنة ٩ هـ صلحاً على أربعين ديناراً ثم فُورقوا على دينار لكلّ رجل ، فكانوا ثلاثمائة رجل .

« معجم البلدان » (٤/ ٤٨) .

(٢) مُنُوْف : بلدة قديمة تُنسب إليها مديرية المنوفية التي مركزها الآن بلدة شيبين الكوم ، يقول (على مبارك) في « الخطط التوفيقية » (١٦/ ٤٧) : « مُنُوْف الآن رأس مركز من تلك المديرية واقعة في شرقيها بقليل ترعة البطيحة ، ويكتنفها من جهة الغرب والجنوب بحر الفرعونية » .

(٣) فُوّة : مدينة قديمة كبيرة من مدن مصر بمركز دسوق من مديرية الغربية على الشاطىء الشرقي لفرع رشيد ، وفي شمال دسوق على بعد ساعتين .

« الخطط التوفيقية » (١٤/ ٧٧) .

سنة إحدى وستين ، وصَلْتُ إلى الطُّور ، ثم سافَرت في البحر إلى جُدَّة ، ثم أكريت إلى مَكَّة المشرَّفَة ، واتَّفق أَنْ لَقِيَنَا هناك رجلٌ ظَاهِرُ الخَيْرِ والدِّيانة مِمّن يَعْتقد النّـاسُ خَيْره، وأنا منهم، فسـألته إبْـلاغ كتبي إليكم خصوصاً، وإلى سائر الأصحاب عموماً ، فأجاب إلى ذلك، فشرعتُ في كتابَة الكتب ، فتغفَّلَني وأنا غير متحذِّر مِنه أصْلاً ، فاختلس لي كُتُباً صَغِيَرة الجِرم، نفيسة العِلم، جليلة الخَطَر، وضمنها نفعة جليلة، وحان مِنّي تفقد بعد انصرافِهِ ، فوجدت أَعَزْ ما عِنْدي قد ذهبَ به على وَجْه تَحقَّقت أَنَّه المختلس لذلك لا غيره ، فالتمسته فوجدته سافر في الحال ، فسافرت في طَلَبِهِ متتبِّعاً له، وحكايتنا طويلة، نذكر تفصيلها مشافهة إنْ شاء الله تعالى ، حاصلها بإيجاز : أني ظفرت به ، بعد تعب طويل ، وأخذتُ منه جميع الكتب ، لم يَضِعْ منها شيء ، والنَّفَقة الجليلة ، إلاَّ بِضْعَة عشَرَ ديناراً ، ذَكَر أَنَّه تَصَرَّف فيها ، وأظهر [التوبة] (1) والنَّدم ، وسأل بالله تعالى العفو عنه لوجه الله تعالى ، ومسامحته في الدُّنيا والآخِرة وَسَتَرَه بَيْنَ النّاس ؛ فعفوت عنه لوجه الله تعالى ، وعاهدته على سِتْرِهِ لله تعالى، وَوَفَّيْتُ له بذلك، ورجوت مِن الله تعالى أنْ يُعاملني على تقصيري بمثل ذلك. فكان الشغل بهذا الحادِث عائقاً عن معاهدتكم بالمكاتَبَة». انتهى .

ثم أخبرني من له اطّلاع على بعض ذلك أَنّه أوّل ما بَدَأ ببلاد ابن عمـر، في ناحيةِ الصعيد ، ثم شمّ خَبَر المختلس في الفَيُّوم ، فَدَخلها ، ثم قَدِم إلى مِصر القديمة (2) ، ثم انحدر في البحر إلى دِمْياط ، ثم رَجع إلى

---

(1) في الأصل (والتوبة) والتصحيح من مفهوم السياق .

(2) مصر القديمة : هي مدينـة الفُسطَاط التي بناها عـمرو بن العاص رضي الله عنه في سـنة ٢١ هـ تقريباً .

« معجم البلدان » (٤ / ٢٦٢ـ٢٦٣) .

إلى مُنُوْف فوجد الغريم بها ، فأخذ منه متاعِه ، فاطَّلع على ذلك بعض الناس ، فرفع الأمْرَ إلى الكاشِف بتلك البِلاد ، الأمير قاسِم ، فطلب الشَّيْخ وهو على هيئة الاختفاء ، فحاوَل الخلاص مِنْه ، فلم يَقْدِر ، فَسَأله أن يخلِّيه ففعل ، فأخْبَرَه عن نَفْسِهِ ، وقصّ عليه أمْرَه واسْتَكْتَمه ، وفارقه فاطلع عليه بعضُ من يعرفه هناك ، فخافَ اشتهارَ أمْرِه ، فَغَطس إلى فُوَّة، ثم قَدِمَ إلى القاهِرَة متنكِّراً ، فأخذ بَعْضَ ما كان له هناك مِن الأمتعة، ثم ذهَبَ إلى الخانْكَة أيّام سير الحجاج، فاكْترى بعد ذهاب الحجاج بقليل إلى الطُّور .

[١٧٣] وَفي أَوَاخِر يوم الثلاثاء سَلْخ شوال المذكور ، قَدِم الأميرُ بُرْدُبَك مِن تودِيع ابن استاده ونسائه ، ووصل معهم إلى نَخْل (١) ، وحصل بسَفَرِه معهم خَيْرٌ ؛ زَجَر بعض المفسدين ورغّب ابنَ استاده في الخَيْرِ ، قال له : هذه السَّفْرَة حظك إمّا أن تُرَبِّي لك مهابةً ومحبةً مِن جميع النّاس ، وإمّا أن تُبْقي عليك عاراً لا يُغسل إلى آخِر الدَّهْر ، فاخْتر لنفسك .

وفي هذا الشهر قدم رسلٌ مِن عند جهنشاه (٢) بن قَرَا يوسف ، صاحب بغداد ، وما والاها ، يخبرون أنه قتل مِن أولاد الشِعشاع (٣)(٤) ، واستباح بَيْضَتهم ، فلم يُبْق لذلك البيت الخبيث بناءً ، وفضّ جموعهم ، وَهَدم الله به ذلك الضلال ، وانفتح بذلك طريق الحج مِن العراق ، وذلك

---

(١) نَخْل : يقول عنه (ياقوت) في « معجم البلدان » (٥) موضع في طريق الشام من ناحية مصر ويُفهم مما أورده (القلقشندي) في صبح الأعشى » (١٤/ ٣٨٦) أنها في تيه بني إسرائيل (سيناء) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣٠٥) بير بُضَغ بن جهان شاه بن قرا يوسف .

(٣) مزيد من المعلومات يضيفها (ابن تغري بردي) في « حوادث الدهور » (٣٠٦) ، عن الشِعْشاع هذا ، ويذكر أنه خرج قديماً من نواحي وادي التيم ، وادّعى الشرف وتزندق ، ثم سار إلى العراق ، وأباح الفروج والمحرّمات ، واجتمع عليه خلائق ، وأظهر لهم أنواعاً من السحر ، ثم ادّعى النبوة ، وفسدت بسببه عقائد عدد من الناس .

(٤) في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٦٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٨) المشعشع .

لأن ابن إسكندر منهم كان قصد إلى الشِعشاع ، وأراد أنْ يتقوى به على أهل بغداد ، فالمرجو من الله أن يعم باقيهم بالنّكال ، ويمكّن منهم السيوف والأغلال .

وفيه أيْضا قَدِم بهشل مِن عند حسن بَك بن قرايلوك بخبر : أنّ جهنشاه كان بَغَى عليه ، وأرسل له عسكراً مع كبير مِن وجوه أمرائه ، فنصره الله عليهم ، وقَتَل ذلك الكبير وغالِب وجوه عسكره ، واستباح بيضتهم ، وشتَّت شملهم .

وفي هذا الشَّهْر ، أو الذي بعده ، مات عماد الدين [1] إسماعيل بن قاضِي القدس برهان الدين إبراهيم بن خطيب المسجد الأقصى ، وشيخ الصَّلاَحِيّة جمال الدين عبد الله بن جماعَة القدسي الشافعي ، وكان له فضيلة في الفقه والنّحْو وكان بارِعاً في العالي والنّازل مِن فن الحَديث رحمه الله .

قصة الخنثى

وحَدَّثني صاحِبنا الفاضِل المفنن نور الدين علي بن .. [2] المَقْسِي الشافعي ، أنّه رأى في هذا العام ، أو الذي قبله في مدينة المنصورة [3] على شاطىء النيل الشرقي شخصاً [من] [4] المُتَسَبِّين في نقل الغلال

---

(١) هو : إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سعد الله ، العماد أبو الفدا ، حفيد الجمال بن جماعة الكناني المقدسي الشافعي ، ولد في ٢٣ رمضان سنة ٨٢٥هـ ببيت المقدس ونشأ بها ، وقدم القاهرة غير مرة .

(٢) بياض في الأصل بمقدار كلمتين لم نجزم بتصحيحه .

(٣) المنصورة : يُطلق هذا الاسم على عدة قرى من بلاد مصر ، أشهرها مدينة المنصورة الواقعة على الشط الشرقي لفرع دِمْياط ، وهي رأس مديرية الدقهلية .

«خطط المقريزى» (١/ ٢٣١) ، و «الخطط التوفيقية» (١٥/ ٨٨) .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة اقتضاها السياق .

المسمين بالتراسين ، ربما يكون سنّه نحو عشرين سنة ، وأخبره من لا يَتَّهمهم ، أنّه خُنْثى ، بمعنى أنَّ له ما للرِّجال ، وما للنساء ، غير أنَّ آلته الرّجالية كانت صغيرة ضعيفة ، فكان لا يشكّ أنّه بنت ، وكان اسْمها خديجة فيما أظن ، وأنه خطبها بعضُ الرِّجال وأُجيب ، فلما لم يبق إلاّ العقد تحققت ذكوريَّته ، فصار لا يُشَكّ أنه رجل ، قال : وشاهدته بين التراسين كواحِدٍ منهم .

وفي يوم الخميس تاسع ذي القعدة مِن السَّنَة ، مات الفاضل شهاب الدين [1] أحمد بن العطّار الحَلَبِي الحنفي نزيل الشَّيْخُونيَّة ، وكان مِن أعيان الحنفيّة ، وكان له حظّ من التُّرْك ، بمعرفته بلسانهم وانطراحِهِ معهم ، مع إقامة ناموسه بين من سواهم ، وكان مُتَرَفِّعًا، مزدرياً للناس ، منسوباً إلى كثرة الوقيعة فيهم ، وخلَّف كتباً كثيرة نفيسة ، وكان له تعلّقات تكفيه .

[١٧٤] وفي ذي القعدة سنة إحدى وستين وثمانمائة ، أرسل شهاب الدين التِّلِمْسَاني المالِكِي كتاباً [إلى] نائب الشّام قانِبَاي الحمزاوي ، يطلب عوده إلى قضاء المالكية بدمشق ، فأُجيب ، وكان الزّين عبد الرّحمن السّويدي قريب عهد بخدمة ناظِر الخاص ، فلم ير عزله مطلقاً ، فولاّه قضاء المالِكِيَّة بحلب .

وفيه أيْضاً سعى ناظِرُ الخاص لعلاء الدين بن قاضي عجلون ، وهو لا يُرْضى لشيء فيه صلاح لدينٍ ولا لدنيا ، في قضاء الحنفيَّة بدمشق ،

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن صالح ، الشهاب الحلبي ثم القاهري الحنفي ، نزيل الشيخونية ، المعروف بابن العطار .

له ترجمة في «الضوء اللامع» (٢/ ١١٥ رقم ٣٤٤) .

فوليها عن الحسام بن بُرَيْطِع ، وأُخبرت أنّه لم يعرف يكتب ورقة بخطِّه بالمال الذي بذله في ذلك ، حتّى استعان بشخص ممن له خبرة بذلك فيالله العجب ! ، فلما وصل خبرُ ولايته تُحُدِّث أنَّه رسم الحسام إلى صَفَد؛ لِأن له هناك إقطاعاً ، فاختفى ثم سافَرَ إلى القاهِرة ، فقدمها (١) في أوّل سَنَةِ اثنين وستين كما سيأتِي .

وفيه دلّس الزّين عبد الرّحمن بن الكُوَيْز على بعض مماليك الأَشْرَف إيْنال ، فنزل له عَمّا له في مدينة المنصورة ، ثم كُتبت بذلك مراسِيمُ السلطان وقرائنها إلى والي المنصورة ، وشيخ العرب ، والقاضِي بذلك ، فلما وَصَل ذلك إلى المنصورة ؛ أسْفرت العاقِبةُ عَنْ أَنَّ الذي نزل عنه إنّما هو مكس أَبطله الظاهِر ، مِن نحو خمس عشرة سنة ، ونَقَش ذلك في رخامه بماء الذَّهب وَوُضِعت في المنصورة ، فاجتمع الرّسول بالمذكورين فخافوا عاقِبَة مملوك السلطان ، فأذعنوا للأمر ، فأرسلوا إلى القاضي وهو الفقيه الفاضِل البارع الأديب بدر الدين (٢) محمد بن الفقيه الأديب الفاضل شمس الدين محمد بن كُمَيْل ليحضر ، فلم يُجِب ، وقال : هذا مما لا تعلّق لي فيه ، وكان بين أبيه وبين ابن الكُوَيْز عَدَاوة ، فأغرى قاصده المملوك الذي له للنزول بذلك فَشدّدوا عليه وانتهكوا حرمته ، حتى قِيل : أنّهم رموا على بيته بالسِّهام ، فحضر إلى القاهِرة ومعه خَلْقٌ مِن أهل المنصورة ، فاستد ، فقام مماليكُ السُّلْطان عليه بإغراء ابن الكُوَيْز

---

(١) في « الدارس » (١ / ٦٤٠) في يوم الاثنين ٧ ربيع الآخر سنة ٨٦٢ هـ .

(٢) هو : محمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن كُمَيْل بن عوض بن رَشِيد ، البدر بن الشمس بن الشهاب ، المنصوري الشافعي ، المعروف بابن الكميل ثم ابن أحمد ، ولد بعد سنة ٨٢٠ هـ بالمنصورة، ناب في القضاء ، ثم استقل بقضاء بلده ومنية ابن سلسيل ودِمْياط ، وكان جيد الكتابة مع خبرة بالأحكام وصناعة التوثيق ونظم حسن ، ومات فجأة بسلمون يوم الجمعة سلخ جمادي الأولى سنة ٨٧٨ هـ ، وحمل إلى المنصورة ودفن فيها .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٩ / ٢٧ رقم ٨١) .

فَوُضِع في بيت نقيب الجيش مُرَسَّماً عليه في يوم الاثنين العشرين مِن ذي القعدة هذا ، وقال ابن الكُوَيْز للسلطان : هذا رمى بمرسومك الأرض ؛ فاغتاظ السلطان عَلَى ابن الكُوَيْز ، وقال له : يا منافِق ، تُرِيدُ بهذا أَنْ تغريني عليه، ونحو ذلك ، وشَقّت هذه القضية على أهل الدين ، ورموا ابن الكُوَيْز بسهام الأدْعِيَة، فإنَّه مِن بيت الظُّلم والكفر، حتى لقد أخبرني القاضِي الفاضِل الرَّئيس الثِّقَة الدَّيِّن كمال الدين محمد بن القاضي ناصِر الدين محمد بن البارِزي الشافِعِي ، أَنّه رأى النَّبِيّ ﷺ في المنام ، فسأله عَن عَلَم الدّين[1] سليمان بن الكُوَيْز أبي عبد الرحمن هذا (وكان صهر البارِزِيِّين)[2] هل هو مسلم؟ فقال ﷺ: لا بل هو كافِر، أو كما قال ﷺ، وكان علم الدين هذا نَصْرَانِيًّا[3]، فأظْهَرَ الإسلام ، ثم تنقلت به الأحوال حتى صار كاتِب السرّ بالقاهِرة لِلأشرف بَرْسْباي ، وصار إلى رئاسة ضخمة ، وهو الذي عَزَل الولي العِراقي بصالح البُلْقِيني ، وكان ذلك سبب موت الولي المذكور ، فهم أَهْلُ بيت ليس للإسلام فيهم راحة .

---

(١) ورد في المصادر الأخرى باسم (داود) ، وهو داود بن عبد الرحمن بن داود ، عَلَم الدين أبو عبد الرحمن بن الزين ، الشوبكي الكَرَكَي القاهري ، المعروف بابن الكُوَيز ، ولاّه الملك المؤيد شيخ نظر الجيش بالديار المصرية ، ثم نُقل إلى كتابة السر في أيام الملك الظاهر طَطَر ، واستمر على ذلك إلى أن مات بالقاهرة في أول رمضان ، أو سلخ رمضان ، أو سلخ شوال من سنة ٨٢٦ هـ ، ولم يبلغ الخمسين .

له ترجمة في : « إنباء الغُمر » (٨/ ٢٥ ـ ٢٧) ، و « الدليل الشافي » (١/ ٢٩٥ رقم ١٠١٣) ، و « النجوم الزاهرة » (١٥ / ١١٨ ـ ١١٩) ، و « الضوء اللامع » (٣ / ٢١٢ رقم ٧٩٧) .

(٢) يذكر السخاوي ، في « الضوء اللامع » (٣ / ٢١٣) أنه كان متزوجاً ابنة الناصري ابن البارزي ، التي صارت خوند .

(٣) جاء في : « إنباء الغُمر » (٨/ ٢٥) ، و « الضوء اللامع » (٣ / ٢١٣) أن والد (داود) كان نصرانياً من أهل الشوبك اسمه (جرجس) يتعانى الديونية ، أسلم في سنة ٧٦٧ هـ وتسمى باسم (عبد الرحمن) .

ولم يزل ابن الكُوَيْز ، يُلَقِّن المماليك مِن حِيَله ، وهم يكلّمون استاذهم ، حتى أثبتوا في ذِهنه أنّ القاضِي بدر الدين كان يأخذ المَكْس ، الذي أبْطَلَه الظاهِر في حول هذه المدَّة ؛ وذلك لِأنَّه كان بنى جامِعاً ، وعَمِل له مَصْبغة ، وَلَمّا كان السُّلْطان قليل المخالَطَةِ بالنّاس ، والخبرة بأحوالِهم ، وكان قد عهد أَنَّ مِن جملة المَكْس ما يؤخَذُ مِن بعض المصابغ ، ظنّ أن المصبغة لا تكون إلاَّ مكساً ، فثبت ذلك في ذِهنه ، فقالوا : إنَّ في جهته مِن هذه الجهة اثنا عشر ألف دينار ، فرسم بِأخْذِها منه ، وشدّد عليه ، ثم رُفِعت الشَّفاعة فيه إلى أنْ كان أوّل ذي الحجّة مِن السَّنَةِ ، عُلِم أنَّه لا يطلقه بِغَيْرِ شيء ، فنوزل حتَّى رَضِيَ بثلاثمائة دينار ، وكتب بإبطال المَكْس ، كما كان ، وأشهد على الذين كان المَكْس بأسمائهم ، ابن الكُوَيْز وَمَن معه ، أنه لا حَقّ لهم فيه ، وَحَمل له بعْضُ الأكابر الثلاثمائة دينار ، وأطلق القاضي بدر الدين ، وأُلْبِس خِلْعَة جَبْراً له .

[١٧٥] وفي ليلة السَّبت ، خامِس عشري ذي القعدة مِن السَّنَةِ ، مات اليهودي الذي قِيل : أنّه وقع في حَقِّ النَّبيِّ ﷺ ، فَعُقِد في حقه ذلك المجلس الماضِي ، ثم سجنه القاضِي المالكي فأسْلَم ، وكان المالِكي أرسل إلى نابُلُس البلد التي كانت واقِعته بها ؛ ليحصل عليه شهودا ، فلم يظفر بذلك ، وأرسَلَ إلى القدس ، فَذُكِر أنّ الشَّيْخ تقي الدّين القرقشندي ، أرسل يُخْبر أنَّه بلغه ، أنّ ذلك كان في مَسْكَرِه ، ولم يحضرهم غَيْر الفَسَقة ، وكان المالكي مُصِرَّاً على القول : بأنه لا بُدّ من قتْله وإن أسلم إذا حضرت بيِّنة ، وكان المالكية يقولون : أنّ ذلك ليس على إطْلاقِهِ في مذهبهم ، بل له شروط هي مفقُودة في هذه الواقِعة (١) .

---

(١) راجع « ص ٣٠٣ » .

وفي يوم السبت هذا ، الموافِق لثامِن عشر بانَة مِن أشهر القِبط ، نودي بوداع زيادَة البحر ، وأنّه ثبت على إصْبَعٍ مِن أَحَد وعشرين ذِراعاً ، جعل الله عاقِبَته إلى خَيْرٍ آمين .

وداع البحر

وفي يوم الاثنين سابع عشري ذي القعدة المذكور وُلِّيَ صلاح الدين أمير حاج بن بَركُوت المكيني بن امرأة قاضِي القضاة العَلَم صالِح البُلْقِيني وظيفة الحِسْبَة بالدِّيار المصريّة عن الشّيخ علي العجمي . وبذل في ذلك ثلاثة آلاف دينار للسلطان ، وتوابعها للحاشِيَة ، وأبوه كان عَبْداً حَبَشِيّاً لشخصٍ مِن التّجّار ، يقال له : المكيني ، وبلغني ، أنّه كان في غايَة الجُرْأة ، وأنّه ادّعى الشَّـرَف ، وكان متمولاً (١) .

وفي أوائل ذي الحجَّة مِن السَّنَةِ وَرَد الخَبَرُ عَنْ كتب كتبها الحجَّاجُ ، أنّه حصل للرّكب الأوّل عَطَشٌ في مرحلة (٢) الوجْه (٣) ، فأبرد أميرُهم مِن عِنده بَرِيْداً ، أعْلَم ابنَ السلطان بالحال ، فعرَّج عن الوَجْهِ إلى زاعم (٤) ،

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٢) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٩) .

(٢) عقد (القلقشندي) في « صبح الأعشى » (١٤ / ٣٨٥ ـ ٣٨٨) فصلاً ممتعاً عن مراحل الحجاز الموَصِّلة إلى مكّة المشرّفة والمدينة النبوية ، وأشار أن الحجاج يقطعون في كل يوم وليلة مرحلتين بسير الأثقال ، ودبيب الأقدام ، ويقطعون كل المراحل في شهر ، بما فيه من أيّام الإقامة بالعقبة واليَنْبُع نحو ستة أيام ، أما من يسافر على النُجب مُخِفّاً مع الجدِّ في السَّيْر فإنه يقطعها في نحو أحد عشر يوماً .

(٣) الوَجْه : بلد على البحر الأحمر من المملكة العربية السعودية ، ذكر (حمد الجاسر) أن المقصود به هنا المكان المعروف الآن بقلعة الوجه الواقعة شرق البلدة ، وعليها يمر الطريق قديماً ، أما الميناء فلا تقع على طريق الحج .

راجع « هامش ٢ » من (ص ٦٥٢) من كتاب « المناسك ، وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة » .

(٤) زاعم : جاء في « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية شمال المملكة » (ق٢ ٦٢١ - ٦٢٢) موضع بين الأزلم والوجه ، بينه وبين الأزلم مرحلة ، فيه آبار ماء عذب ، وهو لا يزال معروفاً شمال الوجه .

وسبق الحاج فَرَوَّى ولاقاهم بالماء ، فسقاهم فمات أكثر من شرب مِن الرّجال والجمال [١] . وشرع الناسُ يزيدون في هذا الخبر وينقصون ويبالِغون في التهويل ، ثم ورد في أيّام عيد الأضحى كتابُ ابن السُّلطان مِن مدينة يَنْبع ، أنّهم وصلوا إليها بالخَيْر والسَّلاَمَة لِنَفْسِهِ وأخيه وأخته وأُمِّهم ، وجميع مِن معهم، فإذا الفول كل وَيْبتَين بدينار [٢] ، ثم كان في اليوم الثانِي كل وَيْبَتين ونصف بدينار ، ثم كان كل ثلاثة وأكثر بدينار ، وأن سبب الغلاء في أوّل يوم ما كان عليه أمير ينبع مِن الظّلم، وهو الأمير هَجّانَ[٣] [بن محمد بن مسعود][٤]، ولما ثبت عنده ظلمه، ولم يقف في خِدْمَتِهِ ولا رَفع به رأساً أقام غيره ، وهو . . [٥] بن الأمير مَعْز ، فحصل الرِّفْقُ ، والأمرُ بعد ذلك موقوف على ما تقتضيه الآراء الشّريفةالسُّلْطانية ، فأجاز السَّلْطانُ ذلك ، وأمر بالقبض على قاصِد الذي كان متولّياً ، وكان بالقاهِرة ، وأمر أن يُجَهِّز للجديد خِلْعَة باستمراره وتقوية أَمْرِه .

وفي جمعة هـذا العيد ، مـات الشيخ أبو بكر [٦] الدَّقْدُوسي (بـدا لين

---

(١) في « حوادث الدهور » (٣٠٦) ، و « النجوم الزاهرة » (١٣ / ١١٣) أن العطش لحق بالحاج في منزلة أكره والوجه ، ومات من العطش خلائق كثيرة .

(٢) وَيْبَة : مكيال معروف ، جاء في « صبح الأعشى » (٣/ ٤٤١) أنه من مكيلات الحبوب وغيرها ، وهو يساوي ١٦ قَدَحاً من الأقداح التي يُكال بها في مصر ، كما جاء فيه (٥ / ١١٤) أنه يعادل ١٢ مدّاً قَرَوياً في بلاد بجاية ، وهو مد يعادل المد النبوي ، كما جاء في « المعجم الوسيط » (٢ / ١٠٦١) أن الوَيْبَة كيلتان ، والأردب ستّ كيلات .

(٣) في « الضوء اللامع » (١٠ / ٢٤٨) هجار .

(٤) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « حوادث الدهور » (٢٤٨) ، و «الضوء اللامع » (١٠ / ٢٠٨ رقم ٨٩٢) .

(٥) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، لم نجد ما يصححه في المصادر الأخرى .

(٦) أشار له (السخاوى) في « الضوء اللامع » (١٠ / ١٠٠) وقال : « أبو بكر الدقدوسي شيخ مُعْتَقَد » .

بينهما قافٌ محركا وآخره سين مهملة) بمنزلة ودَّان [1] آيباً من الحج على ما بلغنا ، وكان مِن المعتقدين بالقاهِرَة ، على أنّه كان جاهِلاً ، قبيح الشَّكْل ، وكان على ما أخْبرنِي بعض جيرانه لا يخلو بَيْته مِن المفسقات كالخمر ونحوهِ ، وكان الّذي أوجب اعتقادُه أنه ما زال يَسْعَى له مطيِّروه إلى أن زُيِّنَ لناظر الخاص الجمال يوسف بن كاتب شكم أن يجعله مِمَّن يعطيه ما يتصدّق به ، فكان يحجّ ويفعلُ مِن ذلك ما شاء الله أن يفعل ، وكذا في القاهِرَة ، ولا سِيمَّا أيّام الغلاء ، وَأَيَّام الطّاعون ، في سنة ثلاث وخمسين ، كان يغسل المَوْتَى وربما كفَّنهم وَجَهَّزَهم ، فعظم أمره ، وطاب حالُه ، وطار اسمه عند الأكابِر ، وتَرَدَّدَ إليهم ، واستمرّ على قريب من ذلك إلى أن مات عفى الله عنه .

وفي ليلة الجمعة سادِس عشر ذي الحجَّة المذكور ، مات الخواجا الفاضِل شهاب الدين كاوان الكيلاني ، بمكة المشرَّفَة على ما بلغنا عن كتابٍ من أهل مكَّة أدرَك الحجاج ، وكان هذا الرجل في سن الخمسين على ما أظن ، وكان فاضِلاً في عِدَّة فنون ، وكان ذا مالٍ كبير ، يَصِلُ به الفقراء وغيرهم ، وكان لا يَسْمَع بِعَالِمٍ قَدِم مَكَّة إلاَّ ضمّه إليه ليستفيد مِنه، وأجرى عليه الأرزاق الكثيرة ، وكان إذا زار المدينة المشرَّفة فرَّق الهدايا على غالِب أهلها ، رحمه الله .

وفي أواخِر يوم السّبت سابع عشر ذي الحجَّة المذكور طبَّق الجوَّ غَيْمٌ ، ثم اصفرّ جِدّاً وقرب الاصفرارُ مِن الأرض ، واستمرّ يزداد حَتّى ساءت الظنون ، وخِيف حلول الانتقام ، ثم عظم الهواءُ ، وتواتر البَرْقُ والرَّعْدُ ، فلما أذَّن المغـرِبُ سُمِعت قَعْقَعَةٌ في الجـوِّ ، فأما مـن كان مِـن أهْـل بِلاد

---

(١) منزلة ودَّان : موضعها الآن معروف بمستورة بين المدينة ومكة .
راجع «كتاب المناسك» (ص ٤١٤ هامش ٢) .

الشّام ولم ينس أحوال الأمطار ، فَعَرف أنه بَرَدٌ ، وأما غَيْرُه فأدْرَكه رعْبٌ عظيمٌ ، ثم لم يكن بعد القَعْقَعة بأسرع مِن أنْ نزل بَرَدٌ أكثره بمقدار الجوز الشامي ، وفيه ما هو أكبر ، وكان نزوله على هيئة مزعجة ، فَبَادَر النّاسُ إلى البيوت ، وما يقيهم مِنْه ، وَعَظُم وقْعُه ، وكان في غايَةِ السرْعَة ، فاستمر أقل مِن خمس درج ، فامتلأت الأرضُ بَرَداً ، بحيث أنّه غطّى الأرض ، وَحُدِّثت أنه لم يكن عامّاً ، بل كان على بعض القاهِرَة ، ولم ينزل منه على قناطِر السِّباع وما والاها شيء ، ثم انجلى ، وقد [١٧٦] شاهَدَ المصريون ما لم يشاهِدوا مثله في القاهِرَة قط ، وجمعوا منه ما أرادوا ، فشـربوا وامتصّـوا .

وأخبرني العِز المنوفي قاضي الخَانْكة الذي طبق الجوُّ عِندهم ، كان قُتَاراً[١] أزرق أسود ، وذلك في الوقت الذي كان بالقاهِرَة قُبيل المغرب ، فاشتدّ خوفهم ، ثم عَقَبَه مطر شديد ولم يقع عندهم بَرَد .

ثم أخبرني البرهانُ[٢] ابن أبي شـريف القـسي ، قَدِم علينا القاهِرة في

---

(١) قُتَار : دخان .

« لسـان الـعـرب » (٦ / ٣٧٩) ، و « محيـط المحيـط » (٧١٥) ، و « المعجم الوسـيط » (٢/ ٧١٤) .

(٢) هو : إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن علي بن مسعود بن رضوان ، المري القدسي الشافعي ، المعروف بابن أبي شريف ، ولد في ليلة الثلاثاء ١٨ ذي القعدة سنة ٨٣٦ هـ ببيت المقدس ، ونشأ بها، وأخذ من أشهر علماء عصره ، وبرع في عدة فنون ، وتصدّى للإقراء والإفتاء ، وصنّف كتباً منها : شرح قواعد الإعراب لابن هشـام ، ومنظـومة في القراءات ، ونظم النخبة . وولي القضاء في مـصر سـنة ٨٩٦ هـ ، مات في أول سنة ٩٢٣ هـ .

له ترجمة في : « عنوان الزمان » (مخطوط) (١٥٨ ـ ١٥٩) ، و « الضوء اللامع » (١ / ١٣٤ ـ ١٣٦) ، و « نظم العقيان » (٢٦ رقم ١١) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٣ / ١٠٧) .

سلخ هذا الشهر ، أَنَّ هذا النَّو (١) أدركهم في غزَّة في أواخِر يوم الجمعة سادِس عشرة ، فَعُلِمَ أَنَّه سارَ مِن غزَّة إلى القاهِرة في يوم وليلة ، فسبحان القادِر .

وفي يوم الأحَد ثامِن عشره شنق السلطانُ شَخْصاً مِن أهل رملة لدكان نائب الكاشِف بها ، فشرب خَمْراً ، ثم أَخَذ امرأةً وابنتها ، فأراد الفِعْلَ في البنت ؛ فرمت بنفسها مِن كُوَّة البيت ، فانكسرت رجلها ، فنزل إليها فقتلها ، ثم طلع إلى أمّها ، فهربت منه فجرحها ، فسافرت إلى القاهِرة ، ورفعت أمْرَها إلى السلطان ، فأحضره ماشِياً في غُلّ (٢) ، ثم شنقه في هذا اليوم ، فإن كان ما نُقِل عنه صحيح فقد أجاد [جِدّاً](٣) وفّقه الله .

وفي يوم الاثنين تاسِع عَشْرِهِ مات الشيخ سراج الدين عمر (٤) بن [عيسى بن أبي بكر] الوَرْوَري (بواوين مفتوحتين ورائين مهملتين أولهما ساكِنة) نسبة إلى كفر وَرْوَرا مِن أعمال [الغربية] المصري الشافِعي ، عن

---

(١)النَّو : جاء في « محيط المحيط » (٩٢١) « سقوط نجم بالغد في المغرب وطلوع نجم بحياله ومن ساعته في المشرق في كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوماً ، وهكذا كل نجم منها إلى انقضاء السنة ، ما خلا الجبهة فان لها أربعة عشر يوماً ، وإنما يكون ذلك لنجوم الأخذ ، وهي منازل القمر ، وهي ثمانية وعشرون نجماً ، فلكل نجم رقيب ، هذا هو الأصل ، ثم سمَّوا كل نجم منها باسم فعلِه ، ثم قالوا : استقينا بنوء كذا ، واستمطرنا به ، ثم كثر حتى سمّوا الأثر الذي يحدث بسقوط كل منها ، أو عند سقوطه نوءاً .. » .

(٢) غُلّ : طوق من حديد أو جلد ، يُجعل في عنق الأسير ، أو المجرم ، أو في أيديهما . « المعجم الوسيط » (٢/ ٦٦٠) .

(٣) في الأصل (أجدا) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٤) راجع « هامش ١ » من (ص ١٧٤) من القسم الأول .

نَيّف وخمسين سنة ، وكان فاضِلاً في عِدَّة فنون : كالفقه والنّحْو والأصول والعروض وغيرها ، بعد عِلَّة طويلة ، وكان بيده تدريس الفقه بمدرسة شيخو ، أخذه عن العلاء القرقشندي ، وكان العلاء قد نزل لابنه الجمال إبراهيم ، وأخيه التَّقِي عبد الرحمن عنه ، فأمضى لهما أَسِنْبُغا الطّيّارِي ، ولم يمض الكمال بن الهمام ، فلما مات الشيخ علاء الدين قَررَ فيه ابنُ الهمام الوَرْوَريُ ، وسُعى له عند الظاهِر ، فاستكتب له أَسِنْبُغا ، وتمّ له ذلك ، فلما مرض السّراج هذا المرض سعى في الدّرْس المذكور أبو السَّعادات بن الجلال البُلْقِيني ؛ بحكم أنّ السّراج غير أهل له ، فأجابَه الكافيجي شيخ الشّيْخونيَّة ، فسعى التَّقِي القرقشندي ، وأخرج تقرير الطّيّاري له ولابن أخيه فساعده من ظنّ أنه يجعل الدَّرْس شِركة بينَه وبين ابن أخيه ، فأخذ له الأمير بُرْدْ بَك خَطَّ السلطان على قِصّة ، فإذا فيها اسمه خاصة ، ثم أَخَذ له خطَّ الشيخ ، ورأس نَوْبَة النُّوب قَرْقَماش الجلب ، فَلَمَّا عُلِم أَنَّه لم يشرك ابنَ أخيه مقته النّاس ، وتكلموا في عدم استحقاقه ؛ لِأنه لا يُعرف له اشتغال في علمٍ مِن العلوم على قانون اشتغال الطّلبة ، ولا عُرف له كتابٌ جمع بين طرفيه على شيخ مِن المشائخ ، وأَخَذَته الألسنة ، ودار ابن أخيه على الناس ، فزاد حنقهم على التقي المذكور ، واشتدّ سَعْي أبي السّعادات المذكور ، فلما مات السِّراج ذهب التقيُّ إلى الناظِرَيْن فلم يَكْتب له أحدٌ منهما ، فذهب إلى القاضِي الحنفي ليحكم له بالولاية المعلَّقة ، فامتنع ، فشكى ذلك إلى الأمير بُرْدْ بَك ، فغضب لنفسه أن تُرَدّ كلمتهُ ، وقيل له : إنّه ليس بأهلٍ ، فقال : إن منعتم من كل وظيفة مَنْ ليس لها بأهل عاملناه معاملتهم ، وأمّا أنّكم تُحِلّونه عاماً ، وتحرِّمونه عاماً ، فلا ، ثم أشهد على السلطان أنّه ولاّه وحكم بذلك ، وأرسل إلى الناظِرَيْن رأس نَوْبَة النُّوب قَرْقَماش ، والشيخ محيي الدِّين الكافيجي فاستكتبهما

وتهدد أبا السعادات ، وحنق في هذا الأمر حنقاً ما عَهِد منه مثله إلى أن تم الأمْرُ للتّقي وسكت عنه مَن أراد نزاعه .

وفي هذه الأيّام (١) قَدِم الذين أرسلهم السلطان [١٧٧] في البحر لجلب الخشب من الجُون ، من ناحِيَة بلاد ابن قَرَمان ، وقد سَلِموا وظفروا بمقصودِهم (٢) .

وفي يوم السَّبْتِ (٣) رابع عَشْرِي ذي الحجّة المذكور ، وصل بشير الحاج (٤) ، وأخبروا أَنَّ العَرَب قطعوا عليهم الطّرِيق ، فأخذوا بعض أمتعتهم ، وأخذوا منهم كتب ابن السلطان ومن معه مِن أهل الدَّوْلَة ؛ لكونهم لم ينصفوهم ، وتركوا كتب الفقراء ، وأُخبرت عن كِتاب بعض أصحابنا أنه ذكر العطش الذي أصابهم في الذِّهاب والموت ، وأنّه قال : ليس الخَبَرُ كالعيان ، وأخبروا أنّ المتسفر بمال الحرمين مِن جهة القاضِي الشّافِعِي ، وهو أبو النجا بن عبد الرّزّاق الصحراوِي مِن تربة الزّمام أَخَذ ما معه من المال ، واختفى ، فلم يُدرَ أيْنَ وجّهَ فَوُضِع أبوه في غُلّ ، ووكل به من يحفظه .

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٣) في يوم الاثنين ١٩ ذي الحجة .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٣) كان مقدّمهم الأمير يَشْبُك الفقيه .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٣) في يوم الخميس ٢٢ ، وفي « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٦٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٩) في ٢٨ .

(٤) وهو دَمُرْداش الطويل الخاصكي .

« النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٣) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٦٠) و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٩) .

وفي يوم الخميس تاسِع عشري هذا الشهر خُلع على شَرِبَاش كرد أمير آخور بإِمْرَة المجلس عن طُوخ مازِي ؛ وذلك أنّه وَصَل إلى حَدٍّ لا يُرْجى ، عن عِلَّةٍ طويلة وخُلِع على يونس العلائي الذي يُقال له : أخو السُّلْطان بإِمْرَة آخور عن شَرِبَاش [1] .

وفي هذه السَّنَة أو التي بعدها مات شَبَانه (بفتح المعجمة والباء الموحّدة ، وبعد الألف نون) ابن مِشَاق (فِعَال من المَشْق) ، شيخ نصف جبل نابُلُس ، وَوَلِيَ عنه المشيخة قريبه الشيخ خليل ، فسرَّ أهل الخير بموت شَبانه ؛ لِأنه كان فاسِقاً ، وأمّا خليل فإنه عفيف ، دَيِّن ، كريم ، شجاع ، وله فَهْمٌ ، ولديه فضيلة أَتَمّ الله له ما يريد من كل خيْرٍ آمين .

سنة اثنين وستين وثمانمائة

سنة اثنين وستين وثمانمائة : استهلّت بالاثنين [2] ، وكان ابن السّلْطان وكثيرٌ من أقارِبه حاجِّين كما مَضَى ، فتَجَهَّزَ صِهْرُه [3] الأمير بُرْدْ بَك الدويدار الثاني في آخِر يوم الأحد ثاني محرَّم الحرام منها للقاء زَوْجَتِهِ خَوَند بدرية ، وأمها خَوَند الكبرى زينب ، وأخويها المقام الناصري محمد ، والمقام الشهابي أحمد وَلَدَي السلطان ، واحتفل الأكابِرُ بإرسال الإقامات والتَّقادُمِ لهم إلى يَنْبُع فما دونها بما يعسر وصفه .

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٣ـ ١١٤) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٦٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٤٩) .

(٢) يبدو أن البِقاعي قدوهم في تحديد بداية سنة ٨٦٢ هـ بيوم الاثنين ، يُفهم ذلك مما أورده بعد سطر من أن يوم الأحد هو ثاني محرم ، وهو الأمر الذي يتفق مع ما جاء في « حوادث الدهور » (٣٠٩) ، بأن يوم السبت هو أول السنة .

(٣) الخبر في « حوادث الدهور » (٣٠٩) .

وفي أوّل هَذَا اليوم ، أو أواخِر الذي قبله ، وصل الحسام بن بُرَيْطِع ، الذي عُزل عن قضاء الحنفيَّة بدمشق بالعلاء بن قاضي عجلون ، ولم يكن بن قاضي عجلون سافَر عن القاهِرة ولا أكمل إيراد ما التزَم به مِن المال ، فاعْتَلّ بِأَنَّ من كان يُقْرضه امتنع عند حلول الحسام ، فرُسِم بإخراجه إلى صَفَد، وكان قد حصل له ولولده جلال الدين محمد، وغالب من معه حمّى فاعتلّ بذلك، فأُخِّرَ أيّاماً، ثم سلّم على السلطان، بعد أن قدّم له هدية تليق به ، فأنصفه وأظهر أنَّه لا يَعْرِفُ أنّه عُزِل .

وفي أوائل هذا الشهر وصل الخَبَرُ إلى القاهِرَة بموت الزّيْن عبد الرَّحمٰن السّويدي [1] قبل أن يسافِر إلى حلب رحمه الله ، وكان سنه نحو الخمسين سنة ، وكان فاضِلاً في الفقه ، والنّحو ، والأصول ، ثم بلغني أنه كان سبب مَوْتِهِ أنَّ في خِدمة التلمساني شخصاً يقال له شمس الدين محمد الشُّوَيْش (بمعجمتين مَصَغّر) فلما قَدِم الخَبَرُ بولاية التلمسانِي وكان في أواخِر ذي القعدة فيما أظن ، ذهب الشُّوَيْش المذكور إلى السُّوَيْدِي وهو جالِسٌ في محكمته والخصوم بحضرته ، ولم يكن سمع الخَبرَ، فقال له : اغْلِق دَوَاتك ؛ فقد عُزِلت ، فَوَجم ، ثم حصلت له حمى أقامت به نحو خَمْسة أيَّام ، ثم مات رحمه الله .

وفي يوم الاثنين سابع عشر محرَّم هذا ، مات الفاضِل البارع شهاب الدين أحمد الكِناني الكنّاوي الصفدي ، نزيل القاهِرَة ، ولم يبلغ خَمْساً وعشرين سَنَة ، وكان فاضِلاً ، بارِعاً في الفقه والنّحو ، والأصلين ، والتَّفْسِير ، وغير ذلك ، حَسَن التّصور ، جَيِّد الفَهم ، وكان مقبِلاً على العِبادَة والنُّسُك مُنْعَزِلاً عن النّاس ، خفيف ذاتِ اليد ، وصُلِّي عليه في جامِع الحاكِم ، ودُفِن في تربة جَوْشَن ، رحمه الله .

---

(١) راجع « هامش٢ » من (ص١٤١) .

وفي العقبة في رجوع الحجاج ، اطّلع ابن السلطان المقام الشهابي أحمد مِن خَزَنْدَاره يَشْبُك على زلة في المال ، ثم قيل أنَّه رآه يكلِّم زوجته بنت دُولات باي المؤيدي ، فظن أنّ ذلك لريبة ، وأنّه صرف المال عليها ، فنفاه إلى صَفَد وطلّق المرأة ، فكان هذا تأويل ما حَدَّثني الشريف علي القصيري عند توجّههم مِن بركة الحاجّ ، أنّه رأى أَسْنَانَه أيّ ابن السلطان السّفلى قد خرجت من فمه مُعْوَجَّة ، وصارت على هيئة شنيعة جِدّاً ، ثم إنّه رضى عن خَزَنْداره قبل مضي شهرين ، وأَحْضَره مِن صَفَد ، وولاّه الخَزَنْدارِيَّة على عادَتِهِ ، فكان ذلك أعجب ، واستمرّ غضبه على بنت دُولات باي ، فأخرجت مِن القلعة ، ونزلت إلى بيت أبيها ، وأشهد على نفسه أنه طلَّقها ثلاثاً ، وكان أبوها ممن ساعد عليَّ في قضيَّة ابن الفاوي في سَنَةِ إحدى وخمسين ، وما ساعد عليَّ فيها أَحَدٌ إلاّ فُضِح في حريمه ، وقد فضح دُولات باي قبل موته لكن بفضيحة لم تشتهر ، فاشتهرت هذه اشتهاراً ليس مثله .

وتأخّر مجيء الحجاج في هذا العام، وسابقيهم عَنْ وقته ؛لعائق المطر ، أتاهم في مواضِع عِدَّة ، فكان مِن رأي ابن السّلْطان الرِّفْق بانتظار إقلاعه خوفاً مِن غوائله في المسير ، فقدم ركبُ المماليك الَّذين فرغت نوبتهُم مِن الإقامة [١٧٨] بمكّة المشرّفة بكرة يوم الجمعة حادِي عشرِي المحرم المذكور ، ثم قَدِم الركب الأوّل ، ومنهم الشيخ شهاب الدين الكوراني بكرة يوم السَّبت ثاني عَشْرِيّه ، وَوَرَدَ إلى البركة مِن الملاقين لسيّدي المقام الشهابي أحمد ولد السلطان ، وأخيه المقام الناصِري محمد ، وأمهما ، وأختيهما ، وأتباعهم والمتفرّجين مِن النساء والرِّجال والمغَنِّيات وغيرِهِن ما لا يوصف كثرة ، ورَسم السلطان أن يُلاقِيه الجندُ بالشاش والقماش على

عادَة المواكِب ، فتقدّم الأُمراء والمباشرون وأَتباعهم إلى منزلة البُوَيْب [١] ، وتعدّوها إلى نحو الفرسخ [٢] ، واستمرّ النّاس ينحرون مِن عصر يوم السَّبت وإلى ضحى يوم الأحَد ، الحجاج آيبون ، والملاقون ذاهِبون ، لم يفترقوا في هذا الوقت المذكور ساعةً واحِدةً ، فكان أمْرَاً باهِرَاً للعقول .

ثم رَكِبوا بكرة الأَحد ثالِث عشريّه ، وَوَلدا السلطان في وسطِ آخر صفوفهم على مقادِيرهم في القُرْب والبُعد ، ودخلت محفّات الخَوَنْدات ، وأمامها المغنّيات بالدّفوف ، والمواصيل في زِينة ومهرجان ما رؤى مثله في هذه الأزمان ، فالمسؤول الله في إتمام النعمة بإدامة انصراف النَّفْس عن مثل ذلك مِن الأمور الزائِلة ، فإن ذلك أذكرني قدوم الرّوح إلى عالم البـرزخ [٣] إصعادها إلى ملكوت السموات والأرض ، وعرضها على الرؤوف الرحيم ، أو إهباطها إلى سِجّيل [٤] ، وما كنت قلته قديماً في قريب من ذلك .

---

(١) البُوَيْب : جاء في « معجم البلدان » (١ / ٥١٢) نقبٌ بين جبلين ، وهي مدخل أهل الحجاز إلى مصر ، كما يُفهم مما جاء في « صبح الأعشى » (١٤ / ٣٨٦) أنها المنزلة الثانية بعد بركة الحاج للخارج للحج من مصر .

(٢) الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول ، يقدر بثلاثة أميال هاشمية ، أو اثنا عشر ألف ذراع ، أو عشرة آلاف .

« محيط المحيط » (٦٨٣) ، و« المعجم الوسيط » (٢ / ٦٨١) .

(٣) البَـرْزَخ : جاء في « كتاب التعريفات » (٤٥١) « العالَم المشهور بين عالَم المعاني المجرّدة والأجسام الماديّة والعبادات تَتَجسَّد بما يُناسبها إذا وصل إليه ، وهو الخيال المنفصل ، والبرزخ هو الحائل بين الشّيين ويُعتبر به عن عالم المثال ، أعني الحاجز من الأجساد الكثيفة وعالَم الأرواح المجرَّدة ، أعني الدنيا والآخرة ، والبرزخ الجامعُ ، وهو الحضرة الواحديّة والتعيّن الأوّل الذي هو أصل البرازخ كلّها ، فلهذا يُسمّى البرزخ الأول الأعظم والأكبر » .

(٤) سِجِّيل : وادٍ في جهنم .

« المعجم الوسيط » (١ / ١٤٨) .

إذا قُطِّعَتْ أوصالُ جِسْمي وفُرِّقَتْ
وَصَلَّت على رُوْحِيْ السِّيْوفُ البواتِرُ

بمعتَرَكٍ فيه الوجوهُ كوالحٌ
وأَسْدُ الشَّرىٰ تَعْتافهُ وتحاذِر

بِهِ قلبُ ذي الإيمان والعزم ساكِنٌ
وفي جمعه كاسُ المنيّةِ دائِرُ

وأُكْرِمْتُ فيه بالشَّهادَةِ بعدما
أَهنْتُ جموعَ الشرك والرمحُ شاجِرُ

ولاقاني الأمْلاكُ بالحْورِ قولهُمْ
سَلامٌ ودُقّت لي هناك البشائر

فما ضائري ما فات مِن رائق المُنى
وإنْ قال قَوْمٌ إن ذلك ضَائري

وإلاّ فما قَدّمْتُ ليس بنافِعي
ولا النّفسُ بالعيش الرَّخِيِّ تُفَاخِرُ

ثم إنهم دخلوا [إ] لى القاهِرة في بكرة يوم الاثنين رابع عشري الشهر إلى القاهرة في موكِبٍ عظيم ، واجتمع مِن المتفرِّجين ما يُعجز الوصف ، وركب خلف محفّة خَوَند الكبرى خَوَندُ بنت شَرِباش ، زوجة الملك الظاهِر ، وخَوَند بنت الملك المؤيد على حِمارين ، وطلع الكلُّ إلى القلعة إلى السّلطان ، وأُدْخِلَتِ المحفّاتُ بِجِمالِها مِنْ باب القرافَة ، وكانت بنت شَرباش المذكورة شديدة الأنكاء لزوجة إيْنال على أيّام الظاهِر ، لا تطلع إلى القلعة في هناءٍ أَوْ عزاءٍ إلاّ أوجَعَت قلْبها وأهانتها ، فقضى الله أن تركب على حمارٍ في خدمتها ، وهي محجَّبة في داخِل المِحفَّة ، فسبحان من يُعِزّ ويُذلّ ، وكثر ثناء الناس الحسن على ابن السُّلْطان ، وأمّه ، وجميع

أتباعِهِم ، في كرمهم ، ورفقهم بفقيرهم وغنيهم وتواضعهم ، مع جليلهم وحقيرهم ، زادَهم الله مِن فَضْله ، ووفّقهم دائماً لما يرضيه عنهم ، وأصلح بهم البلاد والعباد آمين [1] .

ثم بلغني عن بعض خواصِّهم أنَّ ذلك مِن خَوَند ، وأنّه لولا خَوْف ابنها منها ، لأحْدَث مما يُذمّ به ما يُعْجز الوصْف ، وحدّثني زوج أخته الأمير بُرْدْ بَكْ الدويدار أنه لاقاه إلى الرقة وذلك مسيرة عشرة أيام ، وأنّه أتاه في ذلك المكان مِن بلادِ الشّام ، مِن العنب والرُّمان ، شي كثير ، وأنه لم يرسل إليه مِن ذلك لا قليلاً ولا كثيراً ، وحَدَّثني ناسٌ مِن أهل المدينة الشريفة ، أنهم كانوا معه مِن المدينة الشريفة إلى البركة ، فلم يروا مِنه شيئاً مما أُهدى إليه ، وكانوا لا ينظرون ذلك إلاّ في أَيْدِي الأكابِر وغلمانهم .

وفي يوم الأربعاء سادِس عشري الشّهر ، رَكِب المماليكُ يطلبون مِن السلطان أنْ ينفق عليهم خمسين ديناراً لكل واحد شكراً لسلامة ولده وعيالِهِ ، واشتدّ أمرُهم حتى لم يَدَعوا أَحَداً [١٧٩] مِن المباشرين أَنْ ينزل مِن القلعة إلى أواخِر يوم الخميس ، فلم يدم لهم الهناء ثلاثة أيَّام ، فسبحان الملك على الإطلاق .

فلما اشتَدّ أمرُهم ، أرسل يقول لهم : أنا أُستادكم ، فلا يصلح لكم أن تكلِّفوني ، فأنتم تريدون استاذاً أو مالاً ؟ فقالوا : نريدهما . فقال : لم تجر بذلك عادَةٌ ، إنْ كنتم مماليكي ، وفي طاعَتِي، فليذهب كلٌّ إلى طبقته وإلاَّ نزلت إلى تحت القلعة ، وجمعت إخْوَتِي وأحِبائِي الذين نزعوا لي الملك مِمّن

---

[1] الخبر في : « حوادث الدهور » (٣٠٩ ـ ٣١٠) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٥) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٠ ـ ٦١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٠) .

كان قبلي وقلّدوني إيَّاه ، فأدقَّكم بهم دَقَّةً أَجعلكم لحماً ما عِندي شيء غير هذا ، فلما سمعوا هذا الكلام ، وَعَرَفوا صِدْقة اختلفوا ، فلام أَصَاغِرُهم أكابرَهم ، قالوا : أنتم الذين حملتمونا على هذا الأمر ، وهو كما قال أُستاذنا لا يليق . فقال الأكابِر : بل أَنتم كنتم تريدون هذا ، فاقتتلوا بالأيدِي ونحوها إلى أَنْ تحاجَزوا ، وقد أشرف جماعةٌ منهم على التّلف ، ورجعوا عن ذلك الأمر ، وسكن الحال والله الفعَّال لما يريد سبحانه .

وفي هذا الحدّ وصل الخَبَرُ بأنّ الشهاب [1] بن قاضِي عجلون أبا علي ، الذي ولي قضاء الحنفيَّة بِدمشق مات ، وكان ذلك قبل سفر ابنه مِن مِصْر ، وكانت بيده وظائف سنيّة ، فنزل عن بَعْضِها للشيخ زين الدين حطاب [2] ، والنجم محمد بن الولي بن قاضِي عجلون بن أخي الميِّت ، وأمضى ذلك القاضِي الشّافِعِي بدمشق الجمال الباعوني ، فلما بلغ ذلك القاضِي ناظِر الخاص أخذها مِن السلطان ، وأشهد عليه بالتقرير ، وإبطال ما خالَفَ ، وأُنكر على القاضِي إمضاءه لذلك ، فَكُلِّم في أنْ يستنيب الشيخ خطاب ، فأجاب .

موت ابن آقبرس

وفي يوم السبت ثالِث عشر صفر مِن السَّنَةِ مات القاضِي علاء الدين علي بن محمد بن آقْبَرْس الشّافِعي ، وكان مولده في أوّل القَـرن ، وكان أوّل أَمْرِه يرتزق بصناعة العنبر [3] ، ثم اشتغل بالعلم ، ولازِم الأشياخ إلى أن

---

(١) هو : أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن شرف بن منصور ، الشهاب بن الزين الدمشقي الشافعي ابن قاضي عجلون ، باشر التوقيع عند أركماس الدويدار ، وفي أول ربيع الآخر سنة ٨٤٣ هـ ولي كتابه السر بدمشق ثم صُرف عنها . مات ليلة الخميس ٢٩ ذي الحجة .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١ / ٣٣٥) .

(٢) راجع « هامش٢ » من (ص ١٧٤) من القسم الأول .

(٣) العنبر : من أصناف الطيب ، ينبع من صُخُور وعيون في الأرض ، يجتمع في قرار البحر ، ثم يطفو على سطحه إذا تكاثف ، وترمي به الرياح على الساحل ، وألوانه منها : الأبيض ، والأزرق ، والرمادي ، والجزازي ، والأحمر ، أما أنواعه فمنه : الشَّحْرِي ، والزّنجي ، والشّلاهِطِي ، والقاقُلّي ، والهندي ، والمغربي . =

ضَرَب في الفنون بنصيب ، وناب في القضاء لابن حجر وغيره ، ولم يَسْتَنِبْه القاياتي [1] في شيء مع إلْحاحِهِ عليه في السّؤال ، وصحب الأتراك، ولازم الظاهِر جَقْمَق قبل سلطنته بمُدَد ، فلما تسلطن كان أحد خواصّه وندمائه ، وولي الحسبة ، وكان مذموم السِّيْرَة في غالِب ما يَتَوَلاَّه ، وصَنَّف أشياء ، منها شرح الشّفا [2] للقاضِي عياض في مجلّدين أو ثلاثة ، ولكن كانت دعاوِيه أكْبر مِن علمه بكثير ، وكان مستخفّاً بالنّاس ، شديد الزّهو والكِبْر والازدراء بالعلماء وهضمهم حقوقهم ، مِن أعْظم ما اتفق له في ذلك أنَّه لما مات قاضِي القضاة ابن حَجَر ، ووضع في سبيل المؤمِني وتقدّم أميرُ المؤمنين للصلاة عليه ، وقف السلطان الملك الظاهِر وراءه ، ووقف الأميرُ الكبير إيْنال العلائي إلى جانِبه ، فجاء ابنُ آقْبُرْس [3]،

= ومنه ما يعرف بـ (المَنّد) وهو أصناف أجوده الشَّحري ، أسْوَدفيه صُفْرة تخضب اليد إذا لُمِس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس .

« نهاية الأرب »(١٢/ ١٦ـ٢١) ، و « صبح الأعشى » (٢/ ١٢٢ـ ١٢٥) .

(١) هو : محمد بن علي بن محمد بن يعقوب بن محمد ، الشمس أبو عبد الله بن النور القاياتي القاهري الشافعي ، ولد سنة ٧٨٥ هـ تقريباً بالقايات من أعمال البهنساوية ، برع في الفقه ، والعربية ، والأصلين ، والمعاني ، وسمع الحديث ، وحدَّث باليسير ، وولي تدريس البرقوقية ، والأشرفية ، والشافعي ، والشيخونية ، وقضاء الشافعية بمصر ، فباشره بنزاهة وعفة ، مات يوم الاثنين ٢٨ محرم سنة ٨٥٠هـ .

له ترجمة في: « الدليل الشافي »(٢/ ٦٥٦ رقم ٢٢٥٥) ، و « النجوم الزاهرة » (١٥/ ٥١٣) ، و « الضوء اللامع »(٨/ ٢١٢ رقم ٥٥٦) ، و « حسن المحاضرة »(١/ ٤٤٠ـ٤٤١ رقم ١٩٨ ، و ٢/ ١٧٤) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٢٦٨) .

(٢) هو كتاب (الشفا في تعريف (بتعريف) حقوق المصطفى ، للإمام الحافظ أبي الفضل عياض بن موسى القاضي اليحصبي المتوفى سنة ٥٤٤هـ) .

« كشف الظنون » (٢/ ١٠٥٢ـ ١٠٥٥) .

(٣) هو : يحيى بن علي بن محمد بن آقْبَرْس ، الشرف أو الأمين بن العلاء القاهري الشافعي ، المعروف بابن آقْبَرْس ، ولد في سفر سنة ٨٢٩ هـ ، واشتغل بالسفر وارتقى فيه إلى ان توالى عليه كسر المراكب فتضعضع ، وأقام قبيل موته بالينبوع حتى مات في سنة ٨٨٩هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٣٦ رقم ٩٩٥) .

فدفعه ودخل بينه وبين السلطان ، فعظمت مشقّةُ ذلك على الأمير الكبير ، فلما وَلِي السَّلْطَنَةِ خيف عَلَى ابن آقبُرْس مِنْه ، فلم يُعامِله إلاّ بالجميل ، ولما مات أعطى جميع تعلقه لِأولادِه .

وكان يصحبه من قضاة السوء شخصٌ يُقال لهُ شمس الدين التبريزي الحلبي ، وآخر يقال له ، ابن حُبَيلات مِن بلاد مصر ، فرتبوا عنه وصيةً واستشهدوا فيها أمثالهما وضَمَّناها أنه أوصى بمنافِع لهما ، وأنّه أوصى للسلطان بمال كبير أظنه يزيد على ألف دينار ولجميع أركان الدَّوْلَة كلٌّ واحِدٍ بشيء ، وكان ابنه يحيى رجلاً وكان فاضِلاً ديِّناً ، وكان مسافِراً عند مَوْتِهِ ، فلما حَضَر اجتمع بأركان الدَّوْلَة ، وشكى اليهم ذلك ، فقال له ناظِر الخاص الجمال يوسف : أنَا أعرف أنّ ذلك باطِلٌ ولا استحلُ أن آخذ منكم شيئاً مما سُمّي لِي ، ولكن الرأي يقتضي أنْ ندفع إلى السُّلْطان ما سُمّي له ، فإنّ أمله قد تَعَلّق به وإن لم تفعل ذلك لم تأمن غائلته ، ففعل وكان ذلك مِنْ أغرب الأمور ، وكفى به واعِظاً وزاجِراً عن قرناء السوء والله الموفّق .

وفي هذا الشهر [١] ، فرج السلطان عن يُزْبُك [٢] ، صهر الظاهِر جَقْمَق، فأمر بأن يُنقل مِن القدس إلى القاهِرة ، فقدم القاهرة يوم الاثنين نصف صفر [٣] هذا [٤] .

---

(١) في « حوادث الدهور » (٣١٠) في يوم الاثنين ثاني صفر .

(٢) ويقال : أُزْبك راجع « هامش١ » في (ص ١٤٢) من القسم الأول .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦ / ١١٥) في يوم الاثنين ١٦ صفر .

(٤) الخبر أيضاً في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢ / ٦١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥١) .

وفي يوم الثلاثاء سادِس عشره وُلِّي سيدي محمود بن سيدي [1] إبراهيم بن قاضي القضاة شمس الدين بن الدَّيْرِي ، نظر الإصطبل السلطانِي ، شريكاً لِأمير آخور ، عن سيّدي أبي بكر بن مزهر [2] .

وفي ليلة هذا اليوم ، أو ليلة الأربعاء سابع عشره قُتِل الشيخ عبد الكريم [3] بن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن عبد المجيد ، خليفة مقام سيدي أحمد البدوي في القاهِرة ، أضافه شخصٌ مِن نقبائِه ، يقال له ، ابن الخيـوطي ، فَقُتِـل في بيتـه ، وحُمِـل إلى زاويـة للسطوحِيَّـة في ناحِيـة الناصِريّة [4] ، يقال لها زاوية أبي شامة ، فأُحضر الجرائحية ، فرأوه مضروباً في رأسِه وجنبه ، فَسُئِل ابنُ الخيوطِي وجماعته ، فاختلفت أقوالُهم ، وأَنْسب ما قالوه أنه وقع مِن مكانٍ شاهِق ، ثم اختلفوا في سبب الوقوع ، فقال بعضهم : أنه كان على بعض المحرَّمات ، وكان مشهوراً بمثل ذلك ، متهتِّكاً ، ثم إنه دُفِن يوم الخميس في تربة الشيخ مبارك ، خارِج باب النّصْر .

---

(١) هو : محمود بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر ، الزين بن البرهان بن الديري ، المقدسي الأصل القاهري الحنفي ، ولد في حدود سنة ٨٢٧ هـ ، اشتغل على عمه سعد الدين في الفقه وغيره ، كما اشتغل في الحديث ،والعربية ، والفرائض ، استقر في نظر الأصطبل من سنة ٨٦١ هـ إلى أن انفصل عنها في رمضان سنة ٨٦٥ هـ ، تكرر دخوله لبيت المقدس ، وكان به سنة ٨٩٠هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠ / ١٢٦ رقم ٥٣٥) .

(٢) هو : أبو بكر بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الخالق بن عثمان ، الزين بن البدر بن البدر ، وقيل : أبو بكر بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان ، التقي بن البدر ، الأنصاري ، الدمشقي الأصل القاهري الشافعي ، المعروف بابن مزهر ، ولد في رجب سنة ٨٣١ هـ بالقاهرة ، ونشأ في حجر الرياسة والعز ، وَوُلِّي عدة مناصب سَنِيَّة ، ثم وُلِّي كتابة السر ، فأقام فيه بضعاً وعشرين سنة ، مات يوم الخميس ٦ رمضان سنة ٨٩٣ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (١١ / ٨٨ رقم ٢٣٣) ، و « نظم العقيان » (٩٧ / رقم ٥٧) .

(٣) لـه ترجمـة في : « حـوادث الـدهـور » (٣٧٩) ، و « النجـوم الزاهـرة » (١٦ / ١٩١) ، و « الضوء اللامع » (٤ / ٣١٦ رقم ٨٥٨) ، وقد وصف فيها بسوء السيرة .

(٤) راجع « هامش ١ » من (ص ١١٦) من القسم الأول .

وحدثني الأمير بُرْدُبَك الدويدار الثاني ، أنه غلب على ظنه مما اجتمع من أقوال المخبرين له عن القضية أنه كان في جمع عندهم خمر وما يلائمه من الفساد ، وكان مشهورًا بذلك متهكتًا فيه ، قلّ أن يخلو منه ليلة من الليالي ، فصاح عليهم الجيران ، ومنهم جمال الأمير المذكور ، فلما زاد الصياح ظنوا أن الوالي أتاهم ، وكان لعبد الكريم أعادي كثيرون ، فأُخبر بالوالي ، فما شك فضاقت به الأرض ، فرمى نفسه من مكان ليس بالطويل جدًا ، أو وقع منه ، فكان في ذلك نفسه ، فخاف الحاضرون غائلة ذلك ، فحملوه إلى الزاوية المذكورة ، مُدَّعين حياته، وأنه سكران ، وكانوا يعهدون منه مثل ذلك ، فلما أصبح استبطوا صحوه ، فحركوه ، فإذا هو ميِّت ، فأخّروه إلى أن أنتن ؛ لئلا تُشَمّ منه رائحة الخمر فيتبدل اعتقاد الناس فيهم .

[١٨٠] ثم إن الأمير حسام[١] الدين[٢] بن بغداد، شيخ عرب تلك الناحية ، وكان بينه وبينه عداوة قصد إلى بيته في طنتنا ، فأخرج ما به من الخمر ، فإذا هو شيء كثير جدًا ، فأراقه في ذلك الزقاق الذى على باب الزاوية ، إلى أن صار الخمر يجري كالنهر ، وكان من أقاربه شخصٌ يتيم يقال له عبد المجيد[٣] بن أحمد بن محمد بن عبد المجيد بن

---

(١) في مصادر (هامش ٢) بدر الدين .

(٢) هو : حسن بن بغداد بدر الدين ، شيخ العربان ببعض إقليم الغربية ، مات في جمادى الأولى سنة ٨٧٣ هـ ببلدة محلة المرحوم .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٧٢١) ، و « إنباء الهصر » (٨١ رقم ٣) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥١) .

(٣) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٥/ ٧٧ رقم ٢٩٢) وقال : « عبد المجيب ابن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن ، سبط عبد المجيب أحد خدَّام سيدي أحمد البدوي ، ويُعرف بالكريدي ، وُلِّي مشيخة المقام في صفر سنة اثنتين وستين ، ولم يلبث أن مات شابًا في ربيع الآخر سنة ٦٤ [٨] هـ » .

داود المرحومي ، وأمّه (أي أم عبد المجيد) أم الخير بنت عبد المجيد المذكور في نسب قريبه عبد الكريم ، وكان سنه حينئذ نحو ثمانٍ ، وكان [1] قد أكل تركته وطرده مع أمه عن طنتتا ، فتكلم له في أن يكون موضعه في المشيخة ، ففُعل [2] ذلك ، وأُلبس خِلعة ذلك ، يوم الخميس خامس عشريّه ، ودار معه من الفقراء خلقٌ كثير جدّاً ، وجعل نظر المقام وأوقافه إلى الأمير بُردبك الدويدار الثاني ودعى إلى منزله الفقراء السطوحِيَّة ، وجعل لهم وليمة عظيمة وأقام لهم سِماعًا ليختن الشيخ عبد المجيد ، ولم يكن مختتنا ؛ لأنه لم يكن له من يعتني بشأنه ، وكان الوقت شديد البرد ، فقال بعضهم انه يخشى عليه إن خُتن في شدَّة البرد ، فخشى الأمير عاقبة ذلك ؛ فكفَّ عن ختانه في بيته ، ووكل الأمر إلى أمه .

وفي أوائل هذا الشهر ورد جانِبَك [3] كوهِيه المؤيدي إلى حلب ، بالكشف عن نائبها جانم الأشرفي ، من جهة أنه شاع عنه أنه عَلَّى دار السعادة ، وأنَّه رمى فيها بمدفع ، وأنه أحدث دورة على بلاد حلب أغرمهم فيها مالاً كبيرًا ، فأبطل الدَّوْرَة ، واعتذر عن الأمرين الآخرين ؛ بأنَّ تعليته للجدار إنما هو لموضع منه قصير ، بطوب نَي ؛ لمنع الكلاب وبعض الغلمان من التطرق للفساد بالليل ، وبأنّ النفع إنما هو شيء لعب به الصغار ، فطلب السلطان خزنداره ، ثم جُهزت المراسيم ، بأن يُهدم ما علاّه في جدار دار السعادة .

---

(١) أي الشيخ عبد الكريم .

(٢) خبر استقراره في المشيخة في : « حوادث الدهور » (٣١٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥١) .

(٣) هو : جانِبَك كوهيه الإسماعيلي المؤيدي ، مات في صفر سنة ٨٨٧ هـ .
له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣/ ٦٠ رقم ٢٤٠) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٢١٢).

وفي أواخر هذا الشهر ، شاع أن السلطان يغير أمر الدَّراهم ، فاضطرب الناس من الجهل بحقيقة ما يفعل ، وخافوا على ضياع أموالهم ، وقلّ البيع والشّرى ، وتعطلت الأحوال ، وكانوا قد عزموا على المناداة في نصف شهر ربيع ، أو آخره ، بعد أن يُضرب من الدراهم الجدد الطيبة ما يتسع به الناس ، فشُكي إلى السلطان تعطل الأحوال [1] ، فدار نقيبُ الجيش الناصر بن أبي الفرج يوم الأربعاء ثاني شهر ربيع الأوّل من السنة يأمرهم بالطلوع إلى السلطان صبح الخميس ثالثه ، ففعلوا ، وبكّروا بالنزول ، والمنادي ينادي على الهيئة التي كنت تمنيتها في العام الماضي ، وذكرتها للأمير بُردبَك الدويدار ، وذلك أن وراءه حاجب الحجاب ، وبعض أمراء وأجناد ، وقاضي الشافعية العَلَم صالح ، وقاضي الحنفية السعدي الدَّيري ، وقاضي المالكية الحسام بن حُرَيز ، وقاضي الحنابلة العز الكناني ، ثم طلع الحنفي إلى بيته بالمؤيدية ؛ لكونه شيخًا كبيرًا ، واستمر البقية إلى بين القصرين ، فذهب الحنبلي نحو سوق مرجوش وباب البحر ، وتلك النواحي ، ومعه جمع ، وذهب الشافعي والمالكي ومعهم الحاجب والمحتسب ، وأمراء وأجناد ، والمنادي ينادي عن السلطان وقضاة الشريعة المطهرة أن الدراهم الجدد الطيِّبة ، كل درهم بأربعة وعشرين درهمًا فلوسًا ، ووزن اثني عشر درهمًا ونصفًا بدينار ، والدراهم المغشوشة كل درهم بستة عشر درهمًا فلوسًا ، ووزن ثمانية عشر درهمًا ونصف درهم وربع درهم بدينار ، يكون ذلك بأربعمائة درهم وخمسين درهمًا فلوسًا ، وأنّ البضائع تنقص الثلث فأجاب الناس بالسَّمع والطاعة ، وسُروا بذلك .

---

(١) جاء في « حوادث الدهور » (٣١٠) ، أن الأسعار ارتفعت في سائر ما يُباع ، حتى بلغ سعر الدينار ٤٦٠ درهمًا ، وعُدِمت الفضَّة الطَّيبة ، وصارت المعاملة مقتصرة على الفضَّة الرديئة .

وأخبرني بعضُ من سمع المناداة ، أنه لما رأى القضاة ، وتلك الهيئة والمناداة مستندة إلى الشَّرع ، اقشعر بدنه وعلته مهابةٌ وخشوع ، ولم يتغير على الناس شيء ، فإن تلك الدَّراهم الزائفة كان الدرهم منها بنحو أحد عشر درهمًا فلوسًا ، فكان الرَّطْل اللحم مثلاً باثنى عشر درهمًا ، فكان الإنسان يُعطي درهمًا منها ، ودرهمًا فلوسًا ، ويأخذ رطلاً ، فصار اللحم بثمانية فصار يُعطي درهمًا منها بسبعة ، ويعطى دِرهِمًا فلوسًا ويأخذ رطل لحم ، وكذا قياس سائر البضائع ، والله تعالى المسؤول في صلاح الأحوال ، وبلوغ الآمال آمين .

ثم أن الناس اضطربت أحوالهم ، وامتنع كثير منهم من البيع ، فكرَّر السلطان النداء بأنّ من أغلق دكانه شُنق على بابها ، وضرب حاجب الحجاب [١٨١] بَرْسْباي البجاسي ، صهر السلطان على ابنة ابنته ، وسُودُون قرقش رأس نوبة ثاني ناسًا كثيرًا ومكث الناس لا يجدون اللحم إلاَّ نادرًا إلى أواخر الشهر ، فذبح السلطان للناس ، وباع معاملوه (١) ، فكثر اللحم ، وعاش الناس ، ولكن لم ينقطع الزِّحام ؛ لما دخل قلوبهم من الهلع (٢) .

وفي هذا الحد مرض غالب الناس بالسعال والصداع ، وأخبرني قاضي القضاة سعد الدين بن الدَّيري أن في سنة السابع عشرة وثمانمائة غُيِّر النقد ، وحصل للناس مرضٌ بالسعال ، كما وقع في هذا التاريخ .

---

(١) معاملوه ، الذين يتعاملون معه في شأن من الشؤون .
« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٢٨) .

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » ٣١٠ _ ٣١٢) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٥ _ ١١٦) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦١) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٢) .

وفي هذا الحد ، سافر العلاء بن قاضي عجلون ، قاضي الحنفية بدمشق ، بعد أن سعى فأخرج الحسام بن بُرَيْطع قبل سفره ، فلا قوة إلا بالله .

وفي أوائل هذه السنة ، أو أواخر التي [1] قبلها مات قاضي القضاة ، زين الدين عمر بن الخَرزي (بخاء معجمة ومهملة مفتوحتين ، ثم زاي) الحموي الشافعي عن أكثر من ثمانين سنة فيما أظن ، وكان فاضلاً في الفقه ، والطب وغيرهما ، وَوُلِّي قضاء حلب رحمه الله [2] .

وفي أواخر يوم [3] الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأول من سنة اثنين وستين هذه ، مات الشيخ الصالح القدوة الفاضل المفنن مَدْيَن [بن [4] أحمد بن محمد بن عبد الله بن علي بن يونس الحميري المغربي ثم الأشموني القاهري المالكي] تلميذ الزاهد [5] ، في بيته المجاور

(١) في « الضوء اللامع » (٦/ ٧١) في يوم الجمعة ١٠ ربيع الآخر سنة ٨٦٢ هـ .

(٢) راجع « هامش ٤ » من (ص ١٤٦) من القسم الأول .

(٣) في يوم الأربعاء ٩ ربيع الأول ، في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩١) ، و « الضوء اللامع » (١٠/ ١٥٢) ، و « نظم العقيان » (١٧٥) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٢) .

(٤) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر « هامش ٣ » .

(٥) هو : أحمد بن أبي أحمد بن محمد بن سليمان ، الشهاب أبو العباس بن أبي أحمد القاهري الشافعي ، المعروف بالزاهد ، له تصانيف كثيرة منها : رسالة النور ، تشتمل على عقائد وفقه وتصوف في أربع مجلدات ، وهداية المتعلم وعمدة المعلم ، في الفقه والتصوف في مجلد ، وبداية المسترشد ، وغيرها من التصانيف ، كما بنى عدة أماكن ، منها الجامع الشهير بالمقس ، مات يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول وقيل ٢٤ منه سنة ٨١٩ هـ .

له ترجمة في ٠ « إنباء الغمر » (٧/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) ، و « خطط المقريزي » (٢/ ٣٢٨) ، و « الضوء اللامع » (٢/ ١١١ رقم ٣٣٨) ، و « الخطط التوفيقية » (٥/ ٢ ـ ٣) .

لزاويته [١] ، المجاورة لجامع [٢] شيخه الزاهد بالمَقْس في القاهرة ، بعلة البطن ، عن نحو ثمانين سنة ، وأخبرت أنه لم ينقطع عن صلاة الجماعة بالزَّاوية إلا يومًا واحدًا ، وكان شيخًا وقورا فاضلاً في الفقه ، مشاركًا في غيره ذا فهم مستقيم ، وكان ناسكًا ، منقطعًا عن الناس في زاوية شيخه المجاورة للجامع ، وأوّل من روّجه سيدي يحيي بن [٣] العطار في حدود سنة أربعين ، فأقبل الأكابر على الشيخ مَدْيَن : كاتب السر الكمال بن البارزي ، والجمال يوسف بن كاتب جكم ناظر الخاص ، وأقبل بإقبالهما غيرهما ، ثم لما مات ، وطُلب الشيخ عبادة [٤] لقضاء

---

(١) وهي المعروفة بجامع مَدْيَن ، ويقع في خط باب الشعرية بداخل حارة مَدْيَن يقول « علي مبارك » : « قائم على أربعة أعمدة من الرّخام ، وبأرضه فرش من الرخام الملون ، ومنافعه كاملة وشعائره مقامة ، ولمطهرته ساقية ، ويتبعه بجواره صهريج له شباك حديد ... وبه ضريح سيدي مَدْين ، ويعمل له مولد كل سنة » .

« الخطط التوفيقية » (٥/ ١١٠ ـ ١١٢) .

(٢) جامع الزاهد : جاء في « خطط المقريزي » (٢/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨) أنه يقع بخط المقس خارج القاهرة ، كمل في شهر رمضان سنة ٨١٨ هـ ، وهدم بسببه مساجد خرب ماحولها ، وبنى بأنقاضها هذا الجامع كما جاء في « الخطط التوفيقية » (٥/ ٢) أنه يقع في شارع سوق الزلط بجوار منزل الشيخ العروسي على يمين الذاهب إلى باب البحر ، وفيه اثنا عشر عمودًا من الرخام ، وتسعة من الزلط غير عمودي المحراب ، وأربعة أعمدة عليها الدكة ، وبه منبر وخطبة ، وله مطهرة وساقية ومنارة وشعائر مقامة بنظر الأسطا عباسي الخياط ، وله أوقاف ذات ريع .

(٣) راجع « هامش ٣ » (ص ٤٠٤) من القسم الأول .

(٤) هو : عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم بن سراج بن نجم بن فضل بن فهد بن عمر ، الزين ، أو النور الأنصاري الخزرجي الزِّرْزاوي ، أو الزّرْزاري ، أو الزرزاي ، أو الزرزائي ، الفقيه المالكي ، المعروف بالشيخ عبادة ، وُلد في جمادى الأولى سنة ٧٧٨ هـ .

بزرزرا أو زِرْزا من قرى مصر ، وقرأ بها القرآن ثم انتقل إلى القاهرة ، مهر في الفقه والأصلين والعربية ، وصار رأس المالكية ، وُلّي تدريس الأشرفية والشيخونية والظاهرية ، وانقطع آخر عمره ، وامتنع من الإفتاء حتى مات في يوم الجمعة ٧ شوال سنة ٨٤٦ هـ ، وصلى عليه صاحبُه الشيخ مدين بجامع الأزهر .

له ترجمة في : « إنباء الغمر » (٩/ ١٩٣) ، و « الدليل الشافي » (١/ ٣٧٩ رقم ١٣٠٠) ، و« حوادث الدهور » (١٣٩) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٤٩٢) ، و « التبر المسبوك » (٥١) ، و « الضوء اللامع » (٤/ ١٦ رقم ٦٦) ، و « حسن المحاضرة » (١/ ٤٦٢ رقم ٩٢) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩) .

المالكية بعد قاضي القضاة الشمس [(١)] البساطي سنة اثنتين وأربعين امتنع من ذلك ، واختفى عنده إلى أن وُلِّي البدر بن التَّنَسي ، واستمر منقطعًا في زاويته ، وقال : أنا لم أعرف الإسلام إلا بملازمتي للشيخ مَدْيـن [(٢)] ؛ فهرع الناس إليه ، وبعد صيتُه ، وبنى له الأكابر زاويته ، التي مات بها ، وكان متولي عظم ذلك ، ناظر الخاص ، فكثر عنده المريدون ، وكانت زاويته معمورة بالذِّكر آناء الليل والنهار ، وكان عارفًا بعشرة الناس ، حسن التودد مع المزح واطراح النفس ، واستجلاب الخواطر على هيئة لا تُنقص من هيبته ، ولا تُخِلّ بناموسه ، ولم يكن في زمانه أهل طريقة مثله ، واستمر معظمًا عند الخاصَّة والعامَّة إلى أن مات ، وصَلَّى عليه بذلك الشارع قاضي الشافعية العَلَم صالح البُلْقيني ، وحضر جنازته خلقٌ كثير ، مع أنَّه لم يُدر له من يُعْلم به ، فلم يشعر بذلك كثيرٌ من الناس رحمه الله ، وأعظم أجر المسلمين فيه آمين .

وحسَّن الله تعالى لذلـك الزِّنديق عيسى المغربي [(٣)] ، المشهـور في

---

(١) هو : محمد بن أحمد بن عثمان بن نعيم بن مقدَّم بن محمد بن حسن بن غانم بن محمد بن عُليم ، الشمس أبو عبد الله البساطي القاهري المالكي ، وُلد في المحرم ، أو صفر ، أو جمادى الأولى سنة ٧٥٦ هـ أو ٧٦٠ هـ ، أو ٧٦٢ هـ ببساط من قرى الغربية بالأعمال البحرية من أعمال مصر ، ثم ارتحل إلى القاهرة سنة ٧٧٨ هـ ونشأ بها ، واشتغل على علماء عصره ، وبرع في الفقه والأصلين والعربية، وُلّي التدريس بمدرسة جمال الدين الاستدَّار ، وناب في الحكم سنين ، ثم استقل بالقضاء في الدولة المؤيدية شيخ بعد جمال الدين البساطي ، واستمر فيه نحو عشرين سنة إلى أن مات في ليلة الجمعة ١٣ رمضان أو ١٢ منه ، سنة ٨٤٢ هـ .

له ترجمة في : « إنباء الغمر » (٩/ ٨٢ ـ ٨٥) ، و « الدليل الشافي » (٢/ ٥٩٧ رقم ٢٠٥٠) ، و« النجوم الزاهرة » (١٦/ ٤٦٦) ، و « الضوء اللامع » (٧/ ٥ رقم ٧) ، و « حسن المحاضرة » (١/ ٤٦٢) ، و « شذرات الذهب » (٧/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) .

(٢) راجع « الخطط التوفيقية » (٥/ ١١١) .

(٣) راجع « ص ٢١٥ » .

الغرب بالغندور أن ينقطع في بيته إشارة إلى أنه قام مقام الشيخ مَدْيَن ؛ ليقصده الناس فيضخم أمره وينجبر ما وهى منه ، من ذلك المجلس الذي سَلَّطني الله عليه به فيما رميته به من الزندقة كما تقدم [١] ، ففعل واستراح منه الناس بسجنه لنفسه ؛ وازداد أمره وهنًا ، ولله الحمد ، لكن كان بعض الأعيان يقصده ، منهم تمراز الساقي ، أحد أصاغر الأشرفية كان يسلك على يده ، وقام له به سوق ، لكن أخذ في الكساد من أواخر سنة اثنين هذه ، رد الله كيده في نحره .

وفي يوم الأربعاء [٢] سادس عشر شهر ربيع الأول هذا عُمل مولد السلطان ، واجتمع القضاة والأمراء على العادة .

وفي هذا الحد أذِن الله تعالى في قمع أرباب الزِّنا والمسكرات ، فحرّك لذلك حاجب الحجاب بَرْسْباي البجاسي ، فخرَّب أماكنهم ، وحرق مساكنهم ، ورعب قلوبهم ، ونقب بالمقارع ظهورهم وجنوبهم ، حتى صاروا في ما يسر المؤمن من الذل ، بعد أن كانوا لا يُرام لهم جناب ، وكان الذي يُقيم سوقهم ويستجلب فسوقهم علي بن الحاج محمد طَشْتدار السلطان ، وكان يشيع أنّ السلطان هو الآذِن في ذلك ، والراضي به ، حتى شاع ذلك في البلاد ، فتمكن بسببه أهلُ الفساد ، وكان السلطان قد أرسل الحاجب الذي كان قبل هذا إلى بعض معاهدهم [٣] ، فحصل من أتباعه من النهب وغيره ما زاد على الفساد الذي طُلبت إزالته ، فكفَّ السلطان عن أمره بمثل ذلك ، فلما عمل

---

(١) راجع « ص ٢١٥ » .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٦) في يوم الخميس سابع عشره .

(٣) معاهِدهم : جمع معهد ، وهو محضر الناس ومشهدهم .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٣٤) .

حاجب الحجاب هذا ما تقدّم زاد سرور السلطان به ، وأكَّدَ عليه في أن يتشدد في ذلك ، وأن يخرب أماكنهم ، فإنهم لا يزالون يتعاهدونها [1] مادامت عامرة ، فعلم كلُّ ذي عقلٍ أن تلك الإشاعات عن السلطان كانت كاذبة ، والله المسؤول في إعلاء كلمته وإدامة ذل أهل الباطل آمــين .

ولم [2] تكثر الدراهم التي ضربها السلطان بين الناس ، وقد اعتنى بأمرها ، ونفى الغش عنها ، وكان ضربه لها في حوش القلعة ، حتى كثر الزَّيف المشابه لها ، فعظمت نكايته من ذلك ، ثم تُتُبِّع من يضرب ذلك فأُحضر له منهم خمسة أنفس فأمر بضرب أوساطِهم ، فَسُمِّروا على جمال يوم السبت ، تاسع عشر شهر ربيع الأوَّل هذا ، ومُرّ بهم في قصبة القاهرة إلى قنطرة [3] الحاجب ، فوسِّطوا هنالك بعد أن شفع غالب الأمراء في أن تقطع أيديهم فقط ، فلم يقبل .

وفي أواخر هذا الشهر ، سافر الصاحب علاء الدين بن الأَهْنَاسي الوزير ، إلى بلاد الصعيد ، ومر من بر الجيزة على شيء من تعلق ابن السلطان ، وكان في الربيع ، فضرب الطبل ، فنهوه عن ذلك ، وقالوا :

---

(١) يتعاهدونها : أي يتفقدونها ويترددون إليها لتجديد العهد بها .

« المعجم الوسيط » (٢/ ٦٣٣) .

(٢) هذا الخبر ورد في « حوادث الدهور » (٣١٢-٣١٣) في حوادث ١٣ ربيع الآخــر .

(٣) قنطرة الحاجب : تقع على الخليج الناصري ، يُتوصل إليها من أرض الطبالة ، ويسير الناس عليها إلى منية الشيرج وغيرها ، أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب في سنة ٧٢٦ هـ .

« خطط المقريزي » (٢/ ١٥١) .

تُنَفِّرَ الطير وقد رسم سيدي باستجلابه ، فلم يقبل ، فوقع بينهم شرٌّ ، وحصل له من ذلك نوع إهانة .

وفي أواخر الشهر ، مرض السلطان بما مرض به الناس من السعال ، واستمر يخرج إلى الناس ، وهو متوعِّكٌ ، ثم انقطع [عنه] أيّامًا ، فزاد جزعُ الجند ، وكثر قال الناس وقيلهم ، وتحدَّث كثيرٌ منهم بموته ، وكان ولده المقام الشهابي أحمد فى الرَّبيع ، فقدم يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الآخر ، ثم تماثل السلطان في يوم الثلاثاء [1] سابع الشهر ، فخرج إلى قاعة الدِّهيْشَة ، ليراه الجند ؛ فيطمئنوا .

وفي هذا الحد [2] ، قدم يحيى [3] بن الأمير جانم الأشرفي نائب حلب مع خَزَنْدار أبيه جمال الدين يوسف الصبيبي ، وموقِّعه شمس الدين الأسيوطي ، فنزلوا في الميدان بقرب قناطر السِّباع .

وفي يوم الخميس ثامنه ، خرج إلى إيوان الدَّهيْشَة وطلب جماعة نائب حلب وأغلظ لهم ؛ من أجل ما يُنقل إليهم من سوء سيرتهم ، فزاد انزعاجهم من ذلك ، فمرض الموقِّع واستمروا على انزعاجٍ عظيم حتَّى خدموه ، وخدموا من أغراه بهم ؛ فرضى عنهم ، ثم وعد ابن نائب حلب بأمريَّة عشرين ، ووعد جماعته بخير .

وفي يوم الجمعة رابع شهر ربيع الآخر هذا ، قدم الأمير فخر الدين عثمان بن الشهاب أحمد بن أغليك ، أحد الحجاب بحلب ، وكان مقرَّبًا

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٦) في يوم الاثنين ١٣ ربيع الآخر .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣١٢) في يوم الخميس ٩ ربيع الآخر .

(٣) جاء في « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٢٤ رقم ٩٦١) ، يحيى بن نائب الشام جانم الأشرفي برسباي ، أحد المقدمين بدمشق ، مات في رجب سنة ٨٧٣ هـ ، وهو في حدود الثلاثين .

عند جانم نائب حلب ، فتكلم فيه الحسدة عند السلطان ، بواسطة ذلـك ، فطُلب ، فأنزله ناظر الخاص عنده .

وفي ليلة السبت خامسه ، سافر الأمير زين الدين يحيى الإستدَّار إلى بعض المفسدين من العربان في ناحية البَهَنْسا ، فرجع في أواخره ، ولم يحصل منهم على طائل .

وفي أوائل هذا الشهر ، مات الأمير طُوخ مازي [١] الذي كان أمير مجلس ، ومات جانم [٢] البهلوان ، أحد الأمراء ، فأعطى [٣] السلطان إقطاعه لأُزْبُك ، صهر الملك الظاهر جقمق .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره خرج السلطان إلى إيوان الدِّهِيشَة ودقُتّ البشائر لعافيته [٤] وشُكِيَ إليه ما الناس فيه من وقوف الحال من جهة اختلاف المعاملة فأمر ، فنودِىَ بمنع المعاملة بالدراهم المغشوشة ، ومن كان عنده شيء منها ، يذهب إلى بيت الحاجب ، يأخذ ثمنه ، فسر الناس بذلك ، وأظهروا البضائع فكثرت ، وزال التزاحم ، وانتصب الصيارف لشراء الدراهم المغشوشة ، فباعهم الناس ، ولم يتوقفوا ، فكانوا يأخذون الدرهم منـها بعـشرة ونحوها ، لكـن دخـل الرِّبا في كثـير

---

(١) راجع « هامش ١ » من (ص ٣٩٥) من القسم الأول .

(٢) هو : جانم بن عبد الله الأشرفي البهلوان ، كان من خاصكية أستاذه ، ثم صيَّره ساقيًا ، ثم امتحن بعده بالنفي والحبس ، وأمَّره الأشرف إينال عشرة ، وجعله من رؤوس النوب ، وساق المحمل من جملة الباشات ، مات يوم الاثنين ٦ ربيع الآخر .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩١) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٦٣ رقم ٢٥٤) ، و «بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٣) .

(٣) وذلك في يوم الأربعاء ٨ شهر ربيع الآخر . « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٦) .

(٤) الخبر في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٦) .

من ذلك ؛ كانوا يأخذون درهمين وثلاثة من المغشوشة بدرهم من الجديدة ، ولا قوة إلا بالله (١) .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره ، قدمت تَقْدِمَةُ نائب حلب ، فأظهر السلطان السرور بها ، وكلم جماعته كلامًا حسنًا ، جَبَر به ما تقدم ، ثم إنهم خدموه ، وخدموا الذين كانوا أغروه بهم فرضى عنهم (٢) .

وفي يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الآخر هذا سافر الشيخ شهاب الدين الكوراني ، قاصدًا بلاد الروم ، ووقف مُصَنَّفَه شرح جمع الجوامع (٣) في الأصول لابن السُّبكي ، وتركه عند كاتبه ، ومن بعده عند من يكون مدرس [مقام (٤)] الشافعي رحمه الله .

وفي هذا الحد ركب السلطان ، ليقطع ما كان الناس فيه من القال والقيل بمرضه ، فنزل من ناحية الصليبة على الميدان ، ثم الجزيرة الوسطانية ، وشق بُولاق ، فرأى العمائر قد كثرت هناك ومنعت من الوصول إلى البحر إلا في قليل من المواضع فأمر بهدم ما ضَيَّق من ذلك ، ثم رجع من باب البحر ، ورأى عمارته ، ومر بين القصرين ، ورجع إلى القلعة ، فأصبح الوالي يهدم بيوت الناس ، فحصل من ذلك جملة أموال ، وهدم ما لم يكن لصاحبه مال أو جاه ، ثم كثر الشفعاء عند السلطان ، فكفّ عن ذلك .

---

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٣١٢-٣١٣) .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٣١٣) ، وفيه تفصيل ما احتوته التَّقدمة ، من هدايا وتحف .

(٣) سماه « الدرر اللوامع » .

« كشف الظنون » (١/ ٥٩٦) .

(٤) ما بين الحاصرتين غير واضح في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

وفي يوم الاثنين سابع عشريه وسط السلطان ثلاثة من الزُّغليه ، قيل : أنهم وجدوا مع أحدهم ثمانمائة دينار اعترف أنه جمعها كلها من الدراهم الزائفة والله الموفق (١) .

وفي أواخر هذا ، أو أوّل جمادى الأولى (٢) ، مات نائب القلعة ، الأمير سُودُون (٣) ، فَوُلِّي نيابة القلعة [كسْباي (٤) المؤيدي (٥) البواب السمين (٦)] .

وفي يوم الخميس سابع جمادى الأولى ، خُلع على ابن نائب (٧) حلب وجماعته للرضى ، والأذن في السفر ، واتفق أن مات أمير أربعين في

(١) الخبر في « حوادث الدهور » (٣١٣) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٢) في ليلة ٢٦ ربيع الآخر .

(٣) هو : الأمير سيف الدين سُودُون بن عبد الله النوروزى ، السلاح دار ، ونائب قلعة الجبل ، كان من مماليك نوْروز الحافظي نائب الشام ، وممن تأمّر في الدولة ظاهرية جقمق ، ثم ولي نيابة القلعة في الدولة الأشرفية .

له ترجمة في : « المنهل الصافي » (١/ ٣٣٦ رقم ١١٥٧) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٢) ، و« الضوء اللامع » (٣/ ٢٨٧ رقم ١٠٨٨) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق » (٢/ ٦٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٣) .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من « حوادث الدهور » (٢٩١ ، ٢٩٢) .

(٥) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٦/ ٢٢٩ رقم ٧٨٤) وقال عنه : « كسباي المؤيدي ، تأمّر في آخر دولة الأشرف برسباي ، ثم ولّاه نيابة قلعة الجبل ، لا لرفع منزلته ، بل لسمنه وعجزه عن الحركة ، بحيث لم يكن يستطيع الثبات على الفرس لسمنه ، ثم ولاه نيابة إسكندرية ، فطالت أيامه فيها ومات » .

(٦) خبر تولّيه نيابة القلعة في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٤) .

(٧) أشار (ابن تغري بردي) في « حوادث الدهور » (٣١٣) إلى أنه قدم القاهرة بتقدمة والده جانم في يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الآخر .

دمشق ، ووصل خبره في وقت لبسهم الخِلَع فَقُسِّمت إمرته بين ابن نائب حلب ، وبين ابن (١) نائب حماه (٢) .

وفي هذا الحد شفع الأمير أُزْبُك ، صهر الظاهر في القاضي محب الدين بن الشحنة ، أن يُنقل من القدس إلى حلب ، وأن يُوَلَّى أبو (٣) البقاء ابن ابنه أمين الدين قضاء الشافعية بحلب ، فيصير هو قاضي الشافعية ، وأبوه أثير الدين قاضي الحنفية ، فأُجيب إلى ذلك ، وجُهزت إليهم الخِلع بذلك ، وأظن سن أبي البقاء المذكور عشرين سنة ، أو دونها.

وفي هذا (٤) الحد مات ناصر الدين محمد [١٨٣] المازُوني ، المطرب ، عن نحو خمسين سنة ، وكان عجبًا من العجب في جميع أموره ؛ كان شكلاً حسنًا ، وطولاً مؤنّقاً ، وكان له صوتٌ لم يـر مثلـه ، حتـى

---

(١) وهو : إياس الطويل المحمدي الناصري ، مات في شوال سنة ٨٧٧ هـ ، له ترجمة في « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ١٤٦) .

(٢) أشار (ابن تغري بردي) في « حوادث الدهور » (٣١٣) إلى خبر قدومه إلى مصر ، بتقدمة من والده تشتمل على ثلاثين فرسًا وعدَّة حمَّالين فيها ما بين فرو وأقمشة وغير ذلك ، فخُلع عليه وعلى حواشيه .

(٣) هو : محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ، جلال الدين أبو البقاء ابن أثير الدين بن المحب بن الشحنة الحلبي الشافعي ، المعروف بابن الشحنة ، قاضي القضاة بحلب، كان عالمًا فاضلاً تقلد بمذهب الشافعي ، وكان والده حنفي المذهب ، قدم القاهرة مرارًا ، ومات بها معزولاً في يوم الجمعة ١٠ شوال سنة ٨٩٢ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٩/ ٢٩٤ رقم ٧٥٢) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٢٤٦) .

(٤) في ليلة الجمعة ٨ جمادى الأولى .

راجع ترجمته في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٢) ، و « الضوء اللامع » (١٠/ ١١٦ رقم ٤٤٢) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٤) .

إنِّي سمعت جماعةً ممن يُوثق به في معرفة الأنغام ؛ كالقاضي كمال الدين بن البارزي ، وشهاب الدين أحمد الأذرعي الإمام ، وسيدي يحيى بن العطّار ، أنّه ربما لم يكن في عصر الرشيد مثله ، وكانوا يشهدون له بأنه يملك التصرف في صوته مُلْكاً لا يقدرُ على مثله غيره ، وكان مع ذلك صَيِّتًا ما أظن أني رأيت أعلى صوتًا منه ، وكان في الذّرْوة من الحظوة عند الخاص والعام ، ، وكان مسرفًا على نفسه ، فكان له حظ من النساء ، والصبيان لم يُسمع بمثله ، يتهافتون عليه أعظم من تهافت الفراش على النور ، حتى أني سمعت أنَّ بعض الصبيان كان يُظهر غاية السرور بفسقه به فما ظنك بالنساء ذوات الشهوات ، ثم إنه قُذف في قلبه أن يتوب ، ففعل واستمر على ذلك مُدَّة ثم أخذ في انحطاط الصوت قبل موته بنحو السنتين أو أكثر ، ثم خرس ، فكان لا يقدر أن ينطق بكلمة سوى الله ، فكان يبكي على نفسه ، واستمرَّ على ذلك نحو ثمانية أشهر إلى أن مات في التاريخ المذكور رحمه الله ، وعفى عنه .

وفي يوم الثلاثاء [(١)] تاسع عشر جمادى هذا عُزل صلاح الدين محمد بن أمير حاج من الحِسبة ، ووليها قانباي اليوسفي المِهْمَنْدَار ، وكان قبل ذلك بأيام قد أُخرجت عنه مصر القديمة ، ووليها شخصٌ يقال له البوشي ، فما زاد على أن غَرم ماله ، وبهذل الوظيفة ، وهكذا يكون الأمر إذا وُلِّي المناصب غير أكفائها ، فلا قوة إلا بالله [(٢)] .

وفي هـذا الحـد [(٣)] قدمـت رسـل ابـن قَرَمان ، بطلب الصَّفح عنـه

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٨) في يوم الاثنين ١٨ .

(٢) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٨ ـ ١١٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٥) .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٩) في يوم الخميس ٢٨ .

وتأمينه وتأمين أهل بلاده ، وذلك أنَّه بلغنا أنَّه أمر أهل البلاد التي أخربها العسكر المصري من بلاده بعمارتها ، فأبوا مُعْتَلِّين بأنه ليس فيه قوة الدَّفع عنهم ، فهم يخافون معاودة مثل ما أصابهم ، ولا يدفع عنهم ، فرضى السلطان ، وعفى عنه [1] .

وفي هذا [2] الحد عاد البرهان بن الأكمل بن مفلح الحنبلي إلى قضاء الحنابلة بدمشق عن ابن عمه العلاء ، وعُوِّض عن ذلك قضا حلب ؛ والسَّبب في ذلك أنه كان جرى بين العلاء وبين البدر الأذرعي الشهير بضفدع أحد أتباع عبد الباسط منازعة في نظر مدرسة للحنفية ، فسعى هذا السَّعي للبرهان .

وفي يوم الجمعة سلخ [3] الشهر ، بعد الصلاة سافر الأمير بُرْدُبَك الدويدار الثاني على هجن إلى دمشق ؛ ينظر الجامع الذي بناه بعد تمامه ، ويرتِّب وظائفه ، ويكتب أوقافه ، وكان قد قدَّم خيله قبله بأربعة أيام ، تنتظره في غزة ، وعَمَّى على الناس وقت خروجه ؛ لئلا يتكلف به أحد ، وعزم على أن لا يقبل لأحد شيئًا .

وفي يوم السبت مستهل جمادى الآخرة من السنة ، قُبض على جماعةٍ من الزّغْلِيّة ، نحو خمسة أنفس ، وأُودعوا السجن في الحديد ، طَهَّر الله الأرض منهم آمين .

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » ، (١٦ / ١١٩) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/٦٣)، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٥) .

(٢) في « الدارس » (٢/ ٦٠) في ١٤ جمادى الآخرة .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٩) في يوم الجمعة ٢٩ .

وفي هذا الحد عُزل البرهان بن الجمال بن جماعة من قضاء الشافعية بالقدس الشريف ، وأُمر بنفيه إلى غزة ، وَوُلِّي عنه قاضي الخليل ، الشهاب أحمد بن قاضيها العلاء علي الدَّاري الشافعي ، وذلك كله على يد الأمير أُزْبُك مملوك الظاهر جَقْمَق ، وصهره على ابنته ، فإنه لما كان منفيًا بالقدس ، رأى أحوال البرهان ، وما هو فيه من الجبروت والتجري على الأباطيل ، وانتهاك حرمة الدين على رؤوس [١٨٤] الأشهاد ، وعدم مبالاته بكبير أو صغير ، وناهيك بمن يجمع إلى القضاء استدارية الأمراء، ثم جُهِّز مرسومُ السلطان بنفيه عن القدس ، فركب قاضي القضاة ، سعد الدين بن الدَّيْري الحنفي إلى ناظر الخاص ، فسأله في الكف عن ذلك ، ففعل ، ثم جهز مرسومُ السلطان إلى نائب القدس ، بأن يبطله ، وينصف منه من له عنده حق ، وكان النائب يبغضه ، ففعل وأهانه ، فأرسل وَلده نجم الدين محمد ، يسعى في تلافي القضية .

وفي يوم السبت ، خامس عشر الشهر وصل الوزير نور الدين بن الحاج محمد بن الأَهْنَاسي من سفره من بلاد الصعيد ، وطلع إلى القلعة .

وفي هذا الشهر وُلِّي (١) بن المغلي الحموي الشافعي ، قضاء الشافعية بحماه عن الشمس بن الحمصي الغزي ، وأُعيد ابن الحمصي إلى قضاء بلده غزَّة عن الشرف موسى بن مُفلح .

وفيه وقع شرٌّ بين البرهان ابراهيم بن ظُهيرة المخزومي المكي ، ناظر الحرم بها ، وبين صهره أخي زوجته وابـــن عمـــه قاضـي مكـة بـــن أبي

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين ، لم نجد ما يصححه في المصادر الأخرى .

[السعادات] بن ظُهيرة [1] ؛ بسبب أن زوجته ماتت ، فلم ينصفه أخوها في المخلف عنها ، فبلَّغ أبا البركات قاضي جُدَّة أخا إبراهيم ، وكان بالقاهرة ، فسعى لأخيه في القضاء ، فعُزل [2] به ابن أبي السعادات ، وجُمع له القضاء والنظر .

وفي أوائله ، قدم إلى ميناء إسكندرية ، مركبٌ للفرنج الكَيَتْلان ليلاً ، فأنْشبوا الحرب مع مركب للجنويين ، كانت مرسيَّة في الميناء بالمدافع ، والنُّشّاب وغير ذلك ، فخرج نائب إسكندرية ، وأهل البلد ، فلم يكن هناك مركب يصلح لركوبهم ؛ ليساعدوا الجنويين ، فأراد الله وله الحمد أن أنشب مركب الكَيَتْلان في حَجَرين بالقرب من المنار ، فلم يقدر من بها أن يتصرفوا فيها ، فعاينوا الهُلْكَة ، وقُتل منهم جمع ، فطلع إليهم بعضُ المسلمين في قوارب صغيرة ، فقبضوا عليهم ، فإذا هم ثلاثة وثلاثون رجلاً فوضعوا رقابهم في الزّناجير ، وَوَجدوا معهم أسرى ، فأطلقوهم ، ومات من الفرنج ثلاثة ، وأرسلوا الثلاثين إلى السلطان ، فأراد قتلهم فخيَّله ناظر الخاص أنَّ ذلك يكون سببًا في قتل الفرنج مَن عندهم من المسلمين ، ولكن الصواب أن يفادي بهم الأسرى ، فأُخِّروا ، والله المسؤول أن يجعل العاقبة إلى خير .

---

(١) هو : أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن علي بن أحمد بن عطية بن ظهيرة ، المحب أبو الطيب بن الجلال أبي السعادات القرشي المخزومي الملكي الشافعي ، المعروف بابن ظهيرة ، وُلد بمكة في صفر سنة ٨٢٥ هـ ونشأ بها ، أخذ عن أبرز علماء عصره في التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصوله ، واللغة ، وناب في القضاء بمكة عن أبيه سنة ٨٤٧ هـ ، ثم استقل به بعد وفاته إلى أن انفصل بابن عمه البرهان ، ثم أُعيد بعد مدَّة ، مات في يوم الخميس ٩ صفر سنة ٨٨٥ هـ بمكة .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٢/ ١٩٠ رقم ٥٢٣) .

(٢) في « حوادث الدهور » (٣١٦) كان ذلك في أوائل رجب .

وفي يـوم الجمعـة حادي عشري الشـهر استعفى الجـلالُ عبـد الرحمن ابن الملقـن ، من نظر المرسـتان ، فلم يجبـه السـلطان ، فألـح عليـه في ذلك ، فأعفـاه [١] ، فسـعى فيـه ناصـر الدين بن أصيـل بنحـو ألفـي دينـار للسـلطان وآلـِه ، فأُجيـب وَلُبِّس خلعتـه يـوم الاثنين رابـع عشـريه .

وفي يوم الأربعاء ، رابع شهر رجب من السنة ، نزل السلطان بكرة النهار إلى المدينة ، فسلك القصبة إلى الحمَّامين اللذين بقيا له إلى جانب الكامليَّة ، فدخل أحدهما ، ثم مضى إلى مدرسته التي في التُّرْبَة ، ورجع إلى القلعة من ناحية الترُّب .

وفي يوم الجمعة سادس [٢] شهر رجب [١٨٥] المذكور انطلق والناس في صلاة الجمعة ، أو بعد أن خرجوا منها على بولاق نارٌ خرجت من ربع عُبيد الصاجاتي ، بقرب جامع الإستدَّار ، وهبـت ريـح [٣] دبـور ، قلّ أن رؤى مثلها ، وهي التي يُسَميها أهل مصر المريسي [٤] ، فحملت النار وشبتها ، وكانت تختلف وتعصف فتنقل منهـا ما شـاء الله

---

(١) جاء في « الضوء اللامع » (٤/ ١٠٢) أن الأشرف إينال قرره في نظر البيمارستان في جمادى الأولى سنة ٨٥٨ هـ .

(٢) في « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٥) في أواخر شهر جمادى الثانية في يوم الجمعة .

(٣) ريح دبور : ريحٌ تهبُّ من المغرب ، وتقابل القَبُول ، وهي ريح الصَّبا .

« محيط المحيط » (٢٦٨) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٢٧٠) .

(٤) مَرِيْسي : جاء في « لسان العرب » (٨/ ١٠١) مَرِيس من بُلدان الصعيد ، والمريسية الريح الجنوب التي تأتي من قبل مريس .

إلى ما شاء الله ، فأحرقت ما بين جامع الإِسْتَدَّار ، ودرب البارزي الذي في أوّله الحمام وبيت ناظر الخاص هذا طُوْلاً ، وما بين البحر وجامع الواسِطي عرضًا ، إلاّ قليلاً من الأماكن ، منها ما كان لله وطارت منها طائفة فأحرقت معصرة بني الجيعان ، وهي خارج درب البارزي شماليّة ، وفتقت حجرين بها لعصر ما يراد عصره ، وهما من الصُّوان الشديد الصلابة ، وطارت منها طائفة ، فأحرقت شونة الإِسْتَدَّار ، وهي بالقرب من ذلك ، من شمالية ، وحكى الناس عن هذه النار أعاجيب عن هيئتها ، وابتدائها ، وكيفية إحراقها ، سمعت ذلك ممن يوثق به ، ممَّن شاهدها ، ويدل مجموع ذلك على أن مبدأها ليس من نار الناس ، وإنما هو سهمٌ ربَّاني ؛ والدليل على ذلك أنه لم يُنقل أنها أُحرقت ما كان لله ، كان هناك مسجد له مئذنة ، فأحرقت ما أحاط به ولم يصبه شررةٌ واحدةٌ ، وأحرقت ما كان لناظر الخاص من ربع وخان ، ولم تُحرق السَّبيل الذي يُسقى منه الناس ، وكان هناك شخصٌ يُقال له رجب الهوى مشهور بما لا ينبغي ، وله ربْعان ، فأحرقت أحدهما ، فقال لمن حضر : أُشهدكم أنَّ هذا الذي لم تعلق به إلى الآن وقف على الحرم النبوي ، لا أعرض له ، ولا أسكنه إلاّ بأجره ، فأحرقت النار ما أحاط به وتركته ، إلى غير ذلك من الغرائب التي اتفق مجموعها على ما ذكرت ، وسيأتي عن الأمير بُرْدُبَك ، ما [١] ...

وحكى من له خبرة ببولاق عما كان يحصل بها من الفسق شيئًا لو مُسِخوا به لكان قليلاً منه ، إن الصاجاتي الذي ابتدأت النار بربعه عنده أمرد يُلْبسه كل ليلة بدلة فاخرة مختلفة الألوان ، من مصبّغات وغيرها ، وينام معه . ومنه أنه كان به في وقت الحريق امرأة تجلى على امرأة في فساد

(١) كلمة غير واضحة في الأصل لم نجزم بتصحيحها .

بخضاب [1] وغيره مما يصلح للجلا .

وقال العوام : السلطان من أولياء الله أمر بهدم ، ضيّق الطريق في بُولاق ، أو منع من البحر ، ثم اعترضوا عليه ، ولم يُنفذوا أمره فينفذه الله ، وزاد وكثر كلامهم في ذلك .

وذهب في هذا الحريق من الحيوان [و [2]] الناس وغيرهم ، والأموال ما لايُدرى عدده ، أمّا الناس فبغتهم ذلك ، فكان الإنسان إذا أحس بالنار بادر إلى الباب ليخرج ، فيلقى النار به ، فيرجع إلى الطاقات ليرمي نفسه ، فيرى النار فيها ، فمنهم من يتردد هكذا إلى أن تغلبه النار ، ومنهم من يستضعف أمر الطاقات فيرمي نفسه ، فبعضهم يموت ، وبعضهم تُسيل النار عينيه ، ويسلم جسده ، وبعضهم تحترق بعض أطرافه ، وأكثرهم يموت .

وأمّا الأموال ، فإن بولاق ساحل القاهرة ، وغالب ما يحمل إليها إنما هو في السفن فيُخزَّنُ في حواصل هناك ، ولا يدخل منه إلى البلد إلا قدر الحاجة .

ونهب الأقوياء ما قدروا عليه ، حتى أنهم يجدون الإنسان قد حمل ما يعزّ عليه من ماله ، وهرب به ، فيأخذونه منه ، ويقولون : إنما نهبته [3] .

---

(١) بخضاب : الخُضاب ما يُخْضَب به من حِنَّاء ونحوه .

« محيط المحيط » (٢٣٧) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٢٣٩) .

(٢) إضافة اقتضاها السياق .

(٣) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣١٣ ـ ٣١٥) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٩ ـ ١٢٣) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٦٣) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٥ ـ ٥٧) .

موت ابن النَّبِيـه

وفي يوم الاثنين تاسع شهر رجب المذكور ، مات أحدُ نُوَّاب الشافعية بالقاهرة وأمين الحكم بها القاضي نجم الدين [(١)] محمد بن محمد بن النَّبِيْه الشافعي عن نيِّفٍ وسبعين سنةٍ وكان شيخًا بهيًّا ، انتهت إليه معرفة الشروط ، وتوقيع الأحكام ، وكتب الأوقاف والسجلات المهمة ، وكان ينظم الشعر الحسن ، غير أنه كان يُقال أنه يدمن الشراب ، ويتساهل بعض التساهل لبعض الأكابر ، ومن يريد ، عفى الله عنه آمين .

وفي ليلة الجمعة [(٢)] ثالث عشر شهر رجب من السنة ، قدم الأمير بُردبك صهر السلطان ، فنزل في التربة ، ثم طلع بكرة يوم الجمعة هو وولده إلى السلطان ، فخلع عليهما ، ونزلا ، وكان الأمير بُردبك قد وقع عن الهجين وقت طلوع الشمس من يوم السبت سابع عشر الشهر في منزلة الزعقة ؛ فانفك ذراعه من المرفق ، وحصل في موضع منه كسر ، وأخبرني أنه ثار عليهم ريح في ليلة ذلك اليوم ، في خان [(٣)] يونس ، ريح حارَّة تكاد تحرق من لفحته ، وهذا هو الوقت الذي احترقت فيه بولاق كما تقدَّم ، وهذا الوقت الذي وقع فيه هو يوم هذه الليلة .

وفي يوم قدومه [١٨٦] نودي عن السلطان بالزِّينة لإدارة المحمل ، وبمنع العفاريت وأذى الناس بالنفط ، وكان في هذا العام ، وما قبله قد لبس جماعةٌ من مماليك السلطان فراء مقلوبة ، وغطّوا وجوههم بمثل ذلك ، وخططوا الجلود بتخاطيط ، وعملوا أشياء صارت لهم بها هيئات منكرة ، سُمُّوا بها عفاريت ، وكانوا يؤذون النـاس ، ولا سيما الفقهـاء ،

---

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ٢٣٥) من القسم الأول .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٣) في يوم الثلاثاء ١٣ رجب .

(٣) خان يونس : بالرجوع إلى « أطلس العالم » (١٩) نجد أن خان يونس تقع في فلسطين على ساحل البحر المتوسط ، بين رفح جنوبًا ، ودير البلح شمالاً .

فحُكِيّ ذلك للسلطان ، فأبطله ، ونادى بذلك مرات ، فأمِن الناس ولله الحمد [1] .

ولما اجتمع الجرائحيون بالقاهرة بالأمير ، ورأوا مصابه ، رأوا يده قد أخذت في الجبر على غير استواء ، وهي وارمة جدًا ، فصبروا عليه حتى انفشَّ الورمُ ، ثم أدخلوه إلى الحمام ، وفكّوا يده من موضع الفكّ وكسروها من موضع الكسر ، ثم أعادوها على الاستقامة ، بعد أن كاد يموت ، نسأل الله له العافية .

وفي يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب المذكور دار المحمل ، واستمر الأمن فيه من العفاريت ، ووقعت فيه غريبة ، وهي أن الرّمّاحة الذين يلعبون في الرُّمَيْلَة كان رأسهم تَمْراز الساقي من مماليك بَرْسْباي ، وكان تحته فرس لحسن بن الطيلوني معلِّم البنائين ، يُقال أن ثمنها خمسمائة دينار ، ومن عادة الرّمّاحين أن يغيروا الفرس إذا تعب ، فلم يغيرها تمراز ، فكأنها تعبت ؛ فوقعت به ، فانْدَقَّت عنقها [2] .

وفي هذا الحد [2] وصل الخبر من طرابلس بأن ناظر جيشها شرف الدين موسى [3] بن خالة ناظر الخاص مات ، فَوُلِّي وظيفته ولده .

موت ناظر جيش طرابلس

---

(١) خبر دوران المحمل في : « حوادث الدهور » (٣١٦) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٣ ـ ١٢٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٦) .

(٢) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٣) في ليلة الأحد ٨ رجب .

(٣) هو : موسى بن يوسف ، الشرف بن الجمال بن الصفي الكركي الشوبكي الملكي ناظر جيش طرابلس ، وقريب الجمال ناظر الخاص ، أصله من نصارى الشوبك ، ونشأ في كنف أبيه .

له ترجمة في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٣) ، و « الضوء اللامع » (١٠/ ١٩٢ رقم ٨٠٩) ، و« بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٧) .

تَمُرْبغا وفي هذا الشهر شُفع عند السلطان في تَـمُرْبُغَا أن يُطلق من السجن ، وجُعل له على ذلك مال ، فقبله وأطلقه ، على أن يذهب إلى دمشق ، ثم يذهب إلى مكة المشرَّفة من هنالك فيقيم بها منفيًا ، فكان كذلك ، ذهب مع الركب الشامي وأقام بها [(١)] .

وفيه ادعى عليٌّ [(٢)] بن خصبك ، ابن أخي خَوَند [(٣)] بدكاكين قدَّام عمارة السلطان الجديدة ، وتلك الدكاكين من مسجد الفجل [(٤)] إلى الزقاق السالك إلى القصر أنها ملك لشخص من أجداده مِن قِبل الأم ، يقال له بكتاش ، وأخرج مستندًا بذلك ، ثابتًا على الخط ، كان ادّعى به قبل ذلك في مكان آخر مــن وقف الجمالية [(٥)] ، وأثبته له الناصر بــن

---

(١) الخبر في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١١٩) .

(٢) يفهم مما جاء في « الضوء اللامع » (١١/ ٢٤٥) أنه علي بن خليل بن علي بن أحمد ، العلاء ، المعروف بابن خاص بك .

إلا أن صاحب « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٢٨٣) ، ذكره فيمن مات في شهر رمضان سنة ٨٩٩ هـ ، وقال : « وفيه كانت وفاة العلائي علي بن خاص بك صهر السلطان [قايتباي] ، وهو علي بن خليل بن حسن بن خاص بك التركي الأصل ، وكان رئيسًا حشمًا دِّينًا خيِّرًا من أعيان أولاد الناس ، وقد كبر سنه وشاخ ومولده قبل الثلاثين والثمانمائة .. » .

(٣) راجع « هامش ٣ » من (ص ٣٩٢) من القسم الأول .

(٤) مسجد الفجل : ذكر (المقريزي) في « الخطط » (٢/ ٤١٣) أنه يقع بخط بين القصرين ، تجاه بيت البيسرى ، أصله من مساجد الفاطميين ، أنشأه على ماهو عليه الآن الأمير بشتاك ، وتسميه العامة (مسجد الفجل) وتزعم أن النيل كان يمر بهذا المكان ، وكان يُغسل فيه الفجل ، وهو قول كذب لا أصل له .

وجاء في « الخطط التوفيقية » (٦/ ٤٧) أنه يُعرف اليوم بزاوية معبد موسى ، وهو بآخر شارع بين القصرين ، وأول شارع التمبشكية .

(٥) الجمالية : مدرسة تقع بين حارة الفراخة ، وقصر الشوك ، بناها الوزير علاء الدين مغلطاي الجمالي سنة ٧٣٠ هـ ، وجعلها مدرسة للحنفية ، وخانقاه للصوفية ، وكانت تعد من أجل المدارس في القاهرة ، إلا أن أمرها تلاشى لسوء ولاتها ، وقد عُرفت هذه المدرسة فيما بعد بزاوية الجمالي .

« خطط المقريزي » (٢/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣) ، و « الخطط التوفيقية » (٢/ ٧٥ ، و ٦/ ٦) .

المخلطه فمات عقب ذلك بيسير ابن المخلطة ، وماتت المدَّعية بذلك ، وهي أم خوند ، ومات وكيلها ، فكان في ذلك عبرة ، ثم أُعيدت الدعوى بذلك في هذه الأيام عند قاضي القضاة سعد الدين بن قاضي القضاة شمس الدين بن الدَّيْري الحنفي ، وسنه فوق التسعين سنة ، فأجاب محمد بن جمال الدين ، بأنهم واضعوا اليد على الدكاكين لجهة الوقف بمستند شرعي ، وأخرج مستندًا فيه ، أنه ثبت أن هذه الدكاكين وقفٌ للسلطان حسن [1] ، وأن الناظر عليها فلان ، وأن جدّ أبيه الأمير جمال الدين استبدلها منه وحكم بصحة الاستبدال القاضي [محمد بن عمر [2]] بن العديم [3] الحنفي ، والمجد سالم ، قاضي الحنابلة ، ثم وقفها الأمير جمال الدين ، فلم يُفِد ذلك ، وعُقد للقضية مجالس ، فسكَت بعض القضاة ، وتكلَّم بعضهم بما يقتضي أنَّ الحق في جهة الجمالية ، فعُنِّف من فعل ذلك ، وكان تعنيف القائل أعظم من تعنيف السَّاكِت ، ثم تقلوا [4] الدَّعوى في ذلك إلى أنها موضوعة في طريق

---

(1) وهو : حسن بن محمد بن قلاوون ، وكان اسمه قبل السلطنة (قماري) .

راجع «خطط المقريزي » (٢/ ٢٤٠) ، و « سمط النجوم العوالي » (٤/ ٢٥) .

(٢) مابين الحاصرتين بياض في الأصل ، والتصحيح من « هامش ٧ » .

(٣) هو : محمد بن عمر بن إبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد العزيز بن محمد بن أحمد بن هبة الله بن أبي جراده ، ناصر الدين بن الكمال الحنفي ، المعروف بابن العديم ، وبابن أبي جرادة ، ولد في ربيع الأول سنة ٧٩٢ هـ بحلب ، واشتغل على مشائخها ، وقدم القاهرة مع أبيه وهو شاب واشتغل على علمائها ، وتولى القضاء في مصر بعد الشيخ شمس الدين محمد الدّيري الحنفي ، ومات ليلة السبت ١٩ ربيع الآخر سنة ٨١٩ هـ عن سبع وعشرين سنة .

له ترجمة في : « إنباء الغمر » (٧/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) ، و « النجوم الزاهرة » (١٤/ ١٤٣) ، و « الضوء اللامع » (٨/ ٢٣٥ رقم ٦٣١) .

(٤) تقلوا : رفعوا .

« محيط المحيط » (٧٥٤) .

المسلمين بغير حق ، وأنَّ ذلك أمرٌ ظاهرٌ ، وكانت بارزة عند باب مسجد الفجل ، فجعل ذلك دليلاً على ذلك ، وهُدمت ، فكانت قضية يُعجب منها ، وارتاع الناس لها ، بحيث أنّي ما رأيت أحدًا وقع في قلبه أن هدمها بحق ، ولم يكن في القضاة يومئذٍ اسنّ ، ولا أعلم ، ولا أكثر نسبة إلى الدين من الحنفي الفاعل لذلك ، فليس القضاء إلا مجرد فتنة نسأل الله العافية منه .

وكان الوكيل عن جماعة السلطان شخصٌ من الوكلاء مشهور بالفجور والشّرّ والانهاك في الفسق يُقال له شرف الدين الفيّومي يشهر بشريف ، وكان في باب الشافعي العَلَم صالح ، وكان مُقَرَّبًا عنده ، وكان صديق ابن زوجته الصلاح أمير حاج ابن [بركوت [1]] ، الذي تولى الحسبة قبيل ذلك ، فلم يمض بعد هدم الدكاكين جمعة ، حتى صدق الله نبيه ﷺ في قوله : من أرضى الناس لسخط الله أوشك أن يغضبهم عليه [2] . فغضب السلطان على شُرَيف [١٨٧] غضبًا لم يُعهد منه مثله، بحيث انه إتَّهم دويدار نقيب الجيش في الفحص عنه ، فأمر بضربه، ثم اشتد التنقيب عنه والبحث ، فلم يوجد ، فألزم به الصَّلاح ابن امرأة الشافعي ؛ لكونه صديقه ، فادعى أنه لا يعرف مكانه ، فتهدَّدَه السلطان بالنفي ، فلم يُفد ، فأمر بنفيه يوم الاثنين سابع شعبان من السنة إلى غزَّة ، فخرج إلى التربة ، ليتجهَّز ، ثم شُفع فيه بالإعفاء من ذلك على ألف ومائتي دينار ، وزلزل القاضي الشافعي ، فغرم مالاً ، قيل أنه ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) في الأصل (بكتوت) ، والتصحيح من « الضوء اللامع » (٢/ ٩٩) .

(٢) أخرجه (الترمذي) في « سننه » (٣٧ كتاب الزهد ـ باب ٦٤ ، ج ٤ ص ٦١٠ ، حديث رقم ٢٤١٤ ، بلفظ : « من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنَةَ الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكَلَهُ الله إلى الناس » .

وخفي عن الناس سببُ الغضب على شريف ، ورووا فيه روايات أقربها ، أنه لما وصل به جماعة السلطان إلى غرضهم دُفع له من جهة خوند خمسون دينارًا ، فامتنع من أخذها ، وطلب أن يُرسم له بخلعة على أن يكون وكيلهم في البيع والشرى ، ونحو ذلك ، فخف ذلك عليهم ، وأمروا به فامتنع ناظر الخاص ، فاستعان عليه شُريفُ ببعض الأجلاب ، فأرضاهم ناظر الخاص ، ثم طعن فيه بما أوجب ذلك ؛ خوفًا من مثل قصَّة أبي الخير النحاس ، فأن أوّله كان كذلك .

هذا السبب الظاهري ، وأما الحقيقة ، فهو أنه أرضى جماعة السلطان بما يغضب الله ، فأسخطهم الله عليه ، كما ورد الخبرُ عن النبي ﷺ : من أرضى الناس بسخط الله أوشك أن يغضبهم عليه [1] . وفي أواخر شهر رمضان تكلّم فيه الشيخ إبراهيم المتبولي عند الأمير بُرْدُبَك الدويدار الثاني ، فكلم فيه السلطان ، فلم يجب السلطان ، واتفق أن حاجب الحجاب في ذلك اليوم وقعت عنده قضيةٌ ، من افسادات شُريف ، فعرضها على السلطان ، فازداد عليه حنقًا ، واشتد عجبُ الناس من المتبولي ، ومن أنفذ كلمته .

زيادة البحر

وفي يوم الثلاثاء ثامن شعبان هذا ، وهو الموافق لسادس عشري بؤُونه من أشهر القبط ، نودي ببشارة زيادة البحر ، وكانت القاعدة سبعة أذرع وثمانية أصابع [2] .

ابنتي فاطمة أم هاني

وفي هذا اليوم قبيل ظهره بنحو درجتين وُلدت ابنتي أم هاني فاطمة من سريتي ثريا الهندية ، فتفاءلت بخيرها ؛ لأنها وُلدت يوم البشارة [3] بأعظم ما في بلاد مصر .

---

(١) سبق تخريجه ، في « هامش ٢ » من (ص ٣٦٨) .

(٢) الخبر في « حوادث الدهور » (٣١٧) .

(٣) أي زيادة النيل .

وفي هذا اليوم وُلِّي ناصر الدين شعبان [١] بن الشيخ شمس الدين محمد الشهير بجُنيبات السكندري المالكي قضاء إسكندرية ، وهو أنسب أهل إسكندرية لذلك ، وفي ولايته في شهر شعبان مناسبة لاسْمِهِ ، وعُزل به [جلال [٢]] الدين بن الشهاب المحلي ، وكان عزله من أعظم الواجبات ؛ لما اشتمل عليه من الفسق والجهل والجرأة ، وطُلب ابن المحلي إلى القاهرة .

وفي عصر يوم الخميس عاشر شعبان هذا بلغ السلطان أن بني سعد وبني وائل ، أشرفوا على شرٍّ كبيرٍ تخرب منه كثير من البلاد ، وذلك أن بني حرام وبني سعد ، كانت بينهم عداوات متقادمة ، فتداعوا في هذا العام إلى الصلح ، فتحالفوا على أن يكونوا في الخير والشر سواء ، وأن لا يخون بعضهم بعضا ، ثم أن شخصًا من فرسان بني سعد ، يُقال له بدر الدين [٣] .. قال لبعض بني حرامٍ : أنّ له ثأرًا في بعض تلك البلاد ، ودعاهم إلى مساعدته في ذلك فاعْتَلّوا له ، وقالوا : إنما الرأي أن تطرقهم أنت في خيلٍ قليلة، ولك علينا أن لا ننصرهم، مع أنك تعلم أنه لا ناصر لهم إلاّ نحن، وإن تركنا نصرهم تمكَّنت منهم، فقنع منهم بذلك، ثم واعدوه على ليلة فخافهم ، فلم يذهب تلك الليلة ، وكانوا دسّوا إلى أهل تلك القرية من حذرهم منهم ، ووعدوهم بالنصرة ، ثم قصدهم في ليلة

---

(١) هو : شعبان بن محمد بن عوض بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد ، ناصر الدين أبو البركات بن الشمس السكندري المالكي القادري سبط الأنصاري ، المعروف بابن جُنَيبات ، ولد في شعبان سنة ٨٠٦ هـ ، بإسكندرية ، ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها ، في الفقه ، والفرائض ، وعلوم القرآن ، وناب في القضاء ، ثم استقل به ، وناله بعض المكروه بسبب ذلك ، مات في إسكندرية في ذي الحجة سنة ٨٧٧ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٣/ ٣٠٣ رقم ١١٦٣) .

(٢) بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر « هامش ٢ » من (ص ٣٠) .

(٣) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

أخرى ، فعلم بنو حرام بذلك ، فشيّعوا من فرسانهم إلى تلك القرية من يُقاتل مع أهلها ، فلما أتاهم وجدهم متأهبين فرسانًا ومشاة ، فخاضهم إلى أن عثر بغريمه ، فطعنه ثم رجع ، وطُعِن فرسُه ، ولم يشعر ، فقال لرفاقه : اذهبوا فإنَّا لا ننال منهم هذه الليلة ما نريد . فقالوا : كيف نذهب ولم نقتل من جئنا له ؟ فقال طعنته طعنةً لا يعيش منها ، ثم ذهب بهم ، وتبعه أولئك ، فكان يحمي رفاقه ، ثم يلحقهم ، فوصلوا إلى بعض الخلجان ، فوقف يطارد أعداءه إلى أن عَوَّم أصحابه ، وصاروا كلُّهم في الناحية الأخرى ، ثم ضرب فرسه في البحر حتى طلع من الناحية الأخرى ، وكانت طعنته نافذةً ، فدخل فيها ألماً ؛ فصعب [1] الفرس ، فلما أحس منه الصَّعْب سأل بعض أقاربه أن يعيره فرسه ، فلم يفعل ، فقال : فأنا أذهبُ إلى حيث شئت . فقالوا ينتصفون منا إذًا ، فوقف معهم حتى تلف فرسه ، فلما علم ذلك أعداؤه طمعوا فيهم ، فحملوا عليهم ، فأحاطوا به وهو راجلٌ فقتلوه ، وفاتهم أصحابه ، فبلغ ذلك من بني سعد مبلغًا عظيمًا ، ثم علموا خيانة بني حرام ، فدقُّوهم فقتلوا ناسًا كثيرًا ، قيل : أنهم يزيدون على ثلاثمائة رجل .

فاحتاج الأمرُ إلى الإرسال إليهم ، فقال صهر السلطان بُرْدْبَك الدويدار الثاني : أنا أذهب إليهم ، وكانت يده مكسورة كما تقدم ، فقال السلطان : كيف تذهب على هذه الحال ؟! فأقسم ليذهبن على كل حـال ، وكان لا يجلس في بيته إلاَّ على تعبئة لجميع ما يُراد بالجند ، وقد عرف ذلك منه مماليكه وجميع من في خدمته ، فلم يأت عليه مغرب يوم الخميس هذا إلاَّ وهو سائرٌ في التّرب بنحو خمسمائة فارس : مماليكه نحـو

---

(١) صَعُبَ : اشتد وعَسُر .

« لسان العرب » (٢/ ١٢) ، و « القاموس المحيط » (١١/ ٩٥) ، و « محيط المحيط » (٥٠٨) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٥١٤) .

مائة وخمسين ، والباقون من مماليك السلطان ، ومماليك أمير كبير [(١)] ، قائدهم ابن الأمير الكبير ، ومماليك شاد الزَّرَدْخاه سُنْقُر قَرَق شَبَق ، يسَّرَ الله ما فيه صلاحه ، وصلاح المسلمين آمين . ثم جاء الخبرُ ، أنَّه لم يلق أحدًا ممن توجَّه إليهم .

وفي يوم الاثنين رابع عشر شعبان هذا ، حضر الزين الإسْتَدَّار ، وكان مسافرًا في ناحية الصعيد ، فخُلع عليه ، وعلى [زين [(٢)]] الدين بن قاضي القضاة بدر الدين العيني الحنفي [(٣)]، صهر خُشْ قَدَم أمير سلاح بالاستمراريّة في نظر الأحْبَاسِ ، وكان قد هُزّ بأنه يُعزل منها ، لذنب ذُكر له ، حتى تساقط ثمرُه ، فأُقِرَّ ، وعلى القاضي الشافعي العَلَم صالح بالاستمرار في القضاء ، وكان أمرُه ، أمر ابن العيني ، وعلى ابن إمرأته الصلاح أمير حاج بن [بركوت [(٤)]] بأنه قد أُقر في القاهرة ، وتُرِك نفيه .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره عُقد مجلسٌ لشخصٍ من مَكَسة [(٥)] قَطْيا مرّ عليه شريفٌ شامـي ، فعنَّف به ، فسأله الرِّفق بحدّه ، فوقـع فيما

---

(١) وهو في هذه الفترة ، سيف الدين تَنِبَك بن عبد الله البُرْدَبكي الظاهري .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٩٥) .

(٢)بياض في الأصل ، والتصحيح من مصادر « هامش ٣ » .

(٣) هو : عبد الرحيم بن محمود بن أحمد ، القاضي زين الدين بن بدر الدين بن شهاب الدين العيني الحنفي ، كان فاضلاً ، رئيسًا ، حشمًا ، ولي عدَّة وظائف سنية ، منها نظر الأحباس ، وناب في القضاء ، وكان مولده سنة ٨٠١ هـ ، ومات في يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٨٦٤ هـ بمرض الطاعون .

له ترجمة في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٢١٥) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٧٣) .

(٤) في الأصل (بكتوت) راجع « ص ٣٦٨ » .

(٥) مَكَسة : أي من أعوان السلطان الذين يتقاضون المكوس من الناس .

راجع « محيط المحيط » (٨٥٩) .

لايليق ، فرفع أمره إلى المالكي ، الحسام بن حُريز ، فطلبه ، وأذن لنائبه أبي [1] سهل بن الشيخ شمس الدين بن عمار في سماع الدعوى عليه ، ففعل وأُقيمت البينة ، وزكّيت ، وكان ابن عمار من الشباب الذين حَدَّدَهم الولي السنباطي قبل موته بيسير وكان في نفسه فاترًا ، فلم يكن كفؤاً لمثل هذا وكان يقرِّب قاضي الحنابلة ، العز بن نصر الله ، وكان أيضًا مباعدًا لجرْأة القتل ، فطال أمره لذلك ، وكان يطلب التخلص من قتله، وكان من المالكية شخصٌ يُقال له أبو الجود من جيران الحنبلي [١٨٨] ولم يكن مشهورًا بغير الفرائض ، غير أنَّه صار يُستفتى في الفقه ؛ لخلو الزمان عن الفضلاء ، ولا سيما الشيوخ فاستماله الحنبليُّ ، فأفتى بأن الرجل لا يُقتل ، وأرسلوا جماعة المكَّاس إلى خوند ، فطُلب عقد مجلس ، فكان هذا اليوم ، فأبدى أبو الجود ما عنده ، وأخرج النقل وعَضَّده الحنبليُّ ، فخالفهم جميع المالكية وجزموا بأنَّ ما قاله أبو الجود مسألة أخرى ، وحصل في المجلس لغط [2] كبيرٌ وغالبه كان للحنبلي ، وطُعن في القضية من جهة المالكية ؛ أن المسألة ليس فيها نقلٌ في مذهبهم، ومن جهة الشهود ، وطُلب نقلُ الأمر إلى شافعي ، فقال المالكيُّ كيف وقد ادَّعى عند المالكية وأشرفوا على الحكم ؟! فقال له : أنت سمعت الدعوى في قضية ذلك [3] .

---

(١) هو : يحيى بن محمد بن عمّار ، الشرف ، أبو سهل عمار بن الشمس المصري القاهري المالكي ، المعروف بابن عمار ، ولكنه بكنيته أشهر ، وُلد تقريبًا سنة ٨٢٨ هـ أو قبلها ، ونشأ في كنف أبويه ، استقر بعد أبيه في تدريس قبة الصالح ، والقمحية ، والأشرفية ، وناب في القضاء ، مات في صفر سنة ٨٨٨ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٥٢ رقم ١٠٢٩) .

(٢) لَغَط : اللغط ، الصوت والجلبة ، وأصوات مختلفة مبهمة لا تُفهم .

« لسان العرب » (٩/ ٢٦٧) ، و « القاموس المحيط » (٢/ ٣٩٧) ، و « محيط المحيط » (٨١٩) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٣٠).

(٣) راجع « ص ٣٠٣ » .

اليهودي ، بعد حكم شافعي ، وأردت أن تحكم فيها بشيء ليس من مذهبك ، ولما أسْلم قلت : إنّ الإسلام لا يُنْجِيه ، وخالفت اتفاق أصحاب المذاهب ، فمالك تسمع الدعوى بعد حكم غيرك، وغيرك لايسمع الدعوى فيما سمعه فيه أنت ؟! فانفصل المجلس عن أنّه يُعزّر فقط ، فنُقل أنَّ المالكي ضربه ضربًا يميت مثله .

ثم كُشف الأمرُ عن أنَّ أحد المزكّين للشهود لا يصلح ، وأن المالكي أخبر نائبه بتزكيته ، فتبين بذلك غرضه وتهالكه على إقامة حُرمته بقتلٍ أو تعزيرٍ شديد ، كان مرَّة عَزَّر شخصًا من الناس ، بحلق اللحية ، فأخبر الشيخ أبو الفضل أن ذلك لا يجوز في مذهبهم قطعًا وأرسل إليه من عنَّفه ، فاعتذر بأنّ الفاعل لذلك نائبه وأنّه هو لم يشعر بذلك ، فأُخبر السلطان وقُرِّرَ عنده كلُّ ذلك فأرسل السلطان بمنعه من التعرّض إليه بغير السجن .

وفي آخر يوم الجمعة ثامن عشر شعبان المذكور رجع الأمير بُرْدُبَك من سفرته إلى الشرقية في مثل الوقت الذي خرج منه ، وهو قبيل غروبه ، ولم يظفر بالعرب الذين قصدهم ؛ انفضوا قبل وصولهم إليهم ، لكنه طلب منهم جماعةً كان لهم به صحبة وأُلْف وأمّنهم فجاءوه ، فأوْصاهم ورغَّبهم ورهَّبهم ، ولما طلع إلى الخدمة بكرة يوم السبت تاسع عشره خلع عليه السلطان وشفع في يَشْبُك [1] الذي كان نائب طرابلس وسجنه السلطان في المرْقَب لخيانةٍ بدت منه ، فشفعه السلطان فيه ، ورسم بالإفراج عنه .

وفي هذا الشهر توالى الحريق في مواضع مستكثرة من القاهرة ، بحيث ساءت ظنونهم ، فرموا بذلك الغرباء من الأعاجم ، واتَّهموهم بأن يكونوا أرادوا اقتصاص ما فُعل في بلاد ابن قرمان ؛ وأكَّد شبهتهم في ذلك أنَّ

---

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ٢٥٢) من القسم الأول .

الحريق غالبًا كان يقع في بيوت الجند ؛ فنادى السلطان للغرباء بالسَّفر[1] ، ثم ادعو أنهم أمسكوا شخصًا من المحرِّقين فإذا هو مصري ، وهو ممن لا يُتَّهم ، وشبهتهم في اتِّهامه ، أنهم وجدوا معه زنادًا وكبريتًا ، والذي يغلب على الظن أنَّ فاعل ذلك الأجناد البطَّالة العبيد والغلمان المفسدون المنسوبون إلى الزَّعارة واللصوصية ؛ لتمكنهم من النهب عند الحريق بعلَّة الإطفاء والله تعالى المسؤول في السلامة منهم[2] .

وفي أواخر شعبان تحدَّث ناسٌ بوجدان من يمشي بالليل متنكرًا في مواضع لا يمشي في مثلها على تلك الحالة إلا مُفْسد ، وكان الحريق مستمرًا لا تخلو عنه جمعة من الجمع ، وكان لا يقع إلاّ ليلاً ، فنادى السلطان في أواخر الشهر ، أن لا يخرج بعد العشاء أحدٌ ، لا عبد ولا حرّ ولا مأمور ، وصار الحريق بعد ذلك يقع ليلاً ونهارًا حتى وقع في يومٍ واحدٍ الحريق في نحو عشرة مواضع ، وصحّ الخبرُ أنَّه كان يقع حجرٌ أو طوبةٌ ونحو ذلك في بعض الأماكن كسطحٍ ونحوه ملفوفٌ عليه خروق داخلها كبريت ونفط وفتائل بها زيت ونحو ذلك ، وفي ذلك نارٌ ، فقلّ موضعٌ تقع فيه إلاّ أحرقته ولما حَذَّرهم الناس اشتدّ احتراسهم منهم ، فقلّ تمكنهم من النهب ، وتمكّن النار من الإحراق ، فقلَّ أن احترق بيت كله .

وفي ضحى يوم الأحد سابع عشري شعبان هذا ، مات الشيخ[3]

---

(١) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٤) كان ذلك في ٢٢ شعبان .

(٢) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣١٧) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٤) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر (٥٧) .

(٣) راجع « هامش ١ » من (ص ٢٥٥) من القسم الأول .

موت الشيخ يحيى العجيسي

يحيى بن عبد الرحمن العجيسي المغربي المالكي عن بضع وثمانين سنة ، وأُخّر إلى ضحى الغد فَصَلَّى عليه قاضي الشافعية العَلَم صالح البُلْقيني في باب النصر ، وحضر جنازته بقية القضاة ، وجمع جم ، وكان إمامًا في النحو ، وشرح ألفيَّة [١] ابن مالك في أربع مجلدات نخل فيها جميع شروحها ، غير أنَّه كان ترفًا [٢] ، لم يكن يُنتفع به في تدريس ولا نوع أخذ عنه ، وكان سيىء الأخلاق ، مُحِبًّا في تبكيت [٣] الناس ومواجهتهم بالأذى من غير جُرم ، كثير الحفظ للعورات ، غير متحاشٍ من ذكرها ، جِريء اليد على البطش في من يخالفه كائنًا من كان ، وكان ينتمي إلى بعض الأكابر فيحمونه في مثل تلك الوقائع ، وكان ذا حظ في ذلك ، وخَلَّف ولدًا من زنجية أسود يُسمَّى بدر الدين محمد [٤] ، فأخذ وظائفه إلا تدريس الفقه بالشيخوخية فأخذه قاضي المالكية الحسام بن حُريز .

---

(١) وهي ألفية في النحو ، للشيخ جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الطائي الجياني ، المعروف بابن مالك النحوي ، المتوفي سنة ٦٧٢ هـ ، يقول (حاجي خليفة) : « وهي مقدمة مشهورة في ديار العرب كالحاجبية في غيرها ، جمع فيها مقاصد العربية ، وسماها الخلاصة ، وإنما اشتهرت بالألفية ؛ لأنها ألف بيت في الرجز » .

« كشف الظنون » (١/ ١٥١) .

(٢) تَرِفًا : أي متنعمًا .

« لسان العرب » (١٠/ ٣٦٠) ، و « القاموس المحيط » (٣/ ١٢٤) ، و « محيط المحيط » (٧٠)، و « المعجم الوسيط » (١/ ٨٤) .

(٣) تَبْكيت : أي التقريع والتعنيف والتوبيخ ، والغلبة بالحجة .

« لسان العرب » (٢/ ٣١٥) ، و « القاموس المحيط » (١/ ١٤٩) ، و « محيط المحيط » (٤٩) ، و« المعجم الوسيط » (١/ ٦٦) .

(٤) هو : محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد ، البدر بن الشرف العجيسي المغربي الأصل القاهري الناصري المالكي ، المعروف بالعجيسي ، استقر بعد أبيه في تدريس الفقه بجامع طولون ، والأشرفية القديمة ، والخروبية ، مات في ربيع الأول سنة ٧٧١ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (١٠/ ٧٣ رقم ٢٥١) .

وفي هذا الحد أُعيد إلى البرهان بن جماعة قضاء الشافعية بالقدس الشريف ، وعُزل قاضي الخليل بكلفة كبيرة جدًا ؛ لما كان حصل لهم بذلك من الوهن ، يقال أنهم تكلَّفوا على العود نحو سبعمائة دينار .

وفي هذا الحد جرت فتنة في الخليل بين الأكراد والدارية ، قُتل فيها خمسة أنفس : أربعة من الدّارِيّة ، وواحد من الأكراد .

وفيه أيضًا أرسل السلطان كاتب السر المحب بن الأشقر إلى قاضي المالكيَّة يأمره أن يُطلق المكَّاس الذي ادُّعى عليه في جهة الشريف الذي استشفع عنده برسول الله ، فوقع منه [١٨٩] ما وقع ؛ بسبب أنَّ السلطان رأى (كما لقَّنه الحنبلي) أنّ من شهد عليه إنما هم من أخذ منهم مَكْسًا ، فصار عدُوًّا لهم لا تُقبل شهادتهم عليه ، وأنَّ هذا الذي وقع له ، من السجن والضَّرب كافٍ في تعزيره على حسب ما لقَّنه الملقنون ، وكان المالكية قد أخرجوا النقول الصريحة من مذهبهم أن من كان في ظلم عام تقبل عليه شهادة من ظلمه لئلا يصير ذلك موجبًا للإقدام على المظالم العامة التي من أعظم مقاصد الشرع نصب ما يوجب الإحجام عنها ، فينعكس الأمر ، وتصير مصلحة الشرع مفسدة ، فلما بُلِّغ المالكي الرسالـة ، قال : أنا لا أخالف السلطان ، ولا أتوَلَّى إطلاقه ، ولكن خذه على ما هو عليه من القيد والغل ، فأحضره إلى السلطان فليفكه أو يدعه ، فأخذه فحصل للسلطان وَعكٌ ؛ فرُدَّ إلى السجن من جهة السلطان ، واستمرّ إلى أن عُوفِيَ السلطان ، فسأل عنه ، فأخبر ، فقال : إنهم يريدون أن يصيروا يحتجون في ذلك بالشوكة ، وينسبونني إلى الجور ، اذهبوا به إلى الشافعي يحكم فيه ففعلوا ، ففكَّ عنه قيده وغِله في الحال ، وتركه في مدرسة أبيه ، ثم أُرسل إلى ابن عمّار الذي كانت عنده الدعوى عليه ،

فسأله عمَّا انتهى من أمره ، فقال : إنه حكم بتعجيزه عن القدح في البينة لتعزيره ، فسُئل المالكية فقال : إنَّ الحكم بالتعجيز لا يكون إلا للقتل ، فحاول ابن عمار عن الرجوع عن حكمه فأبى ، وقال : إنما حكمت بذلك لما قام عندي من الشبه في البينة ، وعجزه عن الطعن لا يقتضي عدم موجب الطعن فأرسل الشافعي إلى المالكي من شهد عليه بأنَّه لم يأذن لابن عمار في هذا الحكم ، وأنّ للشافعي الدخول فيها ، ثم فوَّض ذلك إلى نائبه البدر محمد بن البهاء محمد بن القطَّان ، فعزّره ، وطافوا به يُنادى عليه ، هذا جزاؤه ، وأقلّ جزائه ، لا يزيدون على ذلك ، وأطلقوه ، فكان ذلك من أعاجيب الدَّهر ، وكان في نحو العاشر من شهر رمضان هذا العام .

وفي هذا [١] الحد ، أرسل السلطان نحو مائة وستين من الجند في ثلاثة مراكب ؛ ليأتوا بخشب من الجون .

وفي هذا الحد ، جاء الخبرُ أنَّ الخواجا [٢] شمس الدين بن النحاس الدمشقي مات في مكة المشرَّفة ، وكان تاجرًا كثير المال سمحًا بالعطاء ، جم النّوال ، حسن الشكلِ والفِعال ، وكان ولده[٣] مات بمكة المشرفة بالعام الماضي ، وكان يكفيه كثيرًا من مهماته ، ومن ذلك متجرٌ كان له في الهند ، وكان ينتظره في مكة ، فحج الخواجا شمس الدين وجاور لذلك ، وقيل : إن ذلك المتجر قدم البشير به بعد موته بيوم أو يومين ، وكان الثناء

---

(١) في « حوادث الدهور » (٣١٧) في يوم الجمعة ١٨ شعبان .

(٢) يُفهم مما جاء في « الضوء اللامع » (١١/ ٢٧٣) أنه محمد بن أبي بكر بن إسماعيل الخواجا الدمشقي المعروف بابن النحاس .

(٣) هو : عمر بن محمد بن أبي بكر بن إسماعيل ، السراج بن الخواجا الشمس بن النحاس الدمشقي ، يقول (السخاوي) : « ممن نبغ في التجارة ، وجاور بمكة مرارًا بسببها ، فَقُدِّرت وفاته بها في جمادى الأولى سنة إحدى وستين ، وفجع فيه أبوه » .
« الضوء اللامع » (٦/ ١١٧ رقم ٣٧٣) .

على ولده أحسن من الثناء عليه في الكرم والانقياد إلى الخير والمعرفة بالمتجر ، فالله المسؤول في التعويض عنهما بأحسن العوض ، وأخذ السلطان من تركته عشرين ألف دينار على يد ناظر الخاص ، الجمال يوسف ، فإنا لله وإنّا إليه راجعون .

كسر البحر

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن عشري شهر رمضان من السنة الموافق لخامس عشر مسرى من أشهر القبط نودي ، أنّ البحر زاد ستة عشر إصبعًا ، فوفى ستة عشر ذِراعًا [1]، وزاد عشرة أصابع من الذِّراع السابع عشر ، وقيل : أن ذلك لم يتفق منذ ثلاثين سنة ، ومن العجائب أيضًا ، أنّ البشارة بزيادته ووفاه ، كان كل منهما يوم الثلاثاء ، وفتح سده في ذلك اليوم على العادة ، وكانت زيادته في ذلك اليوم واليومين قبله ، ستًا وأربعين إصبعًا ؛ فحصل للناس سرورٌ عظيم ، وبارت الغلال بوارًا ظاهرًا ، بحيث صار الجلاَّبة ينادون في الأزقة ، ياموّانة [2]، فلا يجدون مشتريًا ، وكان سعر القمح مائة وخمسين ، وهي نصف أشرفي ، ودون ذلك ، والشعير مائة وخمسة عشر ، ودون ذلك ، وبقية الحبوب مقاربة لذلك .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشري شهر رمضان هذا ، ذهب نقيب الجيش ، الأمير ناصر الدين بن أبي الفرج إلى بركة الحاج ، إلى زاوية الشيخ إبراهيم المتبولي ، فأخذ شُريفًا ورجع ، فأمر به السلطان إلى السجن ، فحبس في سجن الرَّحَبَة ، وتُهدِّد بالعقوبة بعد العيد ، وكثر

---

(١) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣١٧ ـ ٣١٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٧) .

(٢) مَوَّانة : المؤونة القوت ، وما يُدَّخر منه ، وتَمَوَّن فلان على عياله ، أكثر النفقة عليهم وادَّخر ما يلزمه من المؤونة .

« محيط المحيط » (٨٧٠) ، و « المعجم الوسيط » (٢/ ٨٩٢) .

سرور الناس بذلك إلاّ أهل الفساد الذين كان ببابهم قاضي الشافعية صالح البلقيني ، وابن امرأته الصلاح أمير حاج بن بركوت ، وهو المشهور بين الناس [بفساده [(١)]] ، وأتباعهما ، فلما أيقن شريف بالشرّ سعى في نفسه بالمال ، فَكُلِّم السلطان فيه في أوائل شوال ، ونُفى عنه الذَّنبُ ، ونُسب إلى من كان في بابه ، فأطلق وأُخذ عليه إلاّ يقف في باب أحد ، ولا يتكلم بين اثنين .

موت قاضي الخليل

وفي أواخر شهر رمضان هذا ، أو أوّل شوّال قدم الخبرُ بموت قاضي الخليل ، الذي كان ولى قضاء القدس ، شهاب الدين أحمد [(٢)] بن علاء الدين علي بن إسحاق في القدس بعد بلوغه خبر العزل ، فمرض نحو ثلاثة أيّام ، ومات يوم الخميس العشرين من شهر رمضان المذكور .

وفي هذا الحد ، مات الأمير حسون أحد أتباع الأشرف برسباي الذي كان أحد النظار على تعلقاته ، وكان مِسنًا .

سلخَ السنة القبطية

وفي يوم الأربعاء سلخ مسري ، وهو الموافق لثالث عشر شوال ، وَفى البحرُ ثمانية عشر ذراعًا ، وزاد إصبعًا من الذِّراع التاسع عشر ، ونودي بذلك يوم الخميس أول أيَّام النسيم ، الموافق لرابع عشر شوال ، وتباشر الناس بذلك ، جعل الله العاقبة إلى خير .

---

(١) في الأصل (بفساد) والتصحيح من مفهوم السياق .

(٢) هو : أحمد بن علي بن إسحاق بن محمد بن الحسن بن محمد بن مصلح بن عمر بن عبد العزيز حاجي ، وقيل في نسبه بعد محمد الثاني ، بن عمر بن عبد العزيز بن مصلح ، شهاب الدين بن العلاء التميمي الداري الخليلي الشافعي ، ولد في ٢٨ ربيع الآخر سنة ٧٩١ هـ بالخليل ونشأ بها ، ولي قضاء الخليل ، والرملة في سنة ٨٠٩ هـ ، وناب في القضاء بالقاهرة ، وولي قضاء بيت المقدس عن البرهان بن جماعة ثم انفصل عنه ، ومات في العشر الأخير من رمضان سنة ٨٦٢ هـ .

له ترجمة في : « الضوء اللامع » (٢/ ١٣ رقم ٣٩) .

وفي يوم الاثنين [١٩٠] ثامن عشر شوال سافر المحمل من القاهرة ، أول توت ومعه حاجب [١] الحجاب أمير الحاج إلى البركة ، وهذا اليوم ، هو سلخ أيّام النسيم ، ويوم الثلاثاء تاسع عشره ، وهو يوم النَّيروز وهو أوّل توت ، أول سنة القبط .

وفي يوم الخميس حادي عشري الشهر سار ركب الحاج الأول ، وأميرهم [٢] جوهر الخصي الأسود مقدم المماليك ، وكان في مركبه عدة من الأجلاب أُرسلوا خوفًا مما تقدَّم من فتنة أهل ينبع .

وفي يوم الجمعة ثاني عشريه سار ركب المحمل لطف الله بجميعهم آميـن .

وفي هـذا الحـد ، قَـدِم الخبرُ من إسكندرية أنَّ الإمـام أبا البقاء القـائم بأمر الله حمزة مات بها في يوم الاثنين ثامن عشر هذا الشهر ، وكان منفيًّا فيهـا ، بعد أن نُفِّس عنـه من بـرج ضيِّق إلى قاعة حسنةٍ ، رحمه الله [٣] .

وفي يوم الاثنين خامس عشري هذا الشهر ، مات محتسب القاهرة قانباي اليوسفي [٤] .

---

(١) وهو الأمير برْسباي البجاسي .

« النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٨) .

(٢) في : « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٨) ، أميرهم مَرْجان الحصني العادلي ، وذكر (السخاوي) في « الضوء اللامع » (١٠/ ١٥٣) أن سيرته لم تكن محمودة في إمرته للحج في ذلك العام .

(٣) راجع « هامش ٥ » من (ص ٦٨) من القسم الأول .

(٤) راجع (ص ٣٥٥)

وفي يوم الثلاثاء سادس عشريه وسَّط السلطان أربعة من الزُّغْلِيَّة في كوم الحاجب شق بهم الوالي القصبة مُسَمَّرِين ، ومعهم عبدٌ عُثر عليه يحرق بيت سيِّده .

وفي هذا اليوم ضرب تَمْراز الساقي أحدُ صغار الأشرفية في السِّن منصورًا [1] ناظر الديوان المفرد ضربًا مفرطًا ، وهو راكبٌ ، ثم أخذه إلى مكان وزاد في بهذلته ، فشكاه إلى السلطان ، فلامه السلطانُ ، وكان مقرَّبًا من خاطره قبل ذلك ، فحملته الدَّالة السابقة على أن أغلظ في جواب السلطان ، فقال له : أخرج . فقال : الآن تقول : اخرج ؟! كأنه يشير إلى حالة ركوبهم على المنصور ، وأنه في ذلك الوقت لم يكن يقدر أن يقول له ، ولا لغيره ذلك . ثم قال له : انفني . فقال له : أو ذلك مرادك ؟! فقال شخصٌ من الأشرفية ، يقال له قانَم طاز : إنْ نفيته فانفنا أجمعين فقال له : وأنت أنحس منه ، ثم قام من ذلك المجلس ودخل القاعة .

وفي يوم الخميس ثامن عشريّه خُلع على [بدر الدين [2]] بن البوشي بالحسبة [3] .

---

(١) هو : منصور بن الصفي بن القبطي ، وُلد بعد سنة ٨٣٠ هـ ، وكان أبوه من الكَتَبَة ، فنشأ ابنه على طريقته ، وخدم في بعض جهات المفرد ، ثم في ديوان الأمير قانم التاجر ، واتصل بالزين الإسْتَدَّار ، وتزوج ابنته ، ورقَّاه لنظر المفرد ، بل ولي الوزارة ، وترقَّى في أيام الظاهر خشقدم ، ثم قبض عليه وصادره وأهانه ، وحكّم فيه أعداءه ، ومات قتيلاً ، ضُربت رقبته تجاه الصالحية بحكم قاضي القضاة حسام الدين بن حُرَيْز المالكي ، يوم الأربعاء ٢٠ من شوال سنة ٨٧٠ هـ ، وسنه دون الأربعين .

له ترجمة في : « حوادث الدهور » (٥٢٢ ـ ٥٨٧ ـ ٥٩١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣٤٩) ، و « الضوء اللامع » (١٠/ ١٧٠ رقم ٧١٦) ، و « بدائع الزهور » (طبعة بولاق) (٢/ ٨٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (١٦٤) .

(٢) بياض في الأصل ، والتصحيح من « حوادث الدهور » (٣١٨) .

(٣) جاء في « حوادث الدهور » (٣١٨) أنه كان أحد كتاب العليق ، وتولى الحسبة بعد موت الحاج خليل المدعو قانباي اليوسفي المهمندار .

رئيس جامع طيلون

وفي يوم السبت سابع ذي القعدة من السنة مات شمس الدين محمد بن [١] ... ريّس جامع طيلون عن نحو تسعين سنة أو أكثر فيما أظن ، وكان له ذكر بين الناس بخفة الروح والقبول عند الأكابر ، لا سيما الترك ، وصلى عليه فى سبيل المؤمنى قاضى المالكية الحسام بن حُرَيْز فى جمع كثيرٍ من أعيان الناس رحمه الله ، وكان مسالمًا للناس ، حسن العشرة، وكان يشهر بالمستحل ، وخلَّف ابن أخٍ يُسمَّى أبا الفضل الغزولي .

وفي يوم الثلاثاء عاشره ، سافر الأمير بُردبَك الدويدار إلى طندتا في البحر في خمسة سفن ؛ ينظر في أحوال مقام الشيخ أحمد البدوي ، والجامع الذي تسبَّب في عمارته في وسط البلد عوضًا عن جامعها الذي كان بين القبور ، وبعيدًا عن البلد ، وكان يباشره له الشيخ إبراهيم المتبولي، ثم رجع ليلة السبت حادي عشريه ، وكان أولاد بقر ، قد بيّتوا جماعة بني الغياثي أحمد وحَشيشًا وآلهم في قرية الكراديس من الشرقية ، فاستباحوا ديارهم ، ونهبوا من الأموال ، النقود والأواني والثياب والمواشي، ما يأسف على مثله الملوك ، ربما قيل أنَّ ثمنه يزيد على عشرين ألف دينار، وذُكر أنهم نالوا من حريمهم ما لم يُذكر عن العرب مثله ، وقيل : أنّ سبب ذلك أن الأمير بُرْدُبَك لما ذهب قبل الإصلاح بين العربان أدْنى حَشِيْشًا بن الغياثي وأجلسه ، وترك ابن بقر قائمًا ، ونهبوا بعض بلاد بني بقر ، فعظم ذلك عليهم ، وعنَّفهم النساء ، فزاد من تحرّقهم ، ففعلوا ذلك ، وكان أميرهم بقر غائبًا في نواحي دمياط .

فشكا ابنا الغياثي حالهما إلى السلطان ، فطُلب بقرٌ أمير البقرية فأتى ودار على الأمراء والمباشرين ، ثم طلع إلى السلطانُ يوم الخميس تاسع عشر هذا الشهر ، فاعتذر بأنّه كان غائبًا ، وأنّه لا ذنب له في هذا الأمر ، فقبل السلطانُ ذلك منه ، وعظَّمه ورفعه على ابني الغياثي وألبسه خِلعـــة

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، لم نجد ما يصححه في المصادر المتوفرة .

بالإمرة ، وعزل محمد [1] بن عجلان ، وذهب ابنا الغياثي ، فنسأل الله حسن العاقبة في هذا الأمر .

وفي هذا الشهر كثر الفساد برًّا وبحرًا في بلاد مصر والشام ، بحيث صار السفر في غاية الخطر ، ونُهب الناس في الأسفار وقبلوا [2] برّاً وبحرًا ، فكان من ذلك جماعة من التجار أُخذوا في البحر دون فُوَّة ، فشكوا [١٩١] حالهم إلى السلطان فأُعلم أنَّ الموضع الذي طُرقوا فيه ، بين معاملات غيث بن نصير الدين ، وحُسام الدين بن بغداد ، وجميل بن يوسف ، والرَّأى طلب الثلاثة للإلزام بأموال هؤلاء التجار ، فأُرسل إليهم ، فتأخر حضورهم إلى أن ظُن أنهم لا يأتون ، وأُرسل إلى ابن سابق أحد أمراء العرب بالغربية فقُبض عليه ، ووضع في مركب وسوفر به ، فلحق جماعته فخلَّصوه ، وزاد الأمر في الفساد أن قُطع على حمل السلطان المتعلق بالإسْتَدَّار فأُخذ ، وهو مائتا درهم أو أزيد ، وسُلب حاملوه وهم جماعة الزين الإسْتدار ، وزاد أيضًا أذى الأجلاب للتجار وجميع السُّوْقَةِ وأخذ أموالهم بالباطل .

وفي هذه الحدود أخذ بعضُ مماليك نائب الشام بنتًا بكرًا من أبيها في سوق باب الفرج [3] في دمشق فافتضوها ، ولم يوجد في ذلك مُغيث ، فشكا ذلك الرجل أمره إلى النائب ، فرفع من فعل ذلك من مماليكه إلى

---

(١) هو : محمد بن عجلان ، شيخ العرب ، يقول (السخاوي) : « وهو المعين للظاهر تَمُرْبُغا في خروجه من دمياط ، ولم يتم لهما أمر ، بل أُمسكا ، وأُودع هذا البرج مدَّة ، ثم أفرج عنه ، ومات ظنا في أول سنة ثمان وثمانين [وثمانمائة] ، أو أواخر التي قبلها » .

« الضوء اللامع » (٨/ ١٥١ رقم ٣٥٦) .

(٢) وقبلوا : قصدوا .

« محيط المحيط » (٧١٣) .

(٣) باب الفرج : أحد أبواب دمشق الشمالية .

« الدارس » (١/ ٧٧ هامش ٩) .

القلعة من غير ضرب ، فلم يُرْضِ الشاميين ذلك ، فرجموه ؛ فَذَلّ لذلك ذلاً كبيرًا وترضَّاهم ، ثم صار يريد الانتقام منهم ، فكان إذا وقع له منهم أحدٌ يُنْسب إلى فساد قتله من غير توقف ، وصاروا خائفين منه ، وهو خائف منهم .

فلم يبق موضعٌ في المملكة إلا طرقه البلاءُ إلاّ حلب وبلادها ، فإن السلطان لما أهان نائبها بها تقدم [1] من الكشف عليه ، وطلب خَزَنْداره وموقِّعه ، أرسل إليه إخوانه الأشرفية ، أنه لا ناصر لك منا ؛ فذلَّ لذلك ، وشرع في إصلاح ما أفسد فلم يقع له مُفْسد إلا أتلفه ، فأصلح ذلك البلاء بكل الإصلاح ، وصاروا في أمنٍ زائد ، بعد أن كان لا يقدر أحدٌ على المشي في جامع حلب بعد العشاء فضلاً عن الأسواق ، ولم يبق مُفسِد إلا طار ، أو أظهر الصلاح ، نسأل الله إتمام النعمة ، ودفع كل نقمة آمين آمين آمين.

وفي يوم الخميس هذا ، وهو تاسع عشر هذا الشهر ، أرسل شخصٌ من مفسدي الجند واحدًا من مفسدي أتباعه يُلقب بعنكبوت ؛ يأتيه بجريد لعمارة عنده ، فامْتَنَع عليه صاحبُ الجريد ؛ لكثرة أخذه منه بغير ثمن ، فضربه ضربةً كانت فيها روحه ، فقبض عليه من كان عند الجرائدي من النساء وغيرهن ، ثم أتى بالوالي فوضعه في المَقْشَرَة ، فأعلم به السلطان فأمر به إلى المقشرة حتى يُؤتَى به يوم السبت للقصاص منه ، فكتب أهل القتيل محضرًا عند بعض القضاة بقتله لصاحبهم وصَبَّروا صاحبهم ، وحلفوا أن لا يدفنوه حتى يُقتل قاتله ، فأُحضر يوم السبت حادي عشري الشهر إلى السلطان ، فكثر ثناء الناس عليه بكل شرّ ، من الجرأة على جميع المفاسد ، من خطف النساء والصبيان والأموال وغير

---

(١) راجع « ص٣٤٤ » .

ذلك ، وعلى المقتول بالخير ، فأمر السلطان بتوسيطه ؛ ففرح الناس بذلك فرحًا قلّ أن رُؤى مثله ، حتى زيِّنت غالبُ أسواق البلد ، وأوقِدت بها الشموع ، وزغرط كلُّ من مَرَّ به مُسَمَّرًا من النساء ، ووُسِّط في باب البحر على باب القتيل ؛ وذلّ به كثيرٌ من أهل الفساد ، وأراح الله منهم البلاد والعباد .

وفي ليلة الاثنين ثالث عشري ذي القعدة هذا ، مات الأمير تَنِبَك (١) أتابك العساكر المصرية ، ودفن من يومها ، وكان شيخًا كبيرًا ، لعلّه يزيد على ثمانين سنة .

وكان ناظر الخاص غائبًا في الخطَّارة (٢) ؛ لرؤية ما أتاه من الغنم من بلاد الشام ، فحضر ليلة الخميس سادس عشري الشهر .

[١٩٢] وفي بكرة الخميس المذكور ، خُلع على المقام الشهابي أحمد ولد السلطان بالأمْرَة الكبرى (٣) ، وأُعطى إقطاعه لأخيه المقام الناصري محمد (٤) ، وأُعطى إقطاع أخيه لجانِبَك (٥) المرتد ، ونزل بالخِلعة إلى بيته

---

(١) راجع « هامش ٤ » من (ص ١٦٢) من القسم الأول .

(٢) الخطَّارة : مركز من أعمال الشرقية ، وهو من المراكز الهامة للبريد .
« التعريف » (٢٤٦) ، و « الانتصار » (٢/ ٥٤) ، و « صبح الأعشى » (١٤/ ٣٧٧) .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٦) أتابك العساكر بالديار المصرية ، عوضًا عن الأمير تَنِبَك البُرْدبكي بحكم وفاته . راجع أيضًا « حوادث الدهور » (٣١٨) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٨) .

(٤) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٦) وصار محمد أمير مائة ، ومقدم ألف .

(٥) هو : جانِبَك الناصري فرج ، الأمير سيف الدين ، أحد أمراء العشرات ، ورأس نوبة ، ترقى بعد معتقه الملك الناصر فرج حتى صار خاصكيًا في دولة الأشرف برْسباي ، ثم ساقيًا في دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم تأمر عشرة ، وصار من جملة رؤوس النوب ، ثم أنعم عليه الأشرف إينال بإمرة طبلخاناة ، مات بطالاً بعدما شاخ في ذي الحجة سنة ٨٧١ هـ ، وقد جاوز الثمانين .
له ترجمة في : « المنهل الصافي » (٤/ ٢٤٢ رقم ٨٢٨) ، و « الدليل الشافي » (١/ ٢٣٩ رقم ٨٢٦) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣٥٥) ، و « الضوء اللامع » (٣/ ٦٠ رقم ٢٤٥) .

الذي بالمدينة إلى جانب بيت أبيه الذي كان ساكنًا به إلى حين السلطنة ، وهو عند حدرة الفيل ، ونزل معه أخوه المقام الناصري محمد ، والأمراء ، ولم ينزل معه المباشرون ، بل استمروا في خدمة السلطان وكان يومًا مشهـودًا .

وكان أجلابُ السلطان قد زاد شرّهم ، لا سيما في هذا العام ، فكانوا يأخذون من الأسواق ظلمًا وينتهكون حرمة ذوي الهيئات ، ثم تعدَّى شرُّهم إلى الحطب ، فكانوا لا يدعون مركبًا تأتي حتَّى يأخذون ما فيها ، أو أكثره إمّا نهبًا أو شِرىً بثمنٍ بخسٍ ثم يبيعونه في الحالِ بأغلى الأثمان ، سواء كانت تلك المركب لأمير أو غيره ، حتى فعلوا ذلك في مركب الأمير الكبير تَنِبَك هذا الذي مضى ذكره ، ثم أنهم تعرَّضوا للأمراء وغيرهم في ضيافات الأقطاعات من الإِوَزّ والدجاج وغير ذلك ، ثم في إطلاق البرسيم ، فكانوا يأخذون برسيم الإنسان ويبذرونه في الأرض التي كُتبت له ، ويسمونها لأنفسهم حتى فعلوا ذلك في هذا الشهر مع قَـرْقَماش الجَلَب الأشرفي ، رأس نوبة النُّوب ، وأخذوا غريمًا من بيت سودون قرقش المؤيدي رأس نوبة النُّوب ثاني ، فشكاهم قرقماش إلى السلطان ، فحاجز وفاة الأمير الكبير ، فقطع الكلام ، وكلَّم السلطان فيهم قانصُوه الأشرفي أحد الأمراء العشراوات ، فذكر له جميع ما يفعلونه ، وأنه لا أحد من الأمراء إلا وهو مملوء القلب منهم ، بحضرة الأمراء ، فأحال السلطانُ الأمر إلى مقدم المماليك ، وقطع المجلس بمثل ذلك من الكلام الذي لا ينفع ، فزاد العجبُ من ذلك .

فتأملت أنا الأمر وعرضته على ما أعرفه من حزم السلطان وشهامته ومروءته ونفرته من الشّرِّ وبغضه له ، مع شيخوخته وتجربته لعواقب الظلم ، فأشكل عليّ الأمرُ ، ثم ظهر لي أنه يحتمل أن يكون ذلك عن عَمْدٍ منه ؛ وذلك لأنَّ هؤلاء الطوائف هم أغوات الطباق ، فكانوا في

أوائل السَّلطنة غير ناصحين للسلطان ، فكنوا يغرون الأجلاب على أمورٍ يخصُّ ضررها السلطان وجماعته الإِخِصّاء به ، وزاد ذلك منهم إلى أن رجموا السلطان ، حتى لم يخلص منهم إلا بعد جهد على غير قياسٍ كما تقدم ، فلم يكره حينئذ وقوع الشر بينهم وبين سائر الطوائف ؛ فإنهم لا يخلصون له إلا بذلك ، لكن لا عذر له عن عدم كفه لهم عن أذى الضعفاء وفقه الله لما يرضيه ، وقيض له بطائن الخير ، وأبعد عنه بطائن السوء آمين .

موت الشيخ علي المحتسب

وفي ليلة الجمعة سابع عشري الشهر مات الشيخُ علي [(١)] العجمي المحتسب ، المعروف في بلاده بيار علي ، بالخانكة عن نحو ثمانين سنة فيما أظن ، وكان شافعي المذهب ، يحفظ من الروضة شيئًا ، ومن تفسير [(٢)] الإمام فخر الدين كذلك ، ومن غير ذلك ، ويذاكر به ، يرى أنه من طلبة العلم ، وطال أطول الناس في هذا الزمان وكان لما ورد من بلاد العجم حصل بينه وبين الأمير [(٣)] سُودُون من عبد الرحمن ، صحبه في بلاد العجم إذ كان هاربًا بها ، فلما ورد يار علي إلى هذه المملكة وجده بها من أكابر الأمراء ، وكان قد بنى في مدينة الخانكة مدرسة فجعله شيخها

---

(١) راجع « هامش ٢ » من (ص ١١٤) من القسم الأول .

(٢) وهو : كتاب مفاتيح الغيب ، المعروف بالتفسير الكبير ، للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، جمع فيه كل غريب ، وتوفي ولم يكمله ، وصنف له الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ تكملة ، كما كمل ما نقص منه أيضًا قاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخويي الدمشقي المتوفى سنة ٦٣٩ هـ ، واختصره برهان الدين محمد بن محمد النسفي المتوفى سنة ٦٨٧ هـ ، وسماه الواضح ، ولخصه أيضًا محمد بن القاضي اياثلوغ .

« كشف الظنون » (٢/ ١٧٥٦) .

(٣) هو : سودون من عبد الرحمن الظاهري برقوق ، أتابك العساكر ، ونائب الشام ، مات بطَّالاً بثغر دِمياط يوم السبت ٢٠ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ .

له ترجمة في : « إنباء الغمر » (٩/ ٢٢) ، و « الدليل الشافي » (١/ ٣٣٢ رقم ١١٤١) ، و « النجوم الزاهرة » (١٥/ ٢٢١) .

ثم جعله وصيّه لما مات ، فحسنت حاله إلى أن صار يركب فرسًا إذا قدم إلى القاهرة ، لتعاطي ضروراته ، ولكن كان مع ذلك فقيرًا ، ولا سيما لما بعد الوقت من موت الأمير سودون ، وانقطع عنه رِفده (١) ، وكان إذا قدم القاهرة تقرب إلى بعض رؤسائها ، وكذا إذا قدم عليه أحدٌ إلى الخانكة ، وكانت بينه وبين المحب ابن الأشقر عداوة ، وكان يتردد إلى أمير آخور جَقْمَق ، وكان جقمق شديد البغض لابن الأشقر ، فلما ولى جقمق السلطنة قرَّب الشيخ علي ، فصار يتقرَّب إليه بما يحبه من ماله ونحوه ، فعظم عنده ، فنظرت إليه الأعين ، وقصده بعض الناس ، فعظمت دنياه ، وكان قبل ولاية الظاهر حوّط قُدَّام مدرسة سودون شيئًا يسيرًا يكون مانعًا [١٩٣] لمن ينزل هناك من المسافرين بدآ به من أذىً ، فهدمه ابنُ الأشقر ، فلما عظم الشيخ علي عند الظاهر أعاد ذلك على أوسع ماقدر عليه ، وبنى هناك أملاكًا ، من خانات ، ودكاكين ، وسكن ، وغير ذلك ، وسار في الخانكة سيرة حسنة ، استجلبت الناس إليها ، بحيث سكن الناس أملاكه ، واتخذوا إلى جانبها العمائر ، وازدحموا هناك ، حتى كادوا يغزوا ناحية ابن الأشقر ، وهي ناحية الخانقاه ، وبنى بابَي القصبة التي يسلكها المسافرون ، وهو كان سبب بناء غالبها ، فاستمرت العمارة ، حتى طبقت ما بين البابين ، واستمر يُعظَّم عند الظاهر ، حتى ولاَّه حسبة مصر القديمة ، فسار بها أحسن سيرة ، فضم إليه حسبة القاهرة ، فأحسن السيرة قليلاً ، ثم مد يده بلباقة ، فاتسعت دنياه ، وعظم شأنه ، وحصل لابن الأشقر بذلك ضرر ، وكانت بينه وبينه رَوْس (٢) ، وغَرَّمه أموالاً جمة ، ثم أخذ منه نظر الخانقاه ،

---

(١) رِفْده : الرِّفْد العطاء والصِّلة .

« لسان العرب » (٤/ ١٦٢) ، و « القاموس المحيط » (١/ ٣٠٦) ، و « محيط المحيط » (٣٤٣) ، و « المعجم الوسيط » (١/ ٣٥٩) .

(٢) رَوْس : جاء في « المعجم الوسيط » (١/ ٣٨٢) « الرَّوْس ، العَيْب ، وفلان رَوْسُ سوء، رجلُ سَوء » .

ومشيختها وكان في أيام حموله قد صنع فيها كان يتقرب به صورة حمار من تخطيط كتابة ، قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَانْظُرْ إلى حِمَارِك [1] ﴾ وجعل دائرة الواو دُبر الحمار ، فذكر ابن الأشقر ذلك ، وأغرى به من تكلّم فيه عند الظاهر ، وكانت حقيقة الظاهر ، أن لا حقيقة له مع أحد ، فأمكن منه ، فادُّعى عليه عند قاضي القضاة سعد الدين بن الدَّيري ، ثم خلص من ذلك ولم يحطّ من رتبته عند الظاهر ؛ لأنّه كان يبذل له من المال ما يُقبل بقلبه ، ويتقرَّب إليه بما يحبه ، فاستمر معظمًا حتى مات الظاهر ، ثم استمر بعده يقوم ويقعد حتى حصلت له علة لازمته شهوراً كثيرة ، فانتقل إلى الخانكة في محفة ، فتماثل ، ثم انتكس فمات ، وكان عارفًا بما يدخل فيه ، يجيد إتقانه ويمهر فيه في أقرب مدَّة ، وكان له كلامٌ سديدٌ ، وأجوبة ممتعة ، وخلّف ولَدَين رجلين ، يوسف وهو بِزَيِّ الجند ، ومحمد وهو بِزَيِّ الفقهاء رحمه الله .

وفي هذا الشهر ، أو الذي قبله مات الفاضل البارع محمد المسلاَّتي المغربي ، وكان شابًا قصيرًا ضئيلاً دميمًا أسمر خفيف اللحية ، وكان فاضلاً في النحو فائقًا فيه ، يتكلم في كتاب سيبويه ، وكان متقدمًا في المعقولات ، مشاركًا في الفقه ، فصيحًا ، قادرًا على استخراج ما يتكلم فيه من القواعد العلمية ، عارفًا باستعمال الآلات فيه ، جيِّد النِّظر ، مديد الباع في المناظرة ، وكان فقيرًا جدًا رحمه الله .

آخر المنادات على البحر

وفي يوم السبت ثامن عشري ذي القعدة ، وهو الموافق لعاشر بانه ، دار منادي البحر للوداع ، يخبر أن البحر استقرّ على ست عشرة إصبعًا من تسعة عشر ذراعًا .

وفي هذا الحد وصل شيخ الخليل السراج عمر بن الجعبري وقاضيها الشمس محمد ابن الشهاب أحمد الداري الشافعي ، وأخوه البرهان

---

(١) البقرة / ٢٥٩ .

إبراهيم وجماعة معهم في أمر الفتنة التي كانت ببلدهم في شهر رمضان ، وذلك أنَّ السلطان أرسل إلى نائب القدس ابن أيوب التركماني أحد مماليكه [كي يمسك [1]] المفسدين ، ويأخذ منهم دِيات القتلى ويرسلها إلى السلطان ويأخذ منهم للخاصكي ألف دينار ، وكان الغرماء ، قد طاروا في بلاد العشير ، وكان ابن أيوب رجلاً مفسدًا عاجزًا عن الإصلاح ، غير محب له ، محبًا في الفساد ، فقبض على أهل الخير ، ومن لا يقدر على النزوح ؛ لثقل ظهره بالعيال والوظائف ، فلم يجدوا إلاّ مرتباتهم في الحرم ، فتعجلوها ، فأرضوا بها الخاصكي ، وقدموا يشكون حالهم ، ويسألون الإمعان في تطلب المفسدين وتنقية بلدهم منهم ، ويشكون من ابن أيوب ، ويسألون في إقامة حاكم عندهم في الخليل ، ليكون حضوره رادعًا للمفسدين ، فأجيبوا إلى الأمر ، بتطلب الغرماء ، ورسم السلطان لابن أيوب أن يقيم عندهم بعض جماعته في عشرين خيّالاً ؛ لحفظ بلدهم ، والله تعالى المسؤول في تولِّي إصلاحهم ، وعلّلوا امتناعهم من إقامة حاكم في الخليل ، بأنه يحتاج إلى إقطاع ، فأشرت عليهم بأن يعطوه نظر وقف الخليل ، ويفردوه من نظر القدس ، فلم يقبل الذي أشرت عليه بذلك ذلك ؛ وعلّل بأنّ ناظر القدس عبد العزيز بن معلاق الرَّملي ، صاحب السلطان ، فهو لا ينقصه شيئًا مما هو متكلم فيه .

وفي يوم الاثنين مستهل ذي الحجة الحرام من السنة لبس المقام الشهابي أحمد خلعة بالأنظار الجاري عادة الأمير الكبير بها ، ونزل إلى المرستان ، وزينت له القصبة ، لا سيما ما قَرُبَ من المرستان ، وكان معه أخوه ، المقام الناصري محمد ، وابن اخته الناصري محمد بن الأمير بُرْدُبَك، وجميع الأمراء إلاّ بُرْدُبَك، ومن المباشرين، كاتبُ السرّ والإستدار، وترجل

(1) ما بين الحاصرتين غير واضحة بعض حروفه في الأصل ، والتصحيح من مفهوم السياق .

من المماليك من السيوفيين ، فمشوا أمامه ، ونثر على رأسه الذهب والفضة ، على باب المرستان لما طلع في تلك الدرج ، وكذا لما نزل ليركـب [1].

وكان مما افتتحه في مباشرته يوم الأحد تاسع عشري الشهر ، هدْم ما أُحدث قدام مدرسة [2] المنصور من دكاكين طبَّاخين ، وغيرها ضيَّقوا بها الطريق ، وأفسدوا بدخانها سقف المدرسة ، فشكر على ذلك .

وفي هذا الحدّ ، جاء الخبرُ أنّه أتى إلى المراكب التي أرسلها السلطان إلى الجون أربعةُ مراكب كبارٍ ، فيها زيادة على ألفٍ من الفرنج ، فاقتتلوا معهم قتالاً عظيماً وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، وقُتل من المسلمين أربعة أنفس ، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وقيل أنه انضم إلى الجند المصريين جماعةٌ من طرابلس ، وتلك البلاد فتقوَّوا بهم .

وفي هذا الحدّ ، جاء الخبر أن مركب الحريري ، (أحد التجار المصريين السُّفّارة في بحر القُلزُم) غرقت ، وغرِق فيها صاحب المركب الحريري ، وخلقٌ كثيرٌ ، ومالٌ كثير ، ولم يسلم ممن كان بها إلا دون الخمسين رجلاً .

---

(١) راجع « حوادث الدهور » (٣١٨) .

(٢) مدرسة المنصور : تقع من داخل باب المارستان الكبير المنصوري ، بخط بين القصرين بالقاهرة ، أنشأها هي والقبة التي تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي ، وهي عامرة إلى الآن ، وتعرف بجامع المارستان .

« خطط المقريزي » (٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) ، و « الخطط التوفيقية » (٥/ ٩٩ ـ ١٠١ ، و ٦/ ١٥) .

[١٩٤] وفي هذا الحد ، جاء الخبر ، بأن محاربًا [(١)] قتلوا كبراء لبيد [(٢)] ، فجردت لهم لبيد خَيْلَهم وَرَجِلَهُم ، وقدموا إلى البحيرة عازمين على إخرابها ، فجهز السلطان إليهم عسكرين من رؤوسهم : قانَم التاجر وهو أحد أمراء الألوف ، وَشرِباش كرد أمير مجلس ، وبازير الناصري ،

وكان تجهيزه لهم في أوائل ذي الحجة هذا ، ثم لم [يسافروا [(٣)]] من بر الجيزة حتى أرسلوا إلى السلطان أن يمدهم ، فإن العرب كثيرٌ ، فأمدهم بالأمير جانبك مُشِدَّ جُدَّة ، وبُردبك البَشْمَقْدار ، وكلاهما من مماليك الظاهر جقمق ، ثم أمدَّهُم أيضًا بجمع من مماليكه ، ثم لم تتحرر كثرة العرب ، فلم يذهب المدد .

وكان العيد يوم الأربعاء ، وحصل في مكة المشرفة اضطراب في الهلال أوجب وقوفهم بعرفات يوم الثلاثاء والأربعاء كما سيأتي عند قدوم بشير الحاج .

وفي أواخر ذي القعدة من هذه السنة ، خرج ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم إلى الخانكة لعرض الغنم التي جاءته من بلاد الشام

---

(١) محارب : بطن من هيب بن بُهْثَة من سُليم ، كانت ديارهم برقة ، ثم نزل مصر في العصور الأخيرة، قبل الحملة الفرنسية إلى مصر بحوالي قرن تقريبًا .

« العبر » (٦/ ٧٢) ، و « نهاية الأرب » (٣٧٠ ـ ٣٧١) ، و « قلائد الجمان » (١٢٨) ، و « معجم قبائل العرب » (٣/ ١٠٤٢) .

(٢) لَبِيد : بطن عظيم من سُليم ، مساكنهم أرض برقة ، ولهم أفخاذ متسعة ، وفي سنة ٨١٨ هـ أُجلى السلطان الملك المؤيد عرب البحيرة من زنارة وغيرها ، عن بلادهم لتغيّر أدركه عليهم ، وأسكنها عرب لبيد ، استدعاهم من بلادهم ، فأقاموا بها وعمروها .

« نهاية الأرب » (٣٦٦ ـ ٣٦٧) ، و « قلائد الجمان » (١٢٥ ـ ١٢٦) ، و « معجم قبائل العرب » (٣/ ٩ ـ ١٠) .

(٣) في الأصل (يسافرا) ، والتصحيح من مفهوم السياق .

للضحية السلطانية ، أخبر أنه أرسل في شأنها خمسة عشر ألف دينار ، فرجع وهو منحط البدن ، ولم يُبال بذلك ولا انقطع عن الركوب إلا من يوم الاثنين خامس عشر ذي الحجة هذا ، ثم كان كل ليلة يخرج إلىٰ أصحابه المعتاد بالإجتماع معهم في حوشه للحديث والأنس بهم كلَّ ليلة بعد المغرب إلى مُضي قطعة من الليل ، إلاّ ليلة الأربعاء وليلة الخميس ، فتواتر عليه القيءُ ، فمات في أواخر ليلة الخميس ثامن عشر ذي الحجة المذكور [1] ، فأصبح صهره إبراهيم بن الجيعان وأخوه عَلَم الدين فأخذا أولاده ، وطلعا إلى السلطان ، فأخبراه بذلك ، فاشتد أسفُه عليه وهو لعمري معذور في ذلك ؛ فإنه كان من عجائب الأرض ، كان لا يدهم السلطان أمرٌ إلاَّ خفَّفه عنه ، ولا يحتاج شيئًا إلاّ أسعفه به ، كائنًا ما كان ، نقل أنه وصل إلى السلطان منه ، من أوْل ولايته إلى هذا التاريخ ، نحو ألفي ألف دينار ، وعمر له تربته التي بالصحراء خارج باب النَّصْر ، وهي لا مثل لها بالقاهرة والحوش الذي أمامها والربع الذي بين القصرين ، وغير ذلك ، وكان لا يعمر أحدٌ من الأمراء والجند والأكابر من غيرهم في مصر شيئًا إلاّ كان كثير من أخشابه وغيرها منه ، ولا يُسافر أحدٌ إلاَّ وكان كثيرٌ من جهازه منه ، وجهز ابن السلطان وأمه خوند الكبرى وابنتيها امرأَتيَ دُويدارَيه ، وجمعهم الذي يعسر ضبطه إلى الحج بهيئةٍ ما سُمع في هذا الزمان بمثلها ، ولاقتهم إقامته ، من الأوز والدجاج ، وما يلائم ذلك إلى بطن مَرٍّ [2] أرسل ذلك في سنبوك [3] في البحر ، ثم كان

---

(١) راجع « هامش ٣ » من (ص ٧٤) من القسم الأول .

(٢) بطن مَرٍّ : هو مر الظهران ، موضع على مرحلة من مكة المكرمة ، وهو المعروف الآن بوادي فاطمة .

« معجم البلدان » (٥/ ١٠٤) ، و « بلاد العرب » (٢٤ هامش ١) .

(٣) سنبوك : نوع من السفن .

في كل مرحلةٍ أو مرحلتين يلقاهم شيء من ألطافه ، وكان مع ذلك كله ليست له مظالم فاحشة خارجة عن العرف كما يفعل غيره ، وكان لا يزداد على طول المراجعة إلا بشاشة وتبسماً ، وكان يفصل الأمور المهمة المتشعبة بأدنى شيء ، وهو مع لطفه وبشاشته في غاية المهابة ، بحيث أنه معدود لذلك في عتاه الجبَّارين ، يجلس أكابرُ من الجند في دست مجلسه الذي يقضي فيه الأشغال ، في دور القاعة ، وقليل منهم من يجلس في الإيوان الذي هو به ، وله من الصدقات ما يقضي منه العجب ، من الخبز والأطعمة التي تنقل إلى الحبوس والمحاويج من غيرهم في القرافة والمدينـة ، والنقود ، وغالب ذلك سِرٌّ ، حُكِيَ : أنّ الخبز عشرة آلاف رغيف في كل يوم .

ومن يوم موته صار المحابيس يخرجون من السجن ويُقعد بهم في السُّوق ، ينادون : الحبس ، والجوع ، يا أهل الخير ، ولم يكونوا في أواخر أيامه يفعلون ذلك ، وحكيت ذلك لبعض الرؤساء لعله يتشبه به في ذلك فما اكترث .

وله من الآثار في تمهيد الطرق الصعبة ، كطريق القدس والخليل ، والخانات المحتاج إليها كخان أسدود ، والخطارة وغير ذلك شيء كثير .

ولا يذكر أحدٌ في مجلسه بسوء لمجرد الغيبة أصلاً ولو أنه أعْدَى أعدائـه ، ولا يلتفت إلى من يتكلم فيه ويؤذيه ممن لا يقارنه أصلاً ، ولا يظهر أنَّه سمع عنه شيئًا ، وهو مع ذلك ينصفه إذا لقيه ويقضي أشغاله ، بحيث يجد في نفسه الأمن منه نفسه ، ومن أن يُمَكِّن منه عدوًا بباطل ، ويتحمل كثيرًا من أقرانه ، غير أنه إذا تحقق من أحدهم عدم الرجوع مال عليه ميلة يُتَحدث بها وتكون عبرة للمعتبر ، وتستمر صولتها في القلوب دهرًا من أن يذكر ذلك ، أو يكترث به ، ثم لا يدعه يرفع له رأسًا أبدًا ، وإذا كسره ، يصير هو يرفده ولا يقطع نواله عنه ، وهو من أذكى بني آدم

وأقرائهم للخطوط ، وإن كانت معجرفة بفتح المطالعة الطويلة ، فيلمحها لمحة واحدة ، لعلها تكون أقلّ من ربع درجةٍ بمشاهدتي [١٩٩] ثم يطويها ، ويكلم حاملها فيها .

ولما قدمت من عمارة خان الفندق ، أعطيته المحضر الذي كتبته بعمارته ، بحضرة السلطان ، فقرأه (ولم يتأمله) قراءة حسنة ، لم يتلعثم فيها وكان بعض أصحابي من نواب القضاة قد رآه ، فقرأه مرتين ، فأقسم بالله ، أنّ قراءة ناظر الخاص له أوّل مرّة ، أحسن من قراءة ذاك في المرّة الثانية .

وكان يجلس بحضرة السلطان الملك الأشرف إينال ، وله عنده من العظمة ما لا مزيد عليه ، بحيث أنّه لا يقضي لأحدٍ شغلاً إلا بواسطته ، لا من الترك ، ولا من غيرهم ، فكان كلُّ الناس إلى بابه .

مع أنَّه كان معظمًا عند الظاهر ، على أنّه كان يودُّ لو أهلكه ، وكان يريد عزله فلا يقدر ؛ لكثرة أعوانه من الجند وغيرهم ؛ ولأنه لا يجد له زلَّة تقتضي ذلك .

وأوصافه لعمري كثيرة في الدهاء ، مع مَن يُداهِيه ، والعشرة الحسنة لمن يعامله بمثلها ، وأحسن ما فيه أن مجلسه سالمٌ من الغِيبة ، وأنه لا تستخفه النميمة ولا يقبل الباطل من أحد ، وأن عَدُوّه الذي لا يُقارنه منه في أمان ، وأمّا القتل فلا يعرج على قصده ، ما أذاه أحدٌ ما أذاه أبو الخير النَّحَّاس ، ولما كسره كان يتفقَّده بالإحسان في طرطوس وبعدها ، وكان قادرًا على قتله بأهون سَعْي ، وكان شديد التخوّف منه ، ولم يقتله .

والحاصل أنّا ما رأينا رئيسًا يُساويه ، ومع ما أوتى من إقبال الملوك ، والتمكن لديهم ، فعنده كفٌّ شديدٌ عن الشّر ، ولم يكن يقرب الأشرار ، ولا يميل إلى أحدٍ منهم ، وإذا غلط في بعضهم ثم انكشف له رجع عنه ، ولم يلزم غلطه كما هو عادة أهل الزمان لئلاّ ينسب إليهم خفه .

غير أنه كان يُنقل عنه أشياء من مساعدة النصارى ، ربما تدل على الكون معهم ، ونُقل عنه نقلاً خفيًا جدًا جدًا أنه كان يتردد إلى الكنيسة ، ويجتمع بالبترك ويؤيد ذلك أن أمه كانت نصرانية ما استسلمها إلا الظاهر جقمق ، ويقال : أنها على ما كانت عليه ، وأنه كان يفارق المجتمعين عنده كل ليلة من غير أن يُصلي العشاء ، وأعظم مؤيِّدات ذلك ما حدثني شيخنا علاَّمة الزمان وناقده ، أبو الفضل محمد بن العلاَّمة القدوة أبي عبد الله البجائي المغربي المالكي المعروف بالمشدَّالي ، أنه كان جالسًا عنده فرأى في حجره ورقة صغيرة استنكرها ، ورآه قد أخذه فكرٌ عظيم في أمرها ، فلما قام غفل عنها ، فسقطت من حجره فأخذ شيخنا بسرعة وخفة ، وانصرف عَجِلا فإذا فيها ما صورته بخط ضعيف غير معهود .

هو الفتاح

كان قولنا أن تكون صحبتنا

إلى آخر العمر لا إلى شهر

أو إلى سنة وكا قولنا

أن يكون بيننا أُبُوّة

وبنوّه

عمر دولت بالأمين

(كذا كتب وكاقولنا ، ولم يكتب بها نونًا ، وهي وكان قولنا) ، وقد أراني شيخنا تلك الورقة فرأيتها على هذه الصورة ، قال شيخنا ، فظننت أنها من البترك ، قال : فتلطفت بإرسال امرأة ، سألت البترك في حاجة ، فكتب لها ما صورته :

الخلاص للرب

صدرت هذه البركة للأمينة المباركة

واستمر على تلك الصورة التي في ورقة ناظر الخاص ، فتأكد الظن أنها منه والله الهادي ، وكان ناظر الخاص ، لكثرة ما رأى من المصائب وعاداه من الرِّجال ، وعانى في حفظ جاهِه ومنصبه ، لما عنده من الشهامة والأَنَفَة ؛ قد حصلت له أمراضٌ كثيرة ، منها فتقٌ قريب صدره ، وخرج له منه شيءٌ كهيئة الخرَّاج ، وكان يُقال أنه دَبَلَه [1] ، وأنها قاتِلَته .

وكان ربْعةً إلى القصر ، وإلى الرِّقَّة ، إلاَّ أنه حلو الشكل ، حسن الكلام ، خفيف الروح ، وكان يلثغ في الراء لثغة خفيفة [١٩٦] ، وكانت عمامته في غاية الكبر لِبَرْدٍ في رأسه ، ولحيته حسنة ، ولم يكن في عصرنا رئيس إلاَّ وله أضدادٌ يقاومونه في بعض الأشياء وإن كان أعلى منهم إلاّ هذا فإنه كان في الرئاسة نيِّفًا وعشرين سنة كان في أكثرها بلا مقارب في الرئاسة ، ومع ذلك ، فكانت تمر عليه أوقاتٌ يتمنى فيها الموت لوصوله في الرئاسة إلى حدٍّ لا يُعرف شيء من تعلق المملكة إلاَّ منه ، مع تسخط كثير من الرؤساء عليه ؛ لعجزه عن إرشائه ، وعدم سماحه بأن يكل الأمور إلى غيره ، ويتبرأ منها ، إلى أن مات ، وهو أسخط ما يكون على الدنيا عن نحو خمسين سنة فأُفّ لرئاسة هذا وصفها .

ولما مات توفَّرت دواعي الناس لرؤية جنازته ، فما رأيت يومًا كان أكثر زحامًا منه ولا اجتماعًا إلاَّ في جنازته ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حَجَر ، لكن ذاك كان على أحسن ما يكون من النظام والسكون ، وهذا على أسوأ ما يكون نظامًا ، وأشد ما يكون هرجًا ومرجًا وجلبة .

كانت الطرق لا تنشق من كثرة الناس ، في كل سكة خلقٌ لا يحصون ما بين ماشٍ وساعٍ وراكض وغيره ، بعضهم ذاهب ، وبعضهم آيـــب ،

---

(١) دَبَلَه : أي ملأ جسمه .
« المعجم الوسيط » (١/ ٢٧٠) .

والكلُّ في شأنه بحيث كان أعظم من الجَمْع في يوم المِحْمَل ، وهم في غاية الاختلاط ، زمرَة عوام ، وزمرة خواص ، إلى جانب الأمير الفقير ، وإلى جانب الفقيه السَّفيه ، وإلى جانب المشاة الرّكاب ، ونحو هذا من الاختلاط على غير نظام ، بحيث لا يأمن الماشي من دوْس الراكب له ، وأما الدكاكين وشبابيك المدارس والأسطحة ، فضاقت عن الناس ، نساءً ورجالاً ، ولما وصلوا به إلى مصلى باب النصر كان الناس قد ازدحموا حتَّى لم يبق للجنازة ممر ، فجاء من قدّامه من الجند فرجموا الناس ليُمَر بجنازته، فكاد كثيرٌ من الناس يُقتل ، وسقط بعضهم على الأرض ، ثم وُضع في الشارع ، الذي قدَّام مدرسة الحاجب ، وصلى عليه قاضي الشافعية العَلَم صالح البُلْقيني ، وكان مريضًا إلاَّ أنه لم يسعه التخلف ولم يستطع كثيرٌ ممن حضر الصَّلاة ؛ من شدَّة الزِّحام ، وكان ذلك ضحوة يوم الخميس المذكور ثامن عشر ذي الحجة المذكور ، ولما حُمِل كاد الناس يقتل بعضُهم بعضا عند الركوب ، ثم شيَّعه كلُّ من حضر إلى التربة التي جدَّدَها قدَّام تربة السلطان الأشرف إيْنال ، وكاد كثيرٌ منهم يُقتل عند الدخول في باب التربة ، ثم حصل هناك من الضجة ما علم الله أنه قلّ أن وُجد مثله ؛ كادت ترج منه الأرض ، وذلك ما بين قراءة وصراخ ولطم وبكاء وعجيج وتشبيب وتدفيف ، فما رأيت بعيني ، ولا سمعت قط شيئًا مثل ذلك ، من لم يعتبر به فلا عبرة له .

وانضمت الأرض على رئيس لم يترك بعده من يقاربه ، وأصبحت مصر ولا رئيس فيها ، ولا من يُتَوهم نجابته ، فلا قوة إلا بالله ، ونُقل عن خواصه أنه تشهد عند موته ، وأشهد على نفسه بالتوبة ، وأثنى غالب الناس عليه خيرًا ، وعظم تأسفهم عليه ، بل نُقل الثناء الحسن عليه من أعدائه .

وتحدَّ الناس ، بأنه مات مسمومًا ، وأن بعض أعضائه تزايل قبل أن

يُدخل قبره ، ثم سمعت عن بعض عقلاء خواصِّه ، أنهم لا يشكُّون في ذلك .

ورؤيت له منامات حِسانٌ جدًا فإن كان ما نُقل مِن قصة البترك صحيحًا ، فلعله مما ما نُقل من تشهده إن صحّ ، ورؤيت له منامات بضد ذلك ، والعِلْم عند الله تعالى .

وكنت في جمعة موته واقفًا في الميعاد على قوله : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ، الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) وعلمت أنّ الميعاد يأتي يوم موته في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ (٢) الآيات ، إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣).

ثم طلب السلطان صهره الأمير بُرْدُبَك وسأله أن يسِدَّ مسدَّه ؛ لأنه لم يكن أحدٌ يقاربه في قدرته على تحصيل المال ، وسداد الأمور برفق غيره ، فأبى ، فطلب إبراهيم بن الجيعان ، فأبى ، وكثرت الأقاويل ، ورفع المفسدون رؤوسهم ، واشرأبّ النِّفاق ، فسعوا في إحضار أبي الخير النحاس ، فأجيبوا ، وكُتبت المراسيم بذلك ، وجُهِّز القاصد بذلك ، واجتمع ابن الأقساسي الملقب بالمِخْلَع ، بابن السلطان ، وقال له : إن الذي كان يعطيكم ناظر الخاص قطرةً من بحر ، وأنا عندي في جهات بلاد الشام مائتا ألف دينار في كل سنة : في حلب خمسون ألف ، وفي طرابلس مثلها ، وفي دمشق مائة ألف ، وكان ناظر الخاص أرسل القاضي

---

(١) الأنعام/ ٢٠ .

(٢) الأنعام/ ٢١ .

(٣) الأنعام/ ٣٢ .

نور الدين [١] البَـرْقي ، أحد نواب الحنفية ، وكان أحد خواصه إلى بلاد الشام ، ليضبط له تركة ابن خالته الشرف موسى ، ناظر جيش طرابلس ، فلما مات ناظر الخاص خُيّل السلطان من البَرْقي ، وقيل له : إن ناظر جيش طرابلس كانت في [يده [٢]] جهات ، كانت عادتها في كل سنةٍ ثلاثين ألف دينار ، فكان ناظر الخاص إنما يأخذُ من خمسة عشر ألفًا ، وله عشرون سنة ، فتوفر للسلطان في هذه المدَّة ثلثمائة ألف دينار ونحو هذا ، وحسَّن للسلطان الإرسال بالتضييق على البَرْقي ، فرسم أن يُوضع في زنجير وأن يتوجه المِخْلَع ومعه شخصٌ من أطراف الناس ، وأشرارهم من جهة ماميه الذي كان توجه في أيَّام الظاهر بالكشف عن ابن عز الدين ، قاضي طرابلس ، وكان حصل له نكاية من ناظر جيشها . فساعد المِخْلَع الآن في مراده ، فرُسم أن يتوجها للقبض على البرقي ، [١٩٧] وابن الشرف موسى وخواصه وتقريرهم على الأموال ، ثم سعى في نقض ذلك [٣] ، واستقر الحال على أن يكتب إلى البرقي بتطييب خاطره ، والاستمرار على عمله والاجتهاد فيه ، وأن يقبض نائب طرابلس على جماعة موسى ، ويضيّق عليهم ويقررهم على التركة .

وكان ناظر الخاص قد عزل بدر الدين محمد [٤] بـن الشهـاب أحمـد

---

(١) هو : علي بن محمد بن محمد بن حسين بن علي بن أيوب ، نور الدين بن الشمس ، المخزومي القاهري الحنفي ، المعروف بابن البرقي ، ولد في جمادى الأولى سنة ٧٩٧ هـ ، بالقاهرة ، ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها في فنون مختلفة ، وناب في القضاء ، ولازم خدمة الجمال ناظر الخاص ، مات في ليلة الأحد ، مستهل جمادى الآخرة سنة ٨٧٥ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٦/ ١٠ رقم ٢٨) .

(٢) في الأصل (يدها) والتصحيح من مفوم السياق .

(٣) في « حوادث الدهور » (٣١٨) « وفي يوم السبت العشرين منه [ذي الحجة] رُسم بإحضار أبي الخير النحاس من طرابلس إلى الديار المصرية ، ثم بطل من الغد » .

(٤) ترجم له (السخاوي) في « الضوء اللامع » (٧/ ٧٩ رقم ١٥٨) ترجمة مختصرة ، لم يحدد فيها تاريخ مولده ، أو وفاته ، وقال عنه : « محمد بن أحمد بن محمد بن علي البدر أبو السعادات بن الشهاب المحلي .. نشأ فحفظ القرآن وكتبًا وعرضها عليّ في جملة الجماعة ، بل سمع مني » .

المحلي عن قضاء إسكندرية ، لما نُقل عنه من سوء السيرة وقبح السريرة ، منضمين إلى شناعة الصورة ؛ فإنه أسود الوجه رقيقه ، واسع العينين كأنهما بيضتان موحش المنظر ، فلا صورة ، ولا سيرة ، فلما مات ، فتح أبواب المظالم في إسكندرية ، ووعد بمالٍ يحُضرِه كبير ، فأعيد إلى قضائها ، ورُسم له بتحصيل ما سُمى من المال من جهات ناظر الخاص التي سماها .

وطلع الشرف الأنصاري بقوائم مضمنها أنَّ تركة ناظر الخاص تحتوي على سبعمائة ألف دينار ، وسأل أن يتكلم فيها ، وعليه تحصيل ذلك ، فقال أولاد الجيعان للسلطان : إنّ التركة تضم أكثر من ذلك بكثير ، ثم كُشف الأمر عن أنها تصل إلى ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، من ذلك نقد نحو مائة ألف ، والباقي أصناف .

وَجَبُن الناس عن الدخول في وظيفة نظر الخاص ؛ لمعرفتهم أنه لا يُرضى ممن يلي بعده إلاّ بمثل عمله ، وأن أحدًا لا يقوم بذلك ، ثم وَلِيَ الزين عبد الرحمن بن العَلَم سليمان بن الكُوَيْز نظر الخاص ، والشرف موسى التتائي الشهير بالأنصاري نظر الجيش ، وفيروز [1] الخزندار والزِّمام ، نظر الذخيرة ، وخُلع عليهم بذلك في يوم الاثنين ثاني عشري ذي الحجة هذا [2] .

---

(١) هو : فيروز بن عبد الله الطواشي الرومي النَّوروزي الزّمام والخازندار ، أصله من خُدَّام الأمير نوروز الحافظي ، وتنقل في الخدم من بعده ، فولاه الظاهر جقمق خازندارًا ، ثم زمامًا في سنة ٨٤٦ هـ ، وكذلك ولاه الأشرف إينال ، والمؤيد أحمد ، إلى أن مات في يوم الخميس ٢٤ شعبان سنة ٨٦٥ هـ ، وقد جاوز الثمانين .

له ترجمة في : « الدليل الشافي » (٢/ ٥٢٤ رقم ١٨٠٦) ، و « حوادث الدهور » (٥٦٢ ـ ٥٦٣) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ٣١٢ ـ ٣١٣) ، و « الضوء اللامع » (٦/ ١٧٦ رقم ٦٠٠) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٩٢) .

(٢) راجع الخبر في : « حوادث الدهور » (٣١٨) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٦) ، و « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٥٩ ـ ٦٠) .

وفي آخر يوم الثلاثاء ، ثالث عشري ذي الحجة هذا ، مات أبو الحسن الفُوّي ، من الزين الإِسْتَدّار فجأة ، وكان شابًا .

وفي يوم السبت ، سابع عشري هذا الشهر خُلع علي التقي أبي بكر بن مُزْهر ناظر الجوالي بمصر ، خِلعة بالنظر على جوالي الشام مع جوالي مصر ، والسَّفر إلى بلاد الشام ؛ لضبط تعلق ناظر الخاص ، فمنعه المقام الشهابي ولد المقام الشريف من السفر ؛ لئلا يفوت طلب المتكلمين لناظر الخاص في تلك البلاد بإذن السلطان ، لأن أمره كان بسعي أمه من الحريم ، فلما علم الدويدارية بذلك وقت لِبْسه الخِلْعَة ، لفتوا السلطان عنه ، فخلع الخِلعة في القلعة ، ولم ينزل إلى بيته إلى آخر النهار خجلاً من الناس ، وأظهر أنه أُكره على لبسها وأنه أقام في القلعة يستعفى فأُعفى [1] .

وفي هذا الحد وَلّى العَلَم صالح قاضي الشافعية ابنه فتح [2] الدين قضاء دمياط عن أبي البقاء بن كُمَيِّل ؛ وذلك أنه كان في دمياط بجاه الولي الأسيوطي أحد خواص ناظر الخاص ، فانمحت بذلك الرّسوم بموت ناظر الخاص ، فلم يتم له ذلك ، وأخذها منه ناظر الخاص الزَّين ابن الكُوَيْز .

---

(١) الخبر في : « حوادث الدهور » (٣١٩) ، و « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) .

(٢) هو : محمد بن صالح بن عمر بن رسلان ، فتح الدين أبو الفتح بن العَلَم البُلقيني الأصل ، القاهري البهائي الشافعي ، وُلد في يوم الأربعاء ١١ جمادى الآخرة سنة ٨٤٥ هـ بالقاهرة ، ونشأ في كنف أبويه ، وأخذ عن أبرز علماء عصره في الفقه ، والنحو ، والعربية ، والمنطق وناب عن أبيه فى القضا ، كما استقر بعده فى الخشابية والشريفية ، والقانيهية ، والبرقوقية ، وغيرها شريكًا لغيره ، مات في غروب يوم الجمعة ٨ رجب سنة ٨٩٢ هـ .

له ترجمة في « الضوء اللامع » (٧/ ٢٦٨ رقم ٦٨٤) .

وفي هذا الحد ، تقاتل جماعةٌ ممَّن نزح من عرب العائد [(١)] إلى بلاد ابن الغياثي في نواحي إطْفِيح [(٢)] وهم النّيْعام من عرب الطور ، كان قد حصل بينهم ، وبين ناس منهم يقال لهم بنو سليمان شرٌّ فارقوهم به ثم تبعهم بنو سليمان إلى ناحية إطْفِيح ، فناشدوهم في الرجوع فأبوا ؛ فاستعانوا الله عليهم ، فقُتل بينهم نحو مائتي رجل ، أكثرهم من بني سليمان ، فكلّم أميرهم بِيْبرَس بن شعبان في ذلك ، فاعتلّ بأنهم ليسوا في بلاده ، فلا لوم عليه إلاّ إنْ أخرجهم ابن الغياثي عن بلاده ، فرجعوا إلى بلادهم ليصلح بينهم ، فأجاب ابن الغياثي بأنّ على ابن شعبان البدار إلى كفّ أذاهم في طريق الطور الذي هو في دركه إلى أن يعمل هو الحيلة في إخراجهم عن بلاده ، فصار بنو سليمان يمنعون التجار من التردد إلى الطور ، وصار الناس على وَجَلٍ من ذلك .

وفي يوم الثلاثاء [(٣)] سلخ سنة اثنين وستين ، وُلِّيَ العلاء بن مُفْلح قضاء الحنابلة بدمشق عن ابن عمه البرهان بن الأكمل ، وكتابة السر بها عن القطب الخَيْضري .

يليه القسم الثالث
إن شاء الله تعالى

---

(١) العائد : وترسم أحيانًا « العائذ » ، وهم كثير في العرب ، أشهرهم بمصر عائد من جُذَام من القحطانية ، مساكنهم فيما بين بلبيس من الديار المصرية ، إلى عقبة أيْلة ، إلى الكرك من ناحية فلسطين ، وكان عليهم درك هذه الأماكن والحجيج حتى يصل العقبة .

« العبر » (٢/ ٢٥٧) ، و « مسالك الأبصار ـ قبائل العرب » (١٧٥) ، و « نهاية الأرب » (٣٠٤) و « قلائد الجمان » (٦٤ ـ ٦٥) ، و « معجم قبائل العرب » (٢/ ٧١٥) .

(٢) إطفيح : كانت من مدائن مصر القديمة ، تقع على يمين النيل ، وتعتبر بندر القرى المجاورة لها من مديرية الجيزة ، عمها الخراب زمن المماليك ؛ بسبب قربها من الجبل ، وتعرضها لغارات العرب ، واتخذها المطرودون والأشرار مركزًا لهم ، فأهلكوا فيها الحرث والنسل . حتى عاد لها الأمن والاستقرار في العهود التالية .

« الخطط التوفيقية » (٨/ ٧٧ ـ ٨٠) .

(٣) في « النجوم الزاهرة » (١٦/ ١٢٧) في ٢ محرم من سنة ٨٦٣ هـ ، راجع أيضًا « بدائع الزهور » (صفحات لم تنشر) (٦٠) ، و « الدارس » (٢/ ٦٠) .

الفهـارس العـامـة

١ـ فهرس الآيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

٣ ـ فهرس القوافي

٤ ـ فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٥ ـ فهرس الفرق والطوائف والأمم والقبائل

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(و)

(ى)

٦ ـ فهرس الأماكن والمواضع والبلدان

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٧ـ فهرس المصطلحات الإدارية والعسكرية والوظائف

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

٨ـ فهرس المصطلحات الفنية

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

٩ - فهــرس الغــزوات

١٠- فهرس أسماء الكتب

١١ ـ المصادر والمراجع

الأزدي : الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبد الله (ت ٤٨٨ هـ) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس .

القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م

الأسنوي : جمال الدين عبد الرحيم (ت ٧٧٢هـ)

طبقات الشافعية

تحقيق : عبد الله الجبوري

الرياض : دار العلوم ، ١٤٠١ هـ

الأصفهاني : الحسن بن عبد الله

بلاد العرب

تحقيق : حمد الجاسر ، و د/ صالح العلي

الرياض : نشر دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر

أطلس العالم

بيروت : مكتبة لبنان

ابن إياس : محمد بن أحمد الحنفي (ت ٩٣٠)

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور (تاريخ مصر)

ط ١ ، القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١١ هـ

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور (صفحات لم تنشر)

تحقيق : د/ محمد مصطفى
مصر : دار المعارف ، ١٩٥١م
البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزبه الجعفي (ت ٢٥٦هـ) صحيحه
تركيا ، استانبول : المكتبة الإسلامية ، ١٩٧٩م
البستاني : المعلم بطرس
محيط المحيط
بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٧م
ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٧٩هـ)
تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)
بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ؛ ١٤٠٠هـ .
البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي الخطيب (٤٦٣هـ)
تاريخ بغداد ، أو مدينة السلام
بيروت : دار الكتاب العربي
البغدادي : إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباني
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .
دار الفكر : ١٤٠٢هـ
البغدادي : إسماعيل باشا
هدية العارفين (أسماء المؤلفين وآثار المصنفين)
دار الفكر .

البغدادي : عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي (٤٢٩ هـ)

ـ كتاب الملل والنحل

تحقيق : د / ألبير نصري نادر

بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٦ م

ـ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم

ط ١ ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٣٩٣ هـ

البقاعي : برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر (٨٨٥ هـ)

عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران

مخطوط ، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

ابن البيطار : ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي (ت ٦٤٦)

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية

بغداد : مكتبة المثنى ، طبعة معادة بالأوفست

الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة (ت ٢٩٧)

سننه (الجامع الصغير)

تحقيق : إبراهيم عطوة عوض

ط ١ ، القاهرة : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٨٢ هـ

ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤ هـ)

ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي

القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٨٤، ٨٥، ١٩٨٦ م

ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي

تحقيق : فهيم محمد شلتوت
القاهرة : مطبعة الخانجي
ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (منتخبات منه)
حررها ، وليام ببّر
أمريكا ، كاليفورنيا : ١٩٣٠ م
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب
ابن تيمية : أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ)
منهاج السنة النبويّة في نقض كلام الشيعة القدرية
تحقيق : د / محمد رشاد سالم
ط ٢ ، الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٦هـ
الجاسر : حمد
المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (شمال المملكة)
الرياض : منشورات دار اليمامة .
الجبرتي : عبد الرحمن بن الحسن بن إبراهيم بن حسن (ت ١٢٣٧ هـ)
تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار
بيروت : دار النفائس
الجرجاني : علي بن محمد الشريف (ت ٨١٦هـ)
كتاب التعريفات
بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٥ م

حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله القُسطنطي الرومي الحنفي ملا كاتب الجلبي (ت ١٠٦٧ هـ)

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون

دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ

ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)

- تهذيب التهذيب

ط ١ ، حيدر آباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، ١٣٢٧ هـ

- إنباء الغُمر بأبناء العمر في التاريخ

ط ٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦ هـ

الحربي : إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن بشير (ت ٢٨٥ هـ)

كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة

تحقيق : حمد الجاسر

الرياض : ١٣٨٩ هـ

الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ)

معجم البلدان

بيروت : دار صادر ، ودار بيروت

الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧ هـ تقريباً)

كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار

تحقيق : د/ إحسان عبّاس

بيروت : دار القلم ، ١٩٧٥ م

ابن حنبل : أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ)
مسنده
لبنان : المكتب الإسلامي ، ودار صادر
الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩ هـ)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب
بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع
ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨ هـ)
- تاريخه
- بيروت : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
- مقدمته
تحقيق : د / علي عبد الواحد وافي
ط ٣، القاهرة : دار النهضة المصرية
ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
تحقيق : إحسان عباس
بيروت : دار الثقافة
دائرة المعارف الإسلامية
انتشارات جهان ، تهران - بوذر جمبري
ابن دقماق : إبراهيم بن آيدمر العلائي (ت ٨٠٩ هـ)
الانتصار لواسطة عقد الأمصار (في تاريخ مصر وجغرافيتها)

بيروت : المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)
سير أعلام النبلاء
ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة
الزركلي : خير الدين
الأعلام
ط ٣
زكي : عبد الرحمن (الدكتور)
القاهرة (تاريخها وآثارها) (٩٦٩ـ ١٨٢٥ م)
القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٦ هـ
السبكي : تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ)
طبقات الشافعية الكبرى
تحقيق : محمود محمد الطناحي ، وعبد الفتاح محمد الحلو
القاهرة : دار إحياء الكتب العربية
السخاوي : محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان (ت ٩٠٢هـ)
ـ الضوء اللامع لِأهل القرن التاسع
بيروت : دار مكتبة الحياة
ـ كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك
القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية .

ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة

القاهرة : دار نشر الثقافة ، ١٣٩٩ هـ

ـ الذيل على رفع الإصر (بغية العلماء والرواة)

تحقيق : د/ جواد هلال ، ومحمد محمود صبيح

مصر : الدار المصرية للتأليف والترجمة

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ)

ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة

تحقيق : أبو الفضل إبراهيم

ط ١ ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٧ هـ

ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان

حرره : د/ فيليب حتي

نيويرك : المطبعة السورية ، ١٩٧٧ م

ابن شاهين : غرس الدين خليل الظاهري (ت ٨٧٣ هـ)

كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

صححه : بولس راويس

باريس : المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤ م

الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت٥٤٨)

الملل والنحل

ط ٢ ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٩٥ هـ

الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ)

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع
القاهرة : مكتبة ابن تيمية
الصفدي : صلاح الدين خليل بن إيبك (ت ٧٦٤هـ)
كتاب الوافي بالوفيات
بيروت : دار صادر
الصيرفي : علي بن داود الجوهري (ت ٧٨٩هـ)
إنباء الهصر بأبناء العصر
تحقيق : د/ حسن حبشي
القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٧٠م
الضَّبِّي : أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ)
بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس
دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م
عاشور : سعيد عبد الفتاح (الدكتور)
العصر المماليكي في مصر والشام
ط١، القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٦٥م
العصامي : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكّي (ت ١١١١هـ)
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي
القاهرة : المطبعة السلفية ومكتبتها
ابن الفرضي : أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣ هـ)
تاريخ علماء الأندلس
القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م

ابن فضل الله : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحي العمري (ت ٧٤٩هـ)
ـ التعريف با لمصطلح الشريف
تحقيق : محمد حسين شمس الدين
ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨ هـ
ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى)
دراسة وتحقيق : دوروتياكرا فولسكي
ط ١ ، بيروت : المركز الإسلامي للبحوث ، ١٤٠٧ هـ
مسالك الابصار في ممالك الامصار (قبائل العرب في القرنين السابع والثامن)
دراسة وتحقيق : دوروتياكرا فولسكي
ط ١ ، بيروت : المركز الاسلامي للبحوث ، ١٤٠٦ هـ
الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)
القاموس المحيط
بيروت : المؤسسة العربية للطباعة والنشر
القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)
ـ صبح الأعشى في صناعة الأنشاء
نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية بالقاهرة
ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب
بيروت : دار الكتب العلمية
ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان

تحقيق : إبراهيم الأبياري
ط ١ ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٨٣ هـ
الكتبي : محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ)
فوات الوفيات
تحقيق : د/ إحسان عبّاس
بيروت : دار الثقافة
ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير (ت ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية
ط ١ ، بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٦٦م
كحالة : عمر رضا
ـ معجم المؤلفين
بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ومكتبة المثنى
ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة
ط٢ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٣٨٨ هـ
لسترنج : كي
بلدان الخلافة الشرقية
ترجمة : بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد
ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ
ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥) سننه
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
ط دار إحياء الكتب العربية

ماير : ل . ا
الملابس المملوكية
ترجمة : صالح الشيتي
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب
مبارك : علي باشا (ت ١٣١١ هـ)
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة
ط ١ ، القاهرة : المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣٠٥ هـ
مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)
صحيحه
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي
بيروت : دار إحياء التراث
المعجم الوسيط
ط ٢ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٣٩٣ هـ
مفتاح : رمزي (الدكتور)
إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطّارية
ط ١ ، القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٧٢ هـ
المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ)
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)
بيروت : دار صادر

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا
تحقيق : د / جمال الدين الشيال
القاهرة : ١٣٨٧ هـ

- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب
مراجعة : إبراهيم رمزي
مصر : مطبعة المعارف ، ١٣٣٤ هـ

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرَّم الأنصاري (ت ٧١١هـ)
لسان العرب
نسخة مصورة عن طبعة بولاق بالقاهرة

مؤنس : حسين (الدكتور)
أطلس تاريخ الإسلام
ط ١ ، القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤٠٧ هـ

النديم : أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق الوراق (ت ٣٨٠هـ)
كتاب الفهرست
تحقيق : رضا تجدد

النعيمي : عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ)
الدارس في تاريخ المدارس
القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية (١٩٨٨ م)

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٣هـ)
نهاية الأرب في فنون العرب
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب بمصر

هازارد : هارى . و

أطلس التاريخ الإسلامي

ط جامعة برنستون ، ١٩٥٤م

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ أو ٢١٨هـ)

السيرة النبوية

تحقيق : مصطفى السقا وآخرون

ط ٢، القاهرة : ١٣٧٥هـ

١٢ـ فهرس الموضوعات



رقم الإيــداع
٩٣/ ٥٣٢٤

عربية للطباعة والنشر
٧، ١٠ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٠٣٦٠٩٨